تراثنا

آثار باحثة البادية

ملك حفني ناصف

١٨٨٦ - ١٩١٨

جمع وتبويب

مجد الدين حفني ناصف

تقديم

الدكتورة سهير القلماوي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تراثنا

آثار باحثة البادية

ملك حفني ناصف

١٨٨٦ - ١٩١٨

جمع وتبويب

مجد الدين حفني ناصف

تقديم

الدكتورة سهير القلماوي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

للدكتورة سهير القلماوى

رأت وزارة الثقافة والإرشاد القومى ـ فى عهد الثورة العربية ـ أن من واجبها أن يعرف الجيل الحديث خطوات نهضته منذ بدأت على حقيقتها ، وأن يدرك رسالة رواده على كمالها ، وأن يلمس ضوء الشموع التى أنارت له الطريق شمعة شمعة . ففى هذه المعرفة ضمان لأن تسير خطى الرقى والتقدم فى سبيلها الواضحة وعلى دربها السوىّ . لذلك رأت الوزارة أن تنشر من آثار هؤلاء الرواد أمثال السيدة « ملك حفنى ناصف » لتكمل صورة رسالتها ، ولتتم المعرفة بكل نواحى جهادها . ذلك أن جهاد الأُوَل ليس خطوات نستفيد منها فى أننا نستطيع أن نسير إلى ما بعدها فحسب ولكنها خطوات تعين بخط سيرها ، الذى سارت فيه ، منهاج المستقبل وخطة الغد .

ولقد أسعدنى أن كلفتنى الوزارة بكتابة مقدمة لآثار هذه الرائدة التى تنشرها ، والتى جمعها الزميل والأخ « مجد الدين ناصف » ، فالحديث عن ملك حفنى ناصف فى حد ذاته ليس متعة فحسب ولكنه فائدة عظمى ، ودرس لا يمكن إلا أن يكون موحيا فى كل ظرف وزمان . م ؟

١٩٦٢/٧/٧

سهير القلماوى

ملك حفنى ناصف

١٨٨٦ – ١٩١٨

الزمان

لا تظهر قيمة جهد المصلحين إلا إذا تأملنا الحال قبل دعوتهم ، ثم تأملناها بعد أن أثمرت هذه الدعوة بشكل أو بآخر . لذلك لابد لنا من أن نلقى نظرة عامة على أحوال المرأة فى النصف الثانى من القرن الماضى لنرى إلى أى حدّ أفلحت دعوة قاسم أمين وباحثة البادية فى تغيير الحال . ولا يمكن لدعوة إصلاح ، مهما يكن شأنها ، أن تقتصر جدواها على الزمان القريب أو التغيير المباشر الذى أحدثته . إن ثمرات الإصلاح ، مهما صغرت ، لبنات فى البناء يأخذ كل منها مكانه ويشد بعضه بعضا فى سبيل ارتفاع البنيان الشامخ : بنيان كمال الإنسان وسعادته . وآثار كل دعوة إصلاح هى لبنات فى كل ما وصلت إليه المرأة اليوم وكل ما ستصل إليه غداً فى سبيل أن تُمكَّن من أن تؤدى دورها الرئيسى فى الحياة : أن تسعد نفسها وتسعد مَن حولها وتسعد جيلا لاحقاً بكل ما يمكن أن تتقن من عمل ، وأن تقدم من صبر ودأب وتضحية .

فى فجر القرن الماضى سافر مصلح عظيم مع أول بعثة دراسية أوفدها محمد على للتعليم فى فرنسا ، هو رفاعة الطهطاوى . وكان السبب الرئيسى الذى مكّن لهذا المصلح من أن يكون مصلحاً ، هو أنه كان يمثل التيار المصرى الصميم والتعليم الأزهرى العربى الإسلامى خير تمثيل . فاحتكت فى نفسه وفى عقله ثقافة عربية ، عميقة أصيلة ، بثقافة فرنسية عصرية راقية ، بعيداً عن التيارات السياسية والمطامع الإمبراطورية سواء من خلفاء نابليون أو من محمد على وخلفائه .

وإذا هذا الاحتكاك المعكوس – على نفس ذكية وقلب مخلص – ينتج ثمرته الطبيعية الشرعية وهى التعديل والاقتباس والنقل ، بشرط ألاّ يمسّ الجوهر الأصيل والكيان الأساسى المكين ، بل إنه ليعتمد على بعث هذا الجوهر والكيان وصقلهما .

وفى « تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز » وهو تقرير الطهطاوى عن الرحلة يبرز أمران هامان : أما الأول فنظام الحكم ، وأما الثانى فالأحوال الاجتماعية وعلى قمتها أحوال المرأة . واضطهد الطهطاوى لسبب ما أشاع من رأى يقرر حق الشعب فى إدارة الحكم فى بلاده مؤيداً ما رأى فى فرنسا ، وما شاهد بنصوص واضحة من الدين الحنيف ، وأمثلة باهرة من التطبيق الإسلامى التاريخى . ونُفى الطهطاوى إلى السودان ، وعاد فكلفه أحد الأمراء بكتابة كتاب لإرشاد المعلمين فى مدارس البنات والبنين ، وكان إسماعيل قد فتح أول مدرسة للبنات بعد مدرسة القابلات فى عهد محمد على . وفى كتاب «المرشد» تعرض الطهطاوى مرة أخرى إلى الناحية الاجتماعية بتوسع ، وعالج أوضاع المرأة ، ونادى فى حماس وقوة بوجوب تعليمها ، بل نادى بوجوب أن تعمل بعلمها إذا فقدت عائلها ، ولكنه اعترف بقيدها وحبّذ حجابها ونظر إليها – وما كان يمكن أن يفعل إلا ما فعل – على أنها مخلوق مكمل لوجود الرجل ناقص بذاته وإن حُمّل أقدس الرسالات وهى رسالة تربية النشء الجديد . رسالة يراها أصعب المهمات ، ويخص المرأة بها دون الرجل ، ويطلب للمرأة من الإعداد – تعليما وتربية – ما يؤهلها للقيام بهذه الرسالة الكبرى.

كان الطهطاوى أول صوت فيما أعرف نادى فى مصر الحديثة بوجوب تعليم البنات ؛ ودفع الحجج السخيفة الواهية التى كانت تقول : إن تعلمت المرأة فإنها تتقن كتابة خطابات الغرام ، بل دافع عن وجوب تعليمها كل علم ممكن ؛ لأنه من يدرى ، فقد يموت عائلها وتضطر إلى العمل ، فلابد من أن تسلح

لـكل احتمال . ولـكن أ كانت دعوة الطهطاوى رسالة أخذ على عاتقه أن يؤدى أمانتها ؟ إن الطهطاوى كان مشغولا بغير هذا ، على جسامته ، وكان قد بلى من الظلم والاستبداد ما جعله يصمت آخر أيامه . لقد استطاع قلمه أن يستمر فى ترجمة رواية «تلماك» التى ترسم صورة الحاكم العادل العارف بحقوق شعبه ، واستطاع قلمه أن يستمر فى الدعوة إلى إصلاح أمر المرأة فى ضوء ما رأى فى باريس . ولـكن ماأخفت صوت الرواية المترجمة وإن وضح فيها الرمز ، وما أبهت صورة الممثل الفرنسى الذى أعجب به أيام الرحلة فى كتاب المرشد الأمين ! إن تقرير الرحلة قد رسم المرأة الباريسية بصورة واضحة بكامل عيوبها وكل حسناتها ، لتأخذ المصرية منها ماتأخذ ، ولتدع ماتدع على أساس من الشرع سليم ، وتقرير الرحلة نقل أجزاء صريحة من الدستور الفرنسى من «الشارطة» بل نقل صورة عزل «شارل العاشر» لأنه استبد بشعبه بأصرح بيان وأوضحه . ولـكن بعد أن سارت مصر شوطاً نحو التقدم جاءها سدّ الاستبداد والظلم المنيع ، ليحول دون تدفق الحياة الطبيعية ، وأصيبت الحياة بشلل وأصيبت دعوة الطهطاوى فى السياسة والإصلاح الاجتماعى بشلل أيضاً ، فنامت دعوة إصلاح أحوال المرأة طويلا .

لقد تحمس الطهطاوى ، بالقدر الذى يسمح به زمانه ، للإصلاح الاجتماعى ولتعليم المرأة . ويكفى أن نقرأ فى الرحلة مقارناته العديدة بين نساء مصر ونساء فرنسا فى المظهر والتصرف والعادات ، لنرى إلى أى حد كان الموضوع يشغله ، ولـكن يكفى أن نقرأ المرشد لنعرف إلى أى حدّ ركز كل الأمر فى موضوع وجوب تعليم المرأة .

ولـكن من هى المرأة التى نادى الطهطاوى بوجوب تعليمها ؟ إنها المرأة فى القاهرة . المرأة المصرية التى عرفها بعد أن ترك القرية ، إنها المرأة التى يمكن

أن تبدأ بالإصلاح . ترى كيف كانت ساكنة القاهرة ؟ وفيم كانت تختلف عن فلاحة القرية ؟ إنها هنا وهناك نصف إنسان ، مخلوق خلق ليكمل دور الرجل فى الحياة ، لا ليكون له دور إلى جانب الرجل . إنها إنسان محكوم عليه فى المدينة ألا يرى النور إلا مرتين ، لا بل مرة واحدة : يوم تخرج من بيت أبيها إلى بيت الزوج ، ثم يوم تخرج — حيث لا ترى شيئاً — محمولة إلى القبر . أما فى الريف فإنها تخرج للعمل فى الحقل ، ولكن لا حق لها فيما تكسب ، إنها تأكل بعد زوجها وتسير وراءه حاملة أطفاله وأطفالها على بعد خطوات منه . ونتيجة لقطع الأسلاك بينها وبين حقيقة الحياة من حولها ، أظلم عقلها ، وشلّت يدها ، وفقدت الاهتمام إلا بإرضاء السيد المتصرف فى أمرها . إنه قد يدللها ولكن كما يدلل الحيوان الحبيب الأليف ، وقد يبطش بها إذا كان له فى البطش لذة . إذا سارت وفق هواه فلها الحق فى البقاء فى بيته ، وإلا فما أيسر الطلاق ، وما أيسر أن تُستبدل بغيرها بل إنها قد تكون مؤدية لما يطلب إليها ولكن السيد يريد أن يمتع نفسه بزواج غيرها فيتزوج ويتسرى ، فالأبناء أبناؤه وما دام قادراً على الإنفاق فمن ذا الذى يحاسبه !

ويصف بعض الرحالة الأجانب شيئاً من أحوال المرأة فى القاهرة آخر القرن الماضى : تلك التى إذا سارت فى الشارع بدت وكأنها خيمة متحركة على حدّ تعبيرهم ؛ بيتها — فى الأغلب — لا نظام فيه ولا ذوق بل لا نظافة . لقد فقدت بحكم الجهل المسيطر على عقلها لذة الاهتمام بالبيت الطعام أهم ما يشغل نهارها ، أما الأبناء ففى بيوت سراة التجار متروكون للخدم والإماء ينشئونهم على خير ما فى أخلاق العبيد من ذلة وخوف . والبيت كله فى الأغلب والأعم مرجل يغلى بالضرائر ، وسلاح الطلاق مسلط عليه ، والأقارب والأبناء غير الأشقاء والسرارِى يعيشون فى معمعة ، وعلى قمة الجبل فى ميدانها رجل مفروض فيه أن ينفق وأن يحكم ، فهو ينفق حسبما يروق له ، ويحكم قدرما يستطيع !

لذلك لم يكن من السهل أن تطل بارقة أمل على حياة المرأة فى هذه البيئة، إلا إذا تجاوزنا البيئات المصرية الصميمة إلى بيئات كانت وافدة دخلت الحياة المصرية وتأقلمت بها وأصبحت منها ثم كونت معالمها الجديدة. كانت بيوت النساء الشركسيات والكرديات والتركيات تكون الغالبية الكبرى من بيوت القاهرة، حتى ليقال إنه لم يعد هناك بيت إلا امتزج دم أهله بهذا الدم المسلم الجديد. وهؤلاء السيدات، لأنهن مسلمات، كُنَّ لا يحسسن غربة، لأنهن يعشن فى وطن إسلامى، وكل أرض للمسلمين وطن للمسلمين جميعاً. فى بعض هذه البيوت بدأت بعض طلائع النور على غير هدى ودون جذور تربطها بالتربة رباطاً وثيقاً. كانت بيوتاً إسلامية ولكنها كانت عربية بقدر، ومصرية بقدر أقل. فى هذه البيئة نشأت سيدة كعائشة التيمورية شاعرة تفخر بها النساء فى عصرها، وداعية إصلاح لأحوال المرأة. وعلى هامش هذه البيئة عاشت بعض كاتبات وافدات من الشام أمثال السيدة زينب فواز، وبحكم الدين المشترك واللسان المشترك استطاعت هذه الأمثلة القليلة أن تؤثر آثاراً ما على سطح الواقع الكثيف. فنادت بالتحرر وأنشأت الرسائل ولكنها لم تحمل رسالة ولم تعلن دعوة الإصلاح كما أعلنتها وأذاعتها «ملك». لذلك كان ظهور ملك «باحثة البادية» كاتبة وداعية ومصلحة من صميم البيئة المصرية حدثا هاماً فى تاريخ المرأة، وبشيراً بآثار أعمق وأقوى. قد تكون فى أصلها الأعلى قد خالط دم أسرتها دم إسلامى وافد، ولكنها بنت أبوين مصريين يعيشان فى بيئة مصرية صميمة، وإن تأثرت بما حولها فى بيوت من كانت تخالطهم ببعض المعالم الجديدة.

وجدير بأن نلاحظ أن باحثة البادية ظهرت إبان دعوة قاسم أمين الجريئة المخلصة القوية لتحرير المرأة، فكان لها فيها رأى، وكان لها منها سند. لقد دعت كما دعا إلى أن تحرر المرأة وإن سمت التحرر إصلاحا وسماه هو تحريراً.

وكانت أحوال المرأة ونظرة المجتمع إليها ومايقدمه المجتمع من خدمات أوحقوق ، كان كل هذا يحتاج إلى ثورة حقة . ولم يكن ثمت مناص فى الدعوة إلى هذه الثورة إلا أن ترتكز على أساس سليم يسلم به كل ذى عقل ، وهو تعليم المرأة . لقد جعل قاسم أمين تعليم المرأة واجبا لغايات ، وجعلت باحثة البادية تعليمها واجباً لغايات أيضاً ، وقد تكون غاياتها أقرب وأبسط ولكنها على كل حال كانت فى مستوى غايات قاسم شرفا ونبلا ، وإن لم ترتفع إليها شمولا واتساعاً ولم تنزل إلى أغوارها عمقا ودقة .

الميــــلاد :

فى بيت متواضع من بيوت الطبقة الوسطى من الموظفين الصغار ، وفى يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٦ كانت زوجة شابة تعانى آلام الوضع وتألم الألم الأكبر ، بينما المدينة كلها فى زينات وطبول لأن الأميرة ملك تزف إلى الأمير حسين كامل . وكان الأب الشاب الطيب القلب الذكى الفؤاد يدعو الله أن يلطف بزوجه فى هذه الساعة الرهيبة ، وتراوده الأحلام فى الوقت نفسه بهذا الصبى الجميل الذى سيولد له والذى سيكون بهجة للنفس وفرحة للقلب . و بين الدعاء والألم والأمل وُلدت الطفلة البريئة كما يولد مئات الأطفال فى القاهرة كل يوم ، ولكنها لم تكن كسائر الأطفال فى عينى والديها ، كانت بالنسبة إليهما موئل آمال كبار ومركز حب دافق ، لم يجدا ما يعبران به عنه إلا اقتران صورتها الحبيبة بصورة الأميرة العروس وهى تزف فى ابتهاج القاهرة وأفراحها إلى الأمير . إنها بنت السلطان فى الأقاصيص وسلطانة المستقبل فى عالمهم ، ولذلك سمياها « ملك » فلم يكن كالأميرة ملك فى ذلك اليوم رمز للجمال والبهاء والأمل .

ولم يحزن الأب لأن زوجته أنجبت أول ما أنجبت أنثى لا ذكرا كما كان

يرجو ويتمنى . لقد كان مثقفاً كأحسن ما يثقف الشباب فى عصره : علم غزير بالعربية فى الأزهر الشريف ، وعلم غزير بالعربية وبعلوم الحياة فى دار العلوم ، ثم مران بسيط فى خضم الحياة ولكنه أفاد منه الكثير . عمل مدرساً للعميان والخرس ، فألقى عليه العمل دروساً فى الصبر والإنسانية والمحبة ، ثم عمل سكرتيراً لشفيق منصور باشا أيام ولادة الطفلة العزيزة . ولكنه مالبث بعد ولادتها بعام — وكأنما قد فتحت أمامه أبواب النجاح بفألها الحسن — فإذا هو مدرس فى مدرسة الحقوق ، ثم موظف فى القضاء والنيابة بفضل مادرس من قانون على حسين رشدى باشا ، ثم مدرس بالجامعة ومشارك فى تأسيسها ، ومؤسس للمجمع اللغوى وغيره من الهيئات العلمية والثقافية .

وكان الأب معروفا بروح الدعابة والظرف وسماحة الطبع ووفرة العلم . كان مرحه لايفارقه حتى فى أحلك موضوعات التفكير ، ويكفى أن نذكر كيف كان يتندر مع حافظ إبراهيم لأنه كان سادس من وقف ليرثى الإمام الشيخ محمد عبده ، بينما كان حفنى ناصف خامسهم ، وقد مات الراثون الأربعة الأوائل حسب ترتيب وقوفهم للرثاء فى حفل التأبين .

مات الأول والثانى والثالث والرابع وجاء دور حفنى وكان حافظ السادس فقال لحافظ .

فلا تخش هلكا ما حييت وإن أمت
فما أنت إلا خائف تترقب
نخاطر وقعْ تحت الترام ولا تخف
ونم تحت بيت الوقف وهو مخرّب

والعجيب أن القدر راعى الترتيب فتوفى حفنى قبل حافظ . كما وقف حفنى فى رثاء الإمام قبل حافظ .

هذا الروح المرح الذى يستطيع أن يطلق الدعابة فى مثل هذا الموقف هو

الذى ورثته الطفلة الصغيرة من خصائص والدها ، فأنارت لها لمحة التناقض وومضة المفارقات — وهما أسس الفكاهة والدعابة — كثيرا من مغاليق الحياة ، ثم هو هذا الروح الذى أعانها على أن تحتمل ما احتملت وأن تشارك وتعاشر من كان من العسير أن يشاركهم إنسان فى أمر أو أن يعاشرهم . وكبرت الطفلة فإذا ملامحها ليست بذات جمال وإذا هى فى سمرتها .

ولم تكن روح السخرية والدعابة هو كل ماورثت عن أبيها ، لقد ورثت ذكاءه وطبعه السمح الطيب الإنسانى الودود ، ورثت ظرفه وحبه للناس وعطفه على الإنسان والحيوان ، ولكنها ورثت أشياء أخرى لا ندرى من أين جاءتها ، ورثت مزاجاً صفراوياً عصبياً كان أول مااسترعى نظر «مىّ» عندما رأتها لأول مرة ، وورثت صوتاً عطوفا مليئاً مؤثراً كان عونا لها فى ميدان الخطابة ، وورثت أيضاً ضحكة سمحة رنانة وصفتها «مىّ» بأنها « فضية كرنين البلور على البلور » .

هذه هى الطفلة التى أراد لها القدر أن تكون رائدة وأن تحمل من آلام حياتها الخاصة ماينير لها الطريق ، هذا الطريق الذى أرادته أن يكون سبيلا لأن تتجنب بنات جنسها مافرض عليهن مجتمع ظالم من هوان وعذاب .

الريادة :

وفى البيت الموفق السعيد عاش الأب مع زوجه وأبنائه بنات وبنين فى وئام وسعادة . ولكن القدر يأبى أن يتم سعادته لأحد فإذا الأم يقعدها المرض وإذا ملك منذ صغرها تتولى الكثير من شئون البيت وشئون رعاية الإخوة ، فهل كانت أهلا لذلك ؟ لقد دخلت المدارس وتفوقت فى الدرس ، وساعدها الحظ أن والدها قدّر قيمة العلم للفتيات فحضها عليه فإذا هى تبرز فى هذا الميدان ، وفيه تعرف ومنه يتصل ذكرها بين الناس وفى الرابعة عشرة من عمرها تقدمت لنيل شهادة

عامة هى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية . فكانت أول فتاة تنال هذه الشهادة العامة ، أى الأولى على أول دفعة بنات تنالها . وكان حريا بها أن تحجب وتمكث فى البيت لتقوم بعبء الأم المريضة ، ولتنتظر عريس الأحلام ولكن مرة أخرى يفيض الحب فى قلب الوالد الذكى الفطن فيشجعها على الاستمرار فى التعليم وتنال شهادة أرقى ، وتهوى التدريس فلا يصدها الوالد الكريم ، وتمضى تدرس فى مدرسة السنية .

شابة غضة العود تكلف بالعمل الشاق وهو التدريس ، والعمل الأشق وهو العناية بالأب والإخوة فتقوم على كل ذلك فإذا هى تقوى بالعمل الدائب شخصيتها ، وتنمى روح التضحية التى لا بد أن يمتاز بها الرواد فى كل ميدان .

وفى هذه الفترة هوت شعر المراثى فقرأت على والدها منه الكثير ، وشغفت بالمتنبى فأخذت عنه اعتداده بالنفس مما قوى شخصيتها فإذا هى تحس خصائصها العامة ، خصائص المسلمة العربية المصرية وخصائصها الخاصة ـ الأنثى المهضومة الحقوق ـ إحساسا قويا يدفعها دفعاً إلى أن تقتحم ميدان الدعوة .

تقول فى مساجلتها مع « مىّ » التى نشرتها لها جريدة المحروسة :

«أول ما حفظت من الشعر المراثى ، وأولها رثاء الأندلس ، وكنت فى حداثتى أقرأ كثيرا ديوان المتنبى وأعجب بنفسه الكبيرة ، وأظنه هو الذى عدانى فى ذلك وسمم آرائى ـ رحمه الله ـ إنى ألذ كثيراً بهذه العدوى » .

وفى كنف الأب تربت ملكاتها الأدبية كما تربت ملكات عائشة التيمورية من قبل فى كنف والدها . ولئن تكن والدة عائشة قد اقتسمت بناتها مع زوجها فاختص الوالد بعائشة ، فإن أم ملك لم تكن لتعارض زوجها فى شىء فاستأثر بملك دون شجار أو اقتسام .

وفى هذه الفترة وقبل زواجها بدأت ملك تـكتب فى بعض الصحف شعراً منظوماً . قيل إنها كتبت شعراً فى مناسبة وطنية وهى فى الثالثة عشرة من عمرها جاء فيه .

بشرى لمصر فقد نالت أمانيها   وأنجحَ اللهُ بالحسنى مساعيها .

ولـكن الأبيات القليلة التى قالتها فى شتى المناسبات كأبياتها فى قانون المطبوعات الذى نشر عام ١٩٠٩ وهى :

يا أمة نثرت منظومها الغير   حتام صبرٌ ونار الشر تستعرُ
ماذا تقولون فى ضيم يراد بكم   حتى كأنكم الأوتاد والحُمُر

لاتدل على شاعرية وإنما تدل على أن ميولها الوطنية كانت قوية وأنها لو استطاعت أن تستخلص حياتها كلها لدعوة أخرى غير دعوة تعليم المرأة وإنصافها لـكانت هذه الدعوة هى الوطنية والقومية والإسلام . وجدير بالملاحظة أن أول مقال نشرته فى الجريدة كان فى موضوع وجوب تخصيص مقبرة رسمية للعظماء . وليس بين الموضوعين مايتصل اتصالا مباشراً بالمرأة ووضعها فى المجتمع ، وهو الموضوع الذى استنفد حياتها على قصرها .

ولـكن ملك فى هذه الفترة كانت تعمل لدعوتها بأسلوب عملى قوى ، كانت تطوف ببيوت الأهـل والأصدقاء لتحض على تعليم البنات ولتجمع التلميذات . إنها لم تـكن تؤمن بشىء قدر إيمانها بالعلم ، ولقد رأت فى العلم مفتاح كثير من أوجه الإصلاح ، ولـكنها كانت بطبعها معلمة ، يدل على ذلك ما أثر عنها أنها كانت كثيراً ما تجمع إخوتها حولها قبل الزواج تقص عليهم قصصاً وتعلمهم شعراً وكأنما عملها فى المدرسة لا يكفيها .

وفى هذه الفترة تحددت شخصيتها وانطلقت ملكاتها ، فإذا هى تعرف بأعمال العطف على الفقراء والعزوف عن مخالطة طبقة الأغنياء التى كانت تعرفهم بحكم مركز أبيها . كانت تحب الاختلاط بالبسطاء ، وكانت تحب اللذة فى أمرين فى أن ترفع حجب الجهل ، وأن ترفع أثقال الألم فعلّمت وفكت كربة المحروم .

وعلى هذه الأعمال الكثيرة وبهذا الاهتمام المضحى نضجت شخصية ملك الداعية المصلحة ، وأخذت تكتب فى أحوال المرأة ، ولكن تجربة الزواج هى التى عمقت إحساسها وألهبت حماسها للدفاع عن هذه المظلومة التى تسمى المرأة .

النار المقدسة :

فى عصر يوم من أيام شهر فبراير سنة ١٩٠٧ جاء إلى والدها الشيخ الجليل ، عبد الكريم سلمان يقدم للأسرة عريساً من خيرة رجال العرب المصريين . يقدم عبد الستار الباسل رئيس قبيلة الرماح بالفيوم ، الرجل المتعلم العصرى الذى يجيد اللغات الأجنبية ، والمعروف بشهامته وإنسانيته ، وهو فوق ذلك ثرى من أكبر الأثرياء وسرى من سراة مصر .

ووقف الوالد الشفيق لحظة . أحقاً يمكن أن يزوج ملك ، ومن ذا يسعد أوقاته ويشيع البهجة فى نفسه ؟ من ذا يمكن أن يملأ عليه الفراغ الذى ستتركه هذه الشعلة الحية من الأمل والحياة ؟ ولكن أليس الزواج سنة الحياة ؟أليس من الطبيعى أن يكون لملك بيت وزوج وأبناء ؟ وهل يمكن أن يطمع فى زوج أحسن من هذا الذى يقدمه إليه الصديق ؟

واستوثق الوالد الشفيق من الصديق يسأل عما يعرف ، ويطلب من المعلومات ما هو به جدّ عليم . إن يكن عبد الستار عريساً ممتازاً فإن ملك عروس نادرة .

فتاة فى مثل سنها تقوم بكل ما قامت به و يفرح بها والدها لأن كتاباتها تثير إعجاب أصدقائه العلماء . كم حاول أن يدللها فكانت بعقلها الكبير ترفض أن تميز على إخوتها ، بل ترفض أن ينفق الوالد عليها فيما تتطلع إليه الفتاة فى مثل سنها كفاخر الثياب . إنها أكبر عقلا من شاب فى مثل سنها ، وإنها لأملأ نفساً وأقوى شخصية من كل من علّم من تلاميذ ، أو أنجب من أبناء . و يسأل وماذا عن كتاباتها ؟ قال الصديق : إن العريس معجب بها وسيتركها تكتب وتخطب كما تشاء ، إنه عربى و تراث العرب فى تمجيد نوابغ النساء أمر معروف .

ولم تعد أمام الوالد حجة ، ولم يعد فى رأسه شك أو ريب ، ولم يبق له إلا أن يفرح ، فليفرح إذن . ولكن ما باله ؟ إن فراق ملك شاق ، ولكن الغيب يطل من بين غيوم المستقبل وكأنما وجهه كالح حزين علام ؟ لا يدرى .

وفى أقل من شهر زفت ملك أميرة الأحلام فى عينى والديها إلى السيد الوجيه رئيس قبيلة الرماح بالفيوم عبد الستار الباسل .

وفى البادية التى حددت تفكيرها ورسمت لها خطى الدعوة والإصلاح رأت ملك مالم تر ، وجربت من الأحاسيس ما لم يكن من الممكن أن يدور به خيالها : بيئة تختلف كل الاختلاف و إن كانت مستعدة لأن تحبها ، مستعدة لأن يقترن بها اسمها ، فاتخذت اسم باحثة البادية اشتقاقاً من بادية الفيوم . ولكن ماذا تخفى بادية الفيوم من آلام ؟

وكان أكبر هذه الآلام وأمرها من هذا الزوج العصرى الوجيه . لقد كان رجلا يمارس حق الرجال الذى به استبدوا به فى عصره : حق فى أن يعيش كما يهوى والمرأة إلى جانبه جزء مكمل لوجوده أو تحفة ثمينة يفخر بأنه يحوزها . ولم تكن

ملك بعد كمال نضوجها ونضوج شخصيتها الفذة بقادرة على أن تكون مجرد ملحق لإنسان مهما يكن ، فكيف بإنسان يسيء إليها ؟ ولم تكن ملك تؤمن بالتحف والزخارف لتقبل أن تكون تحفة فى متحف رئيس قبيلة الرماح فى الفيوم .

وفى هذا البيت الكبير حبست ملك كما كانت تحبس نساء عصرها ، ولكن من خلال جدران القصر جاءتها الأخبار . إن الزوج له زوجة هى ابنة عمه ، وله منها بنت يريد من ملك أن تعلمها وأن تربيها . اكتشافات تغير وجه الحياة ولكن ما حيلتها ؟ والصغيرة تسكن مسكناً قريباً من بيت ملك ، فالزوج لا يمكن أن يتخلى عن ابنة عمه وأم ابنته وإن زعم أنه طلقها . وجاءت الطفلة الصغيرة وخاضت ملك تجربة شاقة أمام هذه البريئة ، ما ذنبها ؟ وبغريزتها الإنسانية الطيبة خاطت لها الثياب وحاولت أن تعلمها ولكنها أخفقت فى هذا التعليم ، قالت إنها أول تلميذة تخفق فى تعليمها ، ترى البلادة فى ذهن الطفلة أم خور فى عزيمة ملك فى مثل هذا الموقف العسير ؟ من يدرى ؟

وفى هذه السنوات الإحدى عشرة التى قضتها ملك باحثة للبادية اشتعلت فى نفسها تلك النار المقدسة التى دار بينها وبين « مى » فيما بعد الحديث عنها ، تلك النار التى ألهبت قلبها فجعلتها تكرس اللسان والقلم للدفاع عن قضية المرأة والمطالبة بحقوقها ، والدفاع عن موقفها ووصف العلاج لعللها ، ولكنها جعلتها أيضاً تصف آلامها والصور التى مرت بها بقلم يقطر ألماً أحياناً ، ويفيض حيوية وسخرية أحياناً أخرى ، تقول فى النسائيات : « أريد مما كتبت وأكتب للجريدة بعنوان النسائيات تخفيف ويلات الزواج على قدر الإمكان » .

ومن رسالة لها إلى « مى » على صفحات جريدة المحروسة :

« لماذا يا مىّ تدعين علىّ بالعذاب المعنوى ؟ ألا إنما العذاب البدنى أخف

منه وطأة وأعفى أثراً . على أنى جربت كليهما وذقت الأمرّين منهما معاً . تقولين « لأنه النار المقدسة » . نعم لقد أعطانى من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لمثلى حتى جعل البون بعيداً جداً بينى و بين هـذا العالم غير القديس . تقولين « إنه النار التى تطهر » . حقيقة إنه تاقى وجدانى بالتطهير منذ أن كان لى وجدان حتى صيره شفافاً يظهر كل شىء ، و يتأثر لأقل شىء ، وهذا فيه من الضنى والخطر مافيه . تقررين « إنه النار التى تحيى » . إنه أحيا روحى حتى أحرقها ، لأنه كان كمصباح سيال كهربائه شديد ، ولـكن فتيلته ضعيفة لا تحتمل ... وختمت حسن تعاليلك لعذابى بقولك: « إنه النار التى ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعانى . » نعم يا مىّ إننى الآن على أجنحة اللهيب ولـكنى لم أصل بعد إلى السماء وإذا وصلتها فلمن يعود العالم يرانى ، فهل ياترى ستعجبنى السماء ؟ إنى أشك فى ذلك » .

إن تجربة الزواج فى هذه الظروف التى عانتها ملك عمقت إحساسها بالظلم الذى تعانيه المرأة المصرية « المرأة مسلوبة الحق مظلومة فى كل أدوار حياتها . » وتمضى تفسر هذا : كيف أنها تستقبل شر استقبال يوم تولد فى الحياة ، ثم كيف تعيش دون الصبى صباها كله ، ثم كيف تزوج دون إرادتها ، ثم كيف يستبد بها الزوج ، ثم كيف تقاسى تهديد الطلاق . والأمرّ من كل هذا والأعنف ألما هو أنها أحياناً كثيرة تقاسى الضر ، تقول عن الضر: « هو اسم فظيع مملوء وحشية وأنانية » « هو اسم فظيع تـكاد أناملى تقف بالقلم عند كتابته » .

وراحت ملك تسائل القرويات والحضريات من حولها فإذا كثيرات يعانين هذا الألم ، وأخذت تدرس مقدار ما تؤثر به الضرة فى الحياة الزوجية وعلاقة الزوجة الأولى بزوجها وماذا يصيبها فإذا هى تجد من تقول لها : إنها تفضل أن ترى زوجها محمولا على نعش من أن تراه متزوجاً غيرها . و بمثل هـذه العلاقة تعمر

البيوت !! يا للسخرية ! ثم الأبناء : الأبناء غير الأشقاء . ماأحوالهم ؟ ودرست ، ولاحظت وكشفت النقاب عن فساد ينخر فى جسم الأمة ولا يشبع إلا رغبات الأنانيين من رجالها .

وشاركت الباحثة فى هذه الفترة فى مؤتمرات وخطبت فى محافل ، ففى سنة ١٩١١ عقد رياض (باشا) مؤتمراً فى مصر الجديدة، فأرسلت تحتج عليه لأن المرأة لم تمثل فى هذا المؤتمر . وعقدت هى مؤتمراً نسائياً بعد ذلك وأصدرت فيه قرارات أهمها تعليم المرأة وتخييرها فى الزواج وتصعيب الطلاق وتعدد الزوجات تنفيذاً لتعاليم الدين الحنيف الذى جعل صلة الزواج مودة ورحمة ولم يجعلها شرا ونقمة .

إن تجربة الزواج جعلت ملك تنظر فيما حولها كثيراً وتدرس من حولها، فإذا هى ترى فيه أساس الشر الذى تعانيه الأمة . إن البيوت المصرية مطوية على عذاب رهيب . تقول فى النسائيات : « خير للفتاة والفتى أن يعيشا أعزبين من أن يتزوجا بثالث هو البؤس والعذاب »، ولـكن الفتاة المظلومة ترحب بالزواج مخدوعة؛ تظن أنها ستحرر به وتـكون لها مملـكة مستقلة صغيرة ، وهناك مظاهر الفرح وزخارفه، وما أضعف الفتاة فى مثل هذه السن، وما أكثر ما تلين أمام هذا الإغراء! إنهن كلهن لسن كملك لا تغرهن زخارف الدنيا ، فإذا ما تزوجت الفتاة فهناك التجربة الـكبرى .

وملك لا ترى الشر كله فى الرجل ، بل إنها ترى فى التقاليد شراً أكثر ، وتطالب بتغييرها من الطرفين . عادة عدم رؤية العريس ومجالسته فى حضرة الأقارب حتى يعرف كل من الطرفين شريك حياته ، إن العلاقة بين الرجل والمرأة يشوبها البرود ويغلفها الرياء ، وكثيراً ما يغذيها خوف المرأة من الرجل . ومن أجمل ما وصفت : هذا التـكلف بين الزوجين الذى يجعلها تدعوه حضرتك

وسعادتك ، وتجمله يدعوها بالهانم « فما هذا التكلف البارد ؟ » كما تتساءل ملك ثم تقول فى مجال آخر : « بين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلف لا يتفق مع ما يريده الله لهما من سكون الواحد إلى صاحبه ، و يشذ عن شواهد الطبيعة ، وآثارها المرسلة إرسالا من غير تعقيد ولا إبهام » .

وتقف ملك عند نقطة هامة هى عدم إعداد المرأة لأداء مهمتها المقدسة مهمة الأمومة . إن البنت لا تتعلم فى المدرسة شيئا عن الأمومة على حدّ قولها ، ثم تمضى تفرق بين الأمومة عند الغربية و بينها عند المصرية ، وتحضرها تلك الآيات الرائعات من تاريخ الأم العربية . إن الأم المستعبدة لا يمكن أن تنشئ أحراراً ، فإذا أردنا تحرير الأمة يجب أن نحرر الجيل الجديد ، والجيل لا يتحرر إلا إذا رضع لبن الحرية من أم حرة . وهى تصف حال الأم المصرية لا فى عبوديتها فحسب ، وإنما فى جهلها بالحياة من حولها ، وتصف فى قطعة رائعة مقدار ما يُصيب هذه الجاهلة من الارتباك لو أنها تركت لتتصرف فى أبسط أمر كأن تسافر وحدها فى القطار مثلا ، والذنب مرة أخرى ليس ذنبها ، لقد ربيت على أن تكون متاعا فى البيت تتصرف لتنفذ الأمر فإذا انعدم الأمر ، لم تعد تعرف كيف تتصرف .

وأدركت ملك خطورة محاربة الإصلاح باسم الدين ، فأعربت عن تعصبها للدين وللإصلاح معا . « إن الأديان لم تخلق لجلب البؤس و إنما خلقت لإسعاد البشر » وأخذت تبين بالحجج الباهرة كيف أن الإسلام دين كل إصلاح ، وكيف يرتكب التخلف والانحطاط باسمه . وكانت فى تعصبها للإسلام رائعة حقا ، ترى ذلك فى أبسط المظاهر أحيانا مثلما تنعى على الناس استعمال ألفاظ صاحب العزة وصاحب الجلالة ، لأن صاحب العزة وصاحب الجلالة هو الله وحده . كما ترى ذلك فى أعقد الأمور وأجلها شأنا . ولقد استطاعت أن تمزج مزجا طيبا بين تعصبها للدين وتعصبها للقومية ، فهى تهاجم التعليم فى

مدارس الراهبات على أساس من التعصب للقومية وللدين معاً ، وهى تهاجم الزواج بالأجنبيات على نفس الأساس . ولـكنها تعصبا للقومية وحدها تنعى على رجال مصر تزوجهم بالشركسيات والتركيات والـكرديات أيضا، ولا ترى الزواج الأمثل إلا فى زواج المصرى من المصرية . وقد ناقشتها «مىّ» فى هذين الأمرين . و«مىّ» تمثل الاتجاه الإنسانى العام ديناً وقومية، وهى بظروفها الخاصة لم يكن من الممكن إلا أن تـكون كذلك . فمىّ تقتبس من الغرب ومن الشرق كل ما تريد ولا حدود فى ذلك إلا الحدود الإنسانية العامة ، بينما ملك حريصة على قوميتها ، ترى أن الاقتباس عن الغرب يجب أن يكون بمقدار وفى سبيل صقل الأصل وتمـكينه من أن يستأنف الحياة من جديد فى قوة وصلابة ووضوح . وهى لذلك كثيرا مانعت مظاهر الحضارة الغربية الزائفة . وقفت مثلا عند الرقص وجادلتها «مىّ» فى آرائها تلك فيما كتبت فى كتابها عن باحثة البادية فى الفصل الخاص بملك «المسلمة» . ولـكنها فى الوقت نفسه تستمسك بأن نأخذ الصالح من هذه المدنيات الغربية . نأخذ كل ما يصلح به معاشنا بشرط ألا نفنى فى هذا الغريب الغربى . «إذا أردنا أن نـكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا ألا نقتبس من المدنية الأوروبية إلا الضرورى النافع بعد تمصيره حتى يكون ملائما لعاداتنا وطبيعة بلادنا . نقتبس منها العلم والنشاط الوثاب وحب العمل . نقتبس منها أساليب التعليم والتربية وما يرقى بنا حتى نبدّل من ضعفنا قوة . وإنما لا يجوز فى عرف الشرف والاستقلال أن نندمج فى الغرب فنقضى على ما بقى لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المـكتسحة الهائلة» .

وأفاضت ملك فى تبيان فضائل القومية وفضائل الإسلام فى شتى المناسبات فـكانت بذلك أول كاتبة عربية فى العصر الحديث ، استطاعت أن تربط بين مفهوم شامل متعمق للتراث كتراث، ومفهوم واسع للجديد والمدنية الحديثة كمدنية .

وإن لم يكن مفهومها للحضارة الأوروبية فى قوة فهم مى لهذا الجديد والحديث ، ولا فى عمقه ، ولا فى دقته فإنه بحماسه السليم للتراث يعوض النقص الذى فيه .

وفى هذه السنوات سنوات النار المقدسة لم تكتف ملك بالرسائل والخطب والمؤتمرات ، وإنما كونت حزبا نسائيا للرقى بشئون المرأة اسمه « الاتحاد النسائى التهذيبى » . وشاركت فى الحركات الوطنية فتطوعت لخياطة الثياب للهلال الأحمر إبان الحرب العالمية ، وساهمت بشكل ملحوظ لأول مرة فى سبيل إعطاء الأجانب صورة مشرفة عن المصرية وسط غبار التعصب السياسى ومن خلال أتربة التخلف الرانى على أحوال المصرية . فقد اتصلت بسيدات أجنبيات ــ كن يفدن إلى مصر أو يراسلنها ــ وحاولت أن تعطيهن صورة مشرفة عن المرأة الحديثة فى مصر . من هؤلاء السيدات المؤلفة السيدة كامرون التى ألفت كتاباً أسمته « مؤلفة فى إفريقيا » والسيدة اليزابيث كوبر مؤلفة كتاب « المرأة المصرية » .

ولكن أهم ما امتازت به ملك رغم هذا التعصب المحمود فى زمانها على الأقل للدين وللقومية هو أنها كانت ترى الأمور من خلال منظار عادل ، حتى فى هذا الموضوع الذى كان دائما يحرك الجراح فى قلبها . إنها لا تريد إنصاف المرأة على حساب الرجل وإنما هى تريد إنصافها من أجله ومن أجلها ، من أجل الأمة كلها . تقول : « كيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون صلاح الأمة وتربية أبنائها على حب الاستقلال والدستور . أما والله لو أولانا رجالنا عناية واحتراما لكنا لهم كما يحبون . فما نحن إلا مرآة تنعكس علينا صورهم ولنا قلوب تشعر كما يشعرون ، فإذا أرادوا إصلاحنا فليصلحوا من أنفسهم وإلا فلينظروا ماذا هم فاعلون » .

وتقول فى موقف آخر : « ولا يغيظنى أكثر من أن يزعم الرجال أنهم يشفقون علينا . إننا لسنا محلا لإشفاقهم ، إنما نحن أهل لاحترامهم، فليستبدلوا هذا بذاك ، فالإشفاق لا يتأتى إلا من سليم لعليل ، أو من جليل لحقير ، فأى الصنفين يعتبروننا ؟ تالله إنا لنأنف أن نكون أحد هذين » .

وفى موضع آخر : « فى اعتقادى أن الرجل لو خفف قليلا من كبريائه وعلم أن امرأته مساوية له فى جميع الحقوق المشتركة ، وعاملها معاملة الند للند أو على الأقل معاملة الوصى لليتيم لا معاملة السيد للعبد لما رأى منها هذا العناد الذى يشكوه ، ولأطاعته حبًّا له لا خوفا منه ، فبنات العصر الحالى حتى الجاهلات منهن يفهمن الحياة أكثر من أمثالهن الغابرات ، فأصبحن لا يرضين الكسوة والطعام فقط كإحدى خدم المنزل، ولكنهن يقدرن اليوم السعادة الزوجية أكثر من ذى قبل ، ويعلمن أنه إذا لم يكن الحب أساس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما » .

بهذا الروح المنصف الفاهم لوضع المرأة فى الحياة فهمت ملك المساواة بين الجنسين كما نقول فى لغة عصرنا . صحيح أنه قد سبقتها عائشة التيمورية مثلا حين قالت فى كتابها « مرآة التأمل فى الأمور » : « لو أمكن الانفراد للرجل لخصّه الله بالوجود دون المرأة ، فهما ضروريان كل منهما للآخر ، موجودان معاً تحت شمس واحدة وأحكام واحدة ليأتى كل بقسطه من واجبات متعادلة » .
ولكن ملك رأت فى المطالبة بحق المرأة رسالة ولم ترها تأملات فى الأمور كما رأتها الشاعرة عائشة من قبلها بأعوام وأعوام . وهذا يرجع إلى اختلاف الظروف العامة والخاصة بين الشاعرة والمصلحة ولكن حسبنا أن نقرر فى فخار أن الشاعرة الرقيقة لم تشغل بشعرها وأحزانها عن أن تتأمل أحوال المرأة فى زمانها . لقد كانت

هذه الأحوال من السوء بحيث تفرض نفسها على تفكير كل امرأة حتى ولو كانت شاعرة ثكلى .

عاشت ملك بلا ولد وهذه هى مأساتها الثانية . أحد عشر عاماً ولم تنجب ، مما كان يفجر فى أعماقها أحاسيس الأمومة التى مارستها بالنسبة لأخواتها وإخوتها الأشقاء أو بالنسبة لأخواتها المصريات المظلومات المعذبات بأنانية الرجل وتخلف المجتمع . واستغل الزوج هذا الظرف استغلالا فأرسل من النساء من هددها بزواج جديد له لينجب الأبناء . وعاشت المأساة ـ مأساة التهديد ـ فى صبر وحزن وجلد . ثم خافت العلاج والعمليات كما أخبرنى إخوها ، حتى زارت معه الاستانة لتعرض نفسها على كبار الإخصائيين وهنا عرفت الحقيقة المهولة . إنه بعد أن أنجب ابنته الأولى أصيب بمرض ، وفى هذا كل التفسير . كم رأت من هذا الزوج الذى حسدت عليه ، وكم كانت مفاجآت حياتها معه دائماً جبارة عنيفة ! مفاجأة أولى بأنه متزوج قبلها ، وثانية بأنه هو سبب ما ادعى عليها من عقم حاول أن يذلها بسببه ، وثالثاً وليس آخراً أنه غاب فى ليبيا عاماً كاملا مجاهداً فدائياً فيما حسبت ، فانتظرت وقاست وأدارت له أعماله بشقائها أو تعبها حتى عرفت أن الجهاد لم يكن جهادا وإن الشرف كان فى الحقيقة عاراً ؛ فكانت الصدمة الثالثة . لقد عرفت أخت ملك كم كانت ترهب الحياة الزوجية التى تبنى على المداراة وظلم الزوجة واستبداد الرجل وأنانيته وسوء خلقه . كانت واقعة تحت تأثير تجربة ملك . قالت لى : إن أختها ملك ماتت فى بطء وتلاشت من الألم على سنوات معدودات . إن الألم يطحن الحياة . لقد طحن الألم ملك فماتت فى ريعان الشباب ضحية ظلم صارخ وعذاب لم يعرف حدوداً أمام الضمير الإنسانى العادى .

الحـــلم :

تقول «ميّ» في كتابها عن باحثة البادية : « لما زارتنا للمرة الأخيرة كانت ترافقها صويحبة لهـا فأخذت هذه تنقر العود وأنشدت الباحثة بصوتها الشجيّ

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصـــل بالأندلس

لم يكن وصـلك إلا حلماً ... في الـكرى أو خلسة المختلس

وكأنما كانت في تلك الساعة متنبئة عن نفسها ، متنبئة أن وجودها بيننا ليس إلا حلماً في الـكرى أو خلسة المختلس ، وأنها راحلة عما قريب في مقتبل العمر ونضارة الشباب » .

في الثانية والثلاثين من عمرها وفي يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٨ كانت ملك في بيت والدها تستسلم في آخر ساعات عمرها للحمى الاسـبانيولية التي أنهكت قواها فأفقدتها الحياة . أكانت الحمى هي سبب وفاتها ؟ كلا . إنه قلبها ، قلبها الذي يذوب إشفاقا على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها . ثم آلام مبرحة لا يدري أحد مبعثها إلا هي ، فقد كانت تـكتم حتى من إخوتها آلامها الدفينة . حتى عن ميّ صديقتها وقد تبادلتا الرسائل والمناجاة على صفحات المحروسة ، وفتحت كل منهما للأُخرى نوافذ على نفسها وروحها وعقلها .. حتى ميّ لم تستطع أن تطلعها على حقيقة آلامها . ثم كان هناك المرض أي مرض . تقول لميّ : « كانت رسالتك عزاء جميلا لي في مرضي الطويل المؤلم ، و بلسما ملطفا لجراحي البالغة التي قلت إنك عثرت عليها . آلامي أيتها السيدة شديدة ، ولـكني أنقلها بتؤدة كأني أجر أحمال الحديد ؟ فهل تدرين ياسـيدتي ما هو لي ، ليس لي بحمد الله ميت قريب أبكيه ، ولا عزيز غائب أرتجيه ، ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا ، و يستولي عليهم غرورها فأطمع في أكثر ممـا أنا فيه . وليس لي جار سيء

أشتكيه ، ولكن لى قلباً يكاد يذوب عطفاً و إشفاقاً على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها، وهذا علة شقائى ومبعث آلامى » .

ترى أبلغ بها التحفظ والاحتمال أن تقول لصديقتها إنها ليست لها حال سيئة تشتكيها ؟! قالوا إنها كانت حريصة جداً ألا يعرف أحد أنها فشلت فى زواجها مخافة أن تسىء إلى سمعة المتعلمات فى الزواج . وقالوا إنها بطبعها كانت كتوماً للألم تشفق على الأب الحبيب والأم المريضة من أن يألما لألمها .

ولكن هذا القلب هو سبب موتها حقاً ، لقد كانت مريضة محمومة وسمعت أنباء تقول: إن أخاها مجد الدين قد قبض عليه بتهمة تهريب ضابط سجين ومجاهد لمصر ، فلم يطق القلب الرحيم سماع الخبر حتى عادت وحدها من باديتها إلى القاهرة فى القطار محمومة لتطمئن على الأخ الصغير . وكان مجد الدين فى مرتبة الابن وكانت ترى فى أخواتها العوض عما حرمته من ولد وكان لا بد من أن ترى الأخ وتعمل على تخفيف محنته .

وصلت إلى بيت الأسرة فاستقبلها الأخ ففرحت ، ولكن آلام المرض اشتدت بسبب إعياء الرحلة و إجهاد النفس وتوتر الأعصاب . ولمدة ثلاثة أيام وفى تجاويف الهذيان من الحمى عرف الأقربون من الإخوة والأب لأول مرة أسرار هذا الزواج وأخلاق الزوج ومعاملته لها . أ كانت هـذه هى ملك التى تطمئنهم على كل شىء فى حياتها؟ أحقا احتملت هذه الآلام فى صمت وكبت أوديا بصحتها ، واستخرجا منها روح المرح والدعابة لتكون روح سخرية لاذعة ومرارة ألم دفين ؟ أحقا كانت ملك تغنى وقلبها يقطر من الحزن دما ؟

وفى إفاقة الأسرة على حقائق حياة الأخت الحبيبة والابنة البارة استغفلهم الموت واصطفاها الله إلى جواره . فإذا هم يفيقون مرة أخرى على سر أكبر وخدعة أقسى وحزن أمرّ .

يقظة الخلود :

ماتت ملك وكأنما ومضة أخيرة من حياتها أرادت المقادير لها أن تضيفها قبيل موتها ليكسب هذا التراث الذى تركته ظلاله وألوانه الطبيعية . إن هذه الملكة الأدبية وهذا الأسلوب الذى يفيض عاطفة ويترنح ألما كان نابعا من القلب ، من التجربة القريبة لامن الخيال . لذلك استطاعت أن تؤثر به فى القلوب وأن ينفذ صوتها إلى من وافقها على رأيها و إلى من خالفها فيه . حتى قالوا عنها إنها كانت كثيرة النزعات جمة الميول تناقض نفسها ولكنها فى كل مرة مخلصة لماتقول ، وفيّة لما تصور . ولا يعنينى أن أناقش هذا القول فلم أقرأ لها فى الواقع ما هو متناقض فى الرأى ، ولكنى أوافق على أنها فعلا كانت مخلصة دائما فى كل ماتقول .

قرأت « مىّ » لباحثة البادية فأرادت أن تزورها وكانت فى حلوان ، وفى الطريق إليها كانت «مىّ» تسائل نفسها أسئلة حول مظهر هذه السيدة وشخصيتها وماذا سيكون بينهما . وكان من هذه الأسئلة أتكون سيدة ممن يستكتبن الرجال ليشتهرن ، وخاصة أن والدها عالم أديب يمكن أن يعاونها على مثل هذا التصرف الذى عرفت به بعض السيدات فى كل بلد . ولكن « مىّ » اقتنعت بمجرد الزيارة الأولى . إن ملك هى التى تكتب كل ما تنشر باسمها ، ولم يتح لنا أن نرى ملك ، ولسنا نستطيع أن نوافق « مىّ » على قولها لمجرد الموافقة . و إنما الذى يقرأ مقالات الباحثة وآراءها و يبحث عن أسلوبها ويتدبر صورها لاشك يؤمن أنه أمام أديبة مهما تكن درجة تحمسنا لها ، وأن هذا الأدب له طابع مميز وأسلوب ليس من السهل أن يوجد إلا فى القلة النادرة ، ومىّ تحلل لنا هذه الميزة ميزة الأسلوب الأدبى بعامة . إنها طريقة خاصة فى خلق طاقات للكلمة ليست لها قبل أن يعمل الفنان فيها عمله .

إن لباحثه البادية أسلوبا وإن لها لروحا يطل من خلال ما كتبت فإذا هو متميز فريد واضح .

لها فى الوصف طريقة تجمع بها أشتات الصورة فى قالب ساخر دقيق ممتع ، فإذا أنت أمام لوحة حية يشيع فيها روح الناقد المشفق ، ولكنه الناقد الحانق الذى يتألم لما يرى . تصف جهل نساء المدن فى عصرها وقصورهن الذى فرض عليهن فرضا ليكن ربات خدور مشلولات لاعناصر حية مكافحة فى الحياة .

« تسافر المرأة الإفرنجية الآن أو البدوية وحدها ، فتركب القطار أو الجمل ، وسرعان ماتحمل متاعها أو تحضر من يحمله لها بلا ضوضاء . أما المصرية (القاهرية) فلا تسافر إلى محطة قريبة إلا ومعها من الخدم والأقارب من تعطلت أعمالهم من أجلها ، ثم تجدها لا تكاد تحرك رجلا لتنزل حتى يتحرك القطار ، وإذا ساعدها الله والأولياء ونزلت فما أكثر ماتفقده ولا تجده ، ضاعت حقيبة المصوغات وانكسرت القلة فبللت حبرتها واشتبك برقعها بمفتاح العربة فانقطع خيطه وإذا لم يسرع حشمها فى التقاط أطفالها فقد يقع أحدهم تحت العجلات صريعاً . »

انظر إلى اطراف هذه الصورة كيف يتحرك القلم ليجمعها حتى تدل أقوى دلالة على الاضطراب واللجلجة والقصور المعيب . ثم انظر كيف تعنف الصورة عندما تحملها الدلالة الكبرى . إن هذه المرأة أم وهى مسئولة عن أطفال ، وهى دون أن تحمل مسئولية نفسها ، فكيف بمسئولية الأطفال ! إنهم مع مثل هذه الأم معرضون للموت المادى أو المعنوى ، إنه فى الصورة خطر مادى وفى الحياة خطر أشد هولا وأعمق أثرا ، إنه خطر خروج أبناء تائهين ضائعين لأنهم ورثوا عن أمهم أو أحوالها هذا الضياع والفوضى .

وهذه صورة أخرى أرانى مسوقة إلى نقلها لأنها تدل بأبعاد أخرى على

مقدرة ملك على جمع أطراف الصورة وتحميلها الدلالة فى نغم صاعد أبداً حتى يبلغ الذروة الساخرة عند نهايتها تنبيها لنا منها على الخطر الجسيم . تقول فى وصف بيت الزوج الشرس الذى يرى صلاح الحياة فى أن يتجبر على أهل البيت الضعفاء :

« زرت مرة سيدة ممن ابتلين بهذا الزوج القاسى ، وكنا نتكلم وأولادها الصغار يلعبون قريبا منا وبناتها الشابات يضحكن ، وإذا بهن سكتن فجأة ، وارتبكت أمهن وغارت أعينهن وعلاهن الاصفرار ، وقامت إحداهن تهرول إلى الصغار لتسكتهم ، والثانية تتسمع على السلم والأخرى ترى ماذا يمكنها ترتيبه فى حجرة والدها .

تعجبت من هذه الحركة الفجائية وسألت عن الباعث لها ، فأخبرتنى السيدة والحزن باد عليها وتكاد لاتنطق إلا همساً « إن البك ربما يكون قد حضر » فقلت فى نفسى إذا كان كل هذا الاضطراب وفى حضوره شك فماذا يفعل هؤلاء النسوة إذا قيل لهن إنه قد ــ والله ــ حضر » .

أكان يمكن لقلم ملك أن يرسم الصورة على نحو آخر ؟ أليست فى الصورتين طريقة واحدة لجمع الأطراف ورسم الأبعاد والحركة الصاعدة فى الأجزاء نحو قمة النهاية ، ثم السخرية المرة بالصورة الحية من حال أليمة .

حتى فى دفاعها العملى الموحى به من الواقع عن حقوق المرأة لم تكن لتتخلى أبداً عن أسلوبها هذا الساخر أحيانا والمصور تصويراً شعرياً أحيانا أخرى . تقول مثلا فى الدفاع عن نبوغ المرأة : « يقول لنا الرجال ويجزمون إنكن خلقتن للبيت ونحن خلقنا لجلب المعاش ، فليت شعرى أى فرمان صدر بذلك من عند الله ، إنهم لو أنصفوا ولم يتحزبوا لما عيرونا بأننا قليلات النبوغ ، وأنه لم يسمع بأن

إحدانا غيرت قاعدة فى الحساب أو الهندسة مثلا ، وليتفضل أحدهم بإخبارنا عما استنبطه هو من تلك القواعد . نحن نعترف لرجال الاختراع والاكتشاف بعظيم أعمالهم، ولكنى لو كنت ركبت المركب مع خريستوف كلومب لما تعذر على أنا أيضاً أن اكتشف أمريكا ».

أيمكن أن يقال إن المخترعين قلة ، وإن الاختراع لايأتى إلا بفتح الأبواب طلقة واسعة حرة للجميع من الجنسين ليتسنى من المجموع أن يخرج الممتاز النادر الذى يكتشف و يخترع . أين حرية النساء فى ركوب البحر لننتظر منهن من تكشف مجاهيل البحار ؟ سؤال ساخر ذكى يقول فى قليل من اللفظ حقيقة كبرى . قد تناقش هذه الحقيقة ولكن أسلوب ملك يقنع بظاهرها القوى على أية حال .

أما حججها التى تكسوها صوراً رومانسية شاعرية فهاك مثلا منها ، عندما تسوق الحجج فى موضوع تآلف الزوجين وقيام علاقتهما على اليسر والطبيعة لاالتكلف والتصنع . ذلك أن الطبيعة مرسلة إرسالا بلا تكلف وبلا تعقيد ، وجمالها وحياتها من هذه السجية المرسلة . تقول : « بين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلف لايتفق مع مايريده الله لهما من سكون الواحد إلى صاحبه ويشذ عن شواهد الطبيعة وآثارها المرسلة إرسالا من غير تعقيد ولا إبهام . فالسماء معقودة على الأفق فى مصر ، وهى كذلك معقودة على الأفق فى اليابان وجرينلاند ، لم يصنع الله لها عمد المرمر فى إيطاليا ، ولا قوائم العاج فى السودان ، ولم يقرها على حوائط البلور فى النمسا . تنيرها الشمس نهاراً (إلا فى القطبين) والقمر ليلا وقد نثرت فيها النجوم نثراً إلا قليلها فهو منظوم . ولم يشأ الله وهو قادر أن يجعلها كلها فى شكل عقود وتيجان وأن يرسمها دوائر مثلثات مرصوصة رص البلاط الملون، وهى مع ذلك يأخذ جمالها بلب المتأمل المتفكر ، والأرض بسيطة أيضاً لا تحول لنظامها ، فالصخر يفتته توالى الريح والمطر فيصير رملا ، والرمل تسفيه الريح

ويعجنه المطر فيكون صخراً والبذر ينبت إذا لقى ريا وأرضاً صالحة وما أبسط سوق النبات تظل قائمة ولكنها تميل مع الريح ويثقل عليها غيرها فيتدلى أو يسقط إلى الأرض » .

فكل هذه الصور الطبيعية الشعرية تسوقها ملك لتدل على أن الطبيعة فى سجيتها وإرسالها جميلة وأن التكلف يعوق سبل الحياة ويجردها من تلقائيتها التى هى سر استمرارها وجوهر جمالها .

وفى الموضوعات الشخصية أيضاً وخاصة بعد أن توثقت الصلة بينها وبين « مىّ » وبدأت بينهما المساجلات التى فتحت بعض النوافذ الضيقة إلى نفس ملك ، نراها تنمق الأسلوب بفن خاص . تشبه « مىّ » آلامها بالنار المقدسة بعد أن تقول بلغتها الساحرة: « قرأت أفكارك فعثرت على جراح بليغة وددت تقبيلها بشفتى روحى، فإذا نفسى المعانية الصابرة تتفتح لهذه الصداقة الحلوة» وتبدأ تبث « مىّ » شيئاً عن جراحها وطبيعة هذه الجراح دون أن تدخل فى موضوع ماهيتها . وعندما دعت عليها مى بالعذاب المعنوى ؛ لأنه النار المقدسة تفجرت ملك فى وصف نفسها وعذابها ، وأمعنت فى الكلام عن هذه النار المقدسة كما أسلفنا ، وهى تشبه المرأة فى ضياعها تشبيها جميلا حين تقول عن نفسها ، إنها كالماء يذهب ضياعاً فى فترة شعرية جميلة « إن الماء يصبونه فينصب ، ويريقونه فيختفى فى الأرض ، ويضعونه فى كل آنية معوجة ملونة ، فيأخذ كل شكل ويصطبغ بكل ما يراد له من ألوان ، تبخره الطبيعة زارية هازئة ، فتارة ترفعه إلى السحاب ، وطوراً تقذف به فى الأرض، وآونة تعاكسه بصقيعها فيتحول برداً ، وآونة تحمى عليه براكينها فيخرج ملتهباً ، وحيناً تخبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو برىء ، ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكراً فيحلو ويذيبون به الحنظل فيمرّ . وهم

مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له بجميل ، وهو بلا ثمن فى أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء فى أقلها ، إنه مثلى يا مىّ يذهب ضياعاً » .

وفى هذا الاسترسال وإحكام وجه الشبه فى أكثر من زاوية وأكثر من خاصة أو صورة ، تبرز معانى ملك فيما أرادت أن تصدر من حالها ، وحال المرأة بعامة . مخلوق هو سر الحياة ، ومع ذلك هو مضيع ، لا شخصية له ، ينسب إليه الشر وهو منه برىء ، ولا يعترفون بفضله ولا بقدره ، ولولاه ما كانت الحياة . وأخيراً هو يضيع هباء جهلا بقيمته وسوء فهم لخصائصه ولدوره ، بل تضييعاً لخصائصه ، وملكاته ، وما يمكن أن يغير من وجه الحياة العبوس .

وهكذا تمضى المساجلات بين مىّ وملك التى نشرتها لهما فى إبّانها جريدة المحروسة تصور عاطفة جميلة بين أديبتين ، جمعهما عصر واحد ولكن كان لكل منهما حياتها المختلفة ودينها وقوميتها وثقافتها المختلفة كل الاختلاف .

وامتد الزمان :

والآن آن لنا أن نقف لنرى هل غيرت ملك من أحوال عصرها ، هل أثمرت دعوتها ، ونبدأ بملاحظة أن ملك لم تكن تقف وحدها ، كان قاسم أمين الذى خاض غمار المعركة الكبرى معاصراً لها ، دعا إلى السفور وفسر دعوته إزاء الجمود والرجعية بأنه يمكن أن يكون سفوراً تدريجياً ، ولكنه دعا إلى تأليف جماعة من مائة تنزع نساؤهم و بناتهم الحجاب دفعة واحدة لتنفيذ الدعوة . أما ملك فلقد كانت تعيش فى البادية بعيداً عن المدينة حيث الهواء النقى والماء العذب والسماء الصافية كما تقول . ولكن حيث الفطرة التى أملت عليها كثيراً من

آرائها . لذلك هى ترى أنه من طبيعة الأشـياء أن نتدرج كثيراً ونستأنى فى موضوع الحجاب والسفور إلى أن تحصن المرأة بالعلم .

لقد آمنت بأن التعليم والتربية والتهذيب هى مفتاح النهضة وعلى ذلك يجب أن ننظر إلى ثمرات دعوتها فى هذا الميدان . و إنى لأرى أختا لملك صغرى وصلت مصر من بعثة فى انجلترا تعلمت خلالها الطب وحازت أعلى شهاداته العامة ، تصل فى نفس الموعد الذى يخرج فيه أول فوج من فتيات الجامعة سنة ١٩٣٣ . وإنى لأرى أن المشتغلات بالتعليم يوم مارست ملك تلك المهنة وكانت تعانى الدفاع عن امتهانها كمهنة دون أن تـكون فى حاجة مادية إلى الـكسب منها ، تمتهنها لإيمانها بخدمة المجتمع وخدمة المرأة ، إنى لأراهن عشرات إذ ذاك وهن اليوم حوالى الثلاثين ألفا يشتغلن بمهن التعليم فى شتى فروعه ومختلف درجاته وتنوع بيئاته ومعاهده فى الجمهورية العربية المتحدة . بل امتدت جهودهن إلى سائر البلاد العربية أيضاً . وكذلك عدد المدارس تضاعف مئات المرات ، وفتحت أمام المرأة المتعلمة كل أبواب التخصص فى فروع التعليم العالى ، بل فتحت أمامها مراكز البحث العلمى وأعلى درجات العمل فى مهنة التعليم .

إنى لأرى كل هذا فأقول : أكان كله من جهاد ملك ؟ كلا : ولـكن بعضه ولا شك يعود إليها . إن الإصلاح لايمكن أن يتم نتيجة مجهود فرد، إنه يتم نتيجة تضافر آلاف الجهود ، و يثمر بعد أن يرويه عرق الملايين .

لقد دعا الطهطاوى وعلى مبارك ومحمـد عبده وقاسم أمين كما دعت عائشة

التيمورية وملك وهدى شعراوى وغيرهن من السيدات العربيات إلى تعليم المرأة ، ولكن قاسم أمين وهدى شعراوى وحدهما جعلا إصلاح أحوال المرأة رسالة لحياتهما . ولو قد امتد العمر بملك لأدت للمرأة أضعاف ما قدمت ، ولكن يكفيها أنها كانت رائدة فى الميدان ، فلم تحمل امرأة قبلها على عاتقها دعوة الإصلاح فى أحوال المرأة بمثل هذ الوضوح والتخصص والحماس . وهل نريد من رائدة فى زمانها — عدا عليها الموت قبل أوانه — أن تقدم أكثر مما قدمت .

ولو عاشت ملك اليوم لكانت رائدة مرة أخرى ، رائدة تدعو إلى تعميق جذور النهضة النسائية وامتداد فروعها لتشمل المرأة العربية بعامة . لقد جاءت ثورة مصر وما كادت تخلص من الاستعمار حتى قررت للمرأة حقوقها السياسية كاملة دون مماطلة أو مساومة أو تفتيت ، وجاء ميثاق الثورة الاشتراكى ، فقرر مساواة المرأة بالرجل وإسقاط الأغلال عنها التى تعوق حركتها لتشارك بعمق وإيجابية فى صنع الحياة ، وإزاء هذه الأسس يتضح الطريق وتبدأ المرأة تمهد العمل القومى الجاد العسير الطويل . عهد العمل على رفع مستوى المرأة العربية وتمكين المرأة العربية ، بل المرأة فى كل مكان من أن تؤدى دورها الإيجابى فى المجتمع ودورها المقدس فى إخراج جيل أكمل وأسعد من كل جيل سبق .

لقد اجتمع الرجال لتأبين ملك قبل أن يجتمع النساء لتأبينها ، وفى هذا دليل على أن الدعوة الصالحة : دعوة نهضة المرأة العربية ليست حرباً بين جنسين . فالعربية لم تحارب الرجل ولم يحاربها ، بل إن أكثر مكاسبها كانت نتيجة جهود متضافرة من النساء والرجال على السواء ، ونضجت حركة تحرير المرأة وأصبحنا نرى المجتمع كله وحدة متماسكة ؛ أية مشكلة فيه هى مشكلة الجميع

وأى خلل فيه يصيب الـكيان كله بالمرض والفوضى . وهكذا بفضل ملك وأمثالها ممن تزعمن الحركة النسائية فى الشرق العربى لم تأخذ الحركة صورة من صور الانحراف أو المبالغة ولا صورة من صور الخلط أو العنف ، و إنما سارت الحركة ببركة الدين الإسلامى الحنيف فى مدار واضح و إلى غايات لا يختلف حول جوهرها رجال ولا نساء ؟

سهير القلماوى

باحثة البادية

بقلم شقيقها

مجد الدين حفني ناصف

— ولدت بالجمالية في القاهرة في ٢٥ من ديسمبر عام ١٨٨٦
— نالت الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٠
— نجحت في دبلوم المعلمات السنية عام ١٩٠٣
— تسلمتها بعد التمرين عام ١٩٠٥
— تزوجت عبد الستار الباسل (بالفيوم) في مارس عام ١٩٠٧
— أول من نالت دبلوما من مدارس الحكومة المصرية وأول خطيبة مصرية ، وأول من مثلت النساء في مؤتمر عام ١٩١١
— توفيت في ١٦ من أكتوبر عام ١٩١٨
— نظمت الشعر في الحادية عشرة
— أكبر كاتبة اجتماعية .

كتاب النسائيات

طبعت (ملك) في حياتها الجزء الأول من كتابها « النسائيات » في مطبعة « الجريدة » ، وكان يضم ٢٤ مقالا وخطبتين وقصيدة واحدة بين مقدمة لأحمد لطفي السيد وتقاريظ لبعض علماء ذلك العصر .

وفي سنة ١٩٢٠ أعادت « المكتبة التجارية » طبع الكتاب في مطبعة التقدم بعد أن أضافت إليه مراسلات بين (ملك) و (مي) ، وترجمة للباحثة كنتُ قدمتُ بها لكتابي (تحرير المرأة في الإسلام) مع عدد جد قليل

من الخطب والقصائد التى قيلت بعد وفاتها ، وأسمت هذه المجموعة « النسائيات ، الجزء الأول والثانى » .

ولما كانت (ملك) قد توفيت بعد ظهور كتابها بعشر سنوات وتخلف كثير من القصائد والخطب والإرشادات والمقالات الناضجة المدروسة ، رأيت أن أجمعه من الجرائد والمجلات والكتب والأفراد مسترشداً بالذاكرة التى تكاد تعى — حتى فى هذه السن — كل حركات (ملك) ما صغر منها وما كبر . وأعتقد أن هذا القدر يكفى لإبراز شخصيتها وتصوير جهادها تصويراً حياً .

هذا ومن يراجع ما حوته الكتب والجرائد والمجلات عقب وفاتها وفى مناسبات حفلات التأبين والذكريات السنوية بالمحافل والإذاعة يجد من القصائد والبحوث مالا يكاد يدخل تحت حصر ، وبما أن صدى وفاتها يعد امتداداً لحياتها فقد اجتزأت منه بالقليل عن الكثير ودونته فى آخر الكتاب .

وها أنا ذا قد سلخت نيفاً وأربعين عاماً فى إحياء هذه الذكرى على قدر جهدى المتواضع . ولكن الكثير سيبقى فى طى النسيان حتى يحظى بلفتة من هيئة حكومية أو مؤسسة أدبية أو اجتماعية تنقب عنه فتخرج من كنوزه قدراً أوفر أو تدرسه دراسة أعمق .

وقد قال الشيخ أحمد السكندرى فى كتابه (الوسيط فى الأدب العربى) : « إنها بدأت تضع كتابا فى (حقوق النساء) أنجزت منه ثلاث مقالات : الأولى فى الموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة المتمدينة الغربية فى الحقوق المالية . والثانية فى حقوق المرأة المسلمة من جهة إدارة الأعمال العامة . والثالثة فى حقوق المرأة المسلمة من جهة الانتخاب » .

بعض المراجع

لقـد دخلت (باحثة البادية) التاريخ ووجب أن تـكون حياتها محلّ درس الباحثين . ولذا أبادر بتدوين بعض المراجع التى قد تُعين على ذلك .

(١) Islam & Modernism in Egypt, by Dr. Charles Adams (Oxford University Press, London)

كتاب (الإسلام والتجديد فى مصر) الذى قدّمه الباحث الأمريكى الدكتور تشارلز أدامز رسالةً للدكتوراه فى جامعة تشكاجو ، ثم طبعه فى مطبعة جامعة أكسفورد بلندن عام ١٩٣٣ ، والذى ترجمه الأستاذ عباس محمود ، وقدّم له الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة والوزير وشيخ الجامع الأزهر الأسبق. راجع الفهرسة تحت حرف (ب) باحثة البادية ، وحرف (ح) حفنى ناصف . وفى آخر هذا الـكتاب ننقل بعض ماقال ذلك المؤلف عنها .

(٢) A Woman's Winter in Africa, by Mrs. Charlotte Cameroon, F.R.Q.S. (London)

كتاب (شتاء امرأة فى إفريقيا) تأليف السيـدة تشارلوت كرون عضو الجمعية الجغرافية الملـكية بلندن . وهذا الـكتاب هو الذى نالت بمقتضاه ذلك اللقب . وقد جاء ذكر (ملك) فى فصل بعنوان (قناة السويس) لأن المؤلفة قطعت رحلتها ببورسعيد وزارت بادية الفيوم خصيصا للتعرف إلى الباحثة، ثم عادت فلحقت بالباخرة فى السويس .

(٣) The Egyptian Woman, by Mrs. Elizabeth Cooper, (New York.)

كتاب (المرأة المصرية) بقلم السيدة إليزابيث كوبر ، طبع فى نيويورك ، وكان الإهداء : (إلى ملك الباسل) .

(٤) Die Moderne Fran, Dr Elowi, Berlin 1921

كتاب (المرأة الحديثة) ألفه الدكتور علوى وطبعه فى برلين سنة ١٩٢١ .

(٥) Die Islamische Frau, Gechrieben Dr. Elowi,Verlag 10 Karl Str. , Berlin.

كتاب (المرأة المسلمة) ألّفه الدكتور علوى وطبعه فى برلين .

(٦) Stimmen des Orients, No 7,20 januar

مجلة (صوت الشرق) برلين فى ٢٠ يناير سنة ١٩٢٣ .

(٧) Revue du monde Musulman,volume XII Novembre1910 — Numero XI ,Page 463, par Professeur Massignon.

مجلة (العـالم الإسلامى) الصادرة بباريس فى نوفمبر سنة ١٩١٠ . بحث بقلم المستشرق ماسنيون .

(٨) كتاب (الوسيط فى الأدب العربى) للشيخ أحمد السكندرى .

(٩) كتاب (باحثة البادية)تأليف الآنسة (مىّ) ، وفيه تحليل شامل لـكتاب (النسائيات) الأول مع بعض الرسائل والمراثى ، وقد تُرجم هذا الـكتاب فى أمريكا.

(١٠) كتاب (مىّ زيادة مع رائدات النهضة الحديثة) للدكتور منصور فهمى (باشا) الذى كان مديراً لجامعة الإسكندرية ، وهو يضم مجموعة محاضرات ألقاها فى معهد الدراسات العربية العالية التابعة لجامعة الدول العربية (من صفحة ٥٣ إلى صفحة ٩٧ تحت عنوان : (حياة الرائدة باحثة البادية) .

(١١) كتاب (المرأة والسياسة) ويضم أبحاثاً لبعض كتاب الغرب المعروفين ، عرّبه محمد عبد العزيز الصدر وطبعه بـ (المـكتبة التجارية) و به نبذة عن (ملك) منقولة عن كتاب (المرأة المصرية) الذى سبقت الإشارة إليه .

(١٢) كتاب (الشعر النسائى العصرى وشهيدات نجومه) طبعته سنة ١٩٢٩ مكتبة الوفد لصاحبها محمود محمد .

(١٣) مجلة (الحياة الجديدة) لصاحبتها حبوبة حداد، عدد يونيو سنة ١٩٢١ الذى طبع بباريز باللغة العربية .

(١٤) كتاب (منهج الأدب) الجزء الثانى تأليف الشيخ عبد الله عفيفى .

(١٥) كتاب (الشذرات) تأليف محمد على المنياوى .

(١٦) كتاب (ذكرى باحثة البادية) للسيدة بلسم عبد الملك طبع سنة ١٩١٩ .

(١٧) كتاب (جواهر الأدب) للشيخ أحمد الهاشمى .

(١٨) مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول بهليوبوليس سنة ١٩١١ طبع بالمطبعة الأميرية باللغتين العربية والفرنسية .

(١٩) كتاب (تحرير المرأة فى الإسلام) الذى ألّفه مجد الدين حفنى ناصف وطبعه بالقاهرة سنة ١٩٢٤ ووقفه لمساعدة مستوصف الاتحاد النسائى المصرى .

(٢٠) مجموعات المجلات والجرائد المصرية عقب الوفاة — ومنها : المنار ، والمحروسة ، والنظام ، والأفكار ، والأهرام ، والمقطم — وفى مناسبات حفلات التأبين ، وحول أيام الذكريات السنوية لوفاة الباحثة . ودواوين الشعراء ، ومنها دواوين : حافظ إبراهيم ، وخليل مطران ، وعبد الحليم المصرى ، وأحمد الزين ، والكاشف ، والكاظمى ، والهراوى .

التعليم والثقافة

بدأت (ملك) تعليمها فى المدارس الفرنسية ، ولمّا علم والدها أن نظارة المعارف (وزارة التربية) ستنظّم تعليم البنات على غرار تعليم البنين ألحقها داخلية بمدرسة البنات الحكومية الوحيدة ، وهى المدرسة السنيَّة بالقاهرة ، (وكانت بالسيوفية ثم نقلت إلى المبنى الحالى) .

وكان التعليم فى كل المواد باللغة الفرنسية ، وكانت أول فتاة نالت الشهادة الابتدائية ، ثم التحقت بقسم المعلمات السنية الذى انقلب التعليم فيه جميعاً إلى اللغة الإنجليزية ، ومِنْ مدرِّسيها — الذين ذاع صيتهم فيما بعد — حسن صبرى (باشا) رئيس الوزراء ، والشيخ أحمد إبراهيم أستاذ الشريعة فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، ومس كارتر عميدة مفتشات اللغة الإنجليزية فيما بعد . وكانت ملك أولى الناجحات فى أول امتحان عُقِد لتخريج المعلمات بعد دراسة ثلاث سنوات (وتمرين سنتين بعد ذلك) ومن المصادفات أن الفتاتين اللتين تخرجتا وإياها كانت إحداهما قبطية (فكتوريا عوض — أبادير بعد الزواج) ، والثانية يهودية (اللَّجرة بلاتنر) .

وكانت تستعين فى دراساتها العربية بوالدها حفنى ناصف ، وفى قراءاتها الفرنسية بسيدة فرنسية (تزوجت بمحام إنجليزى فى المحاكم المختلطة بالقاهرة ، عُرفت فيما بعد باسم مسز ديفونشير) ، وفى دراساتها الإنجليزية بالناظرة وهى أديبة من سيدات التربية اسمها مس جُونسون ، مع اقتنائها أمهات الكتب فى اللغات الثلاث . وساعدها على القراءة أمران : الأول أنها كانت قبل زواجها — متعلمةً ومعلمة — بالقسم الداخلى ولم تكد تزايل المدرسة فى أيام الجُمَع والإجازات

القصيرة إذ أن أباها لم يكن يقيم بالقاهرة إلا فى النادر ، لأنه كان قاضياً يتنقل فى ريف مصر . والثانى لأنها بعد الزواج كانت تمضى أغلب أيام السنة فى بادية الفيوم ، ولذا وجدت فى الحالين فسحة من الوقت للاستزادة من العلم والمعرفة ، ودراسة البيئة دراسة هادئة طويلة .

حكم البيئة

١ — كان أبوها من تلاميذ جمال الدين الأفغانى ، ومن أصدقاء الشيخ محمد عبده ، وقد عاصرته وهو يشتغل بالقضاء ، وبالتعليم ، وبالاستزادة من العلم فى مصر والخارج ، وبممارسة الإصلاح ، ومقاومة الفساد والطغيان ؛ فتشبعت بروحه واتخذته مثلا أعلى . وكانت قراءاتها تشحذ منها هذه الهمة لأن هذه القراءات مصرية عربية إسلامية فى إطار من التمدن الغربى .

٢ — نشأت فى منزل لها فيه — غير أبيها وأمها — ستّة من الأخوة — بينهم أختان — كلهم يصغرونها ، وكانت أمهم مريضة معتزلة أغلب الوقت ، وأبوهم دائب العمل ، فأحست نحوهم جميعاً بمسئولية قوية مبكرّة .

٣ — عندما دخلت المدرسة كان تعليم البنات موضع التعيير الجائر من السواد الأعظم من الناس ، ولكنها كانت تقرأ عن شهيرات النساء فى الإسلام فى كتاب (الدر المنثور فى طبقات ربّات الخدور) للسيدة زينب فوار[(١)] ، وفى المراجع التى تطلبها من أبيها للاستزادة من درس هذه البطولات مع البطولات النسائية المماثلة فى الأدب الغربى ، فأحست أن عليها أن تُعدّ نفسها لرسالة جليلة ،

---

(١) هذا الكتاب ترجم فيما بعد (المرحوم) واصف غالى (باشا) ، وطبعه فى باريز طبعة أنيقة Les perles Eparpillées فكان خير دعاية للمرأة العربية فى الغرب .

وهى أن تجندل الأصنام التى بقيت متخلفة عن الجاهلية والاستعمار والتقاليد الظالمة ، وأن تقيم بالعلم والإصلاح كعبة تتيممها المرأة المصرية والعربية ، والمسلمة لتنفض عنها غبار الجهل والتخلف .

٤ — عندما تزوّجت وانتقلت بين البدو لمست البؤس والفساد والرجعية ، كما لمست عِظَم تأخر المرأة وظلم الرجل وأنانيته التى كادت أن تَحْطِم (الباحثة) حَطْماً ، ولم يكن أمامها إلا أن تختار أحد اثنين : إما اليأس والقعود والاستسلام وإما الأمل والنهوض والكفاح ، فاختارت الأمر الثانى ، وارتضت التضحية الكاملة كشأن الأحرار والمؤسسين وسائر الأبرار ، من أصحاب المبادىء والأفكار .

٥ — ولعل واقعة الحال التى أذكرها الآن تُلقى ضوءاً على خُلقها وسماحتها إلى جانب حبها للعلم . عندما أعلن أن (ملك) كانت أول فتاة مصرية نجحت فى امتحان دبلوم المعلمات خفّ إلى بيت أبيها فى طنطا تلميذه عبد العزيز فهمى (باشا) المحامى الأشهر والذى أصبح فيما بعد وزيراً ورئيساً لحزب الأحرار الدستوريين ، وعضو المجمع اللغوى ، والذى بزّ معاصريه فى القانون والأدب والخلق العظيم ، خفَّ ليخطبها فرحَّب به (الأب حفنى) أيما ترحيب ، ولكن (ملك) عندما عرض عليها أبوها أمر هذه الخطبة قالت : «إنها ما تشك فى أنه أكفأ الأكفاء ، ولكنها ما تحب أن تتخلف عن ركب العلم ، وإن اجتياز الامتحان لا يكفى لإثبات أهلية المرأة فيه ، وإن عليها أن تنتظر سنتى التمرين حتى تتسلم الشهادة وتصبح خريجة » .

ثم قالت : وإذا لم يكن فى وسعه الانتظار فلماذا لا يتزوج قريبته وصديقتى

فاطمة ؟ (بنت حشمت باشا الذى أصبح يوماً وزيراً للمعارف) . وحدث أن عبد العزيز فهمى أخذ بهذا الرأى ، وما هو إلا عام واحد حتى أنجبت صديقتها (محمداً) ولكنها ماتت فى إثر ذلك من حمى النفاس ، فرثتها ملك رثاء قلبياً يدل على حب وتقدير للمتوفاة ، وعلى مقدار فجيعتها فى فقدها (والقصيدة فى باب المراثى) . ولا أظن أن مثل هذا الخلق العظيم شائع بين كثير من السيدات فى ظروف متماثلة .

٦ — ومن أمثلة جدها وصبرها على المكاره انها أقامت فى (حلوان) تنشد الجفاف بسبب اشتداد ألم (عرق النساء) عليها ، وقد استدعى لعلاجها الدكتور طلعت (باشا) وطائفة من أشهر أطباء ذلك العصر ، ولما لم تتحسن حالها أشار بعض البدو من قبيلة زوجها بالعلاج على طريقتهم ، وذلك بأن يرسلوا بدويين من لدنهم مختصين يتحسسان العصب من أعلى الفخذ إلى وسط الساق ، ويضعون ثلاث علامات على خط سيره . ويجهزوا ثلاثة مسامير ضخمة (من مسامير تعليق الأستار إذ ذاك) فى موقد حتى يحمر حديدها ثم يكوون بها المواضع الموسومة بدون تخدير ، ويضعون على كل منها واحدة من ورق الخروع ، ولقد أذعنت غير محاولة التأجيل أو طلب التخدير . وكان وقع المسامير المحماة على اللحم فظيعاً فى منظره وصوته . فلم تصرخ حتى لا تهزل فى نظر البدويين ومن يتسامع بالخبر من رجال القبيلة الذين وصفوها بعد ذلك بالشجاعة والإيمان .

ولقد كان هذا الحادث ذا أثر فى أدبها ، فأنت ترى فى إحدى رسالاتها إلى الآنسة (مىّ) أنها عرفت العذاب البدنى ، ولكنها مع هوله قالت : إن عذاب النفس أشد إيلاماً .

جهادها الباكر

١ — بدأت جهادها فى دائرة بيت أبيها الصغيرة : كانت تكرّس إجازاتها الصيفية لإعادة تنظيم البيت وتجديد كلّ ما يلزمه من مخيطات المفروشات وإكمال ما ينقص من أدوات وإعداد ملابس العام لوالديها وإخوتها (ومَن يعملون بالمنزل) . وكانت تعلّم إخوتها دون أن تُشعرهم ، فتقصّ عليهم كلّ ما تصيب من ألوان المعرفة ، وتُناولهم الكُتب ليراجعوا عليها ما حفظته منها ، ثم تحاول أن تثير بينهم المباراة فيمن يحفظ الشعر منهم أو ينظمه ، وتستصحبهم فى غدواتها فى الزيارات وروحاتها فى النزهات والسياحات . وكانت — إذا غابت — دائمة الاتصال بهم عن طريق المراسلة ، والتليفون فيما بعد ، فكان لبيت أبيها نعم العوَن .

٢ — ثم ثنّت جهادها فى دائرة أوسع قليلاً وهى دائرة صديقاتها . فكانت تحبو الفتيات بخالص الودّ والنصح ، وتتحف غيرهن بكثيرٍ مما يُيَسِر عيشهن ومَن يَعُلْن ولا سيما فى المواسم كبدء السنة الدراسية وحلول الشتاء والأعياد وفى المناسبات الخاصة كالسفر والزواج والوفاة .

٣ — ثم وسّعت دائرة جهادها تلقاء الاتجاه العام ، فكانت تؤم بيوت صاحباتها ومعارفها وما تزال بهن حتى ترسلن بناتهنّ إلى المدرسة السنّية ، على أن ترعى هى أولئك الصغيرات رعاية خاصة . وبذلك دخل هذه المدرسة فى عهد (ملك) كثيرات ممّن كان أهلوهن يُبقينهن فى البيت أو يُؤثرن إرسالهن إلى المدارس الأجنبية التى كانت إذ ذاك لا تلقن التلميذات شيئاً من لغة البلاد أو تاريخها أو قوميتها أو دينها فينشأن نشأةً أجنبية بحتة .

ولمّا أن نجحت فى الشهادات الدراسية وعلّمت فى القسم العالى الذى تخرّجت فيه ، ونظَمت فى صغرها شعراً نشرته الجرائد ، تشجّع الآباء والأمّهات، وأقبلت البنات حتى كادت المدرسة السنية أن تصبح مدرسة (ملك) . وآيةُ ذلك أنها عندما زايلتها إلى بيت الزوجية انسحبت منها فوراً ٧٥ تلميذة دفعة واحدة

وتؤكد تلميذاتها أنها كانت أمّاً عَطوفة ومرشدةً غيورة ومدرّسة مطبوعة ، وكانت فى الإجازات كلّما رأت شيئاً يسهّلُ المعرفة للطالبات أو صادفت كتاباً سهلاً يُيَسِّر ثقافتهن اشترت منه ما يكفى لإهدائه إلى الفرقة الدراسية المعنيّة . فهى تتُوق إلى تشريب تلميذاتها كلّ ما تعرف لتنهض بهن .

ومن الطريف أن أباها لقى مدرّسيها — وهى بعدُ فى أولى مراحل التعليم — فشكوا من (عفرتتها) . فالتفتَ إلى حسن صبرى قائلاً : لعلّها هادئة فى درسك ؛ لأنك الوحيد الذى لم يشكُها إلىّ . فأجاب المدرس : لا ، ولكنى لم أشأ أن أثقل عليك ، ولم تكد (ملك) بعد ذلك تسمع بغضب معلّميها وعدم ارتياح والدها حتى بكت ثم صمّمت على أن تصبح أكثر زميلاتها هدوءاً وأحسنهم التفاتاً ، فأصبحت أولاهن حتى آخر مراحل التعليم ، وأصبحت معلمة مثالية ، وأمست رائدة غيورة . فهل يصح أنّ ذهنها الصغير إذ ذاك تصوّر النصَب الذى يكابده المعلم ، والألم الذى يمضّ الوالد ، والأمل الذى تتوسمه الأمة ؟

٤ — وعندما أذيع إحياء مشروع الجامعة المصرية كانت (ملك) الآنسة الوحيدة التى ألفت لجنة وجمعت قدراً من المال ذُكر على وجه التحديد فى التقرير الأول الذى رُفع إلى رئيس الجامعة . ولم يكن هذا التصرف مما يرضى

عنه المستشار الإنجليزى لوزارة المعارف (التربية) ولـكن وطنيتها تغلبت على مقتضيات وظيفتها .

٥ — وعندما تزوجت وانتقلت إلى قصر الباسل (أبو حامد ـ قلمشاة ـ الفيوم) ألفت الأعراب يعيشون فى حالة بدائية لا يعرفون العلم ولا النظافة ولا الصحة ولا الإنسانية إلاّ بالسماع . ووجدت ساداتهم وكبراءهم ـ وكانوا من أرباع المتعلمين ـ ينعمون بجهل أولئك وإملاقهم وتأخرهم . فعمدت (ملك) بعد لأىٍ إلى إرسال بنيهم و بناتهم إلى بعض مدارس الفيوم والقاهرة و إلى إعطاء المتخلفين الفرصة فى مكتبٍ بالقرية وفى عنايتها بصحتهم وملبسهم وتغذيتهم ورفع مستواهم بما كانت تقُوم به شخصيا دون عون . فإذا وفدت على القاهرة للعمل أو العلاج أو لشأنٍ من شئون الأسرة أرسلوا فى إثرها عشرات النساء والفتيات : فهذى تريد أن تشترى ، وتلك تبغى العلاج ، والأخرى ترغب فى غير ذلك . و يعلم من شهدوا تلك البيئة ـ قبل زواج ملك وفى أخريات سنيها هناك ـ أنها استطاعت ـ بعد أحد عشر عاماً ونصف عام . قضتها هناك بين الزواج والموت ـ أن تقلب هذه البقعة إلى منطقة من أكثر مناطق الريف مدنية على حدّ قول حافظ ابراهيم إذ يرثيها :

سادت على أهل القصو ... رِ وسَوّدت أهلَ الوبرْ

وساعدها على ذلك أنها فهمت فى سرعةٍ الغريبَ من عاداتهم وعرفت لهجتهم وحفظتْ أمثالهم .

مقالاتها ومذهبها

وفى إبان هذه الفترة كان قاسم أمين قد أصدر كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ولم تكن الأذهان مهيأةً لتحرير المرأة بمثل هذه الصراحة وفى مثل المباغتة التى جابهَ بهـا البلاد المصرية والعربية والإسلامية والتى أثارت نسور الرجعية من أوكارِها إثارةً جعلتها تنهش إصلاح شئون المرأة نهشاً كاد أن يقضى عليها قضاءً مبرماً . ويكفيك أن تعلم أن الكتب التى انبرت للردّ على قاسم أمين أربت على المائة ، أحدها للاقتصادى الكبير طلعت حرب . هذا إلى سيل من المقالات فى الصحف وغَدَقٍ من المحاضرات فى الأنديةِ العامة .

تنبهت (ملك) إلى أن الطفرة من المحال . فأخذت تبدأ بمـا هو ألزم للإصلاح مما لا يتعارض والدين أو التقاليد . قالت (مىّ) فى ذلك : « إنها كانت تسير بتحفظ بين تشعب الأفكار الجديدة والآداب المستحدثة . وكلّما خطت خطوة التفتت إلى الوراء لتتثبّت من أنها تابعة السبيل الذى يربط الأمس بالغد ، وكلّما جاءت بتبديل فى النصوص الإصلاحية حاولت سَبْكه فى قالب الاعتدال » . فلقيت إقبالاً لم يلقَه قبلها صاحب مذهب جديد . وآية ذلك أن بين الذين قرّظوا كتابها غلاة المحافظين وغلاة المجددين . مثال ذلك :

قال الشيخ حسين والى الذى كان وكيل الجامع الأزهر : « أرانى كتابُك علمَ عائشة بنت الصدّيق وأدب سكينة بنت الحسين وأذكرَنى عهد الحضارة الإسلامية » .

وقال الشيخ عبد العزيز جاويش : « لقد وفقّ الله لهذه الأمة سيدة كاتبات هذا العصر وأستاذة المربيات فى مصر فوضعت هـذه العجالات

التى ستكون فاتحة تاريخ جديد للتربية الصحيحة القويمة التى أساسها إصلاح المرأة والرجل » .

وقال الدكتور شبلى شميل : « علمها الواسع لم يُبقِ فى رأسها عقماً كما هى الحال فى رءوس أكثر رجالنا حتى اليوم وكأنها فى ذلك سلكت مسلك دارون نفسه فى العلوم الطبيعية إذ حصر الخلْق فى أصول قليلة تفرّعت منها الأنواع الكثيرة بعد ذلك بالنشوء والتحوّل حذراً من تصعيب المطلب على أصحاب الحق أنفسهم » .

وقال الشيخ عبد الكريم سلْمان كبير مفتشى المحاكم الشرعية العليا : « إنها وضعت أساساً للمستقبل لبناء جديد يُخرج المرأة إلى عالم المشاركة الحقيقية للرجل ، وبهذا يكون لهذه السيدة فضل المؤسسين » .

وبعد وفاة ملك قال الدكتور تشارلز أدامز فى كتابه سالف الذكر : « وأؤكد لك أنها سارت على نهج الإمام الشيخ محمد عبده فى التوفيق بين المدنية الغربية والعلم الغربى وبين الحياة الاجتماعية والدينية والأدبية فى مصر » .

وكل هذا يطابق قولها من قصيدة لها فى رثاء الشيخ محمد عبده :

والعلْم والدينُ للجنسين مُطَّلبٌ ... فليس يختصّ جنسٌ منهما بهما

وقد لخص هذه الأراء الدكتور منصور فهمى وهو يتكلم عن باحثة البادية فى كتابه (مىّ زيادة) فقال : « وكانت ترسم خطوط الإصلاح وهى متّسمة بميسمها الشرقى والمصرى والإسلامى ، وتعتزّ بكثير من مقومات مصر والشرق والإسلام مادامت تلك المقومات لا تُجافى الطبع السليم فى شىء ، فمن أجل ذلك كلّه كانت صلتها وثيقة بالميدان الذى تعمل فيه ، ومن ثم كان لصوتها صدىً مسموع ، وكان توجيهها مطاعاً مقبولاً » .

وقد نشرت أغلب مقالاتها فى (الجريدة) التى كان رئيس تحريرها الأستاذ أحمد لطفى السيد والتى أفسحت صدرها للدعوة إلى الإصلاح .

وكانت كلّما أريدَ إحراجها للتصريح برأيهافى السفور أو الحجاب تجيب : علّموا البنت ثم اتركوا لها الاختيار . قالت من قصيدتها (رأى فى الحجاب) .

ليس السفورُ مع العفافِ بضائرٍ وبدونه فرطُ التحجُّب لا يَقى

الخطب

ولمّا أخذ الوعى النسائى يتفتح بقراءة مقالاتها وما أثارته من جدل ، خطَت خطوةً أخرى فألقت محاضرات عامة على السيدات ، ألقت أولاها فى دار (الجريدة) ثم اتجهت إلى الجامعة المصرية وألقت عليهن خطباً أخرى فيها وفى دور الجمعيات التى أسستها ، وكلها نسائية بحتة .

وكانت الخطابة من أدواتها الطيعة ذات التأثير المباشر . قال أحمد زكى باشا (الذى كانوا يسمونه : باشا العروبة) : « لقد أعادت لنا ذلك العصر الذهبى الذى كانت فيه ذوات العصائب يناضلن أرباب العمائم فى ميدان الكتابة والخطابة بعد أن نظمت معالم هذه السنة منذ ست مئين من السنين » .

الجمعيات التى أسستْها

١ — أسست (اتحاد النساء التهذيبى) وكان يضم كثيراً من السيدات من مصر والبلاد العربية الأخرى وبعض الأجنبيات . وكان هذا الاتحاد مصدر توجيه للسيدات والفتيات ومركز إشعاع لهن .

٢ — جمعية للتمريض على غرار الصليب الأحمر (وتأسس الهلال الأحمر بعد ذلك بقليل) لإرسال الأدوية والأغطية والملابس والأغذية إلى الجهات المنكوبة بمصر ، وإلى البلاد الشقيقة كلّما مست الحاجة . وأذكر أن المحاربين

العرب فى طرابلس الغرب عندما دهمهم الجيش الإيطالى بقوات غير متكافئة فى العَدد والعُدد ، واشتدت بهم الحاجة زاد نشاط هذه الجمعية . وأذكر أنها خاطت بيديها مائة بذلة للجرحى ، فلما سألتُها : لماذا لا تُؤجِر مَن يخيطها ؟ قالت : يحسُن أن نُحِسّ ببعض التعب ليزداد شعورنا بالواجب .

٣ — مدرسة لتعليم السيدات التمريض ، أنشأتها فى بيتها إذ ذاك (بشارع أفراح الأنجال بالمنيرة) ، وعلى حسابها الخاص بما فى ذلك الأدوات الضرورية ومكافآت المدرسات والعاملات ؛ وكانت تسند رئاسة هذه الجمعيات إلى غيرها لتبعد نفسها عن المنافسة وتتفرغ للعمل .

٤ و ٥ — ووضعت برنامجاً لمشغل للفتيات وملجأ للمعوزات . وكانت تملك خمسة وثلاثين فداناً بالفيوم (اشترتها بحرّ مالها الذى ادخرته مما أخذته من والدها ، ومن بيع الجواهر التى أهدتها إليها بعض الأميرات والمصريات الكبيرات) وقررت أن تهب هذه الأرض للمشغل والملجأ . وإذا كانت فى حياتها قد حققت كثيراً من أهدافها فى هدوء ، فقد فاتها تأسيس المشغل والملجأ لأن الموت دهمها فى الثانية والثلاثين من عمرها . وقد آل نصف هذه الأرض مع كل مابقى لديها من مصوغات إلى زوجها السرى الأمثل عبد الستار الباسل الذى كان يملك وحده ألفين من الأفدنة .

أول من مثلت النساء فى مؤتمر

فى سنة ١٩١١ عقد بدار سينما روكسى الشتوية ، بمصر الجديدة ، المؤتمر المصرى الأول برياسة صاحب الدولة رياض باشا ، وحضور الممثلين الحقيقيين لجميع أنحاء القطر المصرى ، لبحث شتّى الإصلاحات والتوجيهات التى

يجدر بالأمة والحكومة انتهاجها . وكان هذا — فى واقع الأمر — أول برلمان مصرى يمثل الأمة تمثيلا حقيقياً ، ويبحث حاجاتها بحثاً مدروساً مفصلا شاملا المرافق والإحصاءات . وقد طبعت أعماله فى مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول (الذى عقد من يوم السبت ٣٠ من ربيع الثانى سنة ١٣٢٩ الموافق ٢٩ من أبريل سنة ١٩١١ ، إلى يوم الأربعاء ٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٢٩ الموافق ٤ من مايو سنة ١٩١١) ، تلك المجموعة التى طبعتها المطبعة الأميرية بالعربية فى ٢٠٤ من صفحات القطع الكبير ، كما طبعت لها ترجمة فرنسية كاملة .

رأت (ملك) فى آخر لحظة أن المطالب التى قدمت إلى المؤتمر ليتوفر على درسها تشمل جميع مناحى الإصلاح جملةً وتفصيلاً ، فيما عدا شئون المرأة ، فسارعت إلى تقديم مطالب النساء باسم نصف الأمة .

وقد نقل الدكتور تشارلز آدمز (فى صفحة ٢٢٨ من الترجمة العربية) لكتابه « الإصلاح والتجديد فى مصر » المطالب التى قدمتها باحثة البادية فى محاولة باكرة حسبما وردت فى أولى محاضراتها فى دار (الجريدة) قال :

« وكانت تودّ أن يصدر تشريع يتضمّن أراءها فى هذه الشئون ، وتتلخص فى النقط العشرة الآتية :

١ — تعليم البنات الدين الصحيح ، أى تعاليم القرآن والسنة الصحيحة .

٢ — تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى ، وجعل التعليم الأوّلى إجبارياً لجميع الطبقات .

٣ — تعليم التدبير المنزلى علماً وعملاً ، وقانون الصحة ، وتربية الأطفال والإسعافات الطبية الوقتية .

٤ — تخصيص عدد من البنات لتعلّم الطب بأكمله وكذلك فنّ التعليم حتى يقمن بكفاية النساء فى مصر .

٥ — إطلاق الحرية فى تعلّم غير ذلك من العلوم العالية لمن تريد .

٦ — تعويد البنات من صغرهن الصدق فى القول والجدّ فى العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل .

٧ — اتباع الطريقة الشرعية فى الخِطبة ، فلا يتزوج اثنان قبلَ أن يجتمعا بحضور محْرم .

٨ — اتباع عادة نساء الأتراك بالأستانة فى الحجاب والخروج .

٩ — المحافظة على مصلحة الوطن ، والاستغناء عن الغريب من الأشياء والناس بقدر الإمكان .

١٠ — على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا » .

ولكن هذه ليست المطالب التى وصفها الأستاذ السكندرى فى كتابه « الوسيط فى الأدب العربى » بأنها « رسالة ضافية قدمتها للمؤتمر » .

أما تلك الرسالة فقد وردت فى مجموعة أعمال المؤتمر من صفحة ٦٨ إلى صفحة ٧١ وقد نقلتُها فى مكان آخر من هذا الكتاب كاملة .

ومما أضافته فيها على ماورد فى خطبتها الأولى :

تخصيص باب ومكان محجوز فى المساجد للنساء كى يقمن الصلاة ويسمعن الوعظ ، ومربية مسلمة فى كلّ مدرسة للبنات تؤمّهن وترشدهن .

التوسع فى تعليم الفتيات التمريض ، وإطلاق تعليم الفتيات الطب بأكمله ،

وإباحة التعليم العالى فى الفروع الأخرى لمن تريد منهن ، والإكثار من المستشفيات والمستوصفات فى المراكز والقرى لتيسير علاج الفقيرات والفقراء وأطفالهم ، وصرف الدواء لهن مجاناً أو بأجر زهيد ، ونشر الوعى الصحّى .

جعل الطلاق وتعدد الزوجات بإذن من القاضى .

نشر الصناعات الملائمة للفتيات كالحياكة ، والقيام على الأطفال والخدمة للاستغناء عن خدمة الأجنبيات .

يحرّم على النساء السير فى الجنازات واللطم والندب ، وضرورة نقل الموتى فى عربات بعد الصلاة عليهم فى أقرب مسجد .

تخصيص بوليس للآداب لحماية النساء من مضايقة الشبان لهن.

هذا بعض ما زادته فى المؤتمر ، ويرى قارئ مقالاتها أنها فيها قد عالجت فيما عالجت : تحديد سن الزواج ، وأخطاء النساء التى تسبب شقاء الأسرة ، ومساوئ الرجل الذى يضيّع تأثيره الحسن فى الأسرة ، ومساوئ المرأة ، وقد طلبت (ملك) إلى المرأة « أن تقتصد فى زينتها، ولاتجعلها مشغَلةً لها ولا عبئاً ثقيلا ينوء بها بعلها » .

ومثل هذا هو الذى حدا حافظاً إلى أن يقول فى مرثيته إياها :

فانظُرْ شمائلَ فِكْرِها باللهِ يوم المؤتمـــرْ
واقرأْ محاضرة (الجريـ ـدةِ) والمقالاتِ الغُرَرْ

فأنت ترى أنها فى ذلك الوقت الباكر الذى يسوده الجهل ، والجبن ، والتأخر المركّب ، طالبتْ بكل الإصلاحات التى تمت منذ ذلك الوقت حتى الآن ، والتى ما يزال بعضها رهن التحقيق .

التعليم

أما عن تأثير التعليم على (ملك) فإن دخولها المدارس الفرنسية أول الأمر ، ثم التحاقها بالمدرسة الحكومية الوحيدة لدى أول تجربة لتنظيم تعليم البنات ، وقراءاتها ، ومراسلاتها مع أعلام نهضة المرأة فى العالم ، وأسفارها إلى اليونان وتركيا ، واختلاطها بالراقيات من الأجنبيات ، كل ذلك قد ساعدها على تقديم اقتراحات عملية ، والسعى لتحقيق مصلحة تعليم البنات ، سواء فيما يخص المواد العلمية أو العملية أو المنزلية ، أو التربية الخلقية وآداب المجتمع . وترى كثيراً من ذلك متناثراً فى خطبها وتقاريرها ومقالاتها وشعرها .

فهى إذن الرائدة الأولى فى تعليم البنات ، كما هى الرائدة الأولى فى رد اعتبار المرأة إليها وتحسين حال الأسرة ، وهى التى وضعت الأسس المتينة لمتابعة البحث والإصلاح لمن لحق بها من المصلحات والمصلحين .

شعرها ووطنيتها

يقول السكندرى فى «الوسيط» : « شعرها حسن الديباجة ، جميل الأسلوب بعد الدرجة الوسطى من شعراء هذا العصر :

ويقول حافظ فى مرثيته :

لله درُّك إن نَظَمتِ ودرُّ حفنى إن نـــثر

وقد أشار سائر الكتاب والشعراء إلى مقدرتها فى قرض الشعر . وأقول : إن مداومتها على حفظ شعر المتنبى ، والبحترى ، والبارودى ، وشوقى ، وحفنى ناصف وغيرهم

الشعراء القدامى والمحدثين ، والوراثة التى انتقلت إليها من أبيها ، جعلاها تقرض جيد الشعر فى سن جدّ باكرة ، وفى غير هذا المكان من الكتاب أول قصيدة نشرتها لها الجرائد فى الثالثة عشرة من عمرها ، ومطلعها :

بشرى لمصر فقد نالت أمانيها   وأنجح اللهُ بالحسنى مساعيها

وفيه آخر قصيدة لها ، وهى التى ردّت بها على شوقى ، والتى أولها .

يا هـذه لا تعذلى   وإذا أبيتِ فقلّلى

والتى منها :

ماذا فهمتِ من الكنا   رِ ومن حديث البلبل
حتى سخطت على المعيـ   شة فى ظلال المنزل
ووددت أن تجـدى مُقا   ماً بالعـــراء فتنزلى
أو دمنة عند اللوى   بين الدَّخول فحومل

ومنها يبدو هضمها للمعلقات . وأغلب شعرها، فيما بين هاتين القصيدتين ، من الأدب الهادف ، مثال ذلك قولها فى مرثيتها للإمام الشيخ محمد عبده :

والعلمُ والدِّين للجنسين مطّلَبٌ   فليس يختصُّ جنسٌ منهما بهما

وقولها فى قصيدتها (رأى فى الحجاب) :

أيسوؤكم منّا قيامُ نذيرةٍ   تحمى حماكُم من بلاء مُحْدِقِ
أيسرُّكم أن تستمرَّ بناتكم   رهن الإسار ورهن جهلٍ مطبقِ

وقولها بعد ذلك :

تتنقّلون لمنتدّى من قهوةٍ ونساؤكم فى ألفِ بابٍ مغلقِ
لا تدخلون الدورَ إلاّ برهةً ترِدُونها لضرورةٍ كالفندقِ
اليوم عرسٌ باهظٌ نفقاته وغداً تقام قضية لمطلَّقِ
ليس السفور مع الحجاب بضائرٍ وبدونه فرْط التحجُّب لا يقى

وكانت فى الأزمات الوطنية تلهب الشعور بشعرها حين قَبَعَ الرجال . مثال ذلك قصيدتها لدى إحياء قانون المطبوعات سنة ١٩٠٩ التى أولها :

يَا أمّةً نثرَتْ منظومَها الغِيَرُ حتّام صبرٌ ونارُ الشَرِّ تستعِرُ
ماذا تقولون فى ضيمٍ يُرَاد بكُمْ حتى كأنكمو الأوتادُ والُحْمُرُ

والتى ختامها :

إن الشكاة بخَارٌ جائشٌ فإذا سدَدْتَ مرجلَه لا شك ينفجرُ

أدبها ووطنيتها

قال أحمد لطفى السيد فى مقدمته لكتابها (النسائيات) :

... « فأما انتقاد رسائلها من جهة صناعة الكتابة فحسبى أن أقرر فى غير محاباة أنها أ كتَبُ سيدة قرأنا كتاباتها فى عصرنا الحاضر ، بل هى تعطينا فى كتاباتها صورة الكاتبات الغربيات اللائى تفوقن على كثير من الكتاب » .

وقال السكندرى : « إن الناظر فى كتاباتها المختلفة يرى عبارة سهلة صحيحة الألفاظ ، عربية الأسلوب ، خالية من تصنّع السجع وتمحُّل البديع ، وقد عُنِى فيها بدلالاتها على المعانى تمام الدلالة ، كما عُنِى فيها بنشر ألفاظ حديثة للمسميات التى تسربت إلى الشرقيات من المدنية الغربية » ...

وحسبك أن تقرأ مقالها فى (وصف البحر) ورسائلها إلى (مىّ) لترى عمق الخيال وسعة الاطلاع ، ورصانة الأسلوب مع سهولته وامتناعه .

وهى أصلاً لا تكتب فى السياسة ولا فى الحماسة ، ولكن قلمها – كلما دُعى إليهما – يلبىّ فى قوةٍ وإقدام ، كما ترى فى مقاليها – عندما اعتدى الطليان على فتاة عربية فى طرابلس الغرب ، وعندما تزوّجت مصريةٌ مسلمة من انجليزى فى القاهرة – المنشورين بعدُ . وفى هذا كلّه وذاك يحسُن أن تبقى الصورة كاملة ، كما ترى فى غير هذا المكان ، فقد يخلّ بروعتهما الاجتزاء .

الدعاية للمرأة العربية

كانت (ملك) لا تنفك تسعى لرفعة شأن المرأة العربية وإعلاء ذكْرها بين الأمصار :

١ — كانت تراسل أميرة (بهوپال) المسلمة بالهند وتقدّم لها المشاريع لرفع مستوى المرأة هناك ، مبتدئة بتعليم الفتيات المسلمات . وكانت تنوى أن تسافر إلى الهند للإشراف على البداية ولكن المنيّة عاجلتها .

٢ — وكانت تتّصل بالسيدة (خالدة أديب) التركية التى أصبحت فيما بعد أول وزيرة فى البلاد الإسلامية الحديثة ، إذ اختارها كمال أتاتورك وزيرة للمعارف فى أول وزارة شكلّها . وعندما سافرت إلى تركيا سنة ١٩٠٨ — عقب إعلان الدستور العثمانى وعزل السلطان عبد الحميد — لقيتْها وتذاكرت وإياها فى رفع شأن المرأة المسلمة ، وعن طريقها نشرت سلسلة مقالات فى جريدة جون تورك (تركيا الفتاة) .

٣ — وبعدما زارتها فى الفيوم الكاتبةُ الإنجليزية مسز تشارلوت كمرون

كتبت فى كتابها (شتاء امرأة فى إفريقيا) فى الفصل المُعَنْون (قناة السويس) دفاعاً عن المرأة المسلمة كما وضّحتْ لها (ملك) التى أخذت ، عن طريق تلك السيدة كذلك ، تنشر مثل ذلك الدفاع . وقد أحبّتْ (ملك) وقدّرتها و وثقت فى علمها وكفايتها ، وعبرّت عن ذلك بقولها عنها فى كتابها : « وإنها لتناقشك فى دارون وسبنسر بشكل يدعو إلى الإعجاب » .

٤ — ووفدت على مصر كاتبة أمريكية اسمها (اليزابيث كوبر) ونزلت عند (ملك) فترةً حفزتْها إلى طبع كتاب ضخم أسمته (المرأة المصرية) وقدّمتْه (إلى ملك الباسل) ونشرتْه فى أمريكا وإنجلترا وسائر البلاد التى تقرأ الإنجليزية . وظلّت (ملك) تمدّها بعد ذلك بالبيانات لصالح المرأة المصرية والعربية المسلمة ، حتى أصبحت حجّة فى هذا الشأن فى نظر الصحافة الأمريكية .

٥ — عمدت السيدة (ديفونشير) — بعد وفاة زوجها المحامى بمصر أمام المحاكم المختلطة — إلى العمل فى شركات السياحة الكبرى ، وكانت (ملك) قبل ذلك تقرأ عليها الأدب الفرنسى ، فكانت — كلما علمت منها بوجود سائحات نابهات — تدعوهن وتمحو ما فى ذهنهن من تشويش فى صدد المرأة الشرقية . وكثيرات من أولئك كتبن عنها فى بلادهن المقالات وألقين المحاضرات .

٦ — وكانت صديقة لإحدى المدرسات اللائى لقّنتْها اللغة الإنجليزية فى المدرسة السنية اسمها (مس وايلد) ، فلما عادت إلى لندن وتزوجت بمحام هناك (وأصبح اسمها مسز بريدى) نظّمت لها بيانات تستعين بها على نشر مقالات و إلقاء محاضرات فى لندن بالذات .

فأنت ترى أن إعلاء شأن المرأة مع الدفاع عن سمعتها وسمعة مصر والشرق امتزج بلحمها ودمها فوقفت حياتها عليه ، وصرفت فى ذلك — كما هو واضح الآن — أكبر الجهد ، والوقت ، والمال .

تضحية كاملة

وفى سبيل الدعاية لتعليم الفتاة ، وخشيةَ أن يقال إن أول امرأة تعلمت لم تستطع أن تكون زوجة طيبةً لأن التعليم أبعدها عن البيت ، تحملت على مضضٍ العنتَ المبرّح الذى كانت تلقاه فى بيت الزوجية أكثر من إحدى عشرة سنة ، حاولت فى خلالها أن تعيش عيشة الراهبات القانتات اللائى يعتزلن الدنيا ، ويفنين فى سبيل تحقيق المثل العليا ولو أقضّ مضجعهن ليلا ، وأمضّ عيشهن نهاراً .

وقد أشار حافظ إلى هذا المعنى فى رفق إذ يقول فى مرثيته :

قد كنتِ زوجاً طبَّةً فى البدوِ عاشت والحضَرْ
وتُريك حكمةَ نابهٍ عركَ الحوادثَ واختبر
فإذا بها فى مطبخٍ تطهو الطعامَ على قدر
وإذا بها قعدت تخيِّط وترتضى وخز الإبر .

المراسلات

كانت تحسب المراسلات ركناً هامًّا من أركان نشاطها ، كما رأيت فى باب (الدعاية للمرأة العربية) ، وكما سترى فى هذا الكتاب من المكاتبات التى بينها وبين الآنسة (مىّ) . وكان طبيعياً أن تعير (ملك) المراسلات بعض الاهتمام

لأن لقاء السيدات لم يكن فى مثل ما هو عليه الآن من اليسر ، فلا نوادى خاصة، ولا مجتمعات منظمة ، ولا وسائل للاسترواح ، بل إن كثرة خروج السيدات كان إذ ذاك لا ينظر إليه بعين الارتياح .

ولما كانت تقضى أغلب وقتها فى بادية الفيوم ولم يكن التلفون قد عمّ الريف، كانت تعتمد فى الاتصال بأسرتها على « المكاتيب » التى تشغل فى كل يوم جزءاً غير يسير من وقتها .

حدَث أن اضطر أبوها يوماً إلى إجراء جراحة فى عينيه دون تخدير ، وكتب لها شعراً أوله :

ولقد ذكرْتُك والطبيبُ بجانبى   والجسمُ فوقَ فراشه مطروحُ

قال منه :

وجفونُ عينى بالملاقط فُتِّحتْ   وبها المباضعُ تغتدى وتروحُ
والخيطُ يُجذبُ فى الجفون بإبرة   جذباً تكاد تفيض منه الروح

فأجابته بشعر مطلعه :

من مبْلغٌ عنى طبيبك أنه   يفرى بمبضعه حشاى وأضلعى

وختامه :

فاسلم أبى وانظر إلىّ برأفةٍ   عينى فداؤك كى أقرَّ ومسمعى

والقصيدتان منشورتان فى باب (الشعر) .

وأذكر أنها فى سنّ التلمذة جاءت تمضى إحدى الإجازات معنا فى طهطا بالصعيد ، فأصابتها الحصبة ، فكتب على رفاعة (ابن رفاعة الطهطاوى) قصيدة

سلمها لأبيها ليُطلعها عليها ، وكنت جدّ صغير ، ولكنى أذكر مطلعها لكثرة ما حوت من بديع :

حرارةُ حصباء بجُوّةِ أخلاقِ   ألمّتْ فألفت ألفَ راقٍ من الواقِ

فردت عليه بقصيدة تصف هذا المرض وسلمتها لأبيها كى يُطلع الباشا عليها بدوره ، ولكنها فى ردها لم تمن بالمحسنات البديعية بل كانت واقعية ؛ و بقى فى ذاكرتى بيت واحد يدل على تفكيرها فى بلادها حتى فى حالٍ كهذى :

بجيشٍ مثل جيش الاحتلال   كثير لا يقدر كالنمـــــــــالِ

ومما يؤسف له حقاً أن كراسات شعرها ورسائلها ضاعت عقب وفاتها ، ولولا الذاكرة التى أعانتنى على تتبع وجوه نشاطها والبحث عنه لضاع تاريخها ومعه سجل عصر من عصور النهضة .

عرسها ومأتمها

كانت جنازتها آية فى الهيبة والجلال ، بقدر ما كان عرسها غاية فى البساطة والجمال .

ولنصف الرواية من مبتداها :

جاء الشيخ عبد الكريم سلمان إلى صديقه الحميم حفنى — وكان يقطن مثله العباسية بالقاهرة — وقال له : إنه عثر على البعل الذى لا يسع الكافة إلا أن ترتضيه زوجاً لـ (ملك) ، وأضفى على عبد الستار الباسل — أخى حمد الباسل — الأوصاف الطيبة التى لا تكاد تجتمع فى قاموس واحد ، وقال : إنه وفر على حفنى مشقة السؤال ، فقد استعلم سلفاً وفى كل مكان — نيابة عنه — عن الرجل ، وإنه بعد النتيجة

السارة التى خلص إليها ، لا يرى إلا تحديد تاريخين قريبين للخطبة والزواج .

و بما أن قول الصديق القديم الحميم قد حلّ من حفنى محل الاعتبار والتصديق ، و بما أن تقاليد ذاك الزمان لم تكن تسمح بأن تبلو الزوجة زوجها المقترح عن كثب ، فقد تمت الخطبة واتفُق على إقامة (فرح) فى الفيلا المقابلة لمسجد قبة الفداوية بشارع العباسية ، وهى فيلا أنيقة من طبقتين كان يسكنها عبد الستار وهدمت الآن .

وكان المألوف إذ ذاك (١٩٠٧) أن تطول الأفراح ، وتتعدَّد الليالى الملاح ، فى غلوّ و إسراف .

ولكن تنكُّباً لما لا طائل تحته من النفقة اتفُّق على أن تقام ليلة واحدة ، تخصص فيها الفيلا للسيدات ؛ على أن تنقد المغنيات والراقصات أجراً أعلى بكثير من المعتاد لقاء امتناعهن عن جمع (النقطة) ، وكان هذا إجراء حازماً جداً فى ذلك الوقت . وخصص للرجال سرادق أقيم فى الخلاء الذى كان مجاوراً للفيلا ، وزُيِّنَ المكانان بالرياحين ، و بالكهرباء (ولم يكن ذلك شائعاً)، ودعى الأخصَّاء من أرستقراطية العلم والأدب ، ومر شهر العسل فى سلام ، وانتقلت العروس بعد ذلك إلى منزل زوجها بقصر الباسل بالفيوم ، بعد أن أثنى الجميع على النظام والهدوء اللذين رفرفا على الحفلين ، على غير المألوف .

كان بيت الزوجية هناك فسيحاً من طبقتين ، وله ملحق مستقل لاستضافة الأعيان ، وملحق خارجى لغيرهم من البدو وعابرى السبيل .

إلا أن لبنانه كانت من الطوب النىء ، وسقفه من الخشب ، فأكملت العروس إصلاح البيت إكمالا جعله صالحاً للسكنى ولاستضافة السيدات بوصفه بيتاً قرو ياً لشيخ العرب ، إلى أن يتيسر بناء بيت جديد .

وفكرت فى بناء بيت من الحجر على طراز حديث ، و بعد إحدى عشرة

سنة تم بناء البيت المنشود ، وإعداده كما يليق أو كما يجب ، ولكن (ملك) توفيت قُبيل موعد الانتقال إليه . .

كانت مريضة هناك فى ذلك البيت العتيق ، وكنت أنا فى القاهرة مهدداً بالإعدام فى قضية كبرى تضايق الإنجليز ، نخفت إلى القاهرة رغم تنبيه الأطباء بالبقاء ، لأن الانتقال من الباب إلى الباب إذ ذاك كان يقتضيها آنئذٍ ، أن تركب قطارين كبيرين وقطار شركة ومركبتين ، مع ما كان يلابس ذلك من تعب وانتظار ، وما يحوطه من غبار .

وافتنى بالمنزل الذى كنا نسكنه بشبرا ، بالقاهرة ، وكانت متنبهة كل التنبه فى اليوم الأول ، ثم أخذت تغيب قليلا وتقص مقطّعات من قصص زوجها التى كتمتها على مضض أكثر من إحدى عشرة سنة تحزّت فى نفسها ، ثم أخذت تهرف ، ثم صمتت ، ولم تمهلها هذه الحمى الإسبانية فى القاهرة أكثر من ثلاثة أيام . وتوفيت وشيعت جنازتها من شبرا ، وصلى عليها فى جامع أولاد عنان بميدان باب الحديد (رمسيس) واستمرت الجنازة سيراً على الأقدام حتى مدفن الأسرة بالإمام الشافعى ، وكان ذلك فى صبيحة اليوم السابع عشر من أكتوبر سنة ١٩١٨ .

وفى هذه الجنازة انقلبت مدينة القاهرة رأساً على عقب ، لأن النساء شاركن الرجال فى التشييع ، فكانت جمهرة الكبراء ورجال الفكر وطلبة المدارس العليا والثانوية تسير يتقدمها مندوب من قصر السلطان لتقديم العزاء « الشخصى » (لأن المندوب لم يكن ليسير بصفة رسمية فى جنازات النساء) ، ورؤساء الوزارات والوزراء وكبار الموظفين وبعض النزلاء الأجانب ، ومراسلى الصحف المحلية من وطنية وأجنبية . وكان السيدات يملأن الشرفات على طول الطريق وهن يبكين بكاء مراً يقطع القلوب وقد ظللن طويلا حزينات على هذا الرزء المفاجىء . وقد عبر حافظ إبراهيم فى مرثيته عن شىء من هذا المعنى قال :

لا كان يومك يوم لا ح الحزنُ مختلف الصورْ
علّمت هاتفة القصو ر نواح هاتفة الشجر
وتركتِ أتراب الصِبا حزناً يقطعن الشعر
يبكين عهدك فى الصَبا ح وفى المساء وفى السحَر

وقد خصصت المجلات والصحف — فترةً طويلة — صحائف كاملة للتأبين تتسع لعدد لا يُحصى من الراثين، ولم يبق شاعر أو كاتب أو خطيب لم يوف الراحلة حقها من القول .

وأقيمت فى الجامعة المصرية حفلات ، منها حفل للسيدات برياسة هدى هانم شعراوى طلبن فيه تعليق صورتها فى مدرج بالجامعة يسمّى باسمها ، وحفل برياسة الشاعر إسماعيل صبرى ـ نيابة عن عدلى يكن وزير التربية ـ تكلم فيه صفوةُ أدباء المصر .

ووضعت الآنسة (مىّ) كتاباً أسمتهْ (باحثة البادية) ترجم فى أمريكا ، ولم تهمل رثاءها فى كل عام حتى لحقت بها، كما نوّه بذكر (ملك) بعض الكتاب الأجانب ومنهم الدكتور تشارلز آدمز فى كتابه (الإسلام والتجديد فى مصر) ،فيه أنصفها كما أنصف أباها الذى ربّاها وأعدّها لتقوم بهذا الدور القيادى العظيم .

هذا وما تزال الجماعات والمدارس والجرائد والإذاعة تحتفل بذكراها فى كل عام.وقد احتفلت مدارس البنات قاطبة فى عام ١٩٥٨ بالذكرى الأربعين لوفاتها بصفة رسمية ، بتوجيه من وزارة التربية بناءً على توصية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

وأوصى المجلس فى تلك المناسبة مصلحة البريد بإصدار طابعين تذكاريين لها ولأبيها ، غير أن الطابعين لم يصدرا لضيق الوقت .

وفى شـبرا بالقاهرة سمى شارع الأميرة زينب هانم (شارع باحثة البادية) كما أن بالزقازيق مدرسة بهذا الاسم .

ولـكن هل خلدتها العروبة ؟

ولـكن ، لـكى نأخذ فـكرة عن مبلغ استحقاق (باحثة البادية) تخليـد ذكراها، يجب أن نقرأ كلّ ماأمكن جمعه هنا مما نثرت و نظمت وخطبت، ونلمس صدقها فيه وحماستها فى تنفيذه، وكياستها ودأبها فى تطبيقه، ويجب آخر الأمر أن نقدر هذا الجهد على ضوء الحالة الاجتماعية فى أول القرن العشرين، وهو العام الذى فيه كانت أول فتاة اجتازت امتحان الشهادة الابتدائية مع البنين، والذى فيه نظمت قريضاً تبشّر فيه مصر بتحقيق أمانيها نتيجة لأن الفتيات بدأن يدخلن المدارس النظامية . وكذلك على ضوء حالة المرأة المصرية والعربية والمسلمة فى عام ١٩٠٣ عندما كانت أولى من نلن شهادة وعلمّت فى قسم المعلمات. وفى عام ١٩٠٧ عندما انتهت من هذا الجهاد الأصغر وبدأت جهادها الأكبر بتنظيم الحركة النسوية على أساسٍ من الجد والفضيلة .

لقد كانت المرأة إذ ذاك محجبة بالجهل والرجعية وسوء التوجيه، وجُبن كثير من المصلحين وسيطرة الاستعمار الانجليزى والنفوذ الأجنبى المتغلغل، وضعف الحكام ورجال الصحافة . أضف إلى هذا قِصَر الزمن الذى عملت فيه ضد هذه الظروف مجتمعة ، وأنها كانت تعمل بمفردها فى هذا الخضم المصطخب العميق الغور .

لقد كانت كمن يسرى فى طريق طويلة وعرة مخطرة دون ضوء ولا زاد ، وقد صمّـم على أن يصل ويـُقود غيره دون كلال أو ملال — فى أمنٍ وسلام— ولو ألقى بنفسه إلى التهالكة دون ذلك .

فهل وفتها مصر والأمة العربية حقها من التخليد ؟ ؟

لقد كانت بصوتها الرخيم الجذاب تتغنى — كلما خلت — بخالد الشعر أو تترنم به . والآن وقد خلا مكانها ، آن للخلود أن يتغنى باسمها أو يترنم به .

قال خليل مطران من مرثيته (ملك) وأبيها (حفنى) :

يا آية العصر حقيقٌ بنا تخليدُ ذكراكِ على الدهرِ
جاهدتِ لكنّ النجاحَ الذى أدركتِه أعلى من النصرِ
ذلك دَينٌ لكِ فى عنقِنا قضاؤه ضربٌ من البِرِّ
ومثله أو فوقه ذمة حُقَّت لربِّ النظم والنثرِ
فضْلُكِ من فضل أبيك الذى كان أبا الآدابِ فى القُطرِ

وكان هذا رأى جميع من رثوها منذ وفاتهما حتى طبع هذا الكتاب .

مجد الدين حفنى ناصف

المحـــــاضرات والخطب

خطبة فى دار « الجريدة »[١]

و بحضور مئات من السيدات

أيتها السيدات :

أحييكن تحية أخت شاعرة بما تشعرن ،يؤلمها ما يؤلم مجموعكن وتجذل بما يه تجذلن ، وأحيي فيكن كرم النفس لتفضلكن بتلبية الدعوة لسماع خطبتى ، إن أطلب بها إلا الإصلاح مااستطعت ، فإن أصبت كان ما أرجو ، و إن أخطأت فما أنا إلا واحدة منكن ،والإنسان يخطىء و يصيب، فمن رأت فى خطبتى رأيا مخالفا لما تعتقد ، أوأحبت المناقشة فى نقطة ما فلتتفضل بإبداء مايعن لها بعد انتهاء كلامى.

أيتها السيدات : ليس اجتماعنا اليوم لمجرد التعارف أو لعرض مختلف الأزياء ومستحسن الزينات ، وإنما هو اجتماع جدى أقصد به تقرير رأى لنتبعه، ولأبحث فيه عن عيوبنا فنصلحها . فقد عمت الشكوى منا وكثرت كذلك شكوانا من الرجال ، فأى الفريقين محق فى دعواه ، وهل نكتفى من الإصلاح بمجرد التذمر والشكوى ؟ لا أظن مريضا طاوع أنينه فشفاه . ويقول المثل العربى : « لا دخان بلا نار » ويقول الفيلسوف الإنكليزى هربرت سبنسر : « إن الآراء التى يظهر لنا أنها خطأ لا يمكن أن تكون خطأ محضا ، بل لا بد من أن يكون فيها نصيب من الصحة والصواب» . إذن نحن والرجال متساوون فى صحة الدعاوى و بطلانها . كلنا متظلمون وكلنا على حق مما نقول ، بيننا و بين الرجال الآن شبه خصومة، وما سببها إلا قلة الوفاق بيننا و بينهم ، فهم يعزون هذه الحالة إلى نقص فى تربيتنا وعوج فى طريقة تعليمنا ، ونحن نعزوها لغطرستهم وكبريائهم،وهذا الاختلاف فى إلقاء المسئولية زادنا اختلافا فى العيش ، وأوسع هوة الجفاء بين الرجال والنساء فى مصر

---

(١) نشرت « الجريدة » هذه الخطبة تحت عنوان « أول خطيبة مصرية » .

وهو أمر لا ننظر إليه بعين الارتياح ، وإنما نأسف له ونتوجس منه . لم يخلق الله الرجل والمرأة ليتباغضا ويتنافرا وإنما خلقهما الله ليسكن أحدهما إلى الآخر فيعمر الكون ؛ إذ فى ائتلافهما بقاؤه . ولو انفرد الرجال فى بقعة من الأرض وانعزلت النساء إلى أخرى لانقرض الحزبان وحقت عليهما كلمة الفناء .

تدرك معنى قولى هذا من صعوبة الرد على هذا السؤال: أى الجنسين أصلح للبقاء فى الدنيا النساء أم الرجال ؟ فإذا أجابت إحدانا بالرجال ؛ لأنهم يقومون بشاق الأعمال من بناء واختراع وزرع وغيره عارضتها بقولى : ولأجل من تتجشم تلك الصعاب ولا نساء يتسلسل منهن النسل لعمار هذا الكون ؟ وإذا قلنا : النساء لأنهن مدبرات البيوت وأمهات النشء لقلت : ومن أين النشء ولا أب له ؟ هذا قياس على نظام الطبيعة الحالى . ولا نتوسع فى الافتراضات والتوهمات، فقد كان الله قادراً على خلق نظام آخر للتوالد وهو قادر على خلق مثله ولكنا للآن لم نسمع إلا بمثال واحد لهذا الشذوذ هو مثال سيدنا عيسى عليه السلام . فالمرأة والرجل للكون كالخبز والماء للجسم أو الشمس والماء للزرع ، ولو استعاضت إحدانا باللبن عن الماء فإن اللبن بالتحليل يحتوى الماء . فالكتب السماوية كلها مجمعة على أن أصل البشر من آدم وحواء ، والقائلون برأى (دارون) لم ينكروا ضرورة لزوم الذكر والأنثى للتوالد من الحيوانات الأولى التى زعموا أنها ارتقت بالتدرج إلى مصاف الإنسان ، كذلك الحال فى كل جسم حى نام ، فإن النباتات كلها فيها الذكورة والأنوثة ، والزهرة على لطافتها وصغر حجمها تحتوى شكلين مختلفين من العروق أحدهما لقاح للآخر . كذلك جعلهما الله لينتج منهما الحب الذى فيه بقاء النوع وسلط عليه الريح تسفيه إلى الأرض فإذا ما جاده الغيث أو لقى رياً نبت ونما وصار شجراً ، فنظام التوالد هذا مطرد فى كل الأجسام الحية من حيوانات ونباتات ، لا شك فيه البتة . وإذا راجعنا إحصائيات العالم كله

وجدنا أن عدد الذكور والإناث فيه يكاد يكون واحدا أو بفرق قليل جدا ، وهذا دليل على أن الله خلق رجلا لكل امرأة ، هذا بقطع النظر عن الحروب وغيرها مما قد يخل بهذا التوازن الطبيعي الدقيق ، إذن فمحاولة الاعتزال بين الرجال والنساء مستحيلة ، وعليه فلا فائدة من هذه الغارات القلمية الشعواء بيننا و بينهم ، والأوفق أن نسعى للوفاق جهدنا ، ونزيل سوء التفاهم والتحزب لنحل بدلهما الثقة والإنصاف ، ولنبحث أولا في نقط الخلاف .

يقولون إننا بتعلمنا نزاحمهم في أشغالهم ونترك أعمالنا التي خلقنا الله لها ، فليت شعري : ألم يكونوا هم البادئين بمزاحمتنا ؟ كانت المرأة في العهد السابق تغزل الخيط وتنسج ثيابا لها ولأولادها، فاخترعوا آلة الغزل والنسج فأبطلوا عملها من هذا القبيل . وكانت المرأة المتقدمة تغربل القمح وتهرسه وتطحنه على الرحا بيديها ، ثم تنخله وتعجنه فتهيء منه خبزا ، فاستنبطوا ما يسمونه (الطابونة)، واستخدموا فيها الرجال ، فأراحونا من ذلك العمل الكثير ، ولكنهم عطلوا لنا عملا ، وكانت كل امرأة من السالفات تخيط لنفسها ولأفراد بيتها فابتكروا لنا آلة للخياطة، يشتغل في استخراج حديدها وصناعتها الرجال، ثم جعلوا منهم خياطين يخيطون لرجالنا ولأولادنا ، وكنا نكنس حجرنا أو تكنسها الخادمات بمكانس من القش، فاستنبطوا آلة الكنس التي يكفي أن يلاحظها خادم صغير فتنظف الرياش والأثاث . وكانت الفقيرات والخادمات يجلبن الماء لبيوتهن أو لبيوت سادتهن، فاخترع الرجال القصب (المواسير) والحنفيات تجلب الماء بلا تعب ، فهل ترى عاقلة الماء يجري عند جارتها في أعلى طبقات منزلها وأسفله وتذهب لتملأ من النهر وقد يكون بعيداً ؟ أو هل يعقل أن متمدينة ترى خبز (الطابونة) نظيفا طريا لا تتكلف له سوى ثمنه تتركه لتغربل وتعجن، وقد تكون ضعيفة البنية لا تتحمل تعب تجهيز القمح وعجنه ، أو فقيرة لا تستطيع تأجير خدم له ، أو وحيدة

لا مساعدة لهـا . أظن الرجال لو كانوا محلنا لما فعلوا سوى ما فعلناه ، وما من امرأة تقوم بهـذه الأعمال كلها إلا القرويات اللاتى لم يدخل قراهن التمدين . بل إنهن يستعضن عن الرحا بوابور الطحين ، و بعضهن عن الماء من البحر (بطلومبات) يضعنها داخل دورهن .

ولست أريد من قولى هذا أن أذم الاختراعات المفيدة التى اخترعها الرجال لـكثير من أعمالنا أو أقول إنها زائدة عن حاجتنا، وإنما كان هذا الشرح ضروريا لبيان أن الرجال هم البادئون بالمزاحمة فإذا ما زاحمناهم اليوم فى بعض أشغالهم فإن الجزاء الحق من جنس العمل .

على أن مسألة المزاحمة هذه ترجع للحرية الشخصية ، فزيد راقه أن يكون طبيبا ، وعمرو رأى أن يكون تاجراً ، فهل يصح أن نذهب للطبيب ونقول له : لا تحترف هذه الصناعة بل كن تاجراً ؟ وهل يمكننا أن نجبر التاجر على أن يصير طبيباً ؟ كلا ، . فـكل له حريته يفعل ما يشاء ولا ضرر ولا ضرار . وهل يجوز أن يمنع مهندس قديم من يحترفون هذه المهنة لأنه كان يكتسب ربح بلد بأكمله فجاءه هؤلاء المهندسون الجدد يقتسمون أرباحه ؟ على أن ذلك لو جاز قوة لما صح أن يجوز شرعا وحرية ولما قامت من أجله الشحناء بين الرئيس روزفلت وشركات الاحتـكار ،فإذا كان المخترعون والصناع أبطلوا جزءاً كبيراً من أعمالنا فهل نقتل الوقت فى الـكسل أم نبحث عن عمل يشغلنا ؟ لا غرو أننا نفعل الثانى . ولما كانت أشغال منزلنا قليلة لا تشغل أكثر من نصف النهار فقد تحتم أن نشغل النصف الآخر بمـا تميل إليه نفوسنا من طلب العلم ، وهو ما يريد أن يمنعنا عنه الرجال بحجة أننا نشاركهم فى أعمالهم ، لا أريد بقولى هذا أن أحث السيدات على ترك الاشتغال بتدبير المنازل وتربية الأولاد إلى الانصراف لاحتراف المحاماة والقضاء

وإدارة القاطرات ! كلا، ولكن إذا وجدت منا من تريد الاشتغال بإحدى هذه المهن، فإن الحرية الشخصية تقضى بأن لايعارضها المعارضون . قد يقولون إن الحمل والولادة مما يجبرنا على ترك الشغل، وقد يجعلون ذلك حجة علينا . ولكن من النساء من لم تتزوج قط، ومنهن العقيمات اللاتى لا ينتابهن حمل ولا ولادة، ومنهن من مات زوجها أو طلقها ولم تجد عائلايقوم بأودها ، ومنهن من يحتاج زوجها لمعونتها ، وقد لا يليق بهؤلاء أن يحترفن الحرف الدنيئة ، بل ربما يملن إلى أن يكن معلمات أو طبيبات حائزات لما يحوزه الرجال من الشهادات . فهل من العدل أن يمنع مثل هؤلاء من القيام بما يرينه صالحا لأنفسهن قائما بمعاشهن ؟ على أن الحمل والولادة إذا كانا معطلين لنا عن العمل الخارجى فهما معطلان لنا عن الأعمال البيتية أيضاً . وأى رجل قوى لم يمرض ولم ينقطع عن عمله وقتاً ما ؟

يقول لنا الرجال ويجزمون : إنكن خلقتن للبيت ونحن خلقنا لجلب المعاش فليت شعرى: أى فرمان صدر بذلك من عند الله ومن أين لهم معرفة ذلك والجزم به ولم يصدر به كتاب ؟ نعم إن الاقتصاد السياسى ليأمر بتوزيع الأعمال ، ولكن اشتغال بعضنا بالعلوم لا يخل بذلك التوزيع ، وما أظن أصل تقسيم العمل بين الرجال والنساء إلا اختياريا ، بمعنى أن آدم لو كان اختار الطبخ والغسل، وحواء السعى وراء القوت لكان ذلك نظاماً متبعاً الآن ، ولما أمكن أن يحاجّنا الرجال بأنا خلقنا لأعمال البيت فقط . وها نحن أولاء لا نزال نرى بعض الأقوام كالبرابرة مثلا يخيط رجالهم الثياب لأنفسهم ولأفراد بيتهم ويتجشم نساؤهم مشقة الزرع والقلع، حتى أنهن ليتسلقن النخل لجنى ثمارها ، وها نحن نرى نساء الفلاحين والصعايدة يساعدن رجالهن فى حرث الأرض وزرعها ، و بعضهن يقمن بأكثر أشغال الفلاحة كالتسميد والدراس وحمل المحاصيل ودق السنابل

والبراعم (الكيزان) وسوق المواشى ورفع المياه بما يسمونه (بالقطوة) وغير ذلك من الأعمال التى ربما شاهدها منكن من ذهبت إلى الضياع (العزب) ورأت أنهن يقدرن عليه تمام القدرة كأشد الرجال ، ونرى مع ذلك أولادهن أشداء أصحاء .

فمسألة اختصاص كل فريق بشغل مسألة اصطلاحية لا إجبار فيها ، وماضعفنا الآن عن مزاولة الأعمال الشاقة إلا نتيجة قلة الممارسة لتلك الأعمال ، وإلا فإن المرأة الأولى كانت تضارع الرجل شدة وبأساً . أليست المرأة القروية كأختها المدنية ؟ فلماذا تفوق الأولى الثانية فى الصحة والقوة ؟ وهل ترتبن فى أن امرأة من المنوفية تصرع أعظم رجل من رجال الغورية لو صارعته ؟ فإذا قال لنا الرجال إننا خلقنا ضعيفات قلنا لا ، وإنما أنتم أضعفتمونا بالمنهج الذى اخترتم أن نسير فيه . حدثتنى سيدة عالمة أنها فى سياحتها بأمريكا رأت بعينها هنودها الحمر تتحرك آذانهم من تلقاء نفسها اتجاه الصوت الذى يترقبونه كآذان الخيل والحمير . ذلك نتيجة استعمالهم لها ، وقد توارثوه أيضاً وهم فى حاجة إليه لتستمع زئير السباع وعواء الوحوش التى ربما تهاجمهم فى فلواتهم . كذلك نجد حواس الوحشيين أقوى من حواسنا بكثير . فهم يشمون رائحة الوحوش من بعيد ، أما نحن فلا . ولم يكذب من قال إن الوظيفة تكوّن العضو . هؤلاء العميان يعتمدون كثيراً على حاسة السمع ، فتقوى فيهم بالتدريج تلك الحاسة إلى أن تبلغ غاية قد تعد من الخوارق عندنا ، فهل بعد أن استعبدنا الرجال قرونا طوالا حتى خيم على عقولنا الصدأ وعلى أجسامنا الضعف ، يصح أن يتهمونا بأنا خلقنا أضعف منهم أجساما وعقولا ؟ إنهم لو أنصفوا ولم يتحزبوا لما عيرونا بأننا قليلات النبوغ ، وأنه لم يسمع بإحدانا غيرت قاعدة فى الحساب والهندسة مثلا ، وليتفضل أحدهم بإخبارنا عما استنبطه من تلك القواعد ، أو ليست قواعد

الحساب هى بعينها من زمن اليونان الأول إلى الآن ، ونظريات الهندسة لم تزل تلك التى كان يعرفها قدماء المصريين والرومان ؟ نحن نعترف لرجال الاختراع والاستكشاف بعظيم أعمالهم ، ولكن لو كنت ركبت المركب مع خريستوف كولومب لما تعذر على أنا أيضاً أن أستكشف أميركا . وحقيقة إن النساء لم يخترعن اختراعات عظيمة ، ولكن كان منهن النابغات فى العلوم والسياسة والفنون الجميلة أى فيما سمح لهن بممارسته ، وبعضهن فقن الرجال فى الفروسية والشجاعة كخولة بنت الأزور الكندى ، فقد عجب منها عمر بن الخطاب ، وأعجب باستقتالها فى فتوح الشام حينما أرادت تخليص أخيها من أسر الروم . وجان دارك التى قادت جيش الفرنسيس بعد هزيمته أمام الانكليز فشجعتهم على استمرار القتال ، وأصلت محاربى وطنها حربا عوانا . ولن أضرب مثلا بالنساء اللاتى تولين الملك فأحسن سياسته ، ككاترينا ملكة روسيا ، وإيزابيلا ملكة إسبانيا ، واليزابيث ملكة انكلترا ، وكيلوباتره ، وشجرة الدر ، امرأة الملك الصالح ، وأم طوران شاه التى حكمت مصر . فقد يقول معارضونا إنه دبره لهن الوزراء وهم رجال ! ! على أنه لو صح هذا القول فى عهد الدستوريين كالملكة فكتوريا مثلا أو ولهامينا ملكة هولاندة الحالية فلا يصح تطبيقه على أيام الحكم المطلق .

إننا الآن فى ابتداء القيام بتعليم البنات ، فقول بعضهم بالاقتصار على هذا وذاك مثبط للهمة ورجوع إلى الوراء ، فى حين أنه لا خوف من مزاحمتنا لهم الآن لأننا ما نزال فى الدور الأول من التعليم وما تزال عاداتنا الشرقية تثنينا عن الاستمرار على الدرس الكثير ، فليهنأوا بوظائفهم . وما داموا يرون مقاعد مدرسة الحقوق والهندسة والطب والجامعة خالية منا وليقروا عيونا ولينعموا بالأمان ، فإن مايتخوفون منه بعيد ، و إذا فرض أن اشتاقت إحدانا لتكملة معلوماتها

فى إحدى تلك المدارس فأنا واثقة أنها لن تُقلد وظيفة أو تشتغل خارجا، وإنما تفعله لإطفاء شوق النفس للعلم أو الشهرة ولما تفعله . فإذا كنا لم نشتغل بالمحاماة ولا بتقلد الوظائف الحكومية أفلا تشغلنا عن تربية النشء إلا قراءة كتاب أو خط جواب ؟ أظن ذلك مستحيلا . على أن الأم مهما تعلمت وبأى حرفة اشتغلت فلن ينسيها ذلك أطفالها أو يفقدها عاطفة الشفقة والأمومة ، بل بالعكس إنها كلما تنورت أدركت مسئوليتها . ألم ترين الفلاحات والجاهلات يظل يبكى طفل الواحدة منهن ساعات وهى تسمعه ولا تتحرك ؟ فهل يا ترى كان شغل هؤلاء أيضاً تحضير القضايا أو الاشتغال بالتحرير والقراءة ؟

ولا يغيظنى أكثر من أن يزعم الرجال أنهم يشفقون علينا ، إننا لسنا محلا لإشفاقهم وإنما نحن أهل لاحترامهم، فليستبدلوا هذا بذاك، والإشفاق لا يتأتى إلا من سليم لعليل أو من جليل لحقير، فأى الصنفين يحسبوننا ؟ تالله إنا لنأنف أن نكون أحد هذين .

قال قائلهم لا تعلموا البنات من الحساب إلا القواعد الأربع لأنهن لن يحتجن إلى أكثر منها ، فمن أين له أننا نودع نقودنا فى مصرف أو نبيع وثيقة (كمبيالة) أو يغالطنا وكيل فى قياس قطعة أرض ؟ إنه إذا ادعى بذلك تفضيل الرجال على النساء فى علم التكهن والرجم بالغيب أيضاً قلنا لم تصح هذه الفراسة فقد أظهر الواقع غير ذلك . أما ما يذهب إليه من تفضيل لغة على لغة فى التعلم فذلك مالا أفهمه لأنى أعتبر اللغات كلها نافعة ، ولو وجدت من يعلمنى البربرية أو الصينية لتعلمتها . إذا كان لآداب اللغة فإن الفارسية والألمانية والانكليزية وغيرها ملأى بذلك ، أما تعليم تدبير المنزل وتربية الأطفال فيجب أن نشكر للدكتور عبد العزيز نظمى بك اهتمامه بهما وحثه عليهما .

أيتها السيدات : العلم نور للعقل على أية حال سواء عمل به أو لم يعمل — فماذا يضرنا أننا لا نشتغل بمسح الكرة الأرضية ولا بالسياحة لكى نعلم مواقع البلاد وأبعادها؟ إن الطبيب يتعلم الجبر فى تلمذته ولكنه لا يشتغل به فى صناعته . كلنا نسمع بأخبار السياسة والرجال يشتغلون بها ، ولكنهم لا يحدثون أنفسهم بأن يولوا مكان ذلك الملك المقتول أو السلطان المعزول ، فهل نقول لهم إذا كنتم لن تتملكوا فى تلك الأمم فلا يجوز لكم أن تعرفوا سياستها وأخبارها ؟ نسمع فى هذه الأيام أن جيش الدستور فى تركيا زحف من سلانيك إلى الأستانة وأن حصن اسكودار تأخر فى التسليم ؟ ألا يحسن بنا أن نعرف من (الجغرافيا) مايهيئنا لفهم تلك الأخبار بعد مالا كتها أفواه الكبار والصغار . لو لم يكن للعلم لذة فى ذاته لما اشتغل بتحصيله الملوك وهم واثقون من أنهم لن يكونوا مهندسين ولا بحارة ولا سائقى قاطرات . وهل تفضل السيدة التى تعرف أن تطبخ البطاطس وتنسق الأزهار فقط ، أم التى تعرفهما أيضاً ولكنها تعلم متى يؤكل البطاطس وهل يوافق زوجها المريض بالسكر أو جسمها السمين الذى تريد تضميره ، وهل وجود أصص (قصارى) الزرع فى حجرتها ليلا صالح لرئتيها الضعيفتين أم مضر بهما ؟ فهذه تعرف تدبير المنزل وتلك تعرفه ولكن تعلّم واحدة علم النبات تحفظ لها صحتها وصحة عيالها من التلف ، فضلا عما تشعر به من الرضاء الناشىء عن العلم . نحن نعلم أن نقص تربيتنا الأولى وتربية إخواننا الشبان لاشك نتيجة جهل أمهاتنا ، فهل نعرف الداء ولا نداويه وقد قال الحديث الشريف «لايلدغ المؤمن من جحر مرتين» ؟ إن المدارس مهما اجتهدت فى تثقيف عقول النشء وتهذيبها فإن المنزل له تأثير خاص فى الأطفال . وإذا شعر تلميذ أن أمه عالمة أو لها نصيب من علم فإنه يسعى جهده ليريها أنه أهل

لحبها وتقديرها إياه فيجتهد ليحفظ سلسلة العلم لتكون الصلة شديدة بينه وبينها ، فتعلمنا الحالى ناقص يجب أن يزاد عليه لا أن ينقص منه .

أما ما أشكل على الرجال من علة فسادنا فهو ماينسبونه خطأ للتعلم ، وحقهم أن ينسبوه للتربية . يرى كثيرون أن العلم يهذب ولكنى لا أعتقد ذلك ، بل أصرح أن العلم والتربية منفصلان تمام الانفصال إلا فى علوم الدين فقط ، ودليلى على ذلك أن كثيرين من المبرزين والمبرزات فى العلوم لا أخلاق لهم ، وأن الكتاب الواحد قد يدرسه معلمان مختلفان فى فرقتين كل على حدة فتتعلم الفرقتان الكتاب ولكن نجد أثر الهمة وعلو النفس فى واحدة ولا نراه فى الثانية . فهذا ناشىء من تأثير روح المعلم فى تلاميذه لا من العلم ، وإلا فلو كان من العلم لتساوت الفرقتان لأن الكتاب واحد والعلم لا يختلف . يظن بعض الناس أن حسن التربية معناه تقبيل أيدى الزائرات وتكتيف اليدين خضوعاً ، ولكن ما أبعد هذا عن الحقيقة . التربية الحسنة هى التى تؤهل الشخص لأن يدرك نفسه من سواه . وما أحزم من قال : «ماهلك امرؤ عرف قدر نفسه». التربية الحسنة هى التى تعود الإنسان من صغره احترام الغير إذا استحق الاحترام حتى ولو كان عدواً ، فالتعلم لم يفسد أخلاق الفتيات وإنما هى التربية الناقصة ، تلك التربية فى الحقيقة يجب أن تكون من أعمال البيت لا المدرسة . ولما كانت بيوتنا لم تبلغ الدرجة التى تؤهلها لإحسان تربية الأطفال فقد وجب علينا أن نضاعف مجهوداتنا لإصلاح شأن أنفسنا ثم إصلاح النشء ، ولا يتم ذلك فى لحظة كما قد يتوهم . ومن الظلم أن نلقى مسئولية الفساد كلها على المدارس ؛ فإن المدارس لها تأثير فى التربية ولكن ليس عليها كل الذنب ، بل العيب فى الأسر .

من عيوبنا نحن النساء أننا لا نكترث كثيراً بالنصح ، فإذا قامت سيدة تريد

تقرير مبدأ أو إظهار حقيقة قال أكثرنا : مالها ولهذا أو إن كانت تغار فلتعمل مثلنا ، وغير ذلك من الألفاظ ! !

ومن عيوبنا السخرية والتهكم ، فمنا من تنتقد من تصادفه وتعيب عليه لاعيباً حقيقياً يستدعى الانتقاد ولكن لولوع بالانتقاد فى ذاته ، وربما انتقدت فى ساعة واحدة اثنين على خصلتين متضادتين ، ولا يمكن أن يكون الشىء ونقيضه منتقداً ، فإذا رأت امرأة سمينة قالت إنها (كالبرميل) وكيف تستطيع الحركة ؟ وإن بصرت بأخرى رفيعة قالت إنها كعود الحديد تكسر يدها على ساقيها ؟ وإذا وجدت سيدة قليلة الكلام قالت إنها متكبرة . وإن سمعت أخرى تتكلم كثيراً عابت ذلك عليها وقالت إنها تصطنع الخفة ! !

ومن عيوبنا الصلف والاغترار . كنت وأنا طفلة أحفظ قصيدة سمعتها ، ولكنى كنت أخلط فيها وألحن كثيراً غير عالمة بالطبع ما كنت واقعة فيه من الخطأ ، وكانت زميلاتى الصغيرات لا يعرفن القصائد ولم يسمعن بها ، فكنت إذا قلتها أمامهن عددنها غريبة عليهن ووسمننى بالذكاء! فما لبثت أن اغتررت بقصيدتى وصرت أفاخر بها حتى إذا ألقيتها ذات يوم أمام والدى أرانى خطئى و بين لى أنها كانت مجموعة (نتف) من هنا ومن هناك لا ارتباط لأجزائها ولا قافية لها ، وأعطانى كتاباً فيه شعر ، فزادت دهشتى ، لأنى كنت أحسب أن لا شعر فى الدنيا إلا تلك النتف التى كنت استظهرتها . ولو أنه تركنى ولم يبين لى خطئى لاسترسلت فى الغرور . والإنسان مهما بلغ من العلم يظل يقبل الزيادة فيه ، ومهما كبر فيما يعرف فإنه يظل طفلا إزاء ما يجهل ، كالبحر تستعظم منه ما رأيت ، وما لم تره أعظم ، وكيف أصلح خطئى إذا كنت لا أشعر به ، ولا أقبل نصيحة من يراه ؟ .

يشكو الرجال من تبرجنا فى الطرقات ولهم الحق لأننا خرجنا فيه عن المألوف والجائز . نحن نزعم أننا نحتجب ولكننا ما بلغنا حجابا ولا بلغنا سفوراً . لاأريد أن نرجع لحجاب جداتنا ذلك الذى يصح أن يسمى وأداً لا حجاباً ، فلقد كانت السيدة تقضى عمرها بين حوائط منزلها لا تخرج إلى الطريق إلا وهى محمولة على الأعناق ، ولا أريد سفور الأوربيات واختلاطهن بالرجال فإنه مضر بنا . إن نصف إزارنا السفلى اليوم مرط (جونيله) لا يتفق مع كلمة حجاب ولا مع معناها ، ولا مع الحكمة منه . أما نصفه العلوى فهو كالعمر كلما تقدم قصر . كان الحجاب الأول قطعة واحدة تلتف بها المرأة فلا يظهر من هيئتها شىء ، ثم طرأ عليه تكمش بسيط ، ولكنه كان واسعاً يكفى لستر الجسم ، ثم تفننا فيه فصرنا نضيق خصره ونقصر رأسه . وأخيراً فصل له كمان وصار يلتصق بالظهور ، ولا يلبس إلا مع المشد ، ويربط من أطرافه إلى الوراء حتى تظهر منه الآذان ونصف الرأس أو أكثره فتظهر الورود ، والرياحين والأشرطة التى تزين بها الرأس. أما البرقع فأشف من قلب الطفل وما الغرض من الإزار ؟ الغرض منه ستر الجسم والملابس والزينة، الزينة التى نهى الله عنها . فهل يتفق هذا مع المئزر الحالى وقد أصبح (فستاناً) يظهر النهدين والخصر والأعجاز فضلا عن أن بعض السيدات ابتدأن يلبسنه أزرق و بنيا وأحمر ؟ الأولى أن لا نسميه مئزراً بل « فستاناً بطرطور » فإنه فى الحقيقة كذلك ، وعندى أن الخروج بدونه أدل على الحشمة لأنه على الأقل لا يسترعى النظر . على أن مسألة الحجاب قد اختلف فيها الأئمة. فإذا كان تفنن بعضنا هذا يراد به الاحتيال على الخروج بلا إزار فليس عليهن فيه من حرج إذا كشفن وجوههن بشرط ستر الشعر والجسم . وأرى أن أوفق لباس للخارج هو تغطية الرأس بخمار ، وسدل رداء أشبه « بالبالطو » — المسمى (Cache Poussiere) عند الفرنجة — على الجسم إلى الكعب ، و يكون

طويل الـكمين إلى المعصمين ، وهذا اللباس مستعمل فى الأستانة ، كما روت لى إحدى السيدات للخروج إلى المحـلات القريبة . ولـكن من يضمن لنا أننا لا نقصره ونضيقه حتى نمسخه (فستانا) آخر ؟ وحينئذ تضيق بنا حيَل الإصلاح .

لو أننا متربيات من صغرنا على السفور، ولو أن رجالنا مستعدون له لأفررت بالسفور لمن تهواه ، ولـكن مجموع الأمة غير مستعد له للآن ، ومع أن بعض نسائنا العاقلات لا يُخشى من اختلاطهن بالرجال ، يجب أن نتحفظ على غير العاقلات أيضاً لأننا سرعان ما نقلد وقل أن نبحث عن حقيقتنا فيه . ألا ترين أن تيجان الألماس الأصل فيها للملكات والأميرات. فأصبحت الآن يلبسها المغنيات والراقصات؟ ولعل الشعراء يعدلون عن كنايتهم الملكات بـ(يا ربة التاج) فقد أصبحت تلك الـكناية شاملة لسواهن ! !

على أن تفنننا هذا فى المئزر الحالى هو فى ذاته تقليد للأوربيات . ولـكننا فقناهن فى التبرج فإن الواحدة منهن تلبس أبسط ما عندها عندما تـكون فى الطريق وتلبس ماشاءت فى البيت أوفى السهرات . ولـكنهن بخلاف ذلك يبقين أمام أزواجهن بجلباب بسيط جداً ، فإذا خرجت إحداهن عمدت إلى أحسن ثيابها فلبسته، وأثقلت نفسها بالمصوغات ،وأفرغت عليها زجاجات العطر والطيب. ويا ليتها تـكتفى بذلك بل تجعل من وجهها حائطاً تنقشه بالدهان وتصبغه بمختلف الألوان وتتثنى فى مشيتها كأنها الخيزران فتفتن المارة أو على الأقل يتظاهرون لها بأنها فتنتهم . إنى واثقة من أن أغلب هؤلاء المتبرجات يفعلن مايفعلن وهن خاليات الذهن من سوء القصد . ولـكن من أين للرائى أن يتبين حسن نيتهن ومظاهرهن لا يدل عليه ؟

حجابنا يجب أن لا يحرمنا من استنشاق الهواء النقى ولا من شراء مايلزمنا

إذا لم يقدر آخر على شرائه لنا . ويجب أن لايمنعنا عن تلقى العلم ولا أن يكون مساعداً على فساد صحتنا أو سبباً فى تلفها . فإذا لم أجد فى بيتى حديقة واسعة أو رحبة طلقة الهواء وكنت فرغت من العمل وأحسست من نفسى بملل أو كسل، فلم لا آخذ نصيبى من هواء الضواحى المنعش الذى خلقه الله للكل ولم يحبسه فى صناديق مكتوب عليها «مخصّص للرجال» ، وإنما يجب أن نختار الاعتدال وأن لانخرج للنزهة وحدنا اجتنابا للقيل والقال وألا نمشى الهوينا وألا نلتفت يمنة ويسرة . وإذا لم يكن أبى أو زوجى يحسن اختيار ما أشتهيه من الملابس (التى لاتوجد لها عينة ولا يمكنه جلبها للمنزل) فلم لايأخذنى معه لاختيار مايلزمنى ، أو يتركنى أشترى ما أريد ؟ وإذا لم أجد من يحسن تعليمى إلا رجلا فهل اختار الجهل أم السفور أمام ذلك الرجل مع أخواتى من المتعلمات ؟ على أنه ليس هناك مايجبرنى على السفور بل إنه يمكننى التقنع والاستفادة منه ، وهل نحن فى إسلامنا أعرق أصلا من السيدة نفيسة والسيدة سكينة رضى الله عنهما وقد كانتا تجتمعان بالعلماء والشعراء ؟ وإذا اضطرنى المرض لاستشارة طبيب (لايمكن لإحدى النساء القيام بعمله) فهل أترك نفسى والمرض ، وقد يكون خفيفاً فيعضل بالإهمال ، أم أستشفيه فيشفينى ؟

إن حبس المصرية السالفة تفريط . وحرية الغربيين الآن إفراط . ولا أجد أصلح مانقتبس منه إلا حالة المرأة التركية الحاضرة فإنها وسط بين الطرفين ولم تخرج عما يجيزه الإسلام وهى مع ذلك مثال الجد والاحتشام .

بلغنى أن بعض كبرائنا (أريد كبراء الوظائف) يعلمون بناتهم الرقص الإفرنجى والتمثيل ، وهما أمران أحلاهما مر ، وأحسبهما تطرفاً ممقوتاً واستماتة فى

تقليد الغربيين . لأن العادة يجب أن لا تغير إلا إذا كانت مضرة ، والأنماط الغربية لا يقبلها قوم بينهم إلا إذا رأوا ضرورتها وصلاحيتها . فأى صلاح لنا من مخاصرة الرجال والنساء ورقصهم معا ؟ أو ظهور بناتنا أمام الرائين (المتفرجين) بصدور عارية يمثلن أدوار الحب والخلاعة على (المسرح) ؟ إن ذلك مناف للدين الإسلامى، هادم للفضيلة ، مدخل لمضار العادات بيننا . فعلينا أن نحاربه ما استطعنا، ونظهر احتقارنا لمن تفعله من المسلمات القليلات اللاتى إذا شجعناهن بسكوتنا فإنهن لا يلبثن أن يعدين الغير منه .

وعلى ذكر العادات والحجاب أذكركن بمسألة تئن منها السعادة وتكاد تندثر فى بيوتنا ، تلك هى مسألة الخطبة والزواج . يرى أكثر عقلاء الأمة أن لا بد للخطيبين من الاجتماع والتكلم قبل الزواج ، وهو رأى سديد لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة يفعلون غيره ، وهو متبع عند جميع الأمم وعند والأمة المصرية أيضاً إلا فى طبقة واحدة هى طبقة أهل المدن . إذا ائتلف العروسان عندنا فهو من محاسن الاتفاق (الصدف) . وكيف يمكن الجمع بين شخصين لم ير أحدهما الآخر ولم يختبره على أن يقضيا العمر معاً ؟ إن إحدانا إذا اتفق أن رأت عرضاً فى إحدى زياراتها سيدة استثقلت روحها فإنها لا تصبر على مجالستها فضلا عن النظر إليها وتسرع بالتملص منها ، فكيف تصبر على مضض الحياة إذا استثقلت أيضاً بعلها وهى لم يمكنها التصبر على ثقل الغريبة لحظة واحدة فى غير بيتها ؟ يشير قوم باتباع خطة الغربيين من وجوب معاشرة الخطيبين زمنا ليتمكن كلاهما من استطلاع طبع صاحبه . ولكنى أصرح باستهجان هذه العادة ، وأعتقد أنها مبنية على وهم لا على أساس متين . إذ من نتائج معاشرة المتشابهين الألفة ، ومن الألفة الحب. وإذا أحب الإنسان شخصاً لم يرعيو به ولم يمكنه تفحص

أخلاقه ، فيتزوج العروسان حينذاك على حب باطل وعلى غير هدى ، فلا يلبثان أن يتنازعا وتذهب ريحهما . إنما الطريقة التى أود عرضها على مسامعكن هى أن يتراءى العروسان ويتكلما بعد خطبة النساء المتبعة وقبل العقد ، ويجب أن لا تظهر العروس إلا مع أحد محارمها وتكون فى أبسط لباسها . قد يعترض على هذا الاقتراح بأن اجتماعا واحداً أو اثنين أو أكثر قليلا لا يكفى لأن يقف الواحد على أخلاق الآخر ، ولكنها على أية حال كافية لأن يشعر الواحد باجتذاب دم الآخر له أولا . على أن من صدقت فراسته يمكنه تبين الأخلاق من العينين ومن الحركات والسكنات فيبدو إن كان صاحبه متصنعاً أو طائشاً وغير ذلك . أما معرفة ماضى العروسين وبقية أحوالها فيجب أن يسأل عنها المعارف والجيران والخدم وغيرهم . وخوفاً من أن يتخذ الشبان فاسدو الأخلاق تلك الطريقة ذريعة لرؤية بنات الناس من غير قصد الزواج يجب على الولى أن يتحرى سلوك الخاطب ويتبين الجد من كلامه قبل السماح له برؤية ابنته أو موكلته . ربما تستصعبن قبول هذه الفكرة والعمل بها ، ولكن كل شىء يخيل لنا صعبا عند الابتداء فيه ، وإذا مارسناه سهل وهان . على أننا كنا نعتقد فساد طريقتنا القديمة ونتألم منها ونحجم عن الإقدام على ما نراه مفيداً لنا مقللا لحوادث الشقاء فى زواجنا ، فما أشبه يومنا بالأمس ، وما أشد إثمنا وما أبعدنا عن قول الشاعر :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد حياة لنفسى مثل أن أتقدما

وما الفائدة من تعلمنا إذا كنا لا نستطيع تغيير عادة مضرة لا هى من الدين ولا من الحكمة ، وقد رأينا رأى العين سعادتنا العائلية مزعزعة تكاد تقتلعها صرصر تلك العادة العائلية ، وما مثلنا فى ذلك إلا كمثل رجل غرق أو أشرف على التلف ، فلما بصر بقطعة خشب يمكنه النجاة بالتعلق بها أبى لئلا يكون بها مسمار فيجرح أصبعه فابتلعته اللجة . وقد كان يمكنه النجاة لو لم يقدر الخوف من المسمار . وما أدراه أن ظنه

وتخوفه فى محلهما ، ولماذا نأبى أن يرانا خاطب بحجة أننا ربما لا نعجبه؟ أو ليست مضرة رغبتنا عنه ، أو رغبته عنا أخف بكثير من تعاقدنا على الزواج قبل الرؤية ؟! والإنسان لا يفعله فى شراء دابة فكيف يفعله فى اختيار قرين ؟ ؟

إن امتناعنا عن أن يرانا الخاطبون صرف كثيرا منهم إلى الأوربيات ، فيتحمل أحدهم أن يتزوج من خادمة أو عاملة يعتقد أنه سيهنأ معها على أن يقترن ببنت الباشا أو البك المخبأة فى (علبة البخت) . ليعذرنى صديقاتى الغربيات على هذا القول ، فإنى لا أريد به إهانة لهن ، فإنهن يعرفن قبلنـــا أن امرأة ذات حسب مرغوبة من شبان قومها لا تتركهم إلى فتى من غير دينها وجنسها . فضلا عن أن كل بلاد لها مدنيتها الخاصة بها، وتقرير أحوال مدنيتنا لا يقتضى أننا نعيب مدنية الآخرين. قسما بالله لو جاء البارون رتشيلد ،أو المستر كارنيجى إلى ابنة كاتب عندنا مرتبه أربعة جنيهات شهريا لما رد بغير الخيبة . فإذا لم نعمل على تدارك هذا الخلل فى مجتمعنا فلن نلبث أن يحتلنا نساء الغرب أيضاً فنقع فى احتلالين ، احتلال الرجال ، واحتلال النساء ؛ وثانيهما شر من أولهما ، لأن الأول إذا كان حصل عن غير رضانا فإن الثانى جلبناه بأيدينا . والنساء شديدات التعلق بالأقارب فلا يبعد أن تلم كل زوجة منهن أخاها وأباها وابن خالتها وصاحبها حولها ، فيسدون ما بقى لرجالنا من موارد الرزق فنخرج و إياهم من بلدنا بخفى حنين ، « إن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد ».

بعض رجالنا يفضلون عنا الأوربيات لتدبيرهن ، حقيقة إن الفقيرة منهن ترتدى لباساً نظيفاً مرتباً ، ويرى بيتها على قلة أثاثه نظيفاً مرتباً ، وطعامها لذيذاً منوعاً ، وأولادها مؤدبين أصحاء ، ومع ذلك نفقاتها قليلة . نرى كل يوم نساء ضباط الإنجليز ماشيات فى الطرق بلباسهن التيل الأبيض البسيط ، وأولادهن لابسين

القبعات الجميلة والأحـذية البيضاء ، ومنظرهم يأخـذ باللب لا يقاربهم فى شكلهم عندنا إلا أولاد (الذوات) الذين تخدمهم المربيات و (الدادات) أما سائر أطفالنا فهم فى حالة يرثى لها من الإهمال ، ولـكن هل تدبر من تتزوج منهن مصريا أمر زوجها كما كانت تفعل لو كان زوجها أوربيا ؟ كلا . والحس يؤيد ما أقول . فإن أغلب رجالنا الذين تزوجوا منهن يئنون و يصرخون من تبذيرهن ، واتباعهن أهواءهن ، فالمرأة الغربية تعتقد أنها من جنس أرقى من المصرى فإذا تزوجته ظلت رئيسة له يعمل بإشاراتها ، وحسبت أنه ملزم بالانفاق على ماتشتهى ، وجلبه لها حتى ولو كان فى الصين ، فهى مدبرة مع الغربى مسرفة مع المصرى . و إذن ضاعت أفضليتها من هذا القبيل . و بعضهم يدعى أنه يفضلها لأنه يمكنها الخروج معه فى نزهه وروحاته وغدواته . ولا أظن الرجل يحب أن ترافقه زوجته وتلزمه لزوم الظل فذلك داع للملل ، على أنه لو كان هذا الرأى صحيحاً لما تأخر أكثرنا عن تنفيذه ، وأنا أول من تفعله . ولا أجد للمرأة الغربية التى تقبل الزواج من مصرى مايفوقها علينا إلا أمراً واحداً لا أرانا نحسنه لأننا لم نمارسه ، ولا أريد أن نمارسه ، ذلك أنها ماهرة فى اجتذاب القلوب ، وفى نصب الشباك للرجال ، فإذا صادت بحركاتها وغنة صوتها مصريا فليعلم أنها دربت على ذلك فى عشرين غربيا قبله ، فهل يقبل — وفيه غيرة الشرقيين وأنفتهم — أن تطعمه طبيخاً حقيقة لذيذاً ، ولـكنها أنضجته على نار غيره ثم انتبذه من قبله خلق كثير ؟ .

و بفرض أن الزوجة الشرقية الراقية نقصت قليلا عن أختها الغربية ، فلماذا لا يرشدها بعلها إلى مواضع خطئها بالرفق ، ويريها ما يحب وما لا يحب ، لا سيما أن أحب شيء إلى الزوجين المتحدين أن يبذل كلّ منهما وسعه ليرضى الآخر ؟ فانصراف شباننا لتلقى العلوم الحديثة فى أوربا يجب أن يكون لخير البلاد لا لشرها ، فكما يتعلمون لنفع أنفسهم يجب أن يقرنوا ذلك النفع بنفع مواطنيهم أيضاً .

وإلا فلو اتبع كل واحد يرى عيباً فى صاحبه طريقة هؤلاء الشبان لما كان لأحد من أهل بلده خليل ، « ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها » ؟ فواجبهم الوطنى يقضى عليهم بأن يدخلوا كل ما يرونه صالحاً فى بلادهم مع الاستغناء عن الأجنبى على قدر الإمكان ، فصانع الحرير الوطنى إذا رأى معامل أوربا وسرعتها وجب أن يشترى لبلاده الآلات اللازمة لسرعة إنجاز العمل ، لا أن يدخل تلك الصناعة بعينها ويقضى على صناعته الجميلة فيكون قد اقتبس شكلا وأبطل آخر ، فنحن إذا اتبعنا كل شىء غربى قضينا على مدنيتنا ، والأمة التى لا مدنية لها ضعيفة هالكة لا محالة . فشباننا يدعون أنهم يأتون بنساء أوربا لأنهم رأوهن أرقى من نساء مصر ، إذن يجب أن يحضروا لنا تلاميذ أوربا لأنهم أرقى من تلاميذ مصر ، وعمال أوربا لأنهم أرقى من عمال مصر ، لأن النظرية واحدة ، فماذا تكون الحال لو تم ذلك ؟ وهل إذا سافرت زوجة مصرية لأوربا ورأت الأطفال هناك أجمل بشرة ، وأحلى منظراً من مثلهم فى مصر ، أيصح أن تترك أولادها وتأتى بغيرهم من الغربيين ، أم تجتهد فى تجميلهم وتقريبهم من الشكل الذى أعجبت به ؟ وإذا كانت أحط فتاة غربية تتزوج مصرياً يتبرأ منها أهلها أفنرضى نحن عنها وقد شغلت محل أشرف فتاة منا ، وصار زوجها مثالا لغيره من الشبان ؟ أنا أول من يعجب بنشاط المرأة الغربية وإقدامها ، وأول من يحترم من تستحق الاحترام منهن . ولكن يجب أن لا ينسينا احترام الغير منفعة الوطن . والمصلحة العامة فوق الإعجاب . وإننا فى كثير من أمورنا نسير وفق ما يراه الرجال ، فليرونا ما يحبون ، وكلنا مستعدات للسير بمقتضاه بشرط أن لا يكون ظلماً لنا ولا إجحافاً بحقوقنا .

يؤلمنى أن درجة احترام الرجال لنا ليست بالدرجة التى نحب . وإذا بحثنا وجدنا أننا نحن اللاتى وضعنا أنفسنا فى هذا الموضع غير المرضى ، ذلك أن الإنسان ينزله الناس فى المنزلة التى يختارها هو لنفسه ، ويسير عليها كما قال زهير « ومن

لم يكرم نفسه لا يكرم » . لا يكرم المرء نفسه بأن يقول سعادتى وحضرتى ، أوالبك والباشا فى نفسه كبعض الجهلاء الذين ينالون رتباً جديدة ، ولـكن لا يستهين بذاته فيهينها ، ويشعر من نفسه بالضعة فيهينه الغير أيضاً ، فهل نضع نحن أنفسنا عادة فى الموضع اللائق بها ؟ كلا . يحـكى أن أحد الخلفاء بينما كان يروض نفسه فى الطريق إذ سمع صوتاً فى خرابة فاتجه نحوه فوجد فيها زبالا يقول .

وأكرم نفسى إننى إن أهنتها   وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فقال له : وأى إكرام لنفسك ، وأنت تحمل التراب والأقذار ؟ قال نعم أفعل ذلك لأكفى نفسى مهانة السؤال من مثلك ! إن معتقداتنا وأفعالنا كانت سبباً عظيما فى قلة احترام الرجل إيانا ؛ أيحترم رجل عاقل امرأة تعتقد فى السحر ، والشعوذة ، وكرامة الأموات وتجعل من الدلالات والبلانات بل ومن الشياطين عليها سلطاناً ؟ أيحترم المرأة ولا حديث لها إلا (فساتين) جارتها ومصوغات صاحبتها وجهاز فلانة وأخبار علانة ؟ هذا فضلا عما انطبع فى ذهنه من أن المرأة أضعف منه وأقل ذكاء . إن تهاوننا فى هذه النقطة اعتراف بأن حالتنا مرضية فهل هى كذلك ؟ وإذا لم تـكن فماذا يرقينا فى أعين الرجال ؟ يرقينا حسن التربية والتعلم الصحيح ، فإذا حسنت تربيتنا وتعلمنا علماً حقاً ، لا قشور بعض اللغات الأجنبية و (دورى مى فاسول) ، والعلم يشمل أيضاً تدبير المنزل والصحة والأطفال وإذا تركنا الخلاعة فى الطريق جانباً ، وإذا أثبتنا لأزواجنا بحسن سلوكنا وقيامنا بواجباتنا حق القيام أننا آدميات نشعر وأن لنا نفوساً لا تقل عن نفوسهم ، فلا نسمح لهم بحال من الأحوال بإيلام شعورنا أو بالاستهانة بنا ، إذا فعلنا كل ذلك فمن أين يجد الرجل العادل طريقا لاحتقارنا ؟ أما غير العادل فـكان حريا بنا أن لا نقبل الزواج منه .

يرقينا أن نطرح الكسل أرضا . فإن عمل أكثرنا فى المنزل هو القعود على (الشلتة) كل النهار ، أو الخروج للزيارات ، كأن رد فعل القعود أدار لولب أرجلنا ؛ ونفخ فى شراع (حَبَرْنا) فلم نقو على ضبط جماحنا . والتى تعرف القراءة منا ففيم تقضى أوقات فراغها ؟ فى قراءة الروايات فقط . فهلا قرأت قانون الصحة أو بعض الكتب المفيدة فتنتفع وتنفع ؟ إن انغماسنا فى الكسل أو الترف أدى إلى ضعف أجسامنا وشحوبنا فيجب أن نبحث لنا عن عمل نزاوله فى منازلنا . والمتأمل يرى لأول نظرة أن الطبقات العاملة هى الأسلم صحة والأكثر نشاطاً ، والأنجب نسلا . ألا تنظرون إلى أولاد الطبقة الوسطى والسفلى فإنهم كلهم تقريباً أصحاء الجسم أقوياء البنية ؟ أما أولاد (الذوات) فأكثرهم مرضى أو نحفاء يتأثرون بأقل العوارض مع ما يبذله آباؤهم من الاعتناء بهم ، بعكس أولاد الطبقة الدنيا مثلا فإنهم فى إهمال شديد من والديهم . العمل يخرج الفضلات الزائدة فى الدم ويقوى العضل ويبعث على النشاط . والطبقة أو الأمة العاملة يزداد نسلها فتمتز بأبنائها ، وإن الأمة الألمانية لشاهد حسى على ما أقول . فإن التعداد يظهر أن النسل هناك يزداد بسرعة هائلة حتى ضاق رحب ألمانيا بأهلها فأخذوا يبحثون عن أراض يستعمرونها ليصرفوا فيها الزائد من السكان . والذين زاروا أوروبا أخبروا أن أهل ذلك البلد مجدون نشيطون رجالا ونساء ، بعكس المرأة الفرنسية فإن ترفها الزائد كان سبباً فى قلة نسلها فضلا عن انصراف كثير من تلك الأمة عن الزواج . وقد بح صوت الاقتصاديين والاجتماعيين فى نصح مواطنيهم بالاعتدال واتباع الطريق القويم فلم يفلحوا . لاحظت وأنا فى البادية أن بين نساء البدو ورجالهم كثيراً من العجائز ممن بلغوا الثمانين والمائة ، وقد رأى معظمهم أربعة أعقاب من ذريته ، مع أنى لم أر فى القاهرة ولا فى المدن الأخرى ما يشبه ذلك . ولا شك أن هذا نتيجة عيشتهم الطبيعية واعتدالهم ؛ فإنهم كلهم مبكرون فى كل شىء ، مبكرون فى الاستيقاظ وفى النوم وفى تناول

الأغذية ، وفى الأخذ بأول كل شىء ، وكلهم عاملون ، ولم أر بينهم امرأة واحدة حتى من نساء أغنيائهم تقضى النهار فى الكسل كما نقضيه نحن . فإذا كان الفلاسفة والأطباء يبحثون عن إكسير الحياة فهأنذا قد استكشفته ، ذلك هو العمل والاعتدال فى المعيشة والعيش الطبيعى ، ولعل فى هذا القدر عن المرأة كفاية اليوم .

بقى علينا أن نبين الطريق العملى الذى يجب أن نسير عليه ، ولو كان لى حق التشريع لأصدرت اللائحه الآتية :

(المادة الأولى) تعليم البنات الدين الصحيح ، أى تعاليم القرآن والسنة الصحيحة.

(المادة الثانية) تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى ، وجعل التعليم الأولى إجباريا فى كل الطبقات .

(المادة الثالثة) تعليمهن التدبير المنزلى علما وعملا ، وقانون الصحة وتربية الأطفال والإسعافات الوقتية فى الطب .

(المادة الرابعة) تخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله وفن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء فى مصر .

(المادة الخامسة) إطلاق الحرية فى تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد .

(المادة السادسة) تعويد البنات من صغرهن الصدق والجد فى العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل .

(المادة السابعة) اتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم .

(المادة الثامنة) اتباع عادة نساء الأتراك فى الأستانة فى الحجاب والخروج .

(المادة التاسعة) المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب من الأشياء والناس بقدر الإمكان .

(المادة العاشرة) على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا .

خطبة[1]

في المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية

وعاداتهما واستخلاص زبدة المقارنة لنعمل بها

المولودة — دور الطفولة — المراهقة (الملابس والأزياء) — الخطبة والزواج الاقتصاد المالى والمنزلى — العمل البيتى — الأخلاق والعادات — دور الأمومة .

أيتها السيدات :

إذا كان لفئة ما أن تجتمع وتبحث فى شئونها فلا أحق بذلك منا نساء مصر وفتياتها . فإننا على درجة من التأخر تؤلم نفس المتفكر فيها ، وترجع بالوطن خطوات واسعات عن سبيل التقدم . إن من دلائل تأخرنا أن أكثرنا أخذ يقلد المرأة الغربية بغير نظر إلى موافقة عاداتها للشرع الإسلامى والآداب الشرقية . و بعضنا الآخر ظل على تقاليده القديمه سواء أكانت صحيحة أو فاسدة . فما هذا الجمود بمستحسن ولا ذاك الاندفاع بممدوح . و إنى شارحة الآن عادات المرأتين فى كل أدوار حياتهما مقارنة إحداهما بالأخرى ، مستخلصة من زبدة ذلك ما عسى أن ينفعنا فى مستقبل حياتنا .

---

(١) ألقيت هذه الخطبة فى « الجامعة المصرية » بحضور مئآت من السيدات المصريات .

١ — الدور الأول المولودة :

إن حالنا الآن عند تبشير إحدانا بالأنثى شديد المشابهة جداً لحال الجاهلية الأولى. ولم أرنا خالفناهم فى شىء مما كانوا يفعلون فى ذلك إلا الوأد . قال الله تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) .

إن الانقباض الذى نظهره عند مستهل الأنثى يحدث فى الطفله إذعانا إلى الذلة ورؤماً إلى الضعة . فتشب الفتاة آلفة الفرق العظيم بينها وبين أخيها . فتعتقد فى نفسها أنها أحط شأنا وأدنى مرتبة ، فلا تطلب من المعالى ما يطلبه أخوها ولا تنبسط نفسها إلى ما يرفع من شأنها وشأن جنسها وتضع نفسها حيث يضعها الظالمون من أهلها . وليت شعرى لم نكره ولادة الأنثى وهى نصف الإنسان وأمه وزوجته وابنته ؟ ألا يصح أن تكون الفتاة نافعة كالفتى ؟ ألا يرجع الفضل فى تدبير عيش الرجل لها ؟ ألم تكن فى كثير من الأحيان سبب سعادته وموضع أمله ؟ وكيف نهمل تعاليم ديننا الحنيف فى هذه المسألة ويتبعها أكثر الغربيين ؟ فإن أممهم خصوصاً الشمالية منها يتساوى عندها الذكر والأنثى . وقد يملكون عليهم فتاة فيهم من يفضلها علماً وتجربة وحذقا . يبرر الظالمون للأنثى جورهم هذا بأن الذكر يحفظ اسم (العائلة) ويرث مالها ولقبها . ولكن كم من والد مات ذكره بموته . كيف لا والعمل وحده عليه حياة الذكر أو فناؤه . هل رفع الله الأنبياء عليهم السلام درجات على الناس بأعمالهم أم بأبنائهم ومنهم من لم يتزوج قط ومنهم من عقه أبناؤه ؟ أكان أبو العلاء المعرى أبا ذرية أحيت اسمه وهو الذى يعد الزواج والذرية جناية ؟ وهل يغنى الولد عن الأبوين شيئاً إذا كان

لايخنقه حشرجة الموت ؟ فالصبية والصبى سيان ، قرة عين الوالد فى حياته ولا يدرى ماذا يفعلان بعد مماته . وهل إذا ورث الفتى ثروة و بددها يعد حافظاً غنى أسرته ، أم إذا ولد لأحدهم ذكور ضمن لهم الحياة الخالدة ؟ .

٢ — الدور الثانى دور الطفولة :

فى هذا الدور نفضل الصبى عن البنت فى أمور شتى مع أن الغربيين لا يفرقون بينهما بتة ، فضلا عن أنهم يوفونهما حقهما من التربية والعناية . ونحن إذا فضلنا المذكر قليلا فلا نزال مقصرين فى العناية به ، فما بالك بالأنثى ؟ ترضع المرأة الغربية طفلها وتنظفه بنفسها ، اللهم الا فئة العاملات اللاتى يضطرهن الفقر إلى الاشتغال فى المصانع والحوانيت وترك أطفالهن فى أيدى الأجراء من مربيات الأطفال ومراضعهم . أما نحن فنعد إرضاع أطفالنا عيباً لا يغتفره لنا ادعاء الغنى أو الغنى نفسه ! ونفوض أمر نظافتهم للخدم ونكل ترويضهم وتربيتهم إليهم وهم من تعلمن من فساد الذوق والجهل القبيح ، فيشب أطفالنا أشد حباً لهم وأشبه أخلاقا بهم ، بينا نجد بيننا وبينهم جفاء وتقاطعاً . وكيف تعرف الأم طباع طفلها إذا هى لا تتعرفها بنفسها . ولو مرت الأمهات يوماً بالمراضع جالسات على حافة الطرق ليراقبن حالتهن الأخلاقية لما تأخرن لحظة عن حماية أطفالهن من جيش المراضع الهازم لمكارم الأخلاق .

أما عنايتنا بصحة أطفالنا فلم تكن بأكثر من عنايتنا بأخلاقهم . فبينما المرأة الغربية تغذو طفلها غذاء خفيفاً سريع الهضم ، وتحتفظ به من هجمات البرد والحر ترينا نطعمه أثقل الغذاء ونبادر بإعطائه اللحم وما يتعسر هضمه . فتختل معدة الطفل ويصاب بالإسهال والنزلات المعوية ، وقد يفضى به سوء الحالة إلى الموت أخيراً . وكذلك لا نكترث بنظافته لئلا يحسد ، ونتركه يلعب به النقيضان القر

والحر فلا يلبث أن يمرض ، ولا علاج له عندنا إلا الرقى والتمائم نثقل بها حمائله . وإذا بكى متوجعاً نظن بكاءه جوعاً فنلقمه الغذاء فوق الغذاء إلى أن يلقى حتفه. هنالك تتهم أمه صاحبتها أو قريبتها بأنها حسدته وأنفذت فيه سهما من عينيها فتبغضها وتتشاءم من رؤيتها . وإذا ابتدأ الطفل يتكلم ويمشى فأول ماينطق به عندنا لعنة الآباء والأجداد ، ومن الغريب أننا نجعل ذلك منه موضوع ضحك واستحسان فيظن أنه مصيب فى قوله فيتمادى فى الإكثار منه . وإذا مشى فإننا نحجر عليه أن يمشى إلا وسط الحجر المزدحمة بالأثاث والأوانى. فإذا لم يكسر منها شيئاً فإنه يتهشم بصدمة أو بوقوع . وإذا تأخر فى الخطو قليلا نساعده عليه بالمشاة (المشاية) وهى علة تشويه كبيرة لاتشعر بها ، ذلك ان عظام الطفل اللينة بإجهادها فى المشى قبل قوتها تلتوى فيشب الطفل أعوج الساقين منحنى السلسلة الفقرية أو الصدر . كذلك لا يلتفت لموضع سرير الطفل وتأثير النور فى عينيه . فيكثر فينا الحول والعمى . ما أعظم الفرق بين طفلنا الشاحب اللون البذىء اللسان وبين الطفل الغربى الصحيح البدن بالاعتناء المهذب بالتربية . ما أجمله حين يذهب فى الصباح والمساء ليقبل والديه ، وحين يستغفر غيره أيا كان لأقل هفوة أو يشكر له جميلا أسداه . ذلك الطفل الذى إذا حرم تلك القبلة الوالدية لهفوة أتاها فلا تسلن عن حزنه وبكائه إلى أن يتوب . بمثل هذا تعلم المرأة الغربية طفلها أن رضاء الوالدين أعظم نعمة للأولاد ، وتربى فيه الضمير الحى والاعتراف بالشكر لمن وجب له ، فلا تصغر نفسه بالضرب كما نعود نحن أطفالنا . ما المراد من ضرب الطفل إذاً ؟ المراد هو نهيه عن إتيان شىء لا نستحسنة لا إيذاء جسمه بأنواع التعذيب البدنى . فهلا نجد من طرق التأديب النفسية ما يوصل إلى تلك الغاية بغير الشتم والضرب اللذين يصغران همة الطفل ويخفضان من عزته صغيراً ويزيدان تحكمه واستبداده كبيراً .

وبقدر ما نعطى الطفل حرية فى البذاءة والإتلاف نمنعها إياه فى الرياضة المفيدة لنموه ، فنمنعه الجرى والفسحة ومشاهدة المناظر الطبيعية الجميلة . مع أن الطفل الغربى يعد عضوا مهما فى البيت كسائر أعضائه من أب وأم ؛ فيذهب به إلى بلاد بعيدة لاستنشاق الهواء واجتلاء المناظر ، ويفرد له أدوات خاصة لنومه ولعبه وسائر لوازمه ، ويعامل بالإكرام ويعود الاستقلال من نعومة أظفاره إلى أن يترعرع . وإذا لحن فى كلامه بادرت أمه بتصحيح خطئه والنطق أمامه نطقا صحيحا حتى يحا كيها فيه . أما أطفالنا البائسون فإننا نلثغ لهم لنرضيهم ونكلمهم بلغتهم المشوشة بدل تعليمهم لغتنا العاميه لا الفصحى !

نحن نبادر بإرسال أولادنا للمدارس وهم صغار لا يدركون ماهية العلم ولا يألفون حجر حريتهم ، فيضايقهم المعلمون بتدريسهم الممل غير الجذاب ويلزمون أعضاءهم المخلوقة للحركة بالسكون التام فيتربى فى الطفل نفوراً من المدرسة والدرس ، فتجبره أمه على الذهاب إلى المدرسة فيزيده الإجبار نفورا ، وقد يكون خطؤنا فى إرسال أولادنا صغارا جدا للمدرسة ومضايقة المعلمين لهم بأساليبهم العقيمة ما ينقص من استعداد الطفل لتلقى العلم ويفسد عليه ملكاته . أما الطفل الغربى فهو أسعد حظا ، إذ تعلمه أمه فى البيت طرق الملاحظة والمشاهدة ، وتلقنه فوائد الأشياء والأسرار القريبة الإدراك لما يحيط به من نبات وحيوان ومطر وغيره ، وتعلمه الإحسان والشفقة بما تفعله أمامه من ضروبهما . وكذلك تعلمه القراءة والكتابة الأولية بأسلوب شائق ولا ترسله للمدرسة إلا وفيه ميل إليها واستعداد لما سيلقى عليه بها . وقد جربت ضرر إرسال الأولاد للمدرسة صغارا فى نفسى وفى إخوتى وفيمن شاهدته من التلميذات ، فإنى ظللت حوالى ثلاث سنين لا أفقه معنى للمدرسة ولا أكاد أفهم الغرض من إرسالى إليها . وكذلك شاهدت أن النابغات من التلميذات هن اللاتى أرسلن للمدرسة فى سن الثامنة أو العاشرة ،

أما المرسلات صغيرات فأكثرهن لم يستفدن شيئا غير ضعف البنية وخسارة ما أنفق عليهن . وإذا لم يكن بد من إرسال الأطفال للمدرسة صغاراً فيجب أن تجعل لهم فرقة مخصوصة كفرقة بستان الأطفال (الـكندرجارتن) التى تجعل فيها الدروس مزيجاً من التعلم والرياضة ، ويراعى فيها مدارك الطفل وتمرن حواسه وأعضاؤه بغير إجبار يخافه أو تـكرار يمله . ولو كانت الأمهات معتنيات بأطفالهن تمام العناية فإن مثل تلك الفرقة كان يجب أن تـكون فى كل بيت أنعم الله عليه بنعمة الأولاد .

للتربية عندنا إحدى طريقتين : إما القسوة وإما التدليل وكلاهما مضر . فالقسوة ترهق الطفل وتعلمه الذل . والتدليل يطوح به فى مهواة الغرور . فمن دلائل القسوة تخويفنا الأطفال وتصوير صور مخيفة لهم من الظلمة وملء أذهانهم بترهات لا أصل لها (كالبعبع والمزّيرة الخ) وضربهم عند مخالفتهم لنا ، ومن تدليلنا إياهم أن نعلمهم الأنانية ونعطيهم ما يشتهون عند بكائهم بعد منعهم إياه قبل البكاء ، فيتعلمون من ذلك أن الصياح ميسر العسير ومقرب البعيد فلا يتأخرون من البكاء عند أى شىء نمنعه عنهم . وقد رأيت كثيراً أن طفلا ينصح لأخيه أو أخته الأصغر منه سنا بأن يبكى حتى يأخذ كيت وكيت مما كان منع عنه . أما الإفرنج فطريقتهم فى تربية الأطفال خير من طريقتنا أضعافاً فيعاقبون الطفل الذى يبكى لطلب شىء بالحرمان منه فيعلم أن البكاء لا يجدى ، ويطلبه بالطرق المشروعة ، وإن منع منه فلا يعود يتشبث به . ويستحضرون فى المنزل ماتمس إليه حاجة الأولاد من الحلوى واللعب ، خوفا عليهم من قذارة ما فى الأسواق ، واقتصادا للمال والزمن .

٣ — الدور الثالث دور المراهقة :

هذا هو الدور الذى تتجلى فيه صفات الفتاة حسنة كانت أو سيئة ، وإن كانت الأخيرة، فمن الصعب تغييرها . فى هذا الدور يهتم الأهلون بإرسال أولادهم الذكور للمدرسة ، وإن كانوا يدخلونهم قبل ذلك الكتاتيب ، ولا يهتمون كثيراً بتثقيف عقل الفتاة . على أنهم قد أخذوا يقلدون الغربيين أخيراً فى تعليم الفتاة ولكن لم يكن التقليد نافعاً لنا ولا محكما فى ذاته . فالفتاة الغربية تتعلم العلوم إلى أن تحصل منها على درجة عالية أودرجة محمودة · أما فتاتنا المصرية فلا تكاد تقرأ بل تتعلم قشورا بسيطة من العلم حتى تستغنى بها عن الاستمرار فى الاستفادة . فهى لا تقلد الغربية فى التعلم النافع وإنما تقلدها باستماتة فى تعلم البيانو والرقص . ولا أدرى لماذا أخذت البيوت الشرقية تبطل العود والقانون وتتعلم (البيانو) مع أن الأولين فضلا عن كونهما شرقيين، ألطف صوتاً وأشجى نغمة وأقل جلبة وأرخص ثمناً وأخف حملا . إن (البيانو) لازم جداً فى الغرب لتحية الجموع فى المراقص والكنائس لأنه بنغماته العالية يسمع إلى مكان بعيد، أما فى بيوت المسلمين حيث لا مراقص ولا كنائس فلا أجده من الضرورة بالدرجة التى تتهافت عليها فتياتنا . نعم إن تعلم الموسيقى من الكماليات الممدوحة ، ويقولون إنها مهذبة للطبع مرققة للشعور، ولكن ألم يكن الأولى تعلمها على الآلات الشرقية التى لاضوضاء لها ، إذ هى بذلك أدعى للحشمة فلا يتعدى صوتها البيت الذى هى به ؟ .

ولو سلمنا بضرورة تقليد الغربية فى تعليم (البيانو) لوجب محاكاتها أيضاً فى تعلمه من حيث هو فن ، وإتقانه ، لا أن تقتصر الفتاة على نقر لا تناسب بين نغماته حتى إن سليم الذوق مع عدم تلقيه دروسا فى (البيانو) يمكنه نقد ذلك الضرب الذى لاقانون له على صماخ الأذن لا على (البيانو)، فإن أذنه تنبو عنه لسماجته !

ماذا تقرأ الفتيات فى سن المراهقة ؟ لا يقرأن إلا الروايات الغرامية ، وهن فى ذلك الوقت موضع لسورة الانفعالات النفسية . فيتأثرن بحوادث العشق والحرب وتنطبع فى ذاكرتهن أشعار وجمل غرامية مما يقرأن ، وتمر أمامهن صور تلك الحوادث كالصور المتحركة فلا تعدم أن تلقى أثراً فى عقولهن اللينة . إن الآباء ملومون فى هذه الحالة لعدم اختيارهم كتباً نافعة تقرؤها فتياتهم . لماذا لا يختارون لهن مثل كتاب التربية الاستقلالية وفيه أمور نافعة جداً فى تربية الأطفال ومعاملة الأزواج ؟ أو مثل كتاب كليلة ودمنة ؟ أو كتب تراجم المشهورين من رجال ونساء ؟ فإن فى قراءة سير المشاهير ما يبعث القارىء على أن يقتدى بهم ، أو مثل كتب آداب اللغة وغيرها مما يلذ و يفيد فى آن واحد . هذا إذا وجدت الفتاة من كتب الفلسفة والعلم ما يستعصى عليها فهمه ، أو تتضجر من الاستمرار على قراءته لجده الخالص وجفافه . ماذا تفعل الفتاة فى سن الرابعة عشرة أو السادسة عشرة وهى ممتلئة الذهن بحوادث « روميو وجوليت » وألفاظ « فاتنتى وحبيبتى » الخ ؟ إنها تتمنى أن تسمع مثلها وتكون مرموقة بمثل تلك العين ، لأن سنها كما بينت أخصب مراعى إبليس . هذا من جهة القراءة . أما الحرية فإن الفتاة المصرية الأولى كانت محجورا عليها لدرجة الحبس ، والفتاة الغربية لها مطلق الحرية فى أن تغدو وتروح وحدها وتسافر من بلد إلى آخر قاص بغير رقابة أهلها ، وهذا من الخرق فى الرأى ، وأخاف أن تغرنا زخارفه فنعمل به لأن كثيرات من فتياتنا المتعلمات يحسبن أن الدرجة التى وصلن إليها تكفى لإعطائهن مطلق الحرية يجئن ويرحن وحيدات . وإن حوادث الفتيات المحزنة كثيرة جداً فى أوروبا لأن الفتيات الطائشات يصدقن لصفاء نيتهن كل مدع لهن بالغرام ، وتساعدهن حريتهن المطلقة على مسايرة الفتيان ، ثم لا يلبث الرجال أن ينفضوا من حولهن ويتركوهن بين اليأس والعار ، وهما أمران أحلاهما مر .

من رأيي أن تمنع الفتاة في سن المراهقة هذه من الاختلاط بالشبان وحاشا أن أمس بكلامي هذا شرف الفتيات ، وإنما أحب أن أنبه إلى شيء طبيعي ، والعاقل من اتعظ بغيره . ويكفي تجنبنا لمثل هذا الاختلاط المعيب أن أهله أنفسهم هم أول العائبين له ، والفتاة في هذه السن كـكل إنسان تطلب الحرية ، ويجب أن تتريض وتخرج وهذان لا أمنعهما عنها . وإنما أنصح للأمهات بأن يرافقنهن وللآباء أن يراقبوهن مراقبة لا تتمكن بها من الوجود مع غير ذي رحم محرم .

ثم إذا ثبتت للوالدين مقدرتها على حسن السير وطهارة الذيل وقوة الإرادة فلا بأس من إباحة الحرية لها في زيارة صاحباتها ، وأرى أن الحرية المطلقة والحجر المطلق كلاهما مضر ، فـكما أن الأولى تسهل سبل الفساد لمن تريدها ، كذلك الثاني يخلق في الفتاة ميلا لأن ترى كل شيء ويعلمها طرق الغش والـكذب ، فيـكون قد جنى أهلها جنايتين .

إن صلاح الفتاة مترتب دائماً على تربيتها الأولى ، فإن فسدت فقد يكون قليل من الحرية أفضل من الحجر المطلق ، لأنه لا ينفع . ولا تعدم الفتاة منفذاً لأغراضها ، فتتعلم بذلك السرقة والخداع ، وقد تـكون بعيدة عنهما من قبل .

وأفضل طريقة لتربية البنات هي أن يرين قبل البلوغ كل شيء تصح مشاهدته ، بمعنى أن البنت في نحو العاشرة يجب أن يريها والدها الصور المتحركة ، والتمثيل والألعاب المختلفة والحوانيت الـكبيرة ، والمتنزهات والآثار ، ويركبها السيارة ، ويريها الحفلات ، وغير ذلك حتى تلم على قدر الإمكان بكل شيء حسن أو عجيب ، فتستنير من جهة ، ولا تظل بلهاء كـكثير من فتياتنا ، من جهة أخرى ، وحتى تـكون امتلأت نفسهـا من الصغر فلا تجد فيها فراغا فيما بعد لطلب المزيد من

المشاهدات ، فإذا عرضت لها الفسحة فى حياتها المستقبلة فلا بأس بها وإن لم تعرض فلا تأسف كثيراً عليها .

المدارس :

تعجبنى جداً طريقة مدارس (الفرير) فى نقل الفتيات صباحا ومساء فى مركباتها الخاصة حتى لا يختلط بهن السابلة ، وحتى يأمن عليهن أهلهن من مراقبة الخدام الذين هم فى أكثر الأحوال وسائل الفساد ووسطاء الغواية والضلال ، وكذلك يوفرن وقت من سيعطل نفسه فيصحبهن إلى المدرسة ذهاباً وإيابا . فحبذا لو اشترت نظارة المعارف أو استأجرت مثل تلك العربات لنقل التلميذات إلى مدارسها فى الغدو والرواح . ويكون لكل قسم من أقسام البلد واحدة أو اثنتان طبقاً لحاجة التلميذات كثرة وقلة . فإن التعليم فى مدارسها أرقى بكثير من التعليم فى المدارس الأخرى خصوصاً فى اللغة العربية التى هى لغتنا ، ويجب أن نتعلمها جيداً ، وكذلك تراعى فيها آداب البلد ، وعوائده ودينه ، أفضل مما تراعى فى تلك المدارس الأجنبية التى لم تفتح إلا لنشر مذهب من المذاهب الدينية أو لكسب أصحابها فقط .

يرى بعض المستهجنين تعليم الفتيات أن بقاء الفتاة جاهلة خير لها من أن تتعلم ، لأن التعلم يوسع عليها حيل الاختلاط الذى لا تبرره العادة ، ولا يسمح به أولياؤها ، وهى نظرية فاسدة لأن التربية الحقيقية تحول دون ذلك ، فالفتاة الكاملة تجد من عفتها وقدوة أهلها وآداب نفسها ما يخيفها من سوء الأحدوثة ، وتعلم أن سمعة الفتاة كالزجاج الصافى يتلوث من أقل الأشياء ، وإذا انكسر فلا يجبر . أما الفاسدة فتميل للمروق متى وجدت مسرباً ، سواء أكانت عالمة أو جاهلة . وغاية الأمر أن الجاهلة أسرع شططاً ، وأدنى إلى أن تشهر بنفسها ، وقلما تعرف نتيجة تصرفها السيء إلا بعد وقوعها فى سوء مغبته .

الملابس والأزياء :

الملابس الشرقيـة أخف مؤنة وأيسر كلفة وأشد ملاءمة لجونا الحار وصيفنا المحرق من الملابس الإفرنجية ، فهى جلباب يلبس مرة واحدة فوق الملابس الدنيا ، وعند الخروج تلبس فوقه الملاءة ؛ أما الملابس الإفرنجية ، فإنها متعددة القطع مضاعفة التركيب عسرة اللبس والنزع ، فمن مشد يخنق الخاصرة ، ويعتصر الـكبد والطحال ، ويضغط على الأحشاء ويمنع الجلد من التنفس الطبيعى اللازم له ، ومن بنيقة (ياقة) منشاة كالورق المقوى لا تستطيع المرأة فيها لفت رقبتها ولا الانثناء لقضاء أى عمل ، فتظل مشرئبة العنق مشدودة لا عن وثاق ، ومن صدار (chemisette) لاصق بالإبطين ضاغط على الـكتفين أو مقور الفتحة (décolleté) يعرض القفا والنحر بل الصدر والظهر إلى الحر والقر ، واختلاف درجات الجو وجلب النزلات الصدرية . ومن مرطة (juope) ضيق الأعلى غير محـكم الأزرار ، واسع الأسفل طويل الذيل كأن لابسته من ذوات الأذناب ، تثير فى مشيتها الجراثيم وتضايق الرئتين والخياشيم ، ومن قبعة مترامية الأطراف مدججة بالدبابيس ، مثقلة بالطيور وريشها ، والغصون وأزهارها وثمارها مدبجة بالأربطة الحريرية . ومن أناشيط (بنابيغ) فى أجزاء (الفستان) يضيع فى ربطها وحلها الزمن سدى ، فضلا عن تعدد الملابس لتعدد الأغراض . فحـلة للصباح وأخرى للمساء وثالثة للخروج وأخرى للرقص وغيرها للاستقبال ، وهلم جرا . إن الزمن الذى يضيع كل يوم فى اللبس والخلع لو صرف فى عمل نافع لأتى بالفائدة ، وأراح من العناء . على أن لنساء الإفرنج حسنة واحـدة فى ملابسهن مفقودة عندنا وهى البساطة عند الخروج للنزهة أو لقضاء شغل ، فتلبس المرأة ثوبا قصيراً كى لا يعوقها عن المشى ، أما نحن فنرتدى أحسن طرفنا فى الخارج ونطيل فى الذيول نجرها . على أن الأوربيات أحق منا بالافتتان فى الأزياء وشدة التأنق

فيها لأنهن بارزات ، أما نحن فأكثر ما يرانا جدران المنازل ؛ وإن خرجنا فتحت الإزار، أوفى المركبات ، وإذن فلا لزوم لاتباع (المودة) بشغف زائد لأنها تفقر وتضايق . وإن كان للغنيات حق التمتع بصرف مالهن ولو فيما لا يجدى الإنسانية كالأزياء ، فليس للمتوسطات حق إفقار بعولتهن أو آبائهن جرياً وراء « المودة » المتقلبة .

يخرج بعض نسائنا عن حدود الأدب والشرع متفانيات فى اتباع (المودة) ولـكن هناك فرقاً كبيراً بين (المودة) والخلاعة ، فإن لبست المرأة آخر الأزياء فى بيتها فما عليها فى ذلك من حرج ، ولـكن إذا ظهرت زينتها للمارة ، وظلت تتلـكأ وتتسكع وتداعب وتضحك، فتلك هى الخلاعة الشائنة ولم تجىء فى مجلات الأزياء (كالبرنتان واللوفر) وغيرهما ففى أى كتاب قرأتها ؟ .

لاحظت شيئاً غريباً فى الفتيات ، وهو أن الفتاة التى تتبرج وتتأنق مغالية فى إظهار محاسنها وغناها تريد بذلك أن يعجب بها الخاطبون والخاطبات ، هى التى تتأخر دائمـاً فى الزواج ، وإن تزوجت فبرجل أقل مما كان ينتظر لمثلها . وهذا عقاب طبيعى للمتبرجات ، لأن الرجل مهما أعجبه شكل الخليعة وكلامها فهو لا يود أن يقتنيها لنفسه اعتقاداً أن ما أعجبه منها ظاهر لغيره أيضاً . ولو فطنت الفتيات إلى أن أول شرط يشترطه الرجل فى امرأته خاصة هو الحشمة والترفع عن التبرج لما تأخرن لحظة عن الإقلاع عما زعمنه يقربهن فى أعين الراغبين فى الزواج ،وهو فى الحقيقة يبعدهن و ينفر الرجال منهن . لست بذلك أدعو النساء إلى التقشف أو البعد عن الزينة فليس لى أن أحرم ما حلل الله ، ولأن فى الزينة للمرأة بعض السعادة ولزوجها كذلك ، ولـكن غرضى الاعتدال فى الزينة إلى عدم الخروج عن المعروف .

٤ — الدور الرابع الخطبة والزواج :

تتعجل الفتيات كثيراً فى انتظار هذا الدور ولو علمن مصاعبه ومتاعبه لما تعجلنه . وأظن أن ما يشوقهن إليه هو الزخارف والحلى الجديدة ، ومايقام للعروس من معالم الزينة ، وما يتقاطر عليها من التهانى والهدايا . ولـكنهن لا يدرين التبعة العظيمة التى تتحملها المرأة بزواجها ، وما قد يصيبها من الآلام النفسية فى عيشتها الجديدة . وشتان بين الفتاة ــ تنام ملء عينيها ، ولا تُسأل إلا عن نفسها ، ويسعى أبوها وأهلها فى إرضائها وجلب ماتشتهيه من ملابس وغيرها ــ وبين الزوجة تنتظر بعلها إلى ما بعد نصف الليل ، وتبـكر قبل بزوغ الشمس لتجهيز طعامه ، وتنظيم ملابسه ، وتظل يومها تشتغل فى بيتها أو تلاحظ الخدم ، وعليها أن ترضيه وترضيهم وتخطب ود أهله وتقوم بتربية أولاده ، وهى بين كثرة العمل ، وتنوع التبعة ، تحاسب حساباً عسيراً على أقل هفوة ، وربما وجدت فيه سكيراً فظاً أحمق . وأدهى من ذلك أن يتحفها بضرة شرعية أو غير شرعية تأتى على ما بقى من رونق جمالها وسعادتها .

لا وسيلة للزواج عندنا إلا الخطبة ، ولـكن بأعين الأهل والجيران والخاطبات اللاتى قد تحسن فى أعينهن من لا تحسن فى عين الخاطب لاختلاف الأذواق والمشارب ، فيتزوج الرجل على مجرد أوصاف رويت له فيصور منها شـكلا فى مخيلته قد لا يطابق العروس الحقيقية أصـلا لسوء تعبير الخاطبات وتحريفهن المقصود لغايات . وكذلك الفتاة لا تـكاد تعلم عن خطيبها شيئاً إلا اسمه وماله المبالغ فى تقديره لترغيبها هى وأهلهـا ، فإذا حان وقت المقابلة يكاد العروسان يصابان بالبـكم والغثيان لفرط دهشة أحدهما من الآخر . وبعد المباشرة قليلا قد يتفقان وقد لا يتفقان . وهل هذه المخاطرة فى الحقيقة إلا نتيجة اعتقادنا المقلوب فى القضاء والقدر . نعم إن القضاء والقدر لا تجدى مغالبتهما ، ولـكن لا يصح

اتخاذهما وسيلة للإهمال فى جلب المنفعة أو درء الضرر . فإن هـذه المسألة مسألة اختيار محض ، للعقل أن يحكم فيها وحده ، فإذا أحسن الاختيار حسنت عاقبته . وإن قصر أو أهمل ساءت العقبى . على أن إسفار النساء عن وجوههن لم تجمع الأئمة على تحريمه فضلا عن أنهم كلهم يجوّزونه عند الخطبة تحاشياً من وقوع الاختلاف ودعوى الغش فيما بعد .

أما الإفرنج فخشية أن يصابوا بما أصيب به أغلب أهل الشرق من الخطبة العمياء وما يترتب عليهامن الشقاء المستمر ، أجمعوا على وجوب أن يتراءى العروسان قبل الخطبة مراراً ويتقابلا تكراراً . ولكنهم أفرطوا فى الأمر كما فرطنا نحن فيه و « كلا طرفى كل الأمور ذميم » . لم يكتفوا بأن يرى الخطيب خطيبته عدة مرات بل شرطوا أن يكون الزواج بعد الرضى أو الميل المتبادل بينهما . ولأجل أن يملكوا قلب الخاطب قبل أن يعرف من هو !! يحرضون بناتهم على غشيان المتنزهات والمراقص ومجتمعات الفتيان لعل الواحدة منهن تخلب فتى من الموجودين هناك بالاتفاق ، وقد تذهب المقابلة بعد المقابلة سدى فتتعرض لغيره ، ويتعرض لغيرها إلى أن تجد بعد طول مدة التخير فتى يكاشفها بعزم الاقتران ، فتظن أنها وجدت ضالتها المنشودة فتعلن أهلها ، ويتردد الخطيب عليها فى البيت وغير البيت ، وربما تمضى على ذلك الشهور أو السنون ثم يغضى الفتى عن الفتاة بدعوى أن الاختبار لم يؤد إلى المرام ، وأن القلوب لم تأتلف . وإذا كان أصل الفكرة وجوب الاختبار الطويل فيما يتعلق بالأخلاق والتأكد من الحالة الصحية ، كان العدول بعد الاختبار أمراً غير مستقبح . وإنما يكون الاستقباح بعد الإعلان القطعى وهو لبس الخاتم عندهم ، ولا شك أن التساهل إلى هذا الحد فيه ما فيه من العيوب الضارّة مما لا يخفى على الناقد البصير .

والحق إن هذه المسألة من المعضلات الاجتماعية ، فلا الاسترسال فى الاختبار

بمأمون العواقب ولا الاحتجاب المطلق عن الخاطب بمفيد ، بل ربما كان مؤخرا للفتاة عن الزواج فى الأوان المناسب . وربما كان فى الحى الواحد فتيان وفتيات كل منهم يبغى الزواج ولا يعلم الفتيان بوجود الفتيات لاحتجابهن الاحتجاب الشديد، ولعدم التعارف بين البيوت ولا خلاص من هذه العقدة إلا باتباع سنة السلف من العرب فى صدر الإسلام من مباشرة الفتاة خدمة الضيوف ومقابلة زائرى أهلها لاستطلاع قصدهم ، والخروج فى القرى –إن كانت بها– للمساعدة فى بعض الأعمال . ويجب على الفتيان فى مثل هذه الحال أن لا يظهروا غرضهم أمام الفتيات أو يتعرضوا لهن بالخطبة فإن ذلك مغاير للذوق والأدب ومؤد لخجل الفتيات وانزوائهن وراء الحجب . وينبغى أن تُعوّد الفتيات هذا الأمر من صغرهن حتى لا يستغربنه عند الكبر ويحسن بشذوذه . وهذه الطريقة متبعة فى القرى والبوادى المصرية . فحبذا لو اقتدى بهم غيرهم متى أمنت الفتنة وسلمت الأعراض وصلحت مقاصد الرجال فى رؤية النساء . أما فى العصور والأماكن التى خبثت فيها مقاصد الرجال وانحطت أغراضهم وشاهت آدابهم فإن الحجاب للمرأة ليس إلا حصنا يصونها من عدوان الخبثاء المفسدين .

وفى الحالة التى لا بأس من الخروج فيها ، يشترط أن يكون خروج الفتاة مع أبيها أو أخيها أو أحد محارمها . وعلى كل حال فالشىء الذى لا بد من منعه هو انفراد الفتى بالفتاة لمحادثة فى غير ضرورة ، لما فى ذلك من مخالفة الشرع وإثارة التهم .

هذا ما يقال فى الخطبة . أما الزواج فطريقتنا فيه مختلفة أيضاً ، فالمرأة الغربية فى بعض البلاد تدفع الصداق (الدوت) وقد يكون من جراء ذلك فى بعض الظروف أن تصير الزوجة سيدة الرجل الآمرة الناهية . والمرأة الشرقية كانت لا تدفع

شيئاً ولكن يدفع الرجل الصداق فيأخذه أهلها لأنفسهم ولا يشترون لها منه شيئاً . وبذلك يعتبر الرجل سيدها لا حق لها فى معارضته . وهاتان الطريقتان بغير نظر إلى صلاحيتهما أو تفضيل إحداهما على الأخرى واضحتان فى أن دافع الصداق هو المنفرد بالسيادة فى البيت . أما طريقتنا الآن فهى معتلة . ولذلك فالسيادة متنازع عليها بين الزوجين المصريين . يدفع الرجل الصداق فتأتى المرأة بما يساوى ضعفه أو ضعفيه أو أكثر ، تعنت بذلك أباها أو أخاها ، وإذا كانت موسرة وتزوجها الرجل لمالها كان التنازع بينهما على الرياسة أمراً مقضيا لامحيص عنه ، فهى بمالها من الثراء ترى نفسها سيدة المنزل وهو بما منحه الله من الدرجة فى الفضل وبما أنفقه من ماله عليها يرى نفسه سيد المنزل وهنالك يقع التنازع .

ما لنا ولهذا التكليف الثقيل والبيت باسم الرجل لا باسم زوجه ، فإن أعجبه أن يفرش فى بيته حصيراً فليكن . وإن راقه أن يموه سقوفه وجدرانه بماء الذهب فليفعل . وإن أحب أن يجعله جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار فحبذا رأيه . وليس للزوج وأهله أن ينتظروا شيئا من العروس فهى وشأنها فى مالها . إن حوادث الطلاق فيها عظات كثيرة لو تنبهنا لها ، فكثيراً ما يتنازع الزوجان على الأثاث كل يدعى أنه له . وإذا كان فى الرجل مروءة وتركه لمطلقته فإنها تزحم به بيت أهلها ويظل مكدساً يرتع فيه العث والجرذان فتجد مرعى خصيباً . فإذا تزوجت المرأة ثانية وجدت أكثره تالفاً أو طال عليه القدم مع ما يستلزمه نقل الأثاث وترتيبه كل مرة من النفقات والتعب .

وإذا لمت الغنية مرة على هذا التبذير ، فإنى ألوم الفقيرة المدعية مراراً . فكم من بيوت خربت وأرض بيعت أو رهنت لا لسبب سوى تجهيز عروس لا يلبث

فرشها البهى أن يحول لونه أو يتمزق بعد سنين قلائل، فتكلف زوجها بتجديده أو يبقى خرقا . سمعت عن أب له ثلاث بنات جهزهن واحدة بعد أخرى جهازاً كان موضع الحديث عند معارفهم ، وكان له مائة فدان من أجود الأطيان يعيش بريعها عيش الرخاء ، فباع ثلاثين لتجهيز الفتاة الأولى ورهن ثلاثين للثانية والباقى للأخيرة . ولما حان ميعاد السداد لم يف وإذا بالدائنين يأتون على ما ورثه وهو كل مايمتلك وحجزوا على بيته أيضاً . فبالله ألا يعد هذا الرجل قصير النظر أخرق ، وهل أغناه أثاث بناته وقد أصبح معدماً ذليلا ؟! إنه لمن الجنون بل ومن القساوة أن تجتهد الفتاة فى تخريب بيت والديها لتزيين بيت زوجها . ولماذا تقلد كل سيدة من هى أغنى منها ؟ وهل يعد التوسط فى الغنى أو الفقر عيباً .

إن المرأة الأوربية لا تنفق مالها كما نفعل فى أوان لا تستعملها وفى خرق تبلى بعد زمن قصير . بل تستثمر ذلك المال فتنميه وتحفظه للعوز أو تدخره لأولادها من بعدها، أو تنفق منه على الجمعيات الخيرية والمدارس فتحيي البائسين وتحيا بحسناتها فهى أبرع منا بمراحل فى طرق الاقتصاد .

الاقتصاد المالى والمنزلى :

لا تكتفى المرأة الغربية بتنمية مالها بل تضع (ميزانية متوازنة) مضبوطة لإيراد بيتها ومصروفه ، فلاتخرج عن حد الاعتدال فى النفقات ولا تنفق درهما فى غير موضعه ، وتفحص مشتراها بنفسها كى تتأكد من جودتها واستحقاقها لما تباع به ، وتعنى برفو الثياب وتصليحها وتعمل من كل قديم جديداً ، وقد تغير شكل الثوب الواحد وزينته مراراً فيبدو جديداً . نعم إن فينا تلقاء ذلك كرماً ولكن يجب أن لا يكون الكرم سفهاً . فقد تقع بقعة صغيرة على جلباب من الحرير الغالى فإذا أهملناه لم يصلح للبس ، وإذا أعطيناه خادمة أو امرأة فقيرة فقد ينفعها ثوب من النسيج (القماش) البسيط (الشيت) أكثر من ذلك الثوب

الجميل . وفى هذه الحالة يكون كرمنا غير مجد . فلو اجتهدنا فى إزالة تلك البقعة أو مداراتها بشىء من الزينة (الـكلفة) وجُدنا على تلك الفقيرة بثوب بسيط لـكان أنفع لنا ولها .

إن تربية الغربية مؤسسة على العناية والملاحظة ، أما نحن فقلما نتنبه إليهما . تقتصد المرأة الغربية من مالها بما تظهره من براعتها وعملها ، فهى تخيط لنفسها ولزوجها ولأولادها وتـكوى ثيابهم ، أما عندنا فالبيوت المتوسطة كلها تـكوى فى السوق وتخيط كل شىء حتى التافه عند الخياطات . بعشرين قرشا يمكن المرأة الغربية أن تحضر طعاما لبيتها وتجعله لذيذا شهيا بكثرة الجوارش (السلطة) والحلوى ، أما العشرون قرشـا عندنا فتهيئ بها المرأة طعاما ولـكن غير كاف ولا شهى .

إن الإفرنج رجالا ونساء يعرفون كيف يجتذبون الأنظار ويجعلون الشىء المتوسط فى الحسن جميلا . وقد رأيتن من بضاعتهم ما هو أقل متانة من بضاعتنا الشرقية، ولـكنهم يضعونها فى حوانيت واسعة منارة بالـكهرباء ،ويرصونها داخل ألواح من الزجاج فتجتذب المارة ، ثم هم يختارون لتجارتهم محلا من المدينة يكثر عليه الغادون والرائحون . أما تجارنا فهم بمعزل عن ذلك التفنن إذ قد تـكون حوانيتهم فى نقطة غير مطروقة كثيراً ، أو يهملون فى عرض بضاعتهم وإعلانهم عنها فتبور ؛ ومثل تجارنا فى حوانيتهم ، كمثلنا فى بيوتنا ، ففينا من الذكاء والمقدرة ما يمكّننا من جعل بيوتنا جنة ، ولـكن قلة العناية هى التى تخل نظامها وتفسد ترتيبها .

العمل :

أما العمل البيتى أو الخارجى فإننا يجب أن نعـترف للمرأة الغربية بسبقها إيانا فيهما ، وإن كانت غنياتنا وأغلب غنياتهم لا يكترثن إلا بالملاهى

والأزياء ، ولكن المتوسطات هناك لا يأنفن مزاولة الطبخ والكى وترتيب أثاث البيت كما تأنفه متوسطاتنا . وفقيراتهن يعملن ما يقوم بحاجاتهن وحاجات من يعلنهم (عائلاتهن) ، أما فقيراتنا فإما أن يسألن و إما أن يشتغلن بعمل قليل الكسب، والشواهد كثيرة على ذلك، وأقربها ـ وهو ما نعرفه كلنا ـ أن الخياطات المصريات لا نكاد نجد بينهن واحدة يمكنها تفصيل الثياب وخياطتها جيدا . وهن لعدم إتقانهن العمل يكتفين بأجرة قليلة مع ما يتكبدنه من التعب و إنفاق العافية ، فتأخذ الواحدة خمسة قروش أو عشرة أجرة الثوب فى حين أن الإفرنجية تطلب جنيهين على الأقل مقابل تعبها فقط . وكذلك الممرضات منا يكتفين بدروس قليلة من التمريض ، ولا ينظرن لمثيلاتهن الأجنبيات اللاتى برعن فى المهنة ونلن مثل شهادات الرجال . كذلك المربيات والخدم المصريون ، لا يفقهون معنى التربية وأغلب الخادمات لا يصلحن لمزاولة مهنتهن فنضطر إلى جلب هؤلاء من الإفرنج .

يقولون : الحاجة أم العمل . فما بالنا نكسل ونقصر ونحن فى شديد الحاجة لأمثال هؤلاء الخياطات والطبيبات والمتعلمات وغيرهن ؟ إن من فروض الكفاية أن يكون كل هؤلاء مصريات فى مصر حتى يمتنع بعض مالها من التسرب إلى جيوب الأجانب وهن ساكنات ينظرن . لقد أصبحت كلمة « مصرية » فى أفواه الأجانب عنوانا على الكسل وعدم المقدرة ، فهلا بعث فينا ذلك التعيير روح النشاط وحب العمل ؟ هلا حاكيناهن فيما تفوقن فيه علينا من العلم والعمل ؟ أم هل تكفى محاكاتنا لهن فى الزى والتصنع لأن نصبح مثلهن ؟ إنهن أسسن الجمعيات وأدرن المستشفيات والملاجئ وهن يشتغلن بكل فن حتى إنهن طلبن مشاركة الرجال فى الانتخاب لحكم بلادهن ، وما ذلك إلا نتيجة العلم والتربية على حب العمل .

ومن حب العمل عندهن الرياضة فى ساعة الفراغ، فترين أنهن يشتغلن حتى وهن يطلبن الراحة . أما نحن فنكسل ونطلب الراحة فى ساعات العمل . ألم تسمعن بجمعية (الصليب الأحمر) وكيف تخاطر النساء فيها بحياتهن لمداواة الجرحى والتقاطهم ونار الحرب تستعر وأمطار القنابل تتساقط ؟ وهل ينفى الهم ويضمد الجراح كالمرأة الآسية ؟ إن النساء المنخرطات فى سلك تلك الجمعية يعرضن أنفسهن للهلاك وتكبد مشاق السفر وتحمل البرد القارس بين سهول مثل منشوريا وحزونها، والحر اللافح فى الأقاليم الاستوائية التى يذيب حرها رأس الضب . وقد كانت نساء العرب يفعلن مثل هذا الصنيع الشريف فى الحرب ويزدن عليه تشجيع المجاهدين وتغذية الجياد. قال عمرو بن كلثوم من معلقته :

يقتن جيادنا ويقلن لستم　　بعولتنا إذا لم تمنعونا

وقد كانت مخاطرتهن هذه تثير الشجاعة فى الرجال وتحملهم على الإقدام بدليل قوله .

إذا لم نحمهن فلا بقينا　　بخير بعدهن ولا حيينا

وقوله فى موضع آخر من القصيدة :

وما منع الظعائن مثل ضرب　　ترى منه السواعد كالقلينا

الأخلاق :

لا أدرى أنفضل المرأة الغربية فى معرض الأخلاق أم تفضلنا فهى أشجع منا فى اقتحام الخطوب وإن كانت لا تقل عنا جزعا عند المصائب . ونحن لا ينقصنا ذكاء كذكائها وإنما ينقصنا عزم وثبات كعزمها وثباتها . هى تعمل لتعيش ونحن نتكل إما على آبائنا أو أزواجنا فلا نعمل شيئاً ، وهذا الاتكال معيب فى نفسه فضلا عما تخلقه تقلبات الأيام. فلو تعلمت كل فتاة شريفة مستقلة لما رأينا البائسات تموج بهن الطرقات والمهيضات ، بعد سابغ عز وسابق

نعمة ينتظرن إعانة الأخ أو أحد الأقارب ؛ وقد تكون المرأة سيئة الخلق فتمل عشرتها أو يكون لها من الأولاد ما ينوء ذلك الأخ أو الغريب بتربيتهم . والمرأة الغربية تعتنى بكل شىء حتى التافه ، ونحن بما ركب فى طبعنا من المسالمة نميل إلى الإهمال والكسل . وأرانا أسلم منها قلبا وأقل خداعا لعدم الاختلاط بالرجال أيضا . فإنها لتجوالها فى الخارج تتعلم كيف ترضى هذا وذاك لتبدو فاتنة جذابة وتعيش خداعة محتالة إذ الحاجة تعلمها الاحتيال على العيش فهى تطلبه بكل الوسائل الممكنة . وهى ولاشك أنشط منا وأثبت على العمل ، إلا إننا أكثر قناعة وأشد رضا بالقليل .

بقية العادات :

للخرافات سلطان كبير على المرأة الغربية وإن كان بعضنا يظن أنها معصومة من الخطأ ، فنحن وهى سيان فى التفاؤل والتشاؤم وتصديق العرافات والمنجمين والمشعوذين والاعتقاد بطلوع العفاريت فى الظلمة . وعندنا الزار وهو أبو الخرافات ومفسد البيوت وهى لا تعتقده وإن كانت تصاب بأعراضه العصبية . فلماذا اختارتنا العفاريت — ياترى — مسكنا لها دون أختنا الغربية ؟ وإذا فرضنا المستحيل وصدقنا القائلين بتقمص الأرواح فلماذا لا تلجأ إلينا روح أرسطو وابن رشد وأبى العلاء وغيرهم من الفلاسفة والمصلحين ؟ أم قضى علينا حتى فى الكذب والترهات أن نكون دائما متأخرات فلا يلبسنا إلا (الشيخة رمانة وسفينة يوسف مدلع) ونحوهم ممن لا يطلبون إلا الخلاخيل والمصوغات والسيوف المذهبة ؟ ألا إننا لم نبرع فى حيلة غير هذه . تخاف المرأة أن تطلب ملابس وحليا فيرفض زوجها الطلب ، فتعمد إلى ادعاء العفاريت والجن لتهديده . أعرف كثيرات ادعين (الزار) فرفض طلبهن وبعضهن ضربن بسببه فلم يعدن إليه . وليت شعرى إذا كانت العفاريت جبناء إلى هذا الحد فلماذا لا يستعمل الرجال العصى وهى كثيرة ، وإن كنت لا أوافق على ضرب الرجل المرأة

بحال من الأحوال ؟ إنها لتصر على دعوى أن العفريت هو الذى يتكلم بلسانها ويشعر بأعضائها وأنها أعارته ظاهرها ولاأعلم إلى أين ذهبت هى ! إذن فليضرب العفريت فهو الذى فى ظاهر زعمها يتألم دون أن يصيبها شىء من آثار الضرب ! ! ولعل المتحضرات الحديثات يدعين قريبا أن الملائكة تقمصت أجسامهن لأنهن أحكم تصرفا وأحسن اختيارا ، كأنما عفاريت الأرض نفدت لكثرة الطلب فانصرفت هممهن إلى السماء كما فعل مخترعو الطيارات لما ضاقت بهم فجاج الأرض . وحينذاك يأنفن ركوب الضأن والإبل المستعملين حتى الآن فى الزار ،فيمتطين المخترعات الحديثة وإن كانت ماتزال خطرة الاستعمال . فلا تتيهن علينا البارونة دى لارو فربما نبغ عندنا كثيرات مثلها وإن كان باعثهن (مودة الزار) لاالعلم . لاأعلم عند الافرنجية عادة تساوى الزار فى القبح إلا مخاصرة الرجال فى الرقص وما يتبع تلك العادة من التهتك والتصنع والميل عن جادة الصواب وما ينشأ عن إباحتها المطلقة بلا قيد ولا وازع من الضرر البليغ والإخلال بالشرف . وأدهى من ذلك أن ينتشر بينهن مذهب حرية الاعتقاد ،وهو مذهب من لا يصدق بالله ولا باليوم الآخر ، فيزعمن أنهن يجتنبن الرذائل بمحض إرادتهن وتربيتهن . ولكن هل إذا منعت الفضيلة امرأة عن إتيان مالا يرضى فهل يصح أن تطبق هذه النظرية على كل امرأة ؟ ألم يكن الإيمان بالله وترقب ثوابه وعقابه هما المانعين لكثير من الناس عن الانتحار والكفر وإتيان المناكير والفحشاء والخيانة ؟ ألا ساء مايحكمون .

إن النفس لأمارة بالسوء ، ولقد تقدم على كثيرمن الموبقات لولا الضميرالحى وهو ثمرة الوازع الدينى . أفلا يعقلون؟ أرانا لا نتمسك تمسكا شديدا بديننا الحنيف، وهذا بدعة وعدوى أتتنا من الغرب . فهلا فكرنا قليلا فيما ينفعنا وما يضرنا قبل الإقدام على التقليد ؟ أو كلما رأينا إنسانا يفعل شيئاً حاكيناه وإن كان فى ذلك هلاكنا وخسارة ديننا ودنيانا معا ؟

المـــــأتم :

بيننا الافرنجية ورجالنا أيضاً يجتهدون فى التلهى والتعزى عن المصيبة تجدنا بالعكس نعقد الاجتماعات لنبكى و نستأجر النائحات (المعددات) ليزيدن نار الأسى تأججا فى قلوبنا ؟ وماذا يجدى الحزن وهو لا يرد ميتا ولا يعيد مفقودا؟ قال أبو العلاء :

غير مُجْدٍ فى ملّتى واعتقادى نوحُ باكٍ ولا ترنُّم شاد

وإن من تعاليم الإسلام أن يصبر المرء عند الملمات و يترك ما فات لما هو آت . والعاقل من يصرف همه إذ لا معنى للعيش مع البؤس . إن العمر إلا أيام تنقضى فلماذا لا نجعلها سعيدة بقدر ما نستطيع ؟

المسرات :

إننا فى جلب المسرات لمقصرات حيال أنفسنا ومن هم فى ذمتنا من الأهل والأولاد حبذا لو اتبعنا طريقة المرأة الغربية فى ذلك ، فإنها تعقد الاجتماعات وتوالى السمر ، وتدعو أعضاء الأسرة الواحدة وأصدقاءها لتناول الشاى أو الطعام أو الفسحة معا ، فيتجاذبون أطراف الحديث وهنالك يبدى كل منهم رأيا أو حكاية لا تخلو من فائدة أو فكاهة ، وقد يصرفون الوقت فى ألعاب مختلفة لتنشيط أذهانهم وأبدانهم ، و يتبادل المجتمعون الدعوة كل فى نوبته فيتراءى أعضاء الأسرة الواحدة وأصدقاؤها كل يوم تقريبا فينفون بذلك همهم و يأنسون بعضهم ببعض ، وبذلك يعيشون فى وئام ووفاق .

الخدم :

المرأة المصرية لا تقدر نفسها قدرها . وكم رأيت سيدة تضاحك الخادمات وتكاشفهن بأسرارها فلا يتأخرن عن إذاعتها فى البيوت الأخرى وهذا من الخطل فى الرأى . يجب أن يعامل الخدم بالرأفة ولكن لا تتعدى تلك الرأفة حدودها . ألم تستغربن مرة من أن خدمنا لا يشتغلون عندنا نصف ما يشتغلون فى البيوت الإفرنجية ومع ذلك نراهم هناك أنشط وأهدأ خلقا منهم

فى بيوتنا إن ؟ السبب لسهل الإدراك ، وهو أن المرأة الإفرنجية تحفظ هيبتها فيخشاها الخدم ، وهى لاتخالطهم إلا عند الأمر والنهى ولا تحط من شأنها بمسايرتهم ومضاحكتهم وتفرض عليهم شغلهم وتريهم إياه أول مرة ثم تتركهم وشأنهم فيشعرون بمسئوليتهم .

— الدور الخامس دور الأمومة .

هذا الدور مرتبط بدور الطفولة ارتباطاً تاما حتى ليكاد يندمج أحدهما فى الآخر . وعليه فكل ماقلته هناك أقوله هنا

النتيجة :

والنتيجة أن المرأة الغربيـة سبقتنا بمراحل فى العلم والعمل مع أننا لانقل عنها ذكاء . وكل مالا يستحيل طبعا فهو ممكن بالمعالجة واتخاذ الجد مطية إليه مهما صعب الطريق واستعصى ، فإذا تدرعنا بثبات العزم وقوة الإرادة فإننا نصل إلى ما وصلت إليه من نور العلم ورفعة المقام . ولايثبطنا قول القائلين « إن الشرق شرق والغرب غرب » . فإن التاريخ أعدل حكما ، وهو حافل بذكر الشرقيات اللاتى نلن من ذيوع الصيت ووفرة العلم منالا كبيرا أيام كانت الغربيات لاذكر لهن . فاقرأن تواريخ نساء العرب فى الشرق والغرب تجدن نادر الذكاء وجزل الشعر ومتين الأسلوب ومايشهد لهن بعلو الكعب فى العلم والعمل .

إن الضعيف إذا لم يرزق قوة التمييز خيل له أن كل ما يأتيه القوى حسن ، ذلك مثلنا أمام المرأة الغربية ، فهل تردن أن نثبت للملأ خمولنا وخلونا من التمييز أم تردن أن نعمل على حفظ قوميتنا وتقوية روح الاستقلال فينا وفى الأجيال القادمة من أولادنا ؟ إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا أن لانقتبس من المدنية الأوربية إلا الضرورى النافع بعد تمصيره حتى يكون ملائما لعاداتنا وطبيعة بلادنا . نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب للعمل .

نقتبس منها أساليب التعليم والتربية ، وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة . وإنما لايجوز فى عرف الشرف والاستقلال أن نندمج فى الغرب ، فنقضى على مابقى لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهائلة .

وفى الختام لايسعنى أيتها السيدات إلا أن أشكر لكن حسن إصغائكن ومؤازرتكن إياى بالحضور ، وآمل أن نسمع ونعى . ولا إخالكن إلا عازمات على محاربة جمودنا القديم وعلى العمل معا لرفع شأننا وشأن هذا الوطن المفدى . والله أسأل أن يوفقنا ويهدينا سواء السبيل .

تأثير المرأة فى العالم [1]

اجتمعنا هنا أيتها السيدات لنبحث عما يرفع من شأن المصرية ، ويجعلها عضواً صحيحاً للتركيب فى جسم الأمة ، وعجلة دوّارة فى مصنعها العام . ولم نجىء لنطالب بحق الانتخابات ، ولا بعروش الملوك كما يفعل غيرنا من النساء ، لأنهن إن كن شَبِعن من الرقى حتى أُتخمن به ، فنحن ما نزال فى أول طلب القوت ، ولما نحصل عليه .

قطع رجال الإصلاح فى مصر شوطا بعيداً للتنقيب عما يجعل الأمة المصرية فى مصاف الأمم الراقية ، فلم يظفروا بضالتهم . وبعد لأى ألقوا الذنب فى تأخير الأمة المصرية على المرأة المسكينة ، وقالوا : لو كانت المرأة المصرية راقية لأخرجت للعالم أبناء ناشطين ، وأزواجاً حكماء ، وأسراً منظمة ، ووقفوا عند هذا الحد ينتظرون مايقيّضه لهم الدهر من ارتفاع شأن المرأة ورقيها ، ويهيؤه لهم الاتفاق لصلاحها . كأن المرأة تلهم الصلاح إلهاماً ولا تتعلمه تعليماً ، ثم تقوم لهم بما عجزوا عنه . وقد دب دبيب البحث عند النساء فرأين أمتهن فى أخريات الأمم ، فبحثن عن سر هذا التأخير فأرشدهن البحث أيضا إلى أنه تأخر المرأة وانحطاطها . ثم فكرن كيف يتسنى للمرأة أن تنهض من عثارها وتهب من رقادها . وانتهى بهن الأمر إلى اعتقاد أن الرجال هم عقبة الإصــــلاح ، وأنهم ما داموا خائنى الأعين ، بذيئى الألسن ، راكنين إلى العجز والوكل ، معتمدين على الاتفاق والقدر ، فالمرأة لا محالة

---

(١) بعد ما أنشأت الباحثة اتحاد النساء التهذيبى فتحت لها الجامعة المصرية قاعة تلق فيها محاضرات على السيدات هذه أولاها .

واقفة موقفها . وهنا المشكلة الدورية . الرجال ينتظرون المرأة ، والنساء ، ينتظرن الرجال . وكل فريق مستند إلى عذر غير مقبول ، ولا يجرؤ أن يجازف بالبدء فى السير قبل الآخر أو يسعى إلى الميدان وحده ، فوقف الفريقان فى موقفهما فى حيرة لا يدريان ما يصنعان .

وعندى أن هذه المشكلة يمكن حلها وتذليل صعابها بطرح التسويف من الفريقين ، وأن يعمل كل فريق على قدر ما مكنته الطبيعة من العمل .

لاشك أن الرجال أقدر منا على الأعمال الشاقة ، فمن بينهم يقوم الجند لحراسة الأوطان ، والزراع لحرث الأرض وإخراج ما هى مستعدة له من النبات ، والعمال لإخراج المعادن ، والصناع لعمل الادوات والعدد ، والتجار لجلب المواد من مواطنها إلى من يحتاج إليها ؛ ولاشك فى أن النساء أقدر على تربية الأولاد وتعليمهن المبادئ الأولى ، وترتيب المنازل وتنظيم الأسر ، وممارسة الفنون الجميلة وأدوات الزينة والزخرف ، وهن فوق ذلك لهن السلطة التامة على دفع الرجال إلى جلائل الأعمال وتوجيههم إلى العظائم من الأمور .

شهد بذلك التاريخ ونطقت به الحوادث اليومية التى نشاهدها من حين إلى حين . وإذا كان المصلحون من الرجال قليلين والمصلحات من النساء أقل ، فلا ينتظر كل فريق مجىء المصلحين من جنسه حتى يتم له تعبئة جيشه ، وبالأولى لا ينتظر أن يقوده الفريق الآخر ، بل يجب أن تضرب أبواق المصلحين والمصلحات للنفير معا إلى ميدان الإصلاح ، ويحمل الكل حملة صادقة على الجمود الذى نحن فيه حتى يختطوا طريقا ذلولا يسير فيه من بعدهم ، وقد قيل فى أمثال العامة : « السكران فى ذمة الصاحى » ، وفى أمثال الخاصة : « المسئولية على قدر المعرفة » .

فعلى المصلحين من الرجال أن يقوموا بأعمالهم العمرانية المعهودة ، مضافا إليها العناية بانتخاب الزوجات العاقلات المتأدبات ، لا من الغنيات فقط ، والعناية بما يرزقون من البنات . وعلى النساء المصلحات أن يقمن بأعمالهن المعهودة مضافا إليها استعمال ماوهبهن الله من النفوذ فى التأثير على الرجال بما يدفعهم إلى العمل الصالح الناهض بالأمة إلى الرقى .

لا تستهن أيتها السيدات بسلطة المرأة الطبيعية وتأثيرها فى الرجال ، إذا هى أحسنت استعمالها ، فقد خلق الله الرجال ليسكنوا إلى النساء ويتأثروا بهن ، وهاهنا يمكننا توسعة القول فى كيفية هذا التأثير لأنه أعظم سلاح للمرأة .

التأثير كهرباء خفية يتصل طرفاها سلبا و إيجابا بالمؤثر و بالمتأثر . وكل ماتدركه الحواس يرتسم له أثر فى المخ إن قليلا وإن كثيرا . وكنه هذا التأثير غير معروف لأنه من باب الخواص التى أودعها الله فى جواهر المادة ، فكما أن الكينا لها تأثير فى تلطيف الحمى ، والمغنطيس له تأثير فى جذب الفولاذ ، وكل العقاقير لها تأثير خاص يعرفه الطب ، كذلك المرأة لها تأثير قوى فى الرجل لا نعرف كنهه ولكنها كذا خلقت . ومن الأشياء الجامدة ماله معنى فى نفسه أو بتقديرنا إياه، فيحدث تأثيراً خاصا . من ذلك: الجمال والجلال فى مناظر الطبيعة وفى الآدميين. نرى الحدائق على ضفاف الغدران وضفاف الأنهر والشمس مائلة للغروب فيأخذنا جلال هذا المنظر و يفعل فى نفوسنا من التأثير والروعة ما لا يفعله السحر . و يوحى من البيان ما يفيض على اللسان لآلئ النثر ومعجزات الشعر ، قد نسمع كلنا فى مجتمع مثلا تلقيه صاحبته بلاقصد فى أثناء الحديث، فتحدث كلماتها عند كل سامعة تأثيرا خاصا، وقد تُبكى الواحدة بينما هى تضحك الأخرى ، أوتثير الندم عند ثالثة ، بينما تبعث الطمأنينة فى نفس غيرها . فكل يتأثر بقدر ما لديه من الاستعداد وما يحيط به من الحوادث والظروف . ولكل شىء فى الوجود

معنى يحدث أثراً خاصاً به . فالطفل له معنى هو حلو وطهور ، ولذلك فهو دائماً محبوب مغتفر الهفوات . والرجل له معنى آخر إنه قوى وشجاع ، ولذلك فهو دائما متسلط على غيره ومهيب . وأما المرأة فهى ربة المعانى الغزار . يقول بعض الرجال عنها إنها لُغز لا يحل . وهى حقيقةً رموز فى رموز . هى لُغز لا لأنها لا تُفهم و إنما لكثرة معانيها ولتأثيرها الساحر الجذاب . إنها معنى سام غير عويص فهمه ولكنه دقيق، يتيه فيه ذوو العقول - قال شوقى فى بعض جوارى أو نساء السلطان المخلوع :

العاثرات من الدلا ل الناهضات من الغرور
الحاكمات - وما انتقلـ ن - على المدائن والثغور
الآمرات على الولا ة الناهيات على الصدور

للمرأة السلطان المطلق من التأثير فى كل أدوار حياتها ، فهى صغيرةً لا همّ لوالدها إلا إرضاؤها وتدليلها ، و إن كانت زوجة فزمام البيت وقياد الرجل بيدها إذا أحسنت التصرف وعرفت كيف تملكه ، و إن كانت أُمّاً فأمر أولادها كالعجينة بيدها تكيفها كيفما أرادت، وهى بين هذا وذاك تستفز حمية الرجل عند أقل ضعف يصيبها أو ذل تشكوه ، لأنه يستلذ ضعفها لينصب نفسه حاميا وحارسا أمينا عليها. وطالما كان صوت المرأة اللطيف الهامس مثاراً لصليل الأسنة ، ومبعثا لتطاحن الرجال . كلنا يسمع عن حرب البسوس ، حتى إن النساء العاميات يضربن المثل بها للمرأة الخبيثة التى تثير نار الفتنة وهى ساكنة ، إنها أثارت نار الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة لقولها « واذلاه» . وحكايتها أن كليباً بن ربيعة مِلكَ بنى وائل كان قد حمى أرضا بالعالية، لا يرعاها إلا إبله و إبل جساس بن مرة وهو أخو جليلة زوجته ، فحضرت البسوس إلى جساس ابن أختها ونزلت عنده ، وقد زارها وهى

عند جساس رجل من جرم يقال له سعد ، وكانت له ناقة فأرسلتها البسوس ترعى مع إبل جساس فى المرعى الذى حماه كليب ، فخرج كليب يوما يتفقد إبله ، فوجد فى إبل جساس ناقة غريبة، فسأل عنها ، فقال جساس : هذه ناقة ضيف خالتى البسوس فقال كليب : لا تعد هذه الناقة إلى هذا الحمى . وبعد أيام عاد كليب ليتعهد إبله ، فرأى ناقة الجرمى فرماها بسهم أصاب ضرعها ، فولت الناقة تعج حتى بركت بفناء البسوس ، فلما رأتها وضعت يدها على رأسها وصاحت: «واذلاه» . فسمع جساس صياحها فأخذته الحمية لجار خالته وقال: لأقتلن بهذه الناقة فحلاً ، لم ير مثله فى زمانه. وذهب إلى كليب وطعنه فألقاه على الأرض، ثم أجهز عليه فمات . فثار مهلهل أخو كليب ومعه تغلب كلها لأخذ الثأر، وقام وانتصر لجساس بكر كلهم، وحمى القتال بسبب ذلك أربعين سنة . فهى أثارت الحرب من أجل ناقة لها بل لضيفها .

وكذلك كانت ليلى أم عمرو بن كلثوم سبباً فى أن قتل ابنها عمرو بن هند الملك ، لأن أمه هند طلبت منها أن تناولها طبقا فيه فاكهة كان قريبا منها ، فقالت لها : «صاحبة الحاجة أولى بالسعى إليها» ، فشددت تلك فى أن تناولها إياه ، وأبت هذه ثم صاحت « واذلاه » فسمعها ابنها من وراء الخباء ، فذهب إلى عمرو بن هند فوجد سيفا معلقا فى الرواق فقتله به ، وأنشد ارتجالا معلقته النونية المشهورة . وفيها يقول بهذه المناسبة :

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتوينا

هاتان المرأتان اللتان ذكرتا كانتا فى الجاهلية أيام لم يكن للنساء حقوق

يطالبن بها ، وأيام لم يكن لهن من الاحترام ما صار لهن فى الإسلام أو مثل ما لهن الآن .

قال كاتو الرومانى (٢٣٢ . ق م) : « إن الرومانيين يسودون العالم ، ولكن نساءهم يسدنهم ويشرفن على أعمالهم » . وهذا معناه أن نساءهم كن شديدات التأثير عليهم . وألطف من قول كاتو قول الشاعر العربى فى المعنى نفسه :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل على أننا نذيب الحديدا
وترانا عند الكريهة أبطا لاً وفى السلم للحسان عبيدا

وقال آخر شاكيا ضعف الرجال فى مقاومة تأثير النساء حتى شبههن بالشياطين التى لا تغلب ولا ترد :

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

فسمعته فتاة فردت عليه ارتجالا :

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهى شم الرياحين

فهى لم تنكر ذلك التأثير الهائل ، ولكنها لطفته وجعلته مطلوباً وهو الواقع.

قال بعض الملوك فى جوارٍ له :

مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن من عبداتى

يالها من قوة هائلة كامنة فينا ، كون النار فى الشجر الأخضر، ونحن لا ندركها أو لا نستعملها ، أو نستعملها فى غير الخير العام . مالى أذهب بكن بعيدا وأضرب أمثال الغابرات والأمثلة نراها بيننا دواماً . فكم من امرأة نمامة دخلت بيتا متضامنا أفراده فأوقعت بينهم التخاذل والفشل ، لسوء تأثيرها فى زوجها ولتأثره

بما تلاقيه من الاختلاقات والمفتريات فى أقاربه وإخوته، وكم من أخرى — ولكن هؤلاء قليلات — لمت شعث أسرة مفرقة الأوصال مفككة العرى .

من أحسن ماتؤثر به الأم فى ولدها حكاية السيدة أسماء ، ذات النطاقين بنت أبى بكر الصديق ، مع ابنها عبد الله بن الزبير رضى الله عنهم حين دعا لنفسه بالخلافة . دخل عليها وقال : يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة . فما رأيك ؟ قالت : يا بنى أنت أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تعود فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن معك ، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، كم خلودك فى الدنيا ، القتل أحسن . فقال : يا أماه ، أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى . قالت : يابنى إن الشاة لاتتألم بالسلخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله ، فقبل رأسها وخرج وهو يرتجز :

إنى إذ أعرف يومى أصبرْ　　وإنما يعرف يوميه الحرّ

إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فقالت تصبر إن شاء الله . أبوك أبو بكر والزبير وأمك صفية ابنة عبد المطلب . فخرج وقاتل قتالا شديدا حتى قتل . ولولا قلة أنصاره وكثرة جيوش الحجاج لانتصر .

خطبة في الحث على البر والإحسان (١)

الرحمة من صفات الله تعالى ، وهى بلسم القلوب المجروحة ، ودليل الإنسانية الكاملة ، وهى من ألزم صفات المرأة لرقة طبعها وحنوها الغريزى ، لأن الأم التى تضمن سلامة ابنها ، وقد لا تنتظر منه بعد كبره شيئا ، ربما كانت تكل من تربيته والسهر عليه . لولا الرحمة التى فطرت عليها ، ولولا الرحمة لقضى أكثر هذا العالم نحبه ، إذ كم من مسكين لا يملك قوت يومه ، وكم من عاجز لا يستطيع حراكا ، وكم من يتيم تركه والده ضعيفا فقيراً ، وكم من أرملة لا عائل لها ، وكم من عامل أخنى عليه الدهر أو بتر ذراعه أو ساقه أو كلاهما ، وكم وكم من البائسين والبائسات الذين لاعداد لهم . كم من هؤلاء كان يتضور جوعا ويقضى أسى ، لولا القلوب الرحيمة والأيدى الندية ، كل هذه المصائب المتعددة والبلايا المدلهمة تأتى فرادى أو خفيفة الوقع قليلا ، أما مصائب الحروب فإنها تستجير من هولها الأرض والسماء ، إن إحدانا لتتألم من وخزة الإبرة أو من قطع المطواة ، فيا ويلنا ما مقدار الألم الذى يحدثه فرى الرصاص فى الصدور وتطاير شظايا القذائف فى الأجسام ! بماذا يشعر الجريح المتعفر على الثرى تطوه سنابك الخيل وتنهش لحمه العقبان والرخم ؟ ألم تر إحداكن صحراء الأهرام أو خلاء بلاد الريف ، مثلن لأنفسكن هذا الفضاء مكتظا برمم القتلى والجرحى تسيل فيه الدماء أنهاراً . ماذا ترين هنالك؟ ترين أذرعا بتراء ، ورؤوسا مهشمة ، وجثثا متطايرة فى الفضاء . وماذا يسمع فى تلك الأودية والبطاح ؟ أنين وعويل ، خرخرة الأرواح البريئة

---

(١) يبدو أن هذه الخطبة ألقيت لجمع التبرعات لمحاربى حرب طرابلس وجرحاهم فى شتاء سنة ١٩١٢ .

تلفظ النفس الأخير، استغاثات تفتت كبد الصخر فمن يجير هؤلاء المنكوبين التعساء . ألا من شربة ماء ترطب لهاتهم التى أيبسها الجهد ! ألا من خرقة بالية تعصب بها عروقهم التى فجرتها الحراب ! ألا من آسٍ يخفف بعض آلامهم ، هنالك على الجبال الشاهقة وبين الأودية السحيقة حيث لا حبيب ولا قريب ! تطير أرواحهم مستصرخة من ظلم الإنسان ، هنالك على الثلوج القارسة وتحت المطر المدرار تغسلهم دماؤهم قبل أن يغسلهم ماء السماء . ما أكرم هؤلاء الجنود ، إنهم يجودون بالروح العزيزة . أفنبخل عليهم ببعض دريهمات تذهب ضياعا وكل شيء آخرته الفناء ؟! أيتها السيدات : الثوب الذى نستغنى عنه لا يضرنا تركه ، وإذا عشنا نلبس غيره كثيراً ، والتطيب الذى نتعطر به لن نمرض إذا خلت منه ملابسنا ، ولكن جنيها نوفره من ثمن ألاعيب أطفالنا أو جنيهين نشترى بهما ثوبا لن تفرح لابسته يوما أو بعض يوم يحيى نفوسا ميتة وينقذ مستغيثين كثيرين. إنه على الأقل يسقيهم ماء . إننا إذا أصابنا العطش نصف ساعة نلهث والماء قريب، فكيف به يحرق أكباد الأحياء والجرحى وقد يظلون اليومين والثلاثة على أقدامهم يكافحون الرصاص المسموم والنيران المحرقة . يضايقنا قليل من دخان السيجارة ونشرق به (إذ لم نكن متعودات تدخينه) فكيف يتنفس هؤلاء الجنود البواسل والجو خليط من دخان البارود المعقود فوق رؤوسهم. ومن العثير الذى تثيره حوافر الخيل تحت أقدامهم ! اللهم ارحم عبادك وتول القوم الظالمين . ليلة العيد التى بتناها على فراشنا وبين أهلنا وأولادنا ، كم امرأة من إخواننا العربيات سهرتها منكفئة على وجهها تندب بعلها أو ابنها أو قريبها أو الكل معاً ! فى يوم العيد الذى لبس بعضنا الحرير اللامع والحلى الوهاج كم من امرأة من إخواننا المهاجرات قضته على الطوى لا يستر جسمهما إلا الهواء والأمراض تفتك بها وبرجالها . احمدن الله أن أبعد عنكن مثل هذا البلاء ، وادفعن لله ثمن هذه الوقاية ، « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» .

لاشك أنكن سمعتن بالسيدة الإنجليزية التى أرسلت لأحد العثمانيين خطابا تتبرع فيه بأن تذهب إلى الحرب وتجهز نقالة وطبيباً وأدوية على نفقتها . جزاها الله خيرا . إنها تفعل ذلك وليس لهـا رابطة تربطها بأولئك العرب لا من الجنس ولا من الدين ولا من اللغة ولامن الوطن ولا من الشرق ، فأحر بنا ، وهم إخواننا فى كل هذه الروابط المتينة أو بعضها ، أو هم على الأقل إخواننا فى الإنسانية أن نسرع إلى إعانتهم بما لا يدفع عنهم الموت ، ولكن غائلة الجوع ومضاضة الألم الوقتيين . ونحن بحمد الله فى رخاء يحسدنا عليه الثقلان ، ولا تستقللن شيئاً فالكثير من القليل ، وتذكرن لو داهمتنا مثل هذه الحروب الظالمة فبمن كنا ندفعه وماذا كانت تنفعنا النقود ، والله يجزى المحسنين .

عشر وسائل لترقية المرأة المصرية [1]

فكرة طالما جالت بخاطرى ، وأمل كثر ما رددته نفسى ، وكان يمنعنى من إبدائهما انصراف القول عن المصلحة العامة ، وتأكدى أن ندائى سيذهب صرخة فى واد . وماذا كان يفيد القول ، ولا وسيلة فعالة عندى أتمكن بها من تنفيذ مشروعى ، ولا تناصر من الرجال يشجعنى على العمل ، فلما نكأ الجرح وانتبهنا فإذا به دام .

وسأكتفى بالكلام مباشرة عما أراه وأعتقده نافعاً فعالا فى ترقية المرأة المصرية :

الاقتراح الأول : يجب أن يذهب النساء سواء فى المدن والقرى ، لحضور الصلاة وسماع الوعظ فى المعابد ، وقد كان ذلك متبعاً فى كل زمان ومكان ارتقت فيه الحضارة الإسلامية ، وعز فيه شأن الإسلام . وهيهات أن يحتكم على النفس الأمارة بالسوء سلطان أقوى من سلطان الوازع الدينى . وإذا نظرنا إلى سائر الطوائف الأخرى رأينا نساءها يذهبن زرافات ووحدانا للصلاة فى الكنائس وسماع الوعظ الدينى ، ويستفدن من ذلك كثيراً . فكيف نرضى أن يسبقنا فى هذا السبيل غيرنا ، والإسلام رحب الصدر شديد الحرص على حرية المرأة ؟! أريد حرية الحياة الحقيقية : حرية النفس من ربقة الاستعباد ، حرية التصرف بالمال ، حرية الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان ، حرية الرأى .

---

(١) هذه الوسائل كانت نواة للمطالب التى قدمتها الباحثة للمؤتمر المصرى بهليوبوليس سنة ١٩١٠ .

وليس أدل على ذلك من بيعة العقبة الثانية . فقد بايع النبى صلى الله عليه وسلم فيمن بايعه عدة من النساء ، هذه هى الحرية بحذافيرها . هذه هى الحرية التى منحها الإسلام للمرأة منذ ألف وثلثمائة و نيف من السنين ، بدون طلب ولا جهاد .

دين هذه تعاليمه الاجتماعية لا بدع أن نتأخر إذا أهملناها ، وأجهل الجاهلين به المرأة المنزوية فى عقر دارها ، كأنها ميتة تمر الحياةُ ولا تشعر ، إذا نُفذ هذا الاقتراح فليخصص من كل مسجد باب للنساء ومقصورة أو حاجز يصلين فيه بحيث يسمعن كلام الخطيب ويفقهنه ، ولا يختلطن بالرجال ، وليكن موعد دخولهن المسجد وانصرافهن منه سابقاً نصف ساعة أو متأخراً مثلها عن موعد دخول الرجال وانصرافهم. على أن مقام الصلاة خشوع فى خشوع ، وهو أبعد عن الريبة من كل مقام ، ولكن أقرر ذلك لكيلا تكون حجة أو شبه حجة للمتأخرين الجامدين أو الغيورين المتشائمين.

الاقتراح الثانى : جعل التعليم الأولىّ إجباريا وتكثير المجانية على قدر الإمكان فى مدارس البنات الموجودة حالا ، أو إنشاء غيرها لهذا الغرض : فإن كثيرات من الفقيرات يحب أهلهن أن يعلموهن فلا يجدون لهن فى المجانية مكاناً ، وتكون النتيجة تركهن بلا تعليم ولا تهذيب ، فتشببن جاهلات ، وتكنّ أعضاء شلا فى جسم الأمة المصرية . وإذا لم تقم نظارة المعارف بتعليم الفقيرات من الشعب فواجب ديوان الأوقاف أن يخصص لهن من الأموال الخيرية ما يسد الثلمة ويفى بالحاجة . ولا ننس أن نذكر الجمعيات الخيرية وأغنياء الأمة بتعليم الفقراء من أبنائها وبناتها ، ليساعدوا على ترقى الأمة فى معارج الفلاح .

الاقتراح الثالث : تلزم جميع مدارس البنات (سواء أكانت أميرية أو أهلية)

بتعليم الدين تعليما صحيحاً . نعم إنها تدرّس بها بعض دروس فى الديانة إلا أنها كالعدم ، مع أن الديانة ألزم ما يكون للبنات لما تغرسه فى نفوسهن من الأخلاق القويمة .

الاقتراح الرابع : يحسن أن يكون فى كل مدرسة للبنات ، سيدة مصرية رشيدة ، وظيفتها أن تراقب الفتيات فى أخلاقهن وسيرهن واتباعهن أمور دينهن ، وتكون لهن إماماً فعليا فى أحوالهن ومرشداً حكيما . فإن أغلب مدارس البنات وخصوصا الأميرية منها ومدارس الطوائف المسيحية ليس بها إلا معلمات أجنبيات لا يعرفن من عادات البلد وتقاليده كثيرا ، فتنشأ الفتيات لا بالوطنيات ولا بالأجنبيات ، وإذا أخطأن فى شىء من عادات البلد أو تقاليد الدين فلا يجدن من يلفتهن لذلك . ثم إذا خرجن من المدرسة تعذر عليهن العيش مع أقاربهن أو فى بيوت أزواجهن لاختلاف التربيتين . وهذا ولا شك من أبعث بواعث الشقاء فى الأسر .

الاقتراح الخامس: توسيع نطاق مدرسة الممرضات الحالية ، والأولى إيجاد مدرسة للطب جديدة لتعليم النساء المهنة تعلما كاملا ، أى بدرجة تساوى درجة الأطباء من الرجال حتى يكون لنا منّا من يكفينا مؤونة استدعاء الأطباء لكل تافهة من أمورنا ولأمس الأشياء بنا . ويجب أن يكون فى كل قرية طبيبة وممرضة ، وفى كل مدينة من يكفيها من مثلهن ، فإن أكثر القابلات والممرضات الموجودات الآن على غاية من الجهل بأصول مهنتهن ، حتى أنهن أودين بحياة الكثيرات من النساء البريئات ، فإذا لم يوجد فى المثريات من يقبل الانتظام فى تلك المدرسة ففى الإمكان أخذهن من اللاتى يتعلمن مجانا .

الاقتراح السادس : تكثير المستشفيات الخيرية والصيدليات للمرضى من الرجال والنساء والأطفال ، ويكون فى كل مركز من مراكز المديريات وقسم من أقسام المدن واحدة على الأقل . ويجب أن يكلف الطبيب المنوط به مداواة المرضى فى تلك المستشفيات بإلقاء النصائح الطبية للأمهات عن كيفية معيشتهن ومعيشة أطفالهن ، واتباع النظافة وما يجب اتخاذه من الاحتياطات عند تفشى الأوبئة ، وغير ذلك مما هو ضرورى جداً لإنقاذ هؤلاء العامة البؤساء من مخالب الموت والجهل ؛ لأن الإحصائيات الرسمية دلت دلالة صريحة على كثرة وفيات الأطفال فى مصر ، وإصابة الأحياء منهن بكثير من الأمراض الوبيلة التى كان أكبر أسبابها القذارة وعدم اتباع أمهاتهم الطرق الصحية جهلا بها . ويحسن جداً أن يساعد أولو الأمر والأغنياء فى الإسراع بإنشاء هذه الصيدليات ، لأن حياة الشعب مهددة بكثرة الأمراض والوفيات . وليكن صرف الأدوية للفقراء مجانا ، أو بثمن زهيد ليتمكنوا من الاستفادة والله لايضيع أجر المحسنين .

الاقتراح السابع : أن يتخذ أولو الأمر جميع الوسائل الفعالة لمنع الحيف الواقع على النساء المصريات ، فينبه على البوليس أن يراعى الآداب العمومية فى الطرق والمجتمعات ، وأن يسوق كل رجل يخرج عن الأدب مع المرأة إلى القسم . نعم إن هذا الاقتراح ليس بجديد وهو موجود فى لوائح البوليس ولكن يجب الإلحاح فى تنفيذه .

الاقتراح الثامن : السعى فى تقليل تعدد الزوجات لغير داع ماس بقدر الاستطاعة ، فإن شقاء النساء واختلاف الإخوة الناشئين من هذه العادة ومايتبع ذلك من الشقاق ، كل ذلك يدهور الأمة فى مهاوى الفناء الأدبى .

نعم إن القرآن الكريم أباح الجمع بين النساء ولكنه اشترط العدل وعدم

الحيف ، ومن المعلوم فى الدين بالضرورة أن كل شىء مباح يترتب على عمله ضرر للفرد أو للأمة، يلتحق بالمحظور ؛ فللإمام شرعا أن يمنع كل مباح يؤدى إلى ضرر، ولا ضرر أشد من اختلاف الإخوة وانشقاق الأسر ولا سيما للفقير الذى يعجز عن الصرف على واحدة فكيف بأكثر ؟ .

أنا لا أريد تحريم التزوج باثنتين فإن ذلك تحريج للناس بلا مسوغ . وإنما أقترح أن لا يتزوج الرجل على امرأته ولا يطلقها إلا بإذن من المحكمة الشرعية كما ذهب إليه فريق من السلف . فإذا ارتأت المحكمة أنه يستطيع العدل بين الزوجتين والإنفاق عليهما كليهما فلتصرح له . وكذلك إذا رأت أنه يتعذر عليه العيش سعيداً مع امرأته فلتصرح له بطلاقها . والأولى أن يعمل بقاعدة التحكيم المنصوص عليها فى قوله تعالى « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ».

أما الفوضى السائدة الآن فى الزواج والطلاق فضررها لا يخفى على أحد من المسلمين وهذا لا يرضى به عقلاء الأمة . يبيع الرجل ويشترى ويحلف ويمزح وبين ذلك تكون الزوجة طالقا بلا ذنب جنته ، ويكون هو مطلقا بلا إرادة فى الفراق ، وحاشا للإسلام ثم حاشا للإسلام أن يكون قصده من الطلاق تبديد شمل الأسر ، وتخريب البيوت العامرة .

الاقتراح التاسع : تعليم المرأة المصرية كل ما يلزم لجنسها من الصناعات الضرورية كالتفصيل والتطريز ، والقيام على تربية الأطفال والخدمة ، حتى لا تحتاج الوطنيات إلى غيرهن من الأجنبيات . ويلزم لذلك فتح مدرسة لتخريج هؤلاء الصانعات لأننا فى شدة الحاجة إليها وكيف ترضى أمة عددها اثنا عشر مليونا بأن لا يكون فيها إلا النزر ممن يعرفن تفصيل ثوب لائق بعروس أو مترفة . أليس من العار أن نحتاج فى كل شىء إلى الأجانب حتى فى خدمة أنفسنا ؟ !

الاقتراح العاشر : منع النساء من المشى فى الجنازات بتاتا ، ومن الاجتماع للندب واللطم والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة التى لا وجود لها إلا فى مصر . وغير خاف أن النساء شديدات الانفعال والتأثر ، فإن أطلق لهن العنان فى ملازمة هذه العادات خمدت نفوسهن وفسدت عزائمهن ، ومرضت أجسامهن وعقولهن ، فمن صدق النظر الابتعاد بهن عن مسالك الضرر .

وفى هذا المقال ألفت النظر إلى المشقات الهائلة التى يتجشمها المسلمون فى نقل موتاهم فى المدن الكبيرة ، كمصر والاسكندرية ، مما يلحق ضرراً بالمشيعين ويصدهم عن حب الاشتراك فى إحياء هذه السنة ، وأحياناً بالميت نفسه إذا خارت عزائم حامليه من الحر الشديد والإعياء أو زلفت أرجلهم فى وقت الأمطار ؛ فمثلا تقوم جنازة من العباسية إلى مقبرة الإمام الشافعى فيلتزم المشيعون أن يمشوا هذه الأميال العديدة ، ويكل حاملو الأعواد . يكفى أن يكون الاحتفال من بيت الميت إلى أقرب مسجد للصلاة ، و بعد ذلك يوضع النعش على عربة تخصص لذلك ويرجع المشيعون من بعد الصلاة ولا يسير مع الجنازة إلا أهل الميت وأخصاؤهم . هذه عشرة اقتراحات أعرضها على أولى الأمر منا ليروا رأيهم فيها .

محاضرة

« وظيفة المرأة فى المجتمع الإنسانى »

خلقت المرأة بطبيعتها أو بما يستلزمه نوع معيشتها أضعف وألطف من الرجل ، كما أن الوراثة والعادة جيلاً فجيلاً أثّرا عليها بما زاد ذلك الضعف فيها ، فركب فى بنيتها وصار من ملازمات نوعها .

أقول إن العادة تؤثر فى إضعافها ، ودليلى على ذلك ما أثبته العلماء من « أن المرأة تنحط عن الرجل كلما كان الإنسان أعرق فى الحضارة والمدنية ، وتساويه أو ترتفع عنه كلما كان أقرب إلى البداوة والخشونة ، جسديا وعقليا »

وشهادات السياح التى تؤيد ذلك لا يحصيها عد ، فنقتصر منها على ذكر اليسير فراراً من التطويل. حكى بستيان فى رحلته أن نساء زنوج أفريقية أشد من الرجال وأنهن يسدن عليهم ، ويحاربن نظيرهم ، وهن كذلك بشهادة مينرس فى جزيرة كشتكا وجزيرة جافا وفى بعض قبائل أمريكا الجنوبية وفى كوبا . وحكى فولى : أن المرأة تسود على العائلة فى بعض قبائل السود حتى إنها قد تضرب الرجل .

فإذا أردنا أن نبحث عن وظيفة للمرأة ، وجب أن نختار أكثرها ملاءمة وأشدها مناسبة للطفها وحنانها الغريزيين أو المكتسبين ، ولا خلاف فى أن أهم وظيفة لها بصفتها أنثى هى الحمل والولادة ، ولكن إذا نظرنا لها كأنثى فقط لساوت الحيوانات العجم ولما بلغ هذا المجتمع الإنسانى مبلغه من الرقى ، فنحن نريد أن نقرر وظيفة المرأة لا وظيفة الأنثى ، والفرق ظاهر بين الاثنين . المرأة

نصف البشر ومكملته ، وأما الأنثى فهى ضد الذكر ؛ المرأة فيها معنى الإنسانية وأما الأنثى فهى لبيان النوع فقط ، نقول أنثى الحيوان ، ولا نقول امرأته .

إذا جهلت المرأة حقوقها وواجباتها ، واقتنعت من العيش بالمأكل والملبس فهى أنثى فقط لا امرأة . إذا ظلم الرجل المرأة ولم يعلمها مايفتق به ذهنها ، بل أبقاها للهوه ولعبه وولادة أولاده فقد حصرها فى دائرة الأمومة الضيقة .

يشبه الرجال النساء عند إطرائهن بالأزهار ويريدونهن كتلك الزهرة فتانة الحسن جميلة للنظر زكية للشم لطيفة للمس منعشة للنفس ، ولكن لا قوة فيها ولا كبير منفعة . الزهرة لا يعتنى بها إلا فى إبان جمالها وجدتها وإنما هى سريعة الأفول ، وإذا ذبلت طرحت أرضا ولم ينتبه أحد إليها . يجب أن لا نكون زهراً لطيفاً لمجرد إبهاج الرجل ، وإنما نكون شجراً مباركاً فيه منفعة وقوة ، فإذا سقطت أزهاره وزالت نضرته لم يذبل بتعهد السقى والاعتناء .

الأنوثة طبيعة فى المرأة تكمل نفسها بنفسها فلا حاجة للبحث فيها ، وإنما مدار كلامى اليوم على وظيفة المرأة .

وقبل أن نقرر وظيفة لها ، يجب أولاً أن نقدمها من حيث هى إنسان لنيل درجة الإنسانية الكاملة ومن حيث هى رفيقة الرجل نعدها لأن تكون شريكة بالمعنى الصحيح .

مضى الزمن الذى كان يبحث فيه علماء أوربا عن المرأة ، هل لها نفس مستقلة كنفس الرجل ، أم هى حيوان بسيط . وقد كان أعماهم تعصبهم النوعى عن إدراك إنسانية المرأة وتساويها بالرجل فى الحقوق والواجبات . لايكون الإنسان إنساناً كاملاً إلا إذا تعلم وتهذب . ولا يكون الرفيق رفيقاً مرضياً إلا إذا ساوى رفيقه من

كل وجه أو من أكثر الوجوه . إذن يجب تعليم المرأة وتهذيبها ، ويتحتم أن تكون مساوية للرجل فى القدر والاحترام . ولا يفهم من تساويهما هذا أن يكون عملهما واحدا ، لأن لكل منهما وظيفة تلائم فطرته ، فلو أمكن المرأة القيام بشغل الرجل العقلى لما أمكنتها مساواته فى القوة الجسمية (هـذا القول عام ولا ينافيه وجود شواذ له كنساء الأمازون أو الوحشيات وغيرهن) وقد أتقن بعض الرجال بعض وظائف النساء إلا أنه يتعذر عليهم أن يبلغوا مبلغهن من الحنو والرأفة فى تربية الأولاد . على أن تقسيم العمل بين الرجل والمرأة ضرورى فى ذاته ، بغض النظر عن استعدادها الطبيعى لنوعه ، لأنه لو اختلطت أعمالهما أو توحدت لأصبح الكون فوضى ولهدد كثير من الناس ومن مرافق الحياة بالفناء .

ألصق الوظائف بطبيعة المرأة تدبير المنزل وتربية الأولاد ، إذ برأها الله تعالى هى والرجل مرتبطين لا غنى لأحدهما عن الآخر . ومن حيث إن فطرتها قد تلزمها أحيانا بملازمة البيت ، كانت أجدر من الرجل بالقيام عليه دائما ، وكان الرجل أحق منها بمزاولة الأعمال الخارجية لقوته وصبره ، خصوصاً ما كان من تلك الأعمال يدوياً شاقا أو مستلزماً سفراً بعيداً . ماذا كانت تفعل النساء لو جندن للحرب وبقى الرجال فى البيوت . إذا فرضنا أن العذارى منهن والأيامى والعاقرات أمكنهن الجهاد وهذا يكاد يكون مستحيلا لرقتهن وعدم احتمالهن ، فماذا كانت تفعل الحوامل والمرضعات .

من هذا المثال البسيط يتضح لنا وجوب اختصاص المرأة بالبيت ، وليس معنى اختصاصها به أن تظل مسجونة فيه أو أن تخدم بيديها إذا أمكنها استخدام الخدم .

أما تربية الأولاد فهى أخص بها لأنها لضرورة معاشرتها لهم فى الرضاع وما بعده ، تعرف أطوارهم وتقف على أحوالهم ، كذلك هى أشفق بهم من الرجل لأن ما تبذله لأجلهم من قوتها وتعبها وما تقاسيه فى الحمل والولادة من الآلام يجعلانها تحافظ عليهم وتقدرهم أكثر من الأب . وهذا قياس فى كل شىء . وكلما زاد التعب فى تحصيل شىء زادت قيمته ؛ لذلك كان اللؤلؤ أغلى من القمح مع أن الثانى ضرورى للحياة ، وأظننا نشاهد فى أغلب الأسر أن أنحف الأولاد أو أفسدهم خلقاً هو أحب إخوته إلى أمه ، لما تبذله دائماً من الجهد فى المحافظة عليه والنصح له أكثر من سائر إخوته . وقد خص الله تعالى الأم بالحضانة والتربية الأولى ونص عليهما ، ولم يخص بهما الأب وفى ذلك تقرير لوظيفة المرأة من هذا القبيل .

ويتبع تربية الأم أولادها تربية المرأة غير أولادها ، وهى فى هذه الحالة وإن لم تكن أما أعلم بحال الأولاد من الرجل ، وأحن قلباً وأشد تأثيراً عليهم . وقد رأى ذلك علماء العرب وباحثوهم فجعلوا مربى الأطفال ومعلميها من النساء سواء أكان أولئك الأطفال ذكوراً أم إناثاً . وقد أتت تلك التجربة بنتيجة أحسن من نتيجة المعلمين الرجال ، لأن الرجل مهما بلغ من العلم فهو أضيق ذرعاً عن تحمل مشاق التربية وخصوصاً فى الأطفال الصغار الذين لا يفرغون من الحركة ومن التساؤل ؛ وإنما غريزتهم الحب . والمرأة أحب إليهم من الرجل لرقتها ، ولأنها تعرف كيف تجذبهم إليها . ولا شك فى أن الرغبة فى التربية والتعليم أفعل من الرهبة بما لا يقاس .

ومن الوظائف المستحبة للمرأة صناعة التمريض ، وهى ذات شأن كبير عند الغربيين منحطة عندنا . وهى مظهر كبير لحنو المرأة وعنايتها ، فضلاً عما يتبع القائمات بها من الأجر والمثوبة . وها نحن أولاء مانزال نسمع أن

كثيرات من عقائل المجد وبنات البيوتات الكبيرة فى أوروبا يتطوعن لخدمة المرضى فى المستشفيات والجرحى فى الحرب، وكذلك كانت تفعل نساء العرب قبل الإسلام وبعده.

أما صناعة الطب فهى من أحسن ما تخدم به المرأة بنات جنسها والإنسانية عموماً، ولا غرو فإنها تسد بها ثلمة كبرى بمداواة المرضى من النساء فيصبحن فى غنى عن الأطباء، لأنهن بجنسهن أولى وأليق. والطب ضرورى تعليمه للمرأة سواء أكانت طبيبة أم لا ذلك لأنها لا تخلو من أن تكون ربة بيت أو أما، وعليها فى كلتا الحالتين معرفة الإسعافات الوقتية، التى ربما يحتاج إليها أولادها أو من تعاشرهم فى البيت قبل مجىء الطبيب.

وقد كان للخطابة والكتابة شأن كبير عند نساء العرب فى الشرق والغرب فنبغ منهن الشاعرات والكاتبات المجيدات والخطيبات القديرات، ومنهن من كانت تعظ الخلفاء فيتعظون. وكاتبات الغرب ومؤلفاته لهن المنزلة الأولى بين قومهن، ومنهن محررات الجرائد وغيرهن ممن يحترفن حرفة الأدب والأرشاد.

والمجالس العلمية الأدبية اشتهرت بها السيدة عائشة والسيدة سكينة والسيدة نفيسة وغيرهن، وقد كانت لهن يد فى إحياء آداب اللغة والحديث الشريف.

ذكر الأستاذ الشيخ عبدالعزيزجاويش فى كتابه (الإسلام دين الفطرة) : «أوجب الله تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم وإناثهم. وقال الله تعالى (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) فكان الرجل، وكان ما كان فى الجاهلية، يأتى إليهن ويستفتيهن ويتلقى ما يلقينه من أحكام الله ومكارم الأخلاق. وبذلك أخذت

عقول الرجال ترجع إلى رشدها . وتعلم أن لادخل لاختلاف الصنف أوالشعوب أو الأمم فى التفاضل » .

أما الملك فقد تولته نساء كثيرات،ومنهن من أحسن سياسته كل الإحسان . ذكرت مس جانيت بتلر فى كتابها « ملكات مصر » : إن تولى الملك كان من حق النساء المقصور عليهن وإن الذين تولوا من الفراعنة إنما كانوا وكلاء عن الملكات الحقيقيات لا وارثين ، بمعنى أن الملكة كانت تشرك معها أخاها أو زوجها ، وترثها من بعدها بنتها لا ابنها .

فالمرأة كفء لأن تشتغل بأى مهنة شريفة مما ذكرت ، بشرط أن تعلم وتدرب عليها ، ولا عبرة بما قاله روسو وشوبنهور من أنها لا تصلح لشىء ، أو أنها أحط من الرجل إلى آخر ما قالاه من العيب فى حقها ، لأن الرجلين ، وإن كان أحدهما كاتباً قديراً والآخر فيلسوفاً شهيراً ، إلا أن لكل جواد كبوة ، وهذه كبوتهما ، ولا يبعد أنهما كانا تحت مؤثر خاص من غدر إحدى النساء بهما فكتبا ما كتبا وعمماه على الجميع . والخلاصة أن المرأة يجب أن تتعلم ما يمكّنها من أن تكون مستقلة عن الرجل نوعاً ، لا عالة عليه ، وهذا ما يعيرها به الرجال .

يقولون إن المرأة لا تستغنى عن مساعدة الرجل . وأنا أقول أيضاً إن الرجل لا يستغنى عن مساعدة المرأة ، إذ يستحيل أن يعيش أحدهما بدون الآخر ، فقد خلقهما الله ليكونا متلازمين .

وظيفة المرأة هى إسعاد السكون وتخفيف متاعبه ، وظيفتها نافعة وضرورية كوظيفة الرجل ، ولكن الجهل أفسد خلقها وجعلها ترضى بأن تكون أنثى لاغير فاحتقرها الرجل لأنها هى احتقرت نفسها أولاً وجهلت قدرها . وما هلك امرؤ عرف قدر نفسه ، والسلام على من اتبع الهدى .

محاضرة

فى تربية البنات[1]

تربية الشىء إنماؤه حتى يبلغ الكمال المطلوب ويصلح لما ربى لأجله ، فهى على ذلك وسيلة لغرض معلوم وليست فى نفسها غرضاً ، وإنما يختلف ذلك الكمال باختلاف الأهواء والأذواق والعادات والبلاد والأشياء المختلفة . فما يعده الواحد كمالاً ، قد لا يكون كذلك عند الآخر ، وما يحسن أن يكون غرضاً من تربية نوع مخصوص من النبات أو الحيوان قد لا يقف عنده فى تربية نوع آخر منه . وعلى حسب ذلك الاختلاف فى الغاية تتخذ الوسيلة المؤدية إلى تلك الغاية . ومن العبث أن تبذل العناية الفائقة والجهد الجهيد والمال الوفير فى اتباع طريقة من التربية لا تلائم الغاية الأخيرة من طبائع المربى أو أصول ظهوره واستعماله .

ما الغرض من تربية البنت على العموم والمصرية على الخصوص ؟ الغرض تقريبها من السعادة بقدر الإمكان وإعدادها لأن تكون عضواً حياً نافعاً فى جسم الأمة وتهيئتها للقيام بأعباء الزوجية والأمومة ، فهل التربية المتبعة الآن فى المدارس المصرية توصل إلى هذه الغاية ؟ كلا والشواهد كثيرة على ذلك .

أما طريقة التربية المتبعة فى مدارس البنات (إن كان هناك طريقة معينة) فهى بعينها الطريقة المتخذة فى مدارس الصبيان لا فرق البتة بينهما . وفى اختلاف طباع البنات والذكور ومظاهر عيشتهم ووظيفتهم فى المستقبل ما كان

---

(١) كانت برامج التعليم فى مدارس البنات مماثلة لها فى مدارس البنين فجهدت الباحثة بإلقاء خطب ومحاضرات وإرسال مطالب حتى فازت مدارس البنات بإصلاح شامل ملائم ، كما أنها لفتت نظر الأمهات الى إحسان تربية بناتهن فى البيت .

يدعو لإيجاد فارق ليس بالقليل بين التربيتين .

ولا أخطىء إذا نسبت هذا الخطأ لواضعى برامج التعليم والتربية فى وزارة المعارف ، لأنهم إنما جعلوا نصب عيونهم تخريج فتيات ينلن شهادات الحكومة الرسمية فقط بغير تدقيق فيما إذا كان هؤلاء الفتيات يصلحن لغير خدمتها أو يمكنهن القيام بعمل ما غير ما عودتهن إياه ، مما يشبه أعمال صغار الكتبة فى الدواوين ؛ أما ناظرات تلك المدارس ومعلماتها فقد يخليهن من المسئولية عدم استطاعتهن الحيدة عن قانون المدارس ، وتوقع الجزاء الصارم إن هن خالفن حرفا منه ، وقلة الوقت الكافى لبث أى مكرمة أو فضيلة بين التلميذات اللائى قد لا يجدن من الوقت ما يكفى لمذاكرة الدروس المتراكمة والواجبات المطلوبة منهن يوماً بعد يوم .

قد تعتذر الوزارة بأن عليها التعليم وعلى البيوت التربية ، وقد كان يصح عذرها هذا لو أن مستوى تربية الأم أرقى منه الآن ، أما وهو على ما نعلم من التأخر والانحطاط فوظيفة الوصى الأمين على قاصر لم يدرك الحلم بعد . وكان حقاً عليه أن ينقب عما فيه نفع قاصره ويرشده إليه ، ويتولى حراسته إلى أن يهيئه لملاحظة نفسه بنفسه والاستقلال عنه متى كبر واستعد لذلك .

عنان التربية فى مدارس البنات مرسل إرسالاً بغير قصد بين إلى أى جهة يتجه ، وإنى أعلم أن بعض الناس يشكون من أن الفتيات المتعلمات ينقصهن جانباً ليس بالقليل من لطف المرأة ومن سياسة الزوجة الحكيمة ومن تدبير الأم ، ولعلهم على شىء من الصحة فيما يقولون .

يجب أن تدرب الفتيات على الفضيلة من الصغر بأن يرين منها أمثلة حية ، غير ما يلقى عليهن درسا ، ويجب أن تنبه فيهن عواطف الرحمة

والإحسان بأن يخصص جزء من وقتهن لعيادة اليتامى والبائسات، ويصرفن سويعات كل أسبوع لتجهيز الملابس لمن امتحنهم الدهر بالعرى. يجب أن تفهم الفتيات أن هناك غير مدرستهن الطيبة، دنيا ملآى بالشرور والأرزاء، وأن هناك أطفالاً غير التلميذات المنعمات يقتلهم الجوع ويعضهن الفقر، وأن نساء ورجالاً لا عداد لهم غير أمهاتهن المدللات وآبائهن الأغنياء يئنون تحت أثقال المرض والشقاء ولا يواسيهم أحد.

الفتاة التى تنشأ فى حضن الترف وتخرج من قاعة الدرس المنظمة إلى الحديقة المنمقة، وتجد أوقات طعامها ومنامها محددة كالساعة، وأينما اتجهت لا ترى إلا اهتماماً بها. وتدليلاً لها، من رفيقاتها وذويها، قد لا تدرك أن بعض العيش مُرٌّ وأنها قد تدخل فى بيت طبائع أهله وترتيباتهم وعاداتهم غير ما ألفته فى المدرسة تماماً، وأنها بدل أن كانت موضع اهتمام الأهل والصاحبات ستصبح مديرة بيت وربة أسرة تسأل عن كل صغيرة وكبيرة لإسعادها.

ملكة التدبير لا أثر لها فى مدارس البنات، وإن زعموا أن بعض الدروس تعطى لهن عن التدبير المنزلى، ولا عبرة بالدرس إذا لم يكن له أثر راسخ فى رأس الطالبة، وماذا تفيد ساعة أو اثنتان كل أسبوع، تلقن فيها الفتيات بعض ما تعرف منه تحضير بعض الأصناف التافهة على الطريقة الإنجليزية؟ فإذا ما ذهبت الفتاة لبيت أهلها وأرادت عمل ما تلقته فى الدرس، فما تدرى كيف تترجم أسماء المواد التى تريدها ولا من أين تشتريها. ولو كان مرنت الفتيات على التدبير عمليا — بأن خصص لهن داخل المدرسة بيت مستقل (ولو كان بيت الناظرة أو المعلمات) يمرن على ترتيبه، والصرف عليه ويجعلن من بعضهن ضيفات، تمرن

صاحبة المنزل على استقبالهن وإحضار ما يعده ذوقها لهن — لكان لهن فى ذلك فائدة محسوسة ، وتمرين عملى عظيم .

أما قوى التبصر والاستنتاج وحصافة الرأى فأحسبها لا يهتم بها كثيراً بين التلميذات فتظل مواهبهن ملفقة، وقد لا تفرق فتاة المدرسة عن فتاة البيت إلا بما تحفظه وتلقنه تلقينا من بعض العلوم ، أى تفوق أختها الجاهلة فيما يتبارى فيه الحفظ والقراءة ، لا فيما يجعل الإنسان إنسانا بالمعنى الصحيح .

هذا ما أنتقده على التربية العقلية والأدبية فى مدارس البنات . أما التربية الجسمية فانتقادى عليها أمر . لأن المشاهد أن الفتيات المتعلمات أهزل أجساماً وأشحب وجوهاً من الجاهلات ، وفى هذا من الضرر عليهن وعلى مجموع الأمة ما فيه ، وإذا استمر ضعف الأجسام ملازماً للتعلم ضاعت مزية الأخير ، واستُغنى عنه ونشأ النسل الجديد ضعيفا ، وكثر العقم بين النساء المتعلمات وهذا من أكبر الجنايات عليهن وعلى الأمة ، فيقل عدد المواليد فضلاً عن أن أولاد المتعلمات كانوا ينشأون أصح أجساماً (إذا كانت بنيتهم قوية من الأصل) وأكمل آداباً من أولاد العامة وذلك لعلم والداتهم بالقواعد الصحية واتباعهن إياها ، وحرام أن يقتطف هذا الخلل — فى نهج التربية — تلك الزهور قبل أن تينع ، ويرمى بتلك الثمار الشهية على غير نضج . وأرى أن سبع ساعات من الشغل الجدّى فى اليوم مضافاً إليها المذاكرة فى كل أوقات الفراغ ، أى اثنتى عشرة ساعة معا من أربع وعشرين ساعة غير ما يتطلبه تناول الغذاء وهضمه والنوم وراحته ، أرى أن ذلك شاق جداً على القوارير ولا يلطفه عندى ما يسمونه بالألعاب الرياضية فإن نصف ساعة منها يوميا غير ساعات الدرس تزيد فى شغل التلميذات وإن كان فيها تنشيط لهن .

مدارس الحكومة لا انتقاد على أبنيتها من حيث السعة واللياقة ، ولكن خلوها من الحدائق الواسعة نقص كبير من جهة ترويح الخاطر وتحسين الذوق وإطالة مرمى النظر . أما المدارس الأهلية فأكثرها متداعى البناء متقوض الأركان ضيق الساحات ، قد لا يصلح أن يكون مربطا للحيوانات .

وهناك خطر آخر على البنات يتهدد حياتهن المستقبلة ، وأكثر ما يكون اشتداده عند انتقالهن من دور الحداثة إلى دور المراهقة ، فإن صحتهن أثناء ذلك الانتقال تستلزم فائق العناية والحذر ، وأقل إهمال أو خطأ مقصود أو غير مقصود يجر وراءه مرضاً قد يتعاصى على الشفاء أو يعرض الفتيات لكثير من الأدواء والعلل ، ولا مشاحة فى أن من قرأ (الهيجين) علم الصحة يعلم أن المقاعد (التخت) إذا لم تكن على قياس الجالسين عليها تسبب انحناء فى العمود الفقرى ويسبب هذا الضرر نفسه الأحذيةُ العالية الكعب (الطالونة) .

والفتاة إذا اتكأت على رِجْل واحدة ، أخلت بميزان بعض أربطتها العصبية ، وأن شدة الانحناء على القراءة والكتابة كثيراً ما ولدت قصر النظر واحديداب الظهر ، وقد يؤذى العيون ويضعفها إتيان النور من جهة ولا يؤذيها إذا أتى من الجهة الأخرى ، وكذلك فى بعض الألوان راحة للنظر ، وفى بعضها الآخر أذى له ، وغير ذلك كثير مما هو خاص بالفتيات ولا يمكننى الإفاضة فيه علناً أمام غيرهن . ولو التفت لجميع الفتيات الالتفات التام فى أثناء ذلك الانتقال لقلّت أمراض النساء كثيراً عما نراه الآن . أشير على ناظرات المدارس بأن يصطحبن فتيات مدارسهن بين حين وآخر إلى بعض الحقول والرياض البعيدة عن ضوضاء المدن لينفين عنهن السآمة والملل ، لأن مزاج الفتيات قد يؤثر على رقته و يرنق من صفوه

مداومة الدرس والعكوف عليه وطول سجن المدرسة ، فضلاً عن أن الرياضة تجدد نشاطهن وتفيدهن زيادة فى معلوماتهن .

بقيت عقبة أراها كؤوداً أمام تربية البنات وهى اختلاف البلد والدين والعادات بينهن و بين الناظرات والمعلمات الأجنبيات ، ولكن إذا لم يجد القائمون بأمر تلك المدارس العدد الكافى من الوطنيات الأكفاء لتولى تلك المدارس فلينتخبوا من بين الأجنبيات من تتوفر فيها شروط الحكمة والأدب ومن يصح أن تكون قدوة حسنة للتلميذات .

قد ينتقد طلبى ، الفصل بين نماذج البنين والبنات لأنه مغاير للطريقة الحديثة بأوربا من الجمع بين الصنفين فى مدرسة واحدة ، ولكنه ليس فى الحقيقة مغايراً له، لأنى أعنى أن تتوحد التعاليم والمشارب وتتفق فيما يصح الاشتراك فيه كمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، ولكى يستعد كل فيما يخصص له فيما بعد، فتربى الفتاة على أن تكون ربة بيت وزوجة صالحة وَأُمًّا رؤوماً ، وأما الصبى فلن يطلب منه ذلك فليربَّ على ما يراد به .

وأرى أنه لإعداد البنت إلى لتربية صالحة يجب مراعاة هذه الأمور :

(١) أن يخصص لمدارس البنات أبنية واسعة لائقة ذات حدائق وملاعب .

(٢) أن يؤخذن للرياضة القريبة بين حين وآخر وإلى الرياضة البعيدة عن المدن .

(٣) أن تقل حصص درسهن ويمنعن من المذاكرة فى الفسحة وأيام البطالة .

(٤) أن يلتفت لصحتهن أشد الالتفات لتوقّى من كثير من الأمراض .

(٥) أن ينشأ لهن بيت فى المدرسة يمرن فيه عملياً على التدبير المنزلى بأنواعه .

(٦) أن تنبه فيهن عواطف الشفقة والإحسان بأخـذهن أحياناً لعيادة مستشفيات الأطفال وملاجئ البائسات العاجزات .

(٧) أن تجعل لهن امتحانات وشهادات خاصة بهن ، وبما يلزمهن من واجبات النساء على الأخص .

انتقاد طرق التعليم المتبعة فى المدارس المصرية

أما وقد لفت النظر إلى طريقة توظيف المعلمات وطريقة بعث الإرساليات فلم يبق إلا بعض ملاحظات على طرق التعليم القديمة التى تضيع وقت المعلم والمتعلم بغير كبير فائدة ، وهى إن أظهرت ملكة واحدة بأشد مظاهرها فإنها تخفى سائر الملكات أوتقتلها قتلا ، وتلك الملكة المعينة إنما هى استظهار المحفوظات بغير فهم لمعانيها أو تروٍ فى دقائقها وسأتكلم عن الطريقتين القديمة والحديثة، فى كل علم على حدة .

الهجاء والقراءة الأولية : بيّن غير واحـد ما فى الطريقة القديمة للهجاء والقراءة الأولية من النقص لأن تسمية الحروف بأسمائها مؤخرة لسرعة تعلم القراءة ومضيعة للوقت ، ويجب استبدال الطريقة الجديدة بها وهى النطق بمخارج الحروف فقط بغير تسميتها ، فينطق بالهمز فقط فى الألف المهموزة و بالمد وحده فى الممدودة بغير نطق الثلاثة الأحرف المكونة لاسم الألف (أ ـ ل ـ ف) وكذا فى سائر الحروف ، حتى إذا تعلم الطفل مخارجها سهُل عليه قراءة الكلمات وحده بعد تأليف حروفها . على أن عقبة وضع الشكل هى أكأد العقبات فى اللغة العربية .

ولو استعملنا حروف المد رمزاً للشكل لطالت بذلك الكلمات رسماً، وأخذت الكتابة مكاناً من الورق أفسح كالكتابة الافرنجية ، ولكن ما تضرنا سعة الكتابة إذا أدت المطلوب منها بغير خلط على المتعلمين كما هو المراد . فمثلا لفظة

كتب ، تكتب هكذا (كا تا با) وكُتب (كو تى با) أو (كوتيبا) الحرف الساكن يبقى بلا إضافة حرف مد إليه لتمييز شكله .

هذه الطريقة معقولة جداً ولكن إذا لزم المد وجب إما مضاعفة الحرف أو كتابته مرتين أو الرمز له بعلامة تدل على أنه ممدود . فمثلاً لفظة (كتاب) تكتب هكذا (كى تااب) أو (كيتا اب) أو يوضع فوقه ٢ أو علامة المد المعروفة (~) للدلالة عليها .

أما علامة تضعيف الحروف (الشد) فبقاؤها كما هى أسهل من أن يكتب الحرف مرتين . وإذا نجحت هذه الطريقة أو أريد إنجاحها فيجب التفكير فى جميع أذناب الهجاء والإملاء كاللام الشمسية مثلا ، فإنها لتجنب اختلاط قراءتها بالقمرية يجب حذفها كلية أو الرمز لها بأنها لاتنطق . وإذا أكثرنا من الرموز والعلامات فكأننا لم نتقدم شيئا لأننا نكون قد استبدلنا رموزاً بغيرها ويكون التنقيب والجهد (كساقية جحا) التى يتمثل بها العامة تأخذ من البحر وتصب فى البحر فضلا عن صعوبة تغيير المألوف على الكبار أى المتعلمين على الطريقة الأولى .

أما الحروف والأشكال غير الموجود لها نظير فى العربية فيجب وضع علامات لها حتى نأمن الخطأ فى كتابة أعلامهم والنطق بها حتى لا نقع فى مثل ماوقعوا هم فيه من هذا الخطأ الفاحش لنقص فى حلوقهم خلقةً أو تقليداً ، وكان المرحوم الشيخ اليازجى قد وضع لها علامات وكذلك سيدى الوالد (حفنى ناصف) فإنه من المشتغلين بها ، ويجب مراجعة ما كتبا وما فكرا فى هذا الشأن والأخذ به كما هو أو تعديله حسبما يؤدى للمطلوب ، وكانا قد أشارا بإتباع الكتابة التركية للرمز للحروف ، بأن توضع ثلاثة نقط على الفاء وثلاثة تحت الباء ، وبالواو وعليها علامة أو فتحة أو تحتها

علامة أو كسرة وبالباء عليها علامة ألخ . والواجب تأليف لجنة علمية للبحث فى هذا المشروع وتقرير المفيد فيه .

الكتابة والإملاء

الطريقة الأمريكية الخطية — هى أن يستغنى عن الحروف الزائدة كتابة عن النطق ، وأن الحروف المتجانسة يستغنى عنها بواحد منها ، فمثلاً المثال الأول كان المألوف أن تكتب كلمة (Colour) هكذا ولكنها الآن تكتب Color لأن حرف (u) لاينطق به ولذلك استغنى عنه ، وكلمة (Drapht) مثلا تنطق (Draft) فعدلوا كتابتها حسب نطقهم بها، وحسنا فعلوا إذ ما الفائدة من اتباع الطرق القديمة والتقليد فيما لايجدى ، فضلاً عن ضياع وقت الأطفال فى حفظ كل شاذ وشارد من الألفاظ .

ومثلا الحرف (C) و (K) و (Q) فإنها كلها تنطق (ك) فاستغنوا بإحدها عن الاثنين الآخرين ، والحرف (C) و (S) كثيراً ماينطق كلاهما (س) فاستغنوا بأحدهما عن الآخر وهلم جرا .

وعندنا كتابة المصاحف غير مايتعلمه التلاميذ فى دروس الإملاء ، فمثلاً لفظة الحياة تكتب فى المصاحف (الحيوة) والسماوات تكتب (السموات) وهـذا مايشوش أذهان التلاميذ ، ويجب توحيد طريقة الكتابة ولا يعترض بأن القرآن لايصح مسه فإنه أنزل وحياً ونطق به النبى لفظاً لا كتابة ، فالتعبير إذا فى طريقة الإملاء لايمس جوهر الكتاب العزيز مطلقا .

هذا مايقال فى جوهر تعليم الإملاء ، أما عرضها فإن بعض المعلمين كى يعلموا تلاميذهم كتابة الهمزات المختلفة الشكل والوضع يملون على التلاميذ أمالى لامعنى لها ، كما

ترص الصخر والحصى بغير تآلف ولا تماسك . ولعل بعض تقارير وزارة المعارف نبهتهم إلى اجتناب هذا الحشو المفسد للأذواق .

وأحسن نهج لتعليم الإملاء أن يملى على التلاميذ الصغار قطعة قرأوها من قبل ، يؤمرون بتحضيرها فينبه فيهم ذلك ملكة الانتباه ويروضهم على الحفظ ، حتى إذا ما رسخت فى أذهانهم الكلمات بهذا النحو تملى عليهم فيما بعد قطع جديدة بنسبة استعدادهم وقوتهم . ولكى نربى التلاميذ على تمام الإصغاء يجب أن لا تعاد الكلمات أو الجمل المملاة إلا مرة واحدة للصغار ولا تعاد مطلقاً للكبار .

الدين الحنيف

طريقة تعليم الدين فى المدارس هى جعل التلاميذ يستظهرون بعض سور القرآن بغير تفسير لمعناها أو تبين لسبب نزولها . ويقف تعليم القرآن للتلاميذ عند سورة الملك وهم تلاميذ السنة الثانية ، أما فى الثالثة والرابعة فيحفظون كتاباً موضوعاً فى الفرائض وصفات الله إلخ . أما فى القسم الابتدائى فلا يدرس من الدين شىء إلا فى بعض المدارس الخاصة ، فيشب التلاميذ على ذلك أدرى بتاريخ ملوك انجلترا وسكوتلندا من أصول دينهم وعقائدهم .

أنا لا أشير بوجوب حفظ المصحف كله وختمه وإعادته وتجويده كما يفعل صبيان الكتاتيب ، فقد يكون ذلك كثيراً على التلاميذ المتخومة رؤوسهم بمختلف المواد والعلوم ، وإنما أستحسن أن يستمر تعليم القرآن فى جميع الفرق الثانوية والعالية مطالعة عادية بغير تفنن ، ثم يفسر معنى كل سورة وسبب نزولها بالإجمال للقسم الابتدائى وشرحاً للقسمين الآخرين ، ويبين لهؤلاء مافى آياتها من الإعجاز وماتشتمل عليه من روائع الحكم وجميل الأسى ، ولا بأس بجعل من بعض دروس القرآن تحريرية يكتب فيها التلاميذ معانى السور كما يكتبون موضوعات

الإنشاء ويكون من ذلك تغيير لطريقة تعليمه المتجانسة ، لأن دروس القرآن كما تعطى الآن تجلب النوم للتلاميذ ولمن يسمعهم يقرأون ، فإنهم يظلون جالسين ويقرأ كل واحد تلو الآخر سورة أو بعض سورة يراعى فى قراءتها الإدغام والغنة وما أشبه ذلك ، ولا وظيفة للمعلم إلا الجلوس ساكتاً أو الإشارة لتلميذ آخر بالقراءة ، لأن أجزاء القرآن مكتوبة بالشكل الكامل ولا كبير صعوبة فى قراءتها حتى بدون أستاذ .

حدثتنى سائحة أمريكية جاءت مصر خصيصاً للبحث فى طرق التعليم والتربية المتبعة فى مدارسها ، لأن تلك السيدة من المشتغلات بفنّى التربية والتعليم قالت : إنها سمعت من المتعلمين الإنجليز انتقادا مراً على طريقة تعليم القرآن بالمدارس والكتاتيب المصرية ، إذ قالوا لها إن كيفية الحفظ الببغائى بغير فهم لمعنى أو شعور بمعنى يفسد عقول التلاميذ ويميت قوة التبصر والتعقل فيهم . ولعلهم على صحة فيما يقولون .

أما الحديث والسنة والفقه فلا أثر لها بالمرة فى المدارس ، ومن العار أن يجهلها أولى الناس بتعلمها ، وحبذا لو تقرر تدريسها ولو سطحياً بالمدارس . ويكفى لمعرفة كتب التوحيد أن يفهمها التلاميذ ويؤدون معناها ولا ضرورة لحفظها كلها حرفياً كما يفعلون الآن .

الخط

لا أرى فائدة للصغار خصوصاً من تعلم الخط الثلث ، وإن كانوا يزعمون أنه أساس لبقية الخطوط ، والأولى تعلم الخط الذى سيكتب به فى سنى الحياة أول الأمر ، ولا بأس بتعلم الخطوط الأخرى فى السنين المتقدمة . وطريقة (المشق) مخلة

جداً فضلاً عن أنها لاتؤدى إلى تحسين الخط ، لأن التلميذ لايلتفت إلى السطر المطبوع نموذجاً إلا فى أول مرة ثم يقلد خط نفسه فى السطر الثانى ويقلد الثانى فى الثالث وهلم جرا ، وتكون النتيجة أنه يكتب نموذجاً لنفسه مملوءاً بالأغلاط الخطية، وهذه الطريقة يجب تغييرها ؛ فإما أن يبتدئ بالكتابة من أسفل الصحيفة أى يكتب السطر الأخير ثم مافوقه وهكذا حتى يكون النموذج نصب عين التلميذ دائماً ، وإما أن يفكر الأساتذة فى وضع طريقة أخرى لتعلم الخط .

الرسم النظرى

المفهوم من دروس الرسم النظرى أنه يعود التلاميذ الالتفات والتأمل واستعمال القلم ، وحبذا لو بطل استعمال المسّاحة (الأستيكة) أو قل، فإن الاعتماد عليها دائماً ينقص من درجة الحذر والالتفات الشديد ومن تسديد مرمى القلم .

والرسوم التى لها مدلول حسى أو ملموس تكون أجلب للنشاط من مجرد رسم الخطوط والزوايا . أما التصوير بالألوان وهو أحد الفنون الجميلة فمعدوم من المدارس أو نادر بها ، وهو مع تقويته لحساسية النظر وملكة الذوق فإنه جميل ولذيذ ، وقد أصبح من الكماليات الضرورية فى هذا العصر، وقدكان محبوباً فى كل زمان ومكان ارتقت فيه الحضارة ، شرقية كانت أو غربية .

الحساب

مما يصدئ الأذهان ويلقى على المتعلمين البله أن يحفّظهم أستاذهم قاعدة لا يفسرها ولا يشرح كيف أثبتت ومم تركبت ، فتراهم يقيمون عليها الأمثلة إذا تذكروها فيحلون بها المسائل ، وإذا ضاعت حلقة من تسلسلها انفرط عقد الحل عندهم وانتكث غزله ، فيظلون فى حيرة من أمرهم وارتباك .

ولو مرنت قوة التفكير فيهم ودربوا على أن لا يعتمدوا إلا على أنفسهم وأذهانهم لنمت فيهم فضيلتا التعقّل والاستقلال . ولقدفات هؤلاء المعلمين على طريقة القاعدة ، أن قواعد الحساب ونظريات الهندسة وكل قاعدة وكل نظرية فى الدنيا إنما بناها مؤسسها على كثير من الأمثلة و بعد تجارب ولدتها ، والأستاذ النابه هو الذى يجعل التلاميذ يستنتجون القاعدة من أنفسهم لأنفسهم ، بعد أن يروا من الأمثلة الكثيرة التى يمرنهم عليها على أساس تلك القاعدة نتيجة واحدة يبنون منها القاعدة أو النظرية المطلوبة . ولو اتبعت طريقة الاستنتاج هذه لأصبحت دروس الحساب من أحب الدروس وأفكهها ، مع أنها أكرهها الآن وأصعبها على التلاميذ حتى الأذكياء منهم ، ومردّ هذا إلى فساد طريقة التعليم وعقمها .

اللغة العربية

لو درست اللغة كما يجب لما وجد المتعلمون صعوبة فى إجادتها والتمكن منها . لا همّ للمعلمين إلا أن يشحنوا أذهان الصغار بشتى القواعد وسخافات متفقهى النحويين . والمشاهد أن تلميذ الشهادة الابتدائية يعجز عن كتابة خطاب صحيح أو التكلم بلغة فصحى ، مع أنه يقضى أربع سنوات فى حفظ كتب النحو والتمرن عليها ، وكان يكفيه سنة واحدة أو اثنتان لذلك الغرض .

ما فائدة حفظ القواعد إذا لم تكن لضبط القراءة والكتابة ؟! وأرى أنه إذا عود الأطفال سماع العبارات الصحيحة وكثر اطلاعهم على كتب المطالعة مضبوطة الشكل متينة الأسلوب أثر ذلك فى أذهانهم وتربت فيهم ملكة اللغة ، واستعاضوا بالذوق الخاص فيها عن كثرة القواعد الثقيلة الجافة ، ولا أعنى بذلك أن يستغنى عن القواعد كلية فقد تلجئ الضرورة إليها أحياناً ، وإنما أريد الإكثار من

مطالعة الكتب الصحيحة المفيدة لغة ومعنى والإقلال من حفظ القواعد وضرورة التمرين والتطبيق على المحفوظ منها .

ويلاحظ أن كتب المطالعة بالمدارس المصرية غير وافية بالغرض ، فضلا عن أنها قد سئمها الأطفال لكثرة أوامرها ونواهيها . والتلميذ المعيد أكثر الناس سأماً بها واشمئزازاً منها ، فيجب تغيير كتب المطالعة بين سنة وأخرى ، وتقرير كتب جديدة تشوق الأطفال وتسترعى التفاتهم ونشاطهم ، لأن المشاهد الآن أنهم حافظون لتلك الكتب عن ظهر قلب ولا يمكنهم القراءة بسهولة فى غيرها .

أما تعليم الإنشاء فعلى درجة من التأخير لا يصح السكوت عليها . وفساد ملكات التلاميذ ناشىء : —

أولا : من عدم صلاحية كتب المطالعة المدرسية لأن التلميذ الذى يقرأ فصل : « يابنى لا تطأطىء رأسك وأنت ماش أو قاعد الخ » ، والذى يقرأ فقرات « انظرى يامريم إنها تهز ذنبها وأخاف أن تنطحنى بقرونها الطويلة الخ » وما أشبه ذلك من الأساليب الركيكة والمحاورات المتجلنزة فى كتابى الفوائد الفكرية ومحاورات خريجى مدرسة برورود من المصريين . إن الذى يقرأ مثل هذه الكتب وتتمكن من نفسه هذه الأساليب المشوشة النائية عن العربية لا يرجى منه أن يكون بليغاً فيها ، حتى ولو حفظ قواميس المتقدمين والمتأخرين .

ثانياً : تفشت كتب الإنشا المصرية التى يزعم أصحابها أنها تفيد التلاميذ ، والله يعلم أنها تضرهم وأن أصحابها لم ينشروها إلا للكسب ، وهى فضلاً عن سخافة كثير منها وفساد مختاراتها يعتمد عليها التلاميذ كليةً فينسخون موضوعاتها نسخاً إذا كلفوا بالكتابة عليها ، ولا يلفتهم معلموهم للقصد منها فيشبون على

استحلال السرقة الأدبية ، فضلاً عن أنهم لا يستفيدون من الكتابة شيئاً لأنهم لم يكدوا أذهانهم ولم يفكروا فيها .

ومن الطريف فى هذا الموضوع أن سيدة كتبت مرة لصديقة لها كتاباً نسخته من إحدى هذه الكتب ، فلم يكن من الصديقة الظريفة إلا أن أجابتها بالجواب الآتى « تجدين الرد فى الصحيفة التالية من الكتاب نفسه ... »

ثالثا — تكليف المعلمين تلاميذهم بكتابة موضوعات الإنشاء خارج المدرسة فيكتبها لهم ذووهم .

رابعا — تقرير المعلمين موضوعات بعينها لكل فرقة لا تتغير بتغيير السنين فينقش الجدد ما سطره القُدامى .

خامسا — عدم اطلاع التلاميذ على الكتب والكتابات النافعة غير ما تقرره المدرسة ، وواجب المعلمين أن يرشدوهم إليها وأن يشجعوهم على مطالعتها حتى يعلق بأذهانهم شىء منها وتثبت أساليبها عندهم .

سادسا — أن يصحح المعلمون خطأ التلاميذ اللغوى والكتابى والفكرى فى الكراسات ولا ينبهوهم إليه ، ويجب أن يخصص بعض الوقت لإعادة التصحيحات شفوياً على التلاميذ حتى يتنبهوا لعدم الوقوع فى نفسه الخطأ مرة أخرى .

اللغة الأجنبية

يقال فيها ما قيل فى العربية ، ويزاد عليه أن تعلم المفردات يجب أن يبتدئ من المشاهد والمجاور ، بمعنى أن يحفظ التلميذ بالإشارة إلى ترجمة أسماء

المكتب والدرج والقلم والحبر ... الخ ، وهذه هي بعينها طريقة (برليتز) وهي أفيد وأسرع ، لأن الوقت الذي يضيعه المتعلم في حفظ ترجمة الكلمة يتعلم فيه كلمة أخرى ، وكذلك الأفعال وتركيب الجمل المفيدة يبتدأ فيها بالبسيط المحسوس ، ثم يزاد قليلا إلى أن يتوصل للمطلوب .

علم تقويم البلدان

يحفظ التلاميذ من أسماء الرؤوس والخلجان والبوغازات والبرازخ والجزر إلخ ، مالا يحفظه الملاحون وأدلاء البواخر ، وسرعان ما تنسى تلك الأسماء وتنمحي من لوحات أذهانهم . ولا أدرى ما الفائدة من التنقيب على اسم لسان بارزأو مستنقع عفن أو كهف غائر قد لا تكون له شهرة تاريخية ولا طبيعية اللهم إلاّ شذوذ الرسم على الخريطة .

يعمد الأستاذ الماهر إلى لوحات الآجر فيصور عليها مواقع البلاد أو مايريده من الأمثلة بارزاً فيرسخ في اذهان التلاميذ . وقد أتت هذه الطريقة بفوائد جمة لأنها أوضح رسما وأقرب للتصوير من الخرط ، وحبذا لوعم استعمالها .

الجغرافية الطبيعية

لاتدرس إلا قليلاً في المدارس الثانوية وأظنها معدومة أو قليلة في الابتدائية مع فائدتها وأهميتها، هذا فضلاً عن أنها أثبت في الذهن لطلاوتها ولارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب فيها ، ممايفتح قوى التلاميذ العقلية ويزيد في شعورهم وإدراكهم .

رسم الخرط

يلاحظ على الخرط المعلقة على الحوائط أنها كلها تقريباً بحجم واحد . ومعلوم

أن مقياس الرسم يختلف بينها ، ولكن التلميذ الذي ينظر فيجد خارطة أوربا بحجم خارطة آسيا ، وأن سعة خارطة إفريقية لاتقل عن سعة خارطة أمريكا ، لايدرك الفرق بين اختلافات مقاييس الرسم ولا يكلف نفسه قراءتها بل يرسم في ذهنه أنها كلها كأسنان المشط مع أن الفرق هائل بينهما ؛ فعلى المعلمين أن يطلبوا خرائط تكون كلها بمقياس رسم واحد حتى تظهر الكبيرة كبيرة والصغيرة صغيرة فلا يختلط الأمر على التلاميذ . أما الخرط التي يرسمها التلاميذ في كراساتهم فحبذا لو أكثر من (السكروكى) بينها فإنه أسهل وأهم فائدة .

الأشغال اليدوية

يزعم بعضهم أن لا فائدة من التطريز غير الزينة ، وأنا أخالفهم في ذلك لأن دروس التطريز فضلاً عن أنها تقوى الذوق في اختيار الألوان المناسبة فإنها تستدعى شدة الالتفات وتمرن التلميذات على الدقة والضبط ، إلا أني أرجو أن لا تقتصر دروس الأشغال اليدوية عليها ، وأطلب مع الطالبين أن تعلم التلميذات تجهيز الملابس قبل .

التاريخ

يجب أن يعلم الطالب تاريخ بلاده ودينه وعظماء أمته قبل أن يعلم شيئاً من مثل ذلك عن البلاد الأخرى، والمتبع الآن عكس ذلك . فيجب الزيادة من دروس التاريخ الإسلامى وتقريرها لجميع الفرق من ابتدائية إلى عالية .

أما التاريخ الطبيعى فأحسبه لا وجود له خصوصاً فى المدارس الابتدائية وهو ضرورى .

الموسيقى

النساء فى كل العالم المتمدين تتقن العزف على نوع من الآلات الموسيقية إلا المصريات فإنهن مع رقتهن الطبيعية يخفف من لينهن إهمال تعلم الموسيقى ، وحبذا لو قررت المدارس تدريسها والأخذ بكل حسن فيها لا الاقتصار على (البيانو) وحده . وتعلمها واجب لتحسين حال المجتمعات النسائية بمصر ؛ لأنها خالية من الملاهى المناسبة لإشغال وقت المرأة وبالها عند الفضاء . أما الملاهى الخارجية فكلها تقريباً غير صالح لأن تيمم شطره السيدة الشريفة لاختلاط الحابل بالنابل فيها .

توظيف المعلمات وطريقة بعث الارساليات

التعليم وظيفة الأنبياء والرسل وأساس المهن والوظائف طرا . وحقه من العناية أن يكون أول ما يهتم به فى حياة الشعوب والأمم إذ هو الباعث فيها الحياة روحاً منشأة ، أو القاذف بها بين أنياب التلاشى والاضمحلال ، وهو مفتتح أكمام الملكات الخفية ومساعد القوى العقلية على التطور والانبثاق . والمعلم قدوة تلاميذه وإمامهم المتبوع ، وهو كما يشرب بهم علومه ومعارفه يشرب بهم كذلك أخلاقه وتسرى فيهم طباعه.

الغلطة الكبرى لأصحاب المدارس والقائمين بها الانتقاص من أجور المعلمين بغير نظر إلى الكفاءة والصلاح ، وكأنهم بما يوفرون من المال القليل يفسدون مئات وألوفاً من الأدمغة الحية الصغيرة ويشوهون تكيفها واستعدادها . عجباً للقانون ! يحاكم مجرمى الأبدان والمتاع ولا يقتص من مجرمى الأرواح والعقول !! أن إهمالاً فى اختيار الإمام الكفء قد يجر وراءه الدواهى ويلقى بالكُبر ، وإن تقتيراً فى نقد المعلم الصالح أجراً مرضياً تكون نتيجته تنحى الأكفاء عن وظائف التعليم وإقبال الجهلة عليها مما يترتب عليه تأخير النشء جيلاً أو أجيالا إلى الوراء .

ليس كل من يجمع صبياناً ويلقى عليهم درسا يسمى معلما ، وليس كل من ينجح فى تأدية مواد الامتحان يصح أن ينصّب معلما ، بل للتعليم استعداد خاص وروح مدفونة فى صدور بعض الأفراد لا فى سائر المتعلمين ، على ذلك يجب انتقاء المعلمين ممن خلقوا للتعليم بالفطرة ومن المبرزين على غيرهم فى النبوغ والأخلاق ، ولن يرغب النابغون كثيرو الآمال والأحلام فى المستقبل فى وظيفة التعليم الشاقة البعيدة عن مظاهر الجاه

وأبهة الحكم ما لم يجذبهم إليها جاذب النفع أو المال . وقد توخت الحكومة ومجالس المديريات أقوم السبل بإنشائها المدارس لتخريج المعلمين والمعلمات على الطرق الحديثة فى التعليم ، إلا أنها قررت المساواة فى معاملة الجنسين من جهة الامتحان والتوظيف وهو ما نشكرها عليه لإنصافها النساء ، لأنها بتوحيد المعاملة تقر أن المرأة قرن الرجل وكفء لأن تعادله فى الحقوق كما تعادله فى الواجبات . ولكن يلاحظ عليها أن الفتيات الحضريات المترفات قليلات الجلد فضلاً عن أنهن مبتدئات فى هذه الصناعة ، فكان الأجدر ترغيبهن وتشويقهن إليها ومنحهن المكافآت عند ظهور نتائجهن الحسنة وصرف ما يخصم من مرتباتهن لهن عند تركهن المدرسة . فإن قانون المعاشات الذى تنفذه الحكومة على الفتيات كما يسرى على الرجال لن يكون إلا حجر عثرة فى سبيل تعاطيهن هذه المهنة ، لأن من غير المعقول أن تستمر الفتاة إلى سن الستين تشتغل للحكومة فى مدارسها كى تتحصل على مالا يتجاوز العشرين فى النهاية الكبرى وتكون فى أثناء ذلك قد أضاعت مستقبلاً حسناً ، فضلاً عن أن العادة فى الشرق وخصوصاً فى مصر لا تسمح للفتيات بالتعنس طويلا .

تحسن وزارة المعارف صنعاً لو جعلت إرساليات البنات فى بلاد مختلفة لا الاقتصار على إنجلترا وحدها . والمدرسة التى ترسل الوزارة الفتيات بانجلترا ليست من أعلى المدارس ، وليست نتيجتها أو المعارف التى يحصل عليها خريجاتها مما يغرى بالمخاطرة على التغرب غير المألوف لنا وعلى تجشم الفتيات العيش وسط بيئات مخالفة للمألوف فى مصر .

شهدت ناظرات مدارس البنات الأميرية للمعلمات المتخرجات فى مدارسهن ، وشهدت لهن كذلك نتائج امتحان التلميذات الموكول أمرها إلى غيرهن ، والمحضرة

أسئلتها فى الوزارة أو المدارس الأخرى، شهدن أنهن أسد لثلمة التعليم من الانجليزيات ومن المصريات المتخرجات فى انجلترا، لأنهن يدربن على سائر فروع التعليم ومواد العلوم المختلفة، ويمكنهن التدريس بالعربية أو بالانجليزية كما يطلب منهن، وهن لطول ممارستهن التلميذات ولتخرجهن بينهن أدرى بأخلاقهن وبمنازع تربيتهن ممن يأتين من إنجلترا لا يعلمن من عادات البلد وتقاليده شيئا، أو ممن يبعثن فى الإرسالية لتعلم فرع واحد من التعليم لا يمكنهن تدريس غيره، وهو فى الغالب فرع (الكندر جارتن) أى تعليم الأطفال، وهؤلاء الفتيات يرسلن لانجلترا عقب نيلهن الشهادة الابتدائية مباشرة أى فى السن الذى تنضج فيه مداركهن، وكان يمكنهن الاستفادة من العلوم العربية بمصر أكثر مما يستفدنه من مدرسة (ستكول) بلندن.

ومع كفاءة خريجات مصر وتفوقهن على أخواتهن خريجات إنجلترا، وعلى أغلب المعلمات الانجليزيات أيضا نراهن أقل أجراً (ماهية) من الأخريات من الصنفين وأبطأ ترقيا، وكثيراً ما يثبط هذا التفريق فى المعاملة والخطأ فى التقدير من عزائمهن وحملهن على ترك التعليم كلية. فيجب أن يكون ميزان الترقى، الكفاءة فقط، لا التخرّج فى إنجلترا. وتثبت الكفاءة بعد التمرين عمليا على التعليم سنة أو اثنتين فى مدارس مصر. وعلى ذكر التمرين أتذكر أن خريجات مصر هن وحدهن النابغات فيه فإنهن لا ينلن شهاداتهن (الدبلومات) إلا بعد تمضية سنتين تمريناً عملياً بعد النجاح فى الامتحان، وأما الانجليزيات وخريجات إنجلترا فلا يمضين تمريناً قط، وفى هذا التباين فى المعاملة والتفريق فى المساواة من الغبن الفاحش على الوطنيات مافيه.

وعلى ذكر الإرساليات أنبه الوزارة، ولا يعزب ذلك عن فكرها إلى أن تركها

الفتيات ، وسنهن فى الغالب من اثنتى عشرة إلى ست عشرة سنة ، بلا رقابة أو برقابة غير دائمة فى بلاد يجهلها أهلهن لما يدعو الأسر إلى التخوف من إرسال بناتها ضمن تلك الإرساليات ؛ نعم إنّ الأربع أو الخمس الفتيات اللائى أرسلن وعدن لم يسمع عنهن أثناء وجودهن بلندن و بعد عودتهن منها إلا الكمال ومنتهى الرزانة والحشمة ، إلا أن الحيطة للمستقبل ولغير هؤلاء الكاملات ممن قد تبهرهن حرية المرأة المطلقة بلندن، أقول إن الحيطة للمستقبل واجبة فى مثل هذه الحال وهى إن لم تنفع فلن تضر .

باب التوجيهات

تقرير [1]

فى وسائل ترقية المرأة المسلمة المصرية

فكرة طالما جالت بخاطرى ، وأمل كثر ما رددته نفسى ، وكان يمنعنى من إبدائهما انصراف القوم عن المصلحة العامة ، وتأكدى أن ندائى سيذهب صرخة فى واد . وماذا كان يفيد القول ولا وسيلة فعالة عندى أتمكن بها من تنفيذ مشروعى ، ولا تناصر من الرجال يشجعنى على العمل . فلما نكأ الجرح وانتبهنا فإذا به دام .

حمدت الشدائد التى ولّدت لنا هذا المؤتمر ، وقد كنا فى أمسّ الحاجة إليه . وكان يجب عقده من زمن بعيد لولا تقاعُسنا وحسن ظننا بالأيام ، فجزى الله هذه الشدائد عنا خيراً . والويل لنا إن نحن عدنا لسباتنا القديم وأغمضنا أعيننا على القذى ، وأمِنَّا الشر وهو تحت جنباتنا محدق بنا من بين أيدينا ومن خلفنا .

ولعلمى أن لجنة المؤتمر ستبحث بالطبع فى جميع ما يهم الأمة المصرية وتتخذ الذرائع لترقيتها ، وستوفى سائر الموضوعات الحيوية حقها من البحث والاهتمام ، رأيت أن أزج برسالتى عن المرأة بين الرسائل ، معتقدة أن نصف الأمة لا يصح أن يهمل . وإذا نسى ذكره إخواننا الرجال فى رسالاتهم واقتراحاتهم فى المؤتمر فلا يغتفر ذلك النسيان والإهمال لامرأة منه ترى سعادتها فى سعادته ، وهمها الأكبر أن يتقدم ويرقى . ولا حاجة إلى بيان أهمية المرأة فى تكوين الأمة فذلك معروف بالبداهة

---

(١) عن مجموعة أعمال المؤتمر المصرى بهليوبوليس من صفحة ٦٨ إلى ٧١

وقد أصبح الـكلام فيه من قبيل تحصيل الحاصل . وسأكتفى بالـكلام مباشرة عما أراه وأعتقده نافعاً فعالاً فى ترقية المرأة المسلمة المصرية .

الاقتراح الأول

يجب أن يذهب النساء ـ سواء فى المدن والقرى ـ لحضور الصلاة وسماع الوعظ فى المساجد ، فقد كان ذلك متبعاً فى كل زمان ومكان ارتقت فيه الحضارة الإسلامية وعز فيه شأن الإسلام . وهيهات أن يحتـكم على النفس الأمارة بالسوء سلطان أقوى من سلطان الوازع الدينى . وإذا نظرنا إلى سائر الطوائف الأخرى من نصارى ويهود رأينا نساءها يذهبن زرافات ووحداناً للصلاة فى الـكنائس وسماع الوعظ الدينى ، ويستفدن من ذلك كثيراً . فـكيف نرضى بأن نسبق فى هذا السبيل والإسلام رحب الصدر شديد الحرص على حرية المرأة ! أريد حرية الحياة الحقيقية ، حرية النفس من ربقة الاستعباد ، حرية التصرف بالمال ، حرية الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان ، حرية الرأى . وليس أدل على ذلك من بيعة العقبة الثانية ، فقد بايع النبى صلى الله عليه وسلم فيمن بايعه عدة من النساء . هذه هى الحرية بحذافيرها ، هذه هى الحرية التى منحها الإسلام للمرأة منذ ألف وثلثمائة ونيّف من السنين بدون طلب ولا جهاد .

دين هذه تعاليمه الاجتماعية لابدع إن تأخرنا إذا أهملناها . وأجهل الجاهلين به المرأة المصرية فى عقر دارها كأنها ميتة ، تمر الحياة ولا تشعر .

وإذا نفذ المؤتمر هـذا الاقتراح فليُخصص فى كل مسجد باب للنساء ، ومقصورة أو حاجز يصلين فيه بحيث يسمعن كلام الخطيب ويفقهنه ولا يختلطن بالرجال . وليـكن موعد دخولهن المسجد وانصرافهن منه سابقاً نصف ساعة أو متأخراً مثلها عن موعد دخول الرجال وانصرافهم . على أن مقام الصلاة خشوع

فى خشوع ، وأبعد عن الريبة من كل مقام . ولكن أقرر ذلك لكيلا تكون حجة أو شبه حجة ، للمتأخرين الجامدين ، أو الغيورين المتشائمين .

الاقتراح الثانى

جعل التعليم الأولى إجبارياً ، وتكثير المجانية على قدر الإمكان فى مدارس البنات الموجودة حالاً ، أو إنشاء غيرها لهذا الغرض ، فإن كثيرات من الفقيرات يحب أهلهن أن يعلموهن ، فلا يجدون لهن فى المجانية مكاناً ، وتكون النتيجة تركهن بلا تعليم ولا تهذيب ، فيشببن جاهلات ويكن أعضاء شلا فى جسم الأمة المصرية . وإذا لم تقم نظارة المعارف بتعليم الفقيرات من الأمة ، فواجب ديوان الأوقاف أن يخصص لهن من الأموال الخيرية مايسد الثلمة ويفى بالحاجة. ولا ننسى أن نذكر الجمعيات الخيرية وأغنياء الأمة بتعليم الفقراء من أبنائها ، وبناتها ليساعدوا على ترقى الأمة فى معارج الفلاح .

الاقتراح الثالث

تلزم جميع مدارس البنات (سواء أكانت حكومية ، أم أهلية) بتعليم الدين الإسلامى تعليما صحيحاً ، لأنه وإن كانت تعطى بها بعض دروس فى الديانة ، إلا أنها كالعدم ، مع أن الديانة من ألزم مايكون للبنات لما تغرسه فى نفوسهن من الأخلاق القويمة .

الاقتراح الرابع

يجب أن يكون فى كل مدرسة للبنات سيدة مسلمة عاقلة. ووظيفتها أن تراقب الفتيات فى أخلاقهن وسيرهن واتباعهن أمور دينهن ، وتكون لهن إماماً فعلياً

فى أحوالهن ومرشداً حكيما ؛ فإن أغلب مدارس البنات ، وخصوصاً الحكومية منها ومدارس الطوائف المسيحية ، ليس بها إلا معلمات أجنبيات ، لا يعرفن من عادات البلد وتقاليده شيئاً كثيراً ، فتنشأ الفتيات لا بالوطنيات ولا بالأجنبيات ، وإذا أخطأن فى شىء من عادات البلد أو تقاليد الدين ، فلا يجدن من يلفتهن لذلك ، ثم إذا خرجن من المدرسة تعذر عليهن العيش مع أقاربهن ، أو فى بيوت أزواجهن لاختلاف التربيتين . وهذا ولا شك من أبعث بواعث الشقاء فى الأسر .

الاقتراح الخامس

توسيع نطاق مدرسة الممرضات الحاضرة ، والأولى إيجاد مدرسة للطب جديدة لتعليم النساء الصناعة تعليماً كاملا ، أى بدرجة تساوى درجة الأطباء من الرجال ، حتى يكون لنا منا من يكفينا مؤونة استدعاء الأطباء لكل تافهة من أمورنا ، ولأمسّ الأشياء بنا . ويجب أن يكون فى كل قرية طبيبة وممرضة ، وفى كل مدينة من يكفيها من مثلهن ، فإن أكثر الدايات والممرضات الموجودات الآن على غاية من الجهل بأصول صناعتهن ، حتى إنهن قد أودين بحياة كثير من النساء البريئات . فإذا لم يوجد فى المثريات من تقبل الانتظام فى تلك المدرسة ، ففى الإمكان أخذهن من الفقيرات اللائى يتعلمن مجاناً .

الاقتراح السادس

تكثير المستشفيات الخيرية والصيدليات للمرضى من الرجال والنساء والأطفال ، ويكون فى كل مركز من مراكز المديريات ، وكل قسم من أقسام المدن واحد على الأقل .

ويجب أن يكلف الطبيب المنوط به مداواة المرضى فى تلك المستشفيات

بإلقاء النصائح الطبية للأمهات عن كيفية معيشتهن ومعيشة أطفالهن واتباع النظافة، وما يجب اتخاذه من الاحتياطات عند تفشى الأوبئة، وغير ذلك مما هو ضرورى جداً لإنقاذ هؤلاء العامة البؤساء من مخالب الموت والجهل، لأن الإحصائيات الرسمية دلت دلالة واضحة على كثرة وفيات الأطفال فى مصر، وإصابة الأحياء منهم بكثير من الأمراض الوبيلة، التى كان من أكبر أسبابها القذارة وعدم اتباع أمهاتهم الطرق الصحية جهلاً بها.

ويحسن جداً أن يساعد أولو الأمر والأغنياء فى الإسراع بإنشاء هذه الصيدليات؛ لأن حياة الشعب مهددة بكثرة الأمراض والوفيات. وليكن صرف الأدوية للفقراء مجاناً أو بثمن زهيد، ليتمكنوا من الاستفادة، والله لا يضيع أجر المحسنين.

الاقتراح السابع

أن يتخذ أولو الأمر فى هذا المؤتمر جميع الوسائل الفعالة لمنع الحيف الواقع على النساء المسلمات، فيفرض على البوليس بأن يرعى الآداب العمومية فى الطرق والمجتمعات، وأن يسوق كل رجل يخرج عن الأدب مع المرأة إلى القسم. نعم إن هذا الاقتراح ليس بجديد وهو موجود فى لوائح البوليس، ولكن يجب التشديد فى طلب تنفيذه وصدوره من لجنة المؤتمر.

الاقتراح الثامن

السعى إلى تقليل تعدد الزوجات لغير داع ماس بقدر الاستطاعة، فإن شقاء النساء واختلاف الإخوة الناشئين من هذه العادة وما يتبع ذلك من الشقاق، كل ذلك يدهور الأمة فى مهاوى الفناء الأدبى.

نعم إن القرآن الكريم أباح الجمع بين النساء ، ولكنه اشترط العدل وعدم الحيف .

ومن المعلوم فى الدين بالضرورة ، أن كل شىء مباح يترتب على عمله ضرر للفرد أو الأمة يلتحق بالمحظور . فللإمام شرعاً أن يمنع كل مباح يؤدى إلى ضرر ، ولا ضرر أشد من اختلاف الإخوة وانشقاق الأسر ، ولا سيما للفقير الذى يعجز عن الصرف على واحدة فكيف بأكثر ؟ ! .

أنا لا أريد تحريم التزوج باثنتين فإن ذلك تحريج على الناس بلا مسوغ . وإنما اقترح ألاّ يتزوّج الرجل على امرأته ولا يطلقها إلاّ بإذن من المحكمة الشرعية ، كما ذهب إليه فريق من السلف ، فإذا رأت المحكمة أنه يستطيع العدل بين الزوجين والإنفاق عليهما كليهما فلتصرّح له . وكذلك إذا رأت أنه يتعذر عليه العيش سعيداً مع امرأته فلتصرّح له بطلاقها . والأولى أن يعمل بقاعدة التحكيم المنصوصة فى قوله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » .

أما الفوضى السائدة الآن فى الزواج والطلاق ، فضررها لا يخفى على أحد من المسلمين ، وهذا لا يرضى به عقلاء الأمة . يبيع الرجل ويشترى ويحلف ويمزح ، وبين ذلك تكون امرأته طالقاً بلا ذنب جنته ، ويكون هو مطلّقاً بلا إرادة فى الفراق . وحاشا للإسلام ثم حاشا للإسلام أن يكون قصده من الطلاق تبديد شمل الأسرة ، وتخريب البيوت العامرة .

الاقتراح التاسع

تعليم المرأة المصرية كل ما يلزم لجنسها من الصناعات الضرورية ، كالتفصيل والتطريز ، والقيام على تربية الأطفال والخدمة ، حتى لا تحتاج الوطنيات إلى غيرهن .

من الأجنبيات. ويلزم لذلك فتح مدرسة لتخريج هؤلاء الصانعات؛ لأننا فى شدّة الحاجة إليهن . وكيف ترضى أمة — وعددها اثنا عشر مليونا — بأن لا يكون فيها إلا النادر ممن يحكمن تفصيل ثوب لائق بعروس أو مترفة . أليس من العار أن نحتاج فى كل شىء إلى الأجانب ، حتى فى خدمة أنفسنا ؟ .

الاقتراح العاشر

منع النساء من المشى فى الجنازات بتة ، ومن الاجتماع للندب واللطم والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة التى لا وجود لها إلا فى مصر . وغير خافٍ أن النساء شديدات الانفعال والتأثر . فإن أطلق لهن العنان فى ملازمة هذه العادات خمدت نفوسهن وفسدت عزائمهن، ومرضت أجسامهن وعقولهن . فمن حسن النظر الابتعاد بهن عن مسلك الضرر .

وفى هذا المقام ألفت نظر المؤتمر إلى المشقات الهائلة التى يتجشمها المسلمون فى نقل موتاهم فى المدن الكبيرة كالقاهرة والاسكندرية ، مما يُلحق ضرراً بالمشيعين ويصدّهم عن حُب الاشتراك فى إحياء هذه السنّة ، وأحياناً بالميت نفسه ، إذا خارت عزائم حامليه من الحرّ الشديد والإعياء ، أو زلقت أرجلهم فى وقت الأمطار . فمثلاً تقوم جنازة من العباسية إلى مقبرة الإمام الشافعى ، فيلتزم المشيعون أن يمشوا هذه الأميال العديدة ويكلّ حاملو الأعواد . ويكفى أن يكون الاحتفال من بيت الميت إلى أقرب مسجد للصلاة . وبعد ذلك يوضع النعش على عربة تخصص لذلك، ويرجع المشيعون من بعد الصلاة ، ولا يسير مع الجنازة إلا أهل الميت وأخصاؤهم .

هذه عشرة اقتراحات أعرضها على المؤتمر المصرى الجليل ليرى رأيه فيها ، والسلام .

الكتابة العربية

رد على مقال انتقاد بقلم محمود سليمان

لماذا نكره -نحن المصريين- كل جديد ولو كان نافعا ، ولماذا يرمى كل مقترح عندنا بإحداث البدع قبل مايتثبت الناس من صحة دعواه أو خطئها ، لماذا نكره البدعة فى غير الدين، ولماذا لا يدوم التقليد إن كان فيه فلاح ، ولماذا نتسرع فى تسمية الحق ادعاء ، والمجاهرة بالفكرة ثرثرة . اللهم إن هو إلا الجمود الذى شلت منه أجسامنا وقعدت به هممنا ، عن أن نجارى الأمم الراقية الحية فى مضمار حياتها وتقدمها .

كيف محت الأديان السماوية عقائد الوثنية ، وكيف تكون المبادئ القومية ، وكيف قامت البيعات والحكومات ؟ لم يكن ذلك كله إلا بالدعوة . والجمهور مخير فى أن يجمع على رفض إحداها أو الأخذ بها ، وله الحق أن يختط لنفسه مايشاء من الخطط حسب ميله واقتناعه . وكيف تمحص الآراء ويمكث أنفعها ويذهب جفاؤها ، إذا جبن كل مفكر عن إبداء فكرته خيفة أن يرميه مخالفوه فيها بالثرثرة والادعاء ؟ .

ولماذا تسمى الفكرة الجديدة بدعة ، إذا عرضها مخالفك فى الرأى ، ولا تفكر أن فى الناس من يجرؤ على تسمية فكرتك أنت أيضاً بدعة، إذا كانت جديدة كذلك . وإذا رأى أحدهم تعليم الطفل أن حرف العين (ع) إنما سمى عينا لشبهه لرسم عين الإنسان فى تقوسها ، وأن الكسرة إنما سميت كذلك لأنها بوضعها تحت

الحرف تمثل قطعة انكسرت منه وسقطت تحته إلخ ، أفلا يجوز التوسع فى هذا المبدإ وتسمية الفتحة قطعة أخرى فرقعت من الحرف وطارت فوقه وهلم جرا .
وإذا سلمنا جدلاً بكل ذلك فكيف نعلل رسم الحروف الأخرى ؟ أنقول أن الجيم تشبه الجمل ، والحاء الحمار ، والخاء الخروف إلخ ، مع أن هذه الحروف الثلاثة فى حجم واحد ورسم واحد ؟ والفرق كبير بين حجم الحيوانات الدالة عليها وبينها وبين رسم تلك الحروف من جهة أخرى . وإذا كانت الجيم جملا ، فلماذا لاتكون جبلاً أو جعرانا مثلا ؟ ! أفلا يكون من التحكم والضغط بلا مسوغ على عقل الطفل أن نلزمه بقبول تشبيهاتنا ولا نجعله يشبهها هو من نفسه لنفسه ؟ ! وإذا تركنا للأطفال حرية تشبيه الحروف فلا يعلم ماذا تؤول إليه النتيجة ، وعلامَ تنتهى تسمية الحروف ! وإذاً تكون هذه الطريقة من أقبح البدع وأكبرها جرماً وأكثرها تشويشاً للأذهان ، وإن كان يقصد بها صاحبها محاربة بدعة على رأيه .

أما الألف التى تعودنا رسمها بعد واو الجماعة فليست إلا اصطلاحاً كتابياً جرى عليه من قبلنا فقلدناهم فيه ، فلماذا يكون تقليد القديم ممدوحاً والجديد مذموما ؟ وكذلك واو عمرو ماهى إلا اصطلاح يقصد به منع اللبس بين عمر وعمرو ، على أن هذين المثلين ماهما إلا حجة قوية فى تأييد التغيير الذى نطلبه ؛ لأنه لو أغنى رسمهما بغير شكل على النطق بهما صحيحين لما احتيج لزيادة الواو بأحدهما تمييزاً له عن الآخر ، أما إذا وضعت الحروف بدل الشكل فلا نقع فى خطأ البتة بينهما ولا بين غيرهما . وإذا كانت هناك نسبة بين العين وحرف (ع) فقد لانعثر على شبه نسبة بين أمثلة حضرة الرادّ فى قوله : « أن يعلم الطفل أن الفتحة من فتح الفم عند التألم ، وأن الضمة من ضم الشفتين عند مضايقة أحد

له فإن التعبير عن الألم يحتمل الضمة والفتحة ، ويحتمل كذلك الكلمات الدالة على الشعور بذلك الألم كأن تقول « أتألم أو أشعر بكذا » أو شيء من ذلك .. ولم يكن هذا المبحث الجليل من ادعائى حتى يتعالى رجالنا المتنورون عن البحث فى فكرة « امرأة » وإنما طرقه قبلى أئمة اللغة والدين العصريون ، وليس هو بالسهل حتى يقتصر على الكلام فيه اثنان أو ثلاثة ، وإنما هو من الجد بحيث يتطلب بحث جمهور اللغويين والمعلمين .

البنات والنساء المصريات ومزية التوفير

تربية الأخلاق المصرية ناقصة جداً من حيث وسائلها وأدواتها ، والقليل المتبع منها معوج مشوه ، لا رابطة بين أساليبه ولا نسبة بين المتخذ منها فى بلد وبين مثله فى البلد الآخر ، أو قل بين أسرة وأخرى فى البلد الواحد حتى أن التباين قد يكون على أشده بين بيتين متجاورين ، ومادامت الحال على ذلك المنوال فمن الصعب أن تنتج هذه الطريقة وحدة قومية ، أو أخلاقاً يمكن أن يبنى عليها أساس متين فى تكوين أمة بالمعنى الصحيح .

ومن الصعب كذلك أن يحكم الكاتب على مجموع الأمة ، وهذا الاختلاف الكلّى ظاهر بين طبقاتها وأشكالها ، ومن المتعذر أن يقيس أخلاقها وملكاتها بميزان واحد ، لأن ذلك الميزان المنشود لا وجود له فى برنامج التربية المصرية .

وماذوو الأخلاق الذين يظهرون أحياناً من بين الأجيال المصرية إلا أفراد تأصلت فيهم غرائز ثابتة لم تَقْوَ يَدُ الفوضى العائلية بمصر على إفسادها أو كانت نفوس أصحابها قوية الإحساس لدرجة أن هذه الفوضى نفسها ، أو ما ربما صادف طريق نشأة تلك النفوس ، من التجارب القاسية وما تكون أَلْقَتْهُ الحوادث فى أعماقها من المرارة التى لا تنسى ، ربما يكون كل ذلك أو بعضه دعم بنيانها وساعدها على التجلى بأقوى مظاهرها ، وهذا (أى عدم وجود ميزان عام للتربية المصرية) هو السبب فى قلة رجال الإصلاح والأخلاق بمصر ، وفى بُعد الفترة بين اختفاء أحدهم وظهور الآخر ، ولا عبرة بنبوغ بعض الأذكياء فى علم ما ، فإنما المراد هنا نبوغ الأخلاق لا العلوم ، فضلاً عن أن نبوغ العلم هذا قليل جداً بالنسبة

لذكاء المصريين الطبيعى ، وتفوقهم فيه على كثير من الأمم التى فاتتهم بمراحل فى ذلك النبوغ . وعندى أن علة العلل وسبب الانحطاط حتى فى العلم هى ولاشك فوضى الأخلاق ، لأن من لم تترب فيه الهمة ، وفضيلة المثابرة ، لايستطيع أن يتم عملاً شاقاً ولا يكفيه الذكاء ولا العلم وحدهما لأن ينبغ . وكم فى مصر وفى الشرق عموماً من العلماء الخاملين ، الذين لو كانت أخلاقهم ناضجة ومشاربهم متحدة لأمكنهم أن ينتشلوه من وهدته العميقة ، ولأسسوا له فى قليل من الزمن مجداً أثيلاً كالذى أسسته اليابان أو كالذى شادته ألمانيا فى ثلث قرن من السنين .

وعلى المرأة يتوقف تنفيذ أهم المواد فى ذلك البرنامج ، لأنها هى التى تتولى تكييف طباع الطفل ، وهى قدوته إلى حين ، وما دامت المرأة المصرية على ما نعهد من الجهل والتأخر ، فكيف يتسنى لها أن تخلص تربيتها لطفلها من الشوائب والأدران . وللعادات والمؤثرات الأخرى ، كالمعتقدات والوسط والمدرسة ، سلطان كبير على النفوس ، وهذه كلها بمصر على درجات متفاوتة من الانحطاط . فالطفل الذى يشب والتمائم تثقل عاتقه والخرزة الزرقاء معلقة (بالفاسوخ) على جبهته لا يسعه وهو رجل إلا أن يقبل عتبات الأضرحة ويذر من تراب أرضها على رأسه تبركا وأن يعتقد بالخرافات والسحر وتأثيرهما فى شفاء الأمراض بلاطبيب ولا دواء . ألا تدرك من المرأة والرجل الأوروبى الذى قد يكون وحده فى بيته ، أو غريباً فى نزل أو مسافرا فى باخرة ، ألا تدرك منه معنى احتفاظه بالسعادة وتأديته للواجب من تحتيمه على نفسه اتباع عادة قومه فى تغيير ثياب النهار بنوع خاص منها على العشاء ، وإذا علمت كيف يحتفظون بعاداتهم ويؤدون واجباتهم من أنفسهم بلا رهبة أو توقع عقاب ، فلا تحسب أن ما سادوا به الأمم وبزوها به فى التقدم كان لساستهم وحكومتهم فقط ، بل لأخلاق الشعب فضل كبير فيه .

إذا عرفنا أن الأخلاق لا يلتفت لتكوينها فى تربية الطفل المصرى، وأن العادات المصرية تبعث على التبذير والإسراف— لم تستغرب أن ملكة الاقتصاد لا أثر لها بيننا إلا فى بعض الطبقات التى تضطرها إليها الحاجة اضطرارا ، وأن الاقتصاد بمعناه الحقيقى إذا وجد عند أسرة، وربما تعدى معناه عندهم إلى التقتير، فربما ينفقون المتجمع على عرس أو مأتم أو ختان أو كما يقول المثل العامى (ماتعمله النملة فى سنة يدوسه الجمل فى يوم) . ولكن لخصب مصر الزائد ولتيسر العيش فيها إلى درجة متناهية ، ولاعتدال جوها وإقليمها بعض الذنب فى ذلك . لأن الغنى الذى يضمن أن ما ينفقه السنة أوما يقترضه سيسده من محصول السنة المقبلة ، والفقير الذى يستطيع أن يتأدم كراثا بعشرة (خردة) ويضمن أنه من التسول لن يمسى طاوياً ، والعارى الذى لا يقرصه برد الشتاء ولا يلذعه حر الصيف ، وصاحب (الُخص) الذى لا يحسب به حسابا للعواصف ، وذا البيت المتهدم الذى لا يخشى الزلازل المخربة ، كل هؤلاء جعلهم أمنهم من أفاعيل الطبيعة العنيفة واستغناؤهم عن اتخاذ وسائل الحيطة والحذر بحيث أصبحوا شديدى الاتكال قليلى التبصر والحساب للمستقبل .

وسأتكلم الآن عن درجة ميل البنت المصرية للاقتصاد مقسمة البحث بحسب الطبقات والسن معتمدة فى ذلك على مشاهداتى وأبحاثى الخاصة لصعوبة وجود مقياس واحد للتربية عندنا كما بينت فى أول المقال .

البنت المصرية المتحضرة على العموم لا تميل للاقتصاد ولا تفهم له معنى واضحا ولا يفهمها أهلها إياه . يدلك على ذلك منتهى إسراف الطفلة فى التافة والمضر كـ(اللب) والحلوى التى يظل الذباب عاكفا عليها . وشراؤها (الزمامير) التى تنفقع بمجرد النفخ فيها ، ومع كثرة تجربتها لهذه الأشياء يوميا فهى ماتنفك

تشتريها كلما حصلت على نقود ، وكان ينبغي أن يدلها عقلها الصغير ، إذا كانت تريد مجرد اللعب أو تتلذذ بصوت الزمارة فقط ولا تعمد إلى التكسير والإتلاف ، أن تشتري من الصنف المتين الذي يتحمل الضغط والنفخ ، وأن تستغني عن (اللب) والحمص مرة إذا كانت شبعى أو كانت اشترت منها مرة سابقة أو مرتين في نفس اليوم . أما اللعب والهدايا التي تجلب لهؤلاء الأطفال فقلما تبقى سليمة أكثر من يوم أو يومين ، لأنهن يعمدن لكسرها لا بطبيعة حب البحث والاستقراء الطبيعي، ولكن بنسبة التبذير والإتلاف الطبيعيين فيهن لسوء طريقة تربيتهن كما أوضحت ؛ أما ملابسهن فإنهن يعبثن بها ويمزقنها عمداً ليشترى لهن أهلهن جديداً غيرها . وتظل البنت المصرية على هذا النحو السيء من الإسراف وعدم الاكتراث إلى أن تكبر فينبت فيها العقل إذ ذاك وربما هداها ولو قليلاً إلى سبيل التدبير والاقتصاد .

على أن اقتصادها هذا ناقص لاقتصاره على نوع واحد وهو (الجهاز) مع أن ذلك النوع الواحد هو في نفسه أيضاً ناقص ، لأنها تدخر مواد قابلة للتلف والعطب والبقاء ؛ مثال ذلك أنها تجهز الأقمشة البيضاء (الأقمصة وغيرها) وتتفنن في تزويقها وزخرفتها فتكلفها أموالاً باهظة وتزعم أنها توفرها اختلاساً من وقت الفراغ واقتصادا من كثرة الطلبات قبيل العرس ، ولكن بعد مضي سنتين أو أكثر ، وقد رأيت أمثلة كثيرة لذلك ، ربما تسمن صاحبة (الجهاز) أو تهزل فلا ينفعها ، فضلاً عن أن القماش يتلف من طول مكثه بلا غسل وربما أكله العث إذا كان يحتوي شيئاً من الصوف ، وإذا تكرر غسله ذهبت جدته وصار قديما ولو لم يلبس . ومن الفتيات من تشتري النحاس أو القطن المطلوب للتنجيد وتحفظه كذلك للعرس ، ولكن القطن مهما احتفظ به يصيبه

الغبار أو الرطوبة فيتلف ، وكذلك النحاس إما أن يصدأ والصدأ يأكله ، أو يتلوى بالنقل من حجرة لأخرى أو من منزل لآخر أو من بلدة لبلدة (إذا كانت الفتاة ابنة أحد الموظفين المتنقلين ، أو تزوجت فى بلدة غير التى جهزت نفسها بها) فترى أنه فضلاً عن تلف هذه المواد فى نفسها فإنها تكلف صاحبها أجرة النقل ومؤونة الحمل ، وتعطل من المنزل حجرة أو محلاً كان يمكن الانتفاع به أو الاستغناء عنه كلية ، وعن أجرته كذلك . وقد رأيت فتاة تجمع الروائح المطرية كلما أمكنها ذلك توفيراً من مصروفها، لكن فاتها أن هذه الروائح كلما قدمت طار العنصر الزكى فيها تبخرا ، وبقى الماء أو الكحول بلاجدوى، وقد توفيت هذه الفتاة لسوء حظها قبل أن تتطيب بشىء مما ادخرته ، فالادخار بهذا الشكل وإن كانت وجهته الاقتصاد ليس مأموناً وربما لا ينفع فيما بعد لتغير الأحوال وتباين الأشكال وطروء الحوادث والعلل كل يوم ، ولو اقتصرت المدخره على توفير ثمن ماتدخره لوجدته عند طلبه ولاشترت به ماتريده جديدا موافقا، فضلا عن أن النقود المدخرة تزيد بالتجارة ونحوها، وإن لم تزد فلن تتلف، وإذا لم تستخدم (للجهاز) إذ ربما لا تجد الفتاة زوجا كفئا فتفضل العنوس أو ربما تزوجت ودخلت بيتا مفروشا لا حاجة به إلى قطنها ونحاسها ، فإذا أتت بهما كانا زائدين ، وإن باعتهما خسرت فيهما . أقول إذا لم تستخدم النقود المدخرة حين ذاك للجهاز فتنفع لغيره من الأغراض الكثيرة النافعة .

الفتيات بمصر أكثر نسائها إسرافا وجهلا بطرق صرف المال ، حتى إن كثيرات منهن يبددن ما تركه لهن الآباء وتتراكم على أكثرهن الديون وكله ضائع فى الأزياء ومالا يجدى ، وهذه الطبقة لا يرجى منها خير إلا إذا تربت التربية الصحيحة وهى بعيدة جداً عن (السرايات) الموكول أمرها للخدم والأتباع ممن فسدت أخلاقهم وساءت سيرهم وسرائرهم . وبنات هذه الطبقة أعدى من الجرب

لأن سائر بنات الطبقات الأخرى لاهمّ لهن إلا تقليدها فى البذخ والفخفخة . ولم أرَ بين كثيرات من بنات الأغنياء من وفرت شيئا للمستقبل ، اللهم إلا إن كان وسادة مطرزة أو محفظة مخرمة ممالا يتعدى الكماليات فى (جهاز) العرائس. ومما تكون طلبت ثمنه من أهلها ، إن لم يكن مرة فالضعف أو الضعفين . أما بنات الفقراء ومن كانت فى عاهة من بنات الأوساط فيملن إلى الاقتصاد عن طرق مختلفة ومنازع متباينة، فبعضهن يشترى قطعة صغيرة من المصوغات الذهبية فأخرى ، إلى أن تجمع منها مقداراً كافيا فتبيعه لتشترى به أساور وتعدها كرأس مال لها ، ومنهن من تشترى به دكانا أو منزلاً أو أرضاً للبناء ، وقلّما تميل لشراء الأراضى الزراعية منهن إلا من كانت فى قرية مع أن استثمار الأرض الزراعية أغزر وأضمن؛ إذ لا تحتاج لكبير نفقة كالبناء الذى يتطلب الأصلاح من آن لآخر ، أو يظل شهورا بلا مؤجر، أو يستدعى الهدم والتجديد إذا تداعى أو طالت مدته . ولكن العادة لها ظل كبير عليهن فى ذلك الاقتصاد ، وقصر حساب الشرقيين واتكالهم يتخللان كل عظيمة وحقيرة من الأمور .

هذه حالة بنات المدن على الإطلاق ، أما القرويات فإنهن أصبر على الاقتصاد وأرغب فيه من أخواتهن المدنيات ، فضلا عن أنهن يستثمرن مايدخرنه بالتجارة أو بالتكاثر النوعى ، فيشترين مثلاً الغنم والسائمة ، وسرعان ماتتزايد هذه بالتناسل فيبعنها ويشترين أنعاما أكبر منها وأنفع أو عقارا . والمتوسطات منهن والغنيات أيضا ، لاينفرن من الاقتصاد ولا يعدونه حطة كمثيلاتهن من بنات المدن ، ولعل بُعدهن عن الملاهى ، وانزواءهن جانبا عن المدنية والمتمدينات وقلة المصروف المستهلك فى القرى بطبيعة الحال ، لخلوها من مستدعيات النفقة الكثيرة كأجر المساكن وأجر النقل وثمن المآكل والفلال وغير ذلك ، لعل كل هذا مما يصرف أذهانهن إلى ضرورة توفير الزائد عن حاجتهن والانتفاع به ، ولولا تمكن عادات

الفخفخة والخرافات فى جميع الطبقات المصرية على السواء لتيسرت لهؤلاء القرويات سبيل الإثراء باقتصادهن . ولكن الأعراس والمآتم ونذور الأولياء تبدد بالشمال ما تجمعه المقتصدة باليمين .

وخلاصة البحث فى هذا الموضوع أن بنت المدن المصرية غير ميالة للاقتصاد لا بطبعها ولكن بتأثير العادات والوسط ، ولأنها لا تعلم الاقتصاد فى تربيتها سواء أكانت جاهلة أم متعلمة ، وإن التبذير ليظهر فيها طفلة ويافعة ، وقد تقتصدوهى شابة لجهاز عرسها فقط اقتصادا ناقصا كما أوضحت ، وهى معذورة فيه لأنها إنما يدلها إليه ميلها الغريزى ، ولا ترى من أمثلته ولا من لوازمه شيئاً يهديها الصراط المستقيم .

أما الأسر الراقية ، وهى قليلة بالنسبة للمجموع ، فيظهر على بناتها أثر الاقتصاد فى لبسهن فلا يكثرن من الزخارف ولا يلوثن ثيابهن ؛ وقد يحتفظن بلعبهن كذلك ولكن قلما سمعت أن إحدى بنات هاته الأسر وفّرت نقودا من مصروفها . وأظنهن لا يفهمن من الترتيب والنظافة إلا أنها إحدى معانى الزهو والعظمة ، ولا يوجهنها لمعنى الاقتصاد . أما الفلاحة فإنها مقتصدة بطبيعة الحال لهدوء القرى وقلة الحاجة فيها إلى النفقة الكبيرة . وكذلك فقيرة المدن قد تضطرها الحاجة فى المستقبل إلى التوفير ، وإن كان حسابها قصير الأمد ، وهذه حال يؤسف لها لأن الفتاة التى لم تتعود الاقتصاد منذ نشأتها يتعذر عليها أن تعمل به وهى ربة بيت وأم ، فتسوء حال بيتها من الإسراف ، وينشأ أطفالها كما نشأت هى ؛ ولا يجد الزوج — إن قصر — إلى هنائه سبيلا .

والعلة الشائعة فى مصر عند كل الطبقات هى ما يسمونه (بالمصروف اليومى) الذى يعطى للأطفال وهم فى غنى عنه ، وإذا قرره لهم الأب مرة فى كل يوم ، فإن

الأم بحنانها الممزوج بالجهل تعطيهم إياه مرارا خلسة من أبيهم ، فيتعلمون من ذلك التبذير؛ لأنهم يتصورون أن هذا القرش الذى يطرحونه كل مطرح ولا يراقبهم أهلهم فى كيفية صرفه لا أهمية له ، وأنه كما هو زائد عن حاجتهم فهو كذلك زائد عن حاجة والديهم، وقد لا يكون كذلك ، لأن الوالدين إنما يعطيان تدليلا للطفل وإرضاء ، وقد يكون ألزم لهما منه لطفلهما .

والدواء أن تعطى قروش الأسبوع متجمعة ، كى يفهم الطفل أن المتجمع من القليل يصير كثيراً ، ثم هو قد يستكثر المبلغ المتجمع على التضييع مرة واحدة ، وعند إعطائه النقود يجب أن يعود الاقتصاد بتفهيمه أن يصرف جزءا منه ويوفر الباقى ليشترى به شيئاً مما يلزم حينما يكفى المبلغ لذلك . ولكى يتوفر ذلك المصروف يجب أن تشترى بالمنزل جميع لوازم الطفل من حلوى وفاكهة وغيرها ، ويجب حرمانه من ذلك المصروف الأسبوعى الجديد ، إذا هو بدد مصروف الأسبوع الفائت ، فيتعلم بذلك أن يقتصد . وأما من جهة ملابسه فليفهم أن العدد الذى يجلبه له والده لفصل ما من فصول السنة يجب أن يكفيه بقيّة ذلك الفصل . فإذا مزق جلبابا أولوثه بالحبر أو غيره ، فيحكم عليه بلبسه حينما يكون أخوته ورفقاؤه فى ملابس جديدة ، فيشعر من نقصه عنهم وازدرائهم له مرة بخطئه ، ويحافظ على ملابسه بعد ذلك . وإذا فكر الوالدان فى إهداء ابنتهما شيئاً على عيدٍ مثلاً أو كافآها على اجتهاد فليهدياها بين مرة وأخرى سهما فى (بنك) أو شيئاً ذا غلة فذلك خير من أن يعطياها كل مرة نقودا تبددها أو ملابس أو لعبا تمزقها أو مصوغات تضيعها فتفهم من هذه الأمثلة الحية ما يشجعها على الاقتصاد .

هذا وأمثاله ما يمكن الأم عمله لتعويد ابنتها الاقتصاد . أما المدرسة فلا تملك من أمر الفتيات ولا من (مصروفهن) شيئا ، ولذلك فهى قليلة التأثير عليهن فى هذا الباب ، وإذا أعطت الفتيات دروسا فى الاقتصاد فقد تحسن ، إلا أنها على أى

حال الخطوة الثانية بعد البيت فى رسوخ آثار التربية لأن الأصل فى التربية أن يكون منذ النشأة الأولى ، وصعب على المربى أن يغير طباع طفل فى السابعة من عمره لأنها تكاد تكون ثابتة ؛ أذكر أن إدارة البريد بعثت إلى المدارس مرة عن مشروع صناديق التوفير ، و بعثت إلى مدرسة بنات عنه أيضاً فطفقت الناظرة والمعلمات يشرحن للبنات فائدته على غير جدوى ، لأن من جاءت بشىء إرضاء لمعلماتها وناظراتها فقط إنما أخذته من أهلها متجمعا لهذا الغرض ولم توفر شيئاً ، وكن يسألن بين حين وآخر عن معنى تلك الصناديق ، وقد استرددن ما دفعنه بعد وضعه بقليل ، فما أبعد هذا عن الاقتصاد الحقيقى ، ثم انقطع الاشتراك فى تلك الصناديق مرة واحدة . وعليه فان تفيد تنبيهات المدرسة ودروسها ما لم تكن التربية مؤسسة ثابتة من البيت . ولو أن المدرسة سيطرت على مصروف التلميذات وحاسبتهن عليه (ويكون ذلك بإذن من أهلهن) لأمكنها بذلك أن تبث فيهن شيئا من الغرض المطلوب ، ولكن ذلك لن يؤثر إلا وقتياً ما لم يكن مؤسساً وثابتا من مدرسة البيت .

هذا ما تستطيع المدرسة عمله لتشجيع الطالبات على التوفير ، وأكبر هذه المدارس أثراً فى تربية البنات هى الحكومة . وأما سؤال حضرة السائل عن (واجبات الحكومة التى يمكنها عملها لتسهيل وتشجيع الطالبات على التوفير) فأظن أن الحكومة لا يمكنها السيطرة على حرية البنات وأخلاقهن خارجاً عن القانون العام مهما حاولت ذلك ، ولا يعيبنا أكثر من اتكالنا على الحكومة فى كل أمورنا . ولا تظهر التبعية الملاصقة للحكومة إلا فى الموظفات كالمعلمات والناظرات والطبيبات ومن كانت منهن فى عداد الموظفين الثابتين (التملى) فإن ما تقطعه الحكومة منها ليحتسب معاشاً فى المستقبل هو خير مثال يعلمها التوفير لزمن الكبر

أو المرض ، على أن عادتنا لا نسمح بأن تظل الفتاة بلا زواج إلى أن يدركها الهرم . على أن الحكومة تعطى المعلمات اللاتى يتركن المدرسة للتأهل المكافأة التى كلفت بقطعها منهن أثناء تأديتهن الوظيفة ، وقلما كثرتن لتلك المكافأة لضآلتها تبعاً لقصر مدة توظفهن ؛ ولولا أن ذلك القطع أو التوفير من القوانين التى لا يمكن إلا اتباعها لما وافقن عليه حسبما شاهدت ذلك بنفسى .

هذا ما أعلمه عن حالة الفتيات المختلفة بالنسبة لحب التوفير والاقتصاد، أما ما أعرفه عن درجة النساء فى ذلك فهو كما يلى بترتيب الجواب حسب تقسيم السؤال : الأيم (العازبة) تميل للتوفير أكثر من المتزوجة لأنها فى غالب الأحيان تعول نفسها أو يعولها أقاربها ، وهى على ذلك تحسب أنها عالة عليهم فتقلل من طلباتها ما استطاعت كيلا تضايقهم وتدخر من بين ذلك القليل ما أمكنها استعداداً لزواج جديد وإن كانت يئست منه فللمستقبل . وأكثر الأيامى (العازبات) يبعن مصوغاتهن ليشترين بها عقاراً يتعيشن منه ، والأيم (العازبة) لانفرادها أو لكثرة من يعولهم عائلها تعتمد على نفسها فى مصروفها ؛ فالتجربة هنا أرشد معلم، والليل والنهار كفيلان بتأديب من لا مؤدب له .

أما المتزوجة فإنها تتكل على زوجها وتصرف بعزم آكد من عزم الأيم (العازبة) على كل حال . وإذا استثنينا نساء الطبقة الغنية ومن يحذو حذوهن فإن المرأة حينما تتزوج تضع نصب عينيها أن تقتصد . والغالب أن كل فتاة تزوجت فعلت ذلك، فإن حادت عنه فيما بعد كان الذنب على الرجل فى تحويلها عن مبدئها لا عليها ، وهذا من الغرابة بمكان ، إذ كيف يكون الرجل أول راغب فى الاقتصاد ثم يكون هو الباعث لامرأته على الإسراف . نعم إذا شعرت المرأة بأن ما تقتصده من لوازمها ينفقه الرجل فى ملذاته بعيداً عنها أو يحرمها من شىء هو من ثمار تعبها ، فإنها

ولا شك ترجع عن طريقة التوفير ، مفضلة أن تنال هى الأخرى قسطها مما زرعته على أن يحصده الرجل ليبعثره على نساء أخر أو فى الهواء . ويدلنا على صحة هذه النظرية أن المرأة التى تعيش وحدها فى منزلها ، أى لا تشاركها فيه ضرة أو عائلة زوجها ، أعظم تدبيراً ممن بليت بالضرة أو ازدحمت عليها المشاركات من أقارب الزوج وقريباته ، لأنها فى تلك الحالة أى حالة انفرادها تعلم أن ماتوفره هو لها ولأولادها ، ولا يفسد نيتها هذه إلا اعتقادها أن تعبها ضائع سدى وأنها تحرم نفسها التمتع بنعمة يدوسها الغير تحت إخمصيه .

ولاحترام الرجل زوجه وجعلها تشعر بكرامتها وتودده لها ، تأثير كبير فى ذلك فإنها تعمل حينئذ لإرضائه وتوفير أسباب راحته وسعادته وتعد نفسها شريكة له بحق ، وتقدر الرابطة الزوجية كما يجب . أما شذوذ النساء وشراستهن فالأغلب فيهما احتقار الرجل لهن ومعاملتهن كأنهن كمية مهملة وفتح باب الغيرة لهن . وإذا ما تسلط على المرأة هذا الشيطان أسرفت وغلت فى الإسراف ، أو وفرت ما توفر لنفسها خلسة من الرجل وفى ذلك من الغش والخداع ما لا ينطبق على الكرامة الشخصية ولا الحياة الزوجية . ولو أدرك الرجال خطأهم فى هذه المعاملة وبعدهم فيها عن معنى المودة والرحمة والسكن إلى أزواجهم لما تمادوا فى اتباعها . ولايزال اعتبار كل واحد من الزوجين نفسه غريبا عن الآخر أثراً لاستبداد الرجل وتحكمه وسوء معاملته لزوجه وشعورها من ذلك أنها ناقصة الكرامة فى عينيه بعيدة عن قلبه بعد السعادة التى بنت عليها آمالها فى التزوج به مما وجدته بعد الزواج .

أما الطرق التى تحبب للطالبة الاقتصاد والاشتراك فى صناديق التوفير فهى أن ترى من آثار تلك الصناديق ما يجعلها تود لونالت مثله ، وسهولة الاشتراك فيها . ولو كان بكل مدرسة ما يلزم لذلك الاشتراك من أوراق البريد والقسائم

المعدة لها لأمكن الطالبات أن يضعن ما يوفرنه على قلته ، أما وهن يجب أن يشترين تلك القسائم والأوراق من مكاتب البريد (البوستة) العمومية أو يرسلن خادماً لشرائها فقد يجدن فى ذلك كلفة تنفرهن من المشروع ، ولو وزعت كل مدرسة قسيمة من قسائم التوفير على كل طالبة ، وجعلت المعلمات يشرحن للتلميذات كيفية التوفير ، وكلفت هؤلاء المعلمات شراء طوابع البريد اللازمة وجعلها معدة للتلميذات يأخذن منها بقدر ما يضعن من القروش ، لكفى ذلك لإقبال الطالبات على هذا المشروع ، بعد أن تشرحه لهن المعلمة شرحاً وافياً بين حين وآخر ليتعودن التوفير وتنمو فيهن ملكة الاقتصاد ، والله الهادى إلى أقوم السبيل .

اقتراح على السائحات الأجنبيات

ضرر التراجمة الجهلاء

زارتني إحدى السائحات الإنكليزيات على غير معرفة سابقة بيني وبينها، وبعد التحية وديباجة الحديث من سؤال عن الجو واستفهام عن الصحة وشكر على المقابلة وغير ذلك مما يعرفه من يقابل غريباً أول مرة، فتح علينا بالكلام واشتبك أوله بآخره حتى لم تكد تنقطع سلسلته. وقد دار الحديث عن مصر طبعاً، وعما فيها من الآثار، ثم انتقل عن أهلها وعوائدهم وعن نسائها بالأخص، فاستفهمت السائحة عن تعدد الزوجات وعددهن، وقد قالت لى قولا غريبا جعلني ألعن التراجمة وجهلهم، ومما يجرون على الشرق والإسلام من العيوب الفاضحة.

روت السيدة أنها بينما كانت جالسة على شرفة نزل شبرد مع بعض رفيقاتها من السائحات أيضاً، إذ رأين جنازة تسير وخلف النعش ثلاث عربات (كارو) ملأى بالنساء العاميات يصحن ويولولن، فاستغربن المشهد ولم تكن لهن بمثله عادة من قبل، فسألن أحد التراجمة عن أولئك النسوة فأجابهن بجواب، لا أعرف أعن سوء استعمال اللغة المتحادث بها أم هن لم يفهمن ما يريد، أم خلص نفسه من ضيق السؤال بما سهل عليه بلفظة نعم. سألنه وفهمن منه أن أولئك اللاتى تعولن خلف الميت هن كلهن زوجاته. فيا لله من التراجمة!!

وهؤلاء الإفرنج عندهم صورة ممسوخة عنا، فليس ببعيد عليهم أن يصدقوا مثل تلك الخرافة، خصوصاً أنهم يكتبون ما يسمعون ويصدقون ما يقرأون من مؤلفات بني جنسهم.

وأقترح على السائحات أن يقصدن المتعلمين والمتعلمات يستفهمن عما يردن معرفته ، فيقفن على الحقائق لا مشوهة ولا مشوبة ، ولا يفهمن أن اختلاطهن بنا تطفل ، فإننا أكرم أخلاقاً وأرحب صدراً من أن نعدالبحث تطفلا . وأضرع إلى المتنورين من الوطنيين والوطنيات أن لا يبخلوا على ناشدى الحقيقة بمعرفتها ، وأنصح للتراجمة أن يقولوا لا أدرى عندما يسألون عما لا يعرفون ، فإن العيّ خير من الكلام بالباطل ، ومن قال لا أدرى فقد أفتى والسلام .

رأى فى الزواج

(وشكوى النساء منه)

رد على ما كتبه حضرة الأستاذ أحمد لطفى السيد مدير الجريدة فى العدد ٣٨٣ بعنوان « بناتنا وأبناؤنا » .

كتبتم حضرتكم فى العدد (٣٨٣) من الجريدة مقالة بعنوان « بناتنا وأبناؤنا » تستغربون فيها كثرة تشكى النساء من الزواج فى هذا العصر مع قلة تزوج الرجل باثنتين ، وقلتم فيها أقوالاً صائبة كلها حقيقية ، ولكنكم عجبتم من أن المرأة كان يرضيها من زوجها أن يعدل بينها و بين ضرائرها فى الكسوة والمعاملة ، وأنها إذا تزوج عليها كان يمنعها الوقار غالباً من أن تفتح قلبها بالشكوى إليه أو إلى ذوى قرابة منها بما تجده من الألم . نعم ذلك صحيح لاريب فيه ، ولكن له أسباباً أنتجت تلك النتائج : أولها أن الفتاة كانت إذا شبت وجدت والدتها تعيش مع ضرة أو أكثر ورأت خالتها وعمتها على تلك الحال وكذلك صويحباتها ومعارفها فلم يكن ذلك بالشىء الغريب : فإذا جاء دورها وتزوجت من رجل له زوجة أخرى وجدت أنه لم يخرج عن المألوف ، وأنه تابع لعادة أهل عصره ومصره ، فلم يكن يحسن بها إذن أن تبدى شكواها من أمر عادى يأتيه كثير غير زوجها ، ولو أنه يؤلمها فى قلبها ويجرح عواطفها . وكذلك كانت التربية غير مانراها اليوم ، فبنات العصر الحالى ، حتى الجاهلات منهن ، يفهمن الحياة أكثر من أمثالهن الغابرات فأصبحن لاترضيهن الكسوة والطعام فقط كأحد خدم المنزل ولكنهن يقدرن اليوم السعادة الزوجية أكثر من ذى قبل و يعلمن أنه إذا لم يكن الحب أساس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما يتنافران و يتشاحنان كأمثال الديكة الخرق . ومن اختلاف التربيتين القديمة والحديثة صفاء النفس

والمجاهرة بالقول والحرية فيه الآن والخوف وشدة التـكتم حتى على مضض العيش وذله قبل،حتى إن المرأة فى زمن جداتنا كانت إذا أصابها ألم أو مرض تبالغ فى كتمانه وتعد المرض أياً كان نوعه عيباً تجب مداراته؛ ولـكن المرأة الجديدة على عكس ذلك تماماً، إذ ترى أن كل شيء من هذا القبيل عادى، وأن ما يصيبها قد يصيب غيرها فلا معنى لإخفاء أمر يصح أن يقع فيه الجميع . ولا يزال أثر هذا التباين فى الحذر مشاهداً للآن ويكاد يكون محسوساً بين طبقة (بنات البلد) إذ تعد الواحدة منهن من النقص أن تخبر زوجها بصداع قد يصيبها ، أو تتوهم أنه يأنف منها ويعافها إذا وجدها راقدة فى سرير الألم والوعكة . لا يزال التباين بين هؤلاء وبين الطبقة الجديدة (الألفرنكه) محسوساً وهؤلاء لا يكتمن إلا مايجب كتمانه على الوجه الصحيح . هذا كله راجع إلى تربية الوجدان واختلاف تلك التربية باختلاف الوسط والزمان . هذا من جهة المرأة وحدها . وهناك سبب لـكثرة الخلاف والتذمر الآن يرجع إلى الرجل وحده ، وإليك البيان : رجال الأمس على جمعهم بين زوجات متعددات كانوا أتقى منهم اليوم ، فرجل العصر (الشاب والـكهل) تراه يتبجح بأن له خليلات وأنه بجماله ورشاقة قده واهتزاز أعطافه يسبى ربات الحجال بما فيهن المحصنات ، وقد يتقول حكايات لاأصل لها فى هذا الموضوع مماتندى له الجباه . ولعمرى إن الجمع بين زوجتين على ما فيه لأحسن من التهتك وانتهاك حرمة الدين وإيلام نفس المرأة وتنغيص حياتها . يالله!! أليس لها قلب يتأثر وشعور يحس وعواطف تثور ؟! وقد أصبح رجالنا بفضل هذا التفرنج يعدون من لا يشرب الخمر جهاراً ومن لا خليلة له يترامى على قدميها أو تترامى على قدميه (أنتيكة) فى عرفهم ، فلله درهم !!

والأغرب من ذلك أنك إذا ذكرت للشاب أو أبيه شيئاً مما يأتيه أجابك هذه هى الحرية الشخصية (على كيفى) أو قال أنا رجل وليس علىّ عار فى هذا فلله

أنت ولله أبوك !! ائتنى بآية من القرآن ، أو إن كان القرآن عندك أيضاً (أنتيكة) فائتنى بمادة من القانون الفرنسى الذى تقلد واضعيه وأهله تحرم التهتك على النساء دون الرجال وتجيز للآخرين الرذيلة وتمنعه الأول . إذا صح عندكم إباحة السفاح لأنفسكم فأسهل منه وحقكم أن نجيز لكم السرقة بأنواعها والقتل والسلب والتزوير إلى آخر ما يحرمه الشرع والقانون ، وإلا فلماذا تختارون أكبر الرذائل وتعدونها سهلة لا إثم فيها وتأنفون إذا قلنا لكم : سرقتم .

لا إخالكم تتشدقون بقولكم عند النصح (إنّا رجال) إلا لأنه لا تظهر عليكم عوارض الخيانة بخلاف المرأة والفتاة فلهما من أحوالها الطبيعية المختصة بهما مالا يأمنان معه شر الفضيحة والعار ، فإن زعمتم أن التقوى هى خوف النتيجة المحسوسة، وأن الذمة والضمير لا يردعان ولا يمنعان المرء من إتيان المعاصى ، فبعداً لما تزعمون وساء ما تتوهمون !!

وليت هذا السلوك القاصم لروابط الألفة بين الزوجين يقف عند هذا الحد ، بل له عواقب أوخم من التذمر وأسوأ من البغض وهى شطط المرأة بباعث الانفعال والحزن أو الانتقام ، والخبث وخروجها متبرجة فى الطرقات أو وقوعها فى مهواة الرذيلة وسقوطها السقوط الأبدى والعياذ بالله . وفى تلك الحال يلام الرجل لأنه شجعها على ما أتته بما يأتيه هو ، وهى تعتقد أنها بشر مثله ويحق لها من الحرية الشخصية بقدر ما يحق له فضلا عن اعتقادها بأنه قدوتها . يبعث ظلم الرجال وسوء سيرتهم النساء إلى السقوط فى الرذيلة فيسقطن إلا من عصم ربك ، وهؤلاء تمنعهن تربيتهن الصحيحة وشرف مبادئهن عن الإخلال بالدين والآداب ولكن يصبن فى الغالب بحمى لدماغ أو الهستريا والجنون أحياناً وتكثر همومهن ويعدمْن لذة العيش ، فيا للظلم . لماذا يشقى عضو من المجتمع الإنسانى خلقه الله ليكون سعيداً ؟! يشقى لاستبداد الرجل ويضحى حياته ليتنعم الرجل ! فإذا أردتم أيها الرجال أن ترفرف السعادة على بيوتكم فاختاروا الزوجة الملائمة كل بحسب

ما يرى إذ (لكل امرئ فيما يحاول مذهب)، ولا تقيدوا أنفسكم بأفكار العجائز والمشيرين، ثم اسلكوا سبيل الجد فى الحياة فقد كفاكم هزلاً أن استعبدنا الغير ونحن لاهون، واجعلوا من أنفسكم صراطاً تتبعه زوجاتكم. فإن كنت أيها الرجل عاقلا فلتكن زوجتك مثلك، وإن كنت خليعاً فامرأتك خليعة، و إن أسرفت أسرفتْ، وإن قترت قترت، وهذا بحكم تأثير المعاشرة فى الخلق والعادة بالطبع ولإرضاء الزوج من جهة أخرى، لأن كلنا يعلم أن الملاءمة هى أس الاتفاق. فإذا اجتمع عاقل بمجنون شقى والعكس بالعكس، فترى العقلاء معاً فرحين والمجانين معاً على أتم ما يكون من الجذل، وكذلك الحال فى العلماء والجهال وكل شىء له نقيض، فإن الثعالب لا تتفق مع الدجاج، الجرذ لا يتوقع أن يكون أليفه الهر.

وفى المرأة صفة غريزية هى تقليدها الرجل لأنها تعتقده مرشدها ومعينها أباً وزوجا. وقد ذكرنى ذلك بمحادثة دارت بينى وبين سيدة انكليزية من صواحب اللادى كرومر أيام إقامتها بمصر، فسألت تلك السيدة: « إنى ألاحظ أن اللادى تترك التأنق فى ملبسها شيئاً فشيئاً، فهل تعرفين سبباً لذلك »؟ فأجابت: « إنها تتعمده لتكون هيئتها أقرب إلى التقدم فى السن منها إلى هيئة الشباب، لأن زوجها شيخ وتحب أن لا تسوءه بفكرة أنه مسن وأنها أصغر منه سنّاً بكثير »!! ألا فلينتبه الرجال لذلك وليتقوا الله فى نسائهم وأعراضهم، وليعلموا أن التقوى مطلوبة فى السر والعلن وأن الله يرى. يا قوم تداركوا الأمر قبل فواته، فإن كنتم ترضون لنظام بيوتكم بالاختلال وللثقة بينكم وبين أزواجكم بالضياع ولأمتكم بالتأخر فاستمروا على فسادكم، وإن كانت فيكم بقية غيرة وحمية وتحبون وطنكم كما تدعون فأصلحوا أحوالكم تصلح حال نسائكم، ونقوا ورد بيوتكم من شوك الهم، وسنوا سنة صالحة لأبنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم أجرها إلى يوم الدين، ولله عاقبة الأمور.

الحجاب أم السفور

رد على خطبة ألقاها حضرة عبد الحميد أفندى حمدى بشأن الحجاب

تتبعت خطبة الأديب عبد الحميد أفندى حمدى عدداً عدداً فى الجريدة ، فشكرت له اهتمامه بترقية المرأة وأثنيت على اجتهاده وشجاعته الأدبية . وقد وجدت خطبته صحيحة المقدمات متينة المبنى ، إلا أن لى رأيا أبديه فيها . وقد يمر بخلد أحد القارئين أننا ننتقد الخطيب حباً فى النقد أو تمسكا بحب القديم وجموداً منا عليه ، لكن الحقيقة لا هذا ولا ذاك ، وكل امرئ حر فى فكره حر فى قبول فكرة غيره أو رفضها حسبما يشاء بشرط أن لا يضر ذلك الرفض أو القبول بالغير .

أما ما يرجوه الكاتب من تعليم المرأة تعليما صحيحاً فإنى أوافقه فيه تمام الموافقة ، ويجب أن نحث غيرنا عليه بما نستطيع ، وقد أصبح هذا القول بديهياً لا يحتاج لأن أطيل فيه الكلام لا سيما وقد وفاه الخطيب حقه فى خطبته ، فجزاه الله عنا خير الجزاء . بقيت مسألة الحجاب وهى تلك المسألة العويصة التى قامت من أجلها منذ سنين حرب قلمية عنيفة وضعت أوزارها على غير جدوى ، فلم يفز فيها (المحافظون) على القديم ولا (الأحرار) .

واست أنتقد اقتراح السفور من الوجهة الدينية لأنى أعلم أن الدين لم يحرجنا فى هذه المسألة كما بين ذلك حضرة الخطيب ، ولا من الوجهة الاقتصادية فإن فى اقتراحه أن نلبس لباساً يضارع ما ترتديه الراهبات المسيحيات توفيراً كبيراً لما كنا عسانا نصرفه فى تأنيق اللباس الخارجى كما يفعل نساء الفرنجة مثلا . كذلك لست انتقده من الوجهة الأدبية فإن ذلك اللباس وبساطته لأليق بتأزرنا

به من تلك (الحبرة) المهلهلة كما سماها الخطيب ولأدل على حشمة صاحبته وإن كانت سافرة مما تلبسه الآن مبرقعة، وشتان بين هذا البرقع الوهمى والبرقع الصحيح.

إذن لم يبق للموضوع إلا وجهة واحدة وهى الوجهة الاجتماعية، وإذا انتقدته من تلك الجهة فإنى لا أقلد فيه عادة ولا أتبع رأى غيرى بل أصرح بما أشاهده عياناً وبما أعرفه من أحوال شتى جربت فيها النساء المختلفات، والتجارب يجب أن تقدم أوامرها على أوامر البحث والتخيل، إذ هى تعلم بعد أن تترك أثراً فى النفس لا يزول، أما التخيل فقد لا يطابق الحقيقة، وإن طابقها فقد لا يعلق كثيراً بالذهن لأنه لا أثر له إلا فى المخيلة، بعكس التجارب فأثرها يبقى فى الحواس والذاكرة. فإذا نصحت طفلاً أن لا يلمس النار لئلا تحرقه فإن ولعه بالحركة والاستكشاف ما يزال يغريه بلمسها حتى يفعل ولا تنفع نصيحتك له، أما إذا لمسها مرة وأحرقت أصابعه فإنه يبتعد عنها كلما رآها ولو أمر بلمسها. وعليه فلسنا متبعات رأى من يأمرنا بالحجاب ولا رأى من يقول بخلعه لمجرد أن هذا تعب وكتب، وذاك نقب وخطب، إلا إذا تبينا الرشد من الغىّ، وعلمنا من التجارب أولى الخطتين بالاتباع. وأمامنا الطبقات المختلفة والأجناس العديدة يجب أن نبحث كلاً منها على حدته ونجمع منها كلها حكماً واحداً نحكم به على أنفسنا إما بالحجاب أو بالسفور أو غير ذلك مما سنوضحه بعد. وطبقات النساء (كالرجال) فى كل أمة ثلاث: العامة والخاصة والوسطى، وأصحها آداباً فيها كلها على الإطلاق الوسطى، ولا بد لذلك من سبب. نعم والسبب راجع إلى التربية. فالخاصة أو طبقة الغنيات يرخين لأنفسهن العنان فى الملاهى والملاذ، والجدة مفسدة فى الغالب خصوصاً إذا اقترنت بالفراغ، وهؤلاء عندهن من الخدم من يقوم بشئون بيوتهن وأمور أولادهن وقد تعودن عيش الكسل والراحة.

والطبقة الدنيا تجد من حاجتها باعثاً لها على طرق الطرق المختلفة لتجلب

العلماء ، أو غير ذلك من الأسباب الجائزة ، لوجب إعطاؤهن مايطلبن بغير تكلف البحث والعناء . أما ونساء مصر على هذا الجهل المطبق ورجالها إلا القليل على هذا الفساد المستحكم فلا يجوز مطلقا إباحة الاختلاط . على أن الإفرنج وهم المتعلمون نساء ورجالاً يشكون من فساد مجتمعهم وقلة وفاء أزواجهم ، وإذن نعلم أن الطبيعة البهيمية فى الإنسان تجتاز عقبات التربية وتخترق سياجها إلا الشاذة والشاذة لا حكم لهـا .

بقيت مسألة واحدة أجملها إجمالاً وهى المثل القائل (إن الطفرة محال) فنساء مصر متعودات الحجاب فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع لرأيت مايجلبنه على أنفسهن من الخزى وما يقعن فيه بحكم الطبيعة ، والتغيير الفجائى من أسباب البلاء وتـكون النتيجة شراً على الوطن والدين . وإذا أردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلا قليلا إلى أن يتم الهدم فتبنى على أنقاضه أحسن منه ؟! فإذا فرضنا محاولة هدم البناء دفعة واحدة (مستعملين الطرق والآلات التى نستعملها الآن) تصورنا كيف يستحيل ذلك مع بقاء المارة والبنائين سالمين فضلا عن الأنقاض كزجاج الشبابيك والخشب وما أشبه ذلك ، فهذه الباقيات الصالحات فى المرأة هى العفة والحياء ، والمنزل البالى حجابها الآن ، والسابلة الوطن والدين والفضائل .

فناشدتك الله أيها الأديب كيف تأمرنا الآن بالسفور ونحن إذا مشت إحدانا فى طريق لاتزال تنصبّ عليها العبارات الوقحة ويرشقها هذا بنظرة فاجرة وذاك ينضح عليها من ماء سفالته حتى يتصبب عرقها حياء ، فمجموع رجال مثل مجموعنا الحالى لايصح بحال أن يوكل إليه أمر امرأة وتترك عرضة لسبابه وقلة حيائه ، ومجموع نساء كنسائنا الآن لايفهمن إلا مايفهمه الرضيع يصبح سفورهن واختلاطهن بالرجل بدعة لا انتهاء لشرها . ثم أفدنى أيها القارئ بالله ماذا تقول

امرأة جاهلة أو متعلمة تعلماً ناقصا لشاب تجتمع به ؟ أتباحثه فى العلوم وهى لاتدرك أهميتها أو تعلم منها قشوراً لايعتد بها أم تفاضله فى السياسة وهى لاتعلم أين انكلترا من جزائر الأرخبيل ولا يمكنها أن تفسر لفظة دستور أو استعمار مثلا ، أم ماذا تفعل ؟ اللهم إنها لاتجد شيئاً تقوله إلا ماقد تستحسنه من هيئته وحسن بزته ، وهناك الضلال الكبير .

والمتعلمات فى مصر الآن يزددن عدداً وفيهن من يصح أن تلقى إليهن قيادة أخواتهن . وسيجىء زمن ينشأ فيه جيل من النساء غير جيل (السحر والزار والرقَى) وهؤلاء يثمر فيهن البذر ، فإذا أتعب الباحث نفسه فى نصح النساء الآن قد يجد من تسمع ولكنه لا يجد من تسمع وتعقل ، ولا يبعد أن يكون من بين سامعات خطبة عبد الحميد أفندى من قد تقلدت القبعة وتزيت بزى الإفرنج وسارت فى الشوارع تفاخر بأنها من ذوات الفكر الحر ومن صاحبات التمدين الحديث .

والخلاصة إن خروجنا بغير حجاب لا يضر فى نفسه إذا كانت أخلاقنا وأخلاق رجالنا على غاية الكمال ، وأظن هذا مستحيلا أو بعيد الحصول ، فإذا حصل التمازج وكان على هذا الشرط فلا اعتراض لى عليه .

وهناك قوم يشددون فى تقدير الحجاب فيحبسون المرأة مؤبداً ويمنعونها من زيارة جاراتها ، ويضيقون عليها بحيث لا تستنشق الاهواء بيتها الضيق الدائرة فتفسد صحتها وتكسل عن الحركة ، ومنهم من يفتخر بأن امرأته لم تبرح بيتها طول عمرها ، وهؤلاء أيضاً متطرفون ، لأن المرأة لها رجلان يجب أن تتحركا وعينان يجب أن تبصرا ، فإذا صاحبها أبوها أو أخوها أو زوجها مثلا فى نزهة وأراها محاسن الطبيعة ودقائق الموجودات وجدد قواها بالحركة واستنشاق الهواء

الجيد وهى بمئزرها محتشمة فلا يخرج ذلك عن معنى الحجاب (وهنا استسمح الخطيب الأديب فى استعمال لفظة حجاب على غير مامر لأننا لو رددنا كل المجازات إلى الحقيقة لصارت اللغة أضيق من سم الخياط) .

على أن هذه المسأله واختلاف الآراء فيها ، قاضيها العادل الزمن والمستقبل ، فكم من مسألة أبى قوم إلا اتباعها وآخرون نبذوها نبذ النواة فاختلفوا وجاء الزمن مؤيداً فيها لفريق دون فريق ، فصارت له القوة ورجع له الحول فاتحدوا فيها . ورأيى أن الوقت لم يؤن لرفع الحجاب ؛ فعلموا المرأة تعليما حقا وربوها تربية صحيحة وهذبوا النشء وأصلحوا أخلاقكم بحيث يصير مجموع الأمة مهذبا ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة . وإن هذا الموضوع وأمثاله لما يدعونا إلى التفكر والتبصر ، فإننا بدأنا أن نجارى الإفرنج فى كل شىء والمجاراة ليست ضارة فى حد ذاتها ماديا ولكن ضررها اجتماعى محض . فضلا عن كل ما بينت فى مقالى هذا . فإننا لو سلمنا بما يقترحه الكتاب من ضرورة تقليد الغربيين فى أمور معاشنا ولباسنا وزى بلادنا مما قد لا يوافق روح الشرق فإننا نندمج فيهم ونفقد قوميتنا بمرور الزمن ، وهذا هو ناموس الكون إذ يفنى الضعيف فى القوى . وإنه لمن العار أن نترك هذا الأمر يجرى مجراه . فأدعو الكتاب والباحثين للتفكير فيه وفى إيجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده ، ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدين الحديث .

ما ذنبنا

رد على ما كتبه حضرة (الخانقاه) فى الجريدة بشأن تبادل إرسال النشء والمصاهرة بين الترك والمصريين .

كتب حضرة الأديب (الخانقاه) يقترح على الأمة المصرية أن تتبادل وتركيا إرسال النشء من بنين وبنات . وقد رد عليه كثيرون مصوبين فكرته ومخطئين لها ، على أنهم لم يحيطوا بالموضوع من جميع أطرافه ، وعذرهم فى ذلك أنهم رجال وقد لا يعود عليهم بالذات ضرر مامن تنفيذ ذلك المشروع . ولا يهتم بدرس اقتراح كهذا خطير إلا من قد تقع عليه أضراره فيما لو نفذ ، ونحن معشر النساء المصريات أكثر الناس تعرضاً لمثل ذلك الخطر .

أنا لا أعترض على الموضوع فى ذاته ولكنى أعترض على بعض لوازمه المربوطة به . على أنى أوافق حضرات الكتاب الذين أبانوا أن بيوتنا لا تصلح لأن يقتبس منها التركى أو التركية شيئاً يزيده معرفة أو علماً ، ولكن بصرف النظر عن هذه الحقيقة المؤلمة فإن الاختلاط الشديد بين الأمتين بهذه النسبة التى يتمناها (الخانقاه) لابد أن ينتج عنها المصاهرة بين أفرادها ، وإن كانت النساء التركيات أغلبهن متعلمات بعكس أخواتهن المصريات فيكون للأول الزواج فى سوق الزواج الآن ، أما الأخر فعليهن العفاء ولهن الكساد .

وإن من يتصفح تاريخ المرأة المصرية الحديثة يرى أنها كانت دائماً مظلومة مهضومة الحقوق ، ففى عصر إسماعيل هجم علينا جيش الشركسيات وانهزمنا أمامه وخرج ظافراً منا بأحسن رجالنا ، فلم يبق شريف أو نابه بمصر إلا وأم ولده جارية شركسية من مشتريات إسماعيل .

ثم ابتدأ رجالنا فيما بعد ذلك الزمن يتزوجون بالأوروبيات ، وليتهن من ذوات الشرف ولكن كان أكثرهن — إن لم نقل كلهن — من فريق الراقصات والخادمات وأضرابهن . كل ذلك يجري ونحن ساكنات ننظر ولا نتكلم خيفة الريب . ولكن نساء ذلك العهد كن جاهلات لا يفقهن شيئاً ، وربما كان ذلك خير قصاص منهن على الجهل (على أن هذا لم يكن من جنايتهن على أنفسهن ولكن جناه الوالدون عليهن) . أما وقد صار بمصر الآن من المتعلمات من يصلحن للزواج بأبناء جلدتهن أفليس من العار وأنت تقدر على أن تجعل ابنك شريفاً من أم ذات حسب فتختار أن يكون ابن جارية شركسية أو راقصة أوربية ؟ ! ثم أليس من العار أن تشرئب دائماً لما في يد غيرك وعندك أحسن منه ؟

ألا رُبَّ معترض يقول : إنه قد بطل الرق الآن وإن من يصاهر الترك يصاهر أكفاء . هذا صحيح ؛ ولكن الأم تغذى الطفل بميولها وطباعها كما تغذيه بلبنها ، فإذا ما حنت التركية لوطنها (وكل يحن بالطبع لوطنه) نشأ متشبعاً بميولها يحب تركيا ويميل عن مصر وهو معدود من رجالها .

وسبب فشل المصريين وعدم ميلهم الفطرى للاتحاد هو على ما أرى ناشئ عن تشعب أجناس أمهاتهم ، فابن الفرنسية يحب فرنسا ، وابن الزنجية يذكر خصب السودان ، وابن العربية يفتخر بمحتده ، وولد المغربية ما يفتأ يذكر بلده ، وهكذا أضعنا وطنيتنا المصرية من طريق المصاهرة بالأجانب .

ثم أجدنى محقة إذا قلت إن الدم يحن لنوعه ، فإذا تكافأ الرجل والمرأة فى العلم والتربية وكانا مصريين مثلا ، فإن الحب بينهما يكون أصدق وأمتن منه

لو كانا مختلفى الجنس والمذهب . فإذا أراد الأديب (الخانقاه) أن يختار لنفسه حليلة غير مصرية فليكن ، ولكل امرئ ما يرى ، ولكن ليتذكر أخته وابنته وبنات عمه وقريباته فسيكون نصيبهن من غيره نصيب غيرهن منه والسلام .

مدارسنا وفتياتنا

رد على من ذكرت أسماؤهم فى هذه المقالة

لم يكن يدور بخلدى ساعة كتبت موضوع (ما ذنبنا) أن يخطئ فهمه أحد ، لأنه من السهولة ووضوح الغاية بحيث لا يتعذر تفسيره ، ولكن ظهر لى من كتابة الكاتب فى جريدة (لابورص اجبسيين) ومن كتابة التركية « على الهامش » أنهما ذهبا فى واد وأنا فى واد .

أما جواب السيدة التركية فإنه يكفى لأن يقرظ نفسه ولا أقول فيه أكثر من ذلك ، لأنه دل على مبلغ أخلاقها ودرجة حلمها ، على أنى أشكر لها حميّتها ودفاعها عن نساء جنسها والتمس لها بعض العذر على حدّتها ، لأن المسيو (أودولف) هاج كامن عواطفها ، ولكنى لا أدرى له هو رأيا أن يجرح عواطف إخواننا (أولاد الذوات) ولا أجيز له أن يؤول مقالتى تأويلا لم أرده ، فقد ذكر أنى قلت : « إن الغربيات لا يصلحن لإدارة البيوت » وهو يعلم أن هذه العبارة لم ترد البتة فيما كتبت ، وإن ظنى بأن الكاتب لا يعرف العربية أو أن الذى ترجم له كلامى لم يحسن له الترجمة يحملنى أحمل تهكمه وخروجه عن الموضوع على محمل حسن .

أما الفاضل (المتحرج من الزواج) فقد صدق فى كثير مما قاله عمن ينعتن

أنفسهن بالمتعلمات ولسن من العلم ولا من التهذيب فى شىء . وأضر ما يكون هؤلاء إذا تزوجن ، لأن المتزوجة عليها واجبات شتى وعلى قدر الواجب تكون المسئولية ، وهؤلاء لا يدرين حقوقهن إزاء الزوج ولا فن تربية الأولاد ولا كيفية معاملة الخدم وو . . الخ مما يجب معرفته ، ويراهن على جهلهن هذا شامخات بأنفهن نحو السماء ، ويحسبن الاشتغال بلوازم البيت حطة لمقامهن فيقضين وقتهن بين حديث خرافة وخروج فى الشوارع ، وهن ، على العموم ، أكثر النساء إسرافاً وتبذيراً فضلا عن البهرجة وقلة الحياء ، فلا علما اتقن حتى تتهذب نفوسهن ، ولا على تربية منزلية محضة درجن حتى يعلمن على الأقل طبخ عشاء بسيط إذا تركتهن الطاهية يوماً .

وهذه الفئة الجاهلة الدعية فى العلم هى ولا شك فئة خريجات مدارس الراهبات وكثير من المدارس الأهلية الأخرى ، وقد خبرت مدارس البنات بأنواعها « ولا ينبئك مثل خبير » . وحسبك وقوفاً على مبلغ علم هؤلاء أن تسألهن سؤالاً بسيطا عن بعض ما يلقينه على مسامعك مثل الببغاء فلا يحرن جوابا . أما التدريس فى تلك المدارس فهو على النظام الذى أخنى عليه الدهر أو هو محفوظ عن ظهر قلب وليس فيه للتعقل أو المحاورة نصيب يذكر ، ثم إن إحداهن لتسمعك تاريخ فرنسا ولا تكاد تأخذ نفسها من سرعة الإلقاء ، وإذا سألتها عن عمر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبى أو محمد الفاتح وأضرابهم من حماة الإسلام قالت لك : لا أدرى .

ومدارس البنات فى مصر كلها ، خلا مدارس الحكومة الثلاث ، ليس فيها إلا تظاهر بالعلم ورياء ، وهى فى اعتقادى لا تصلح مطلقاً لتربية البنات المصريات ، لأنها فضلا عن قلة بضاعة العلم فيها تجعل تلميذاتها على خلق غير ملائم لنا .

ومما يؤسف له أن القوم عندنا لا يفرقون بين الصالح وغير الصالح ، فإذا أدخلوا ابنة لهم فى مدرسة للحكومة وأمرتها ناظرة المدرسة أن تلبس جلباباً مغطى الصدر والكمين مثلا أو أن تخلع حليها وقت الدرس عدوا ذلك إساءة لابنتهم المدللة وقطعوها عن المدرسة كما شاهدت مراراً .

نحن المصريين نحب الظهور والفخفخة بغير نظر إلى النفس وفضائلها ، وهذا نقص فى التربية يجب محاربته و إزالته ، وأكثر الآباء وجميع الامهات عندنا لا يقدرون من تعلم البنات إلا العزف على « البيانو » والرطانة لأنهما ظاهران .

و بالجملة ، أقول: إن أحسن مدارس البنات فى مصر هى مدارس الحكومة أخلاقاً وعلماً على أنها لا تزال تقبل الإصلاح والرقى .

ولى كلمة أخرى فى هذا الموضوع تتعلق بالبيت والمدرسة أرجئها لفرصة أخرى .

تربية البنات

فى البيت والمدرسة

كلنا يعلم ما تعودنا سماعه من أمهاتنا فى سن الطفولة الأولى أيام كان يغرينا النشاط وحب العمل بمداومة الحركة واستكناه كل شىء مما تقع عليه حواسنا ، ولو أدى ذلك الاستكناه إلى كسر الشىء أو تلفه . حينذاك كنا نسمع والدتنا تقول: « خذوها للمدرسة » فترسم المدرسة فى مخيلتنا عفريتا يهول منظره ، لأننا كنا نعد غضب الوالدة أكبر قصاص لنا وهى لم تفه بلفظه « المدرسة » إلا فى ساعة الغضب ! هذه أول فكرة تلقى علينا من جهة المدرسة ، فإذا شببنا قليلا وأتى بنا إليها ملأنا أرضها صراخا وعويلا وطال أمد الوحشة بيننا و بينها .

تبذل معلمات المدارس جهد الطاقة فى تثقيف عقول التلميذات وتعويدهن الفضائل ، ولكن تلك الدروس إذا لم تدعمها الممارسة والمشاهدة لاتلبث أن تزول .

ترى إحدى المعلمات تنصح لفتياتها بأن لا يرتدين فى المدرسة الأثواب المزركشة أو الرقيقة الشافة فتأتمر الفتاة بأمرها ، وما هو إلا يوم حتى ترى والدتها أحضرت لها من تلك الثياب أقلها حشمة وأكثرها بهرجة وإذا عارضت الفتاة وقالت قد نهينا عن لبس مثل تلك الثياب أمس أجابتها والدتها : لاتكترثى بكلام المدرسة فهو موجه للفقيرات فقط لا لبنات الأغنياء مثيلاتك ؟ وإذاً ضاع النصح هباء وتشجعت الفتاة على العصيان وعدم الاكتراث . كذلك المدرسة تدرب التلميذات على النظام وبيوتنا بفضل الجهل لانظام بها ، وقصارى القول أن ما تبرمه المدرسة لنفع التلميذات ينقض فى البيت ولاسيما مسألة الأخلاق . وأسطع برهان على أن البيت يفسد ما تصلح المدرسة الفرق الظاهر بين التلميذات (الداخلية) و(الخارجية) فإن الأوليات كاهن أكثر نظاماً وترتيبا من الأخريات ، وأغلبهن أشد تمسكا بالفضيلة لأنهن ينشأن على البساطة والحشمة وقد رسخ ذلك فى أذهانهن لأنهن يمارسنه بالفعل ولا يجدن أمامهن ما يفسد ذلك الدرس المفيد

فياليت شعرى هل يخفف المنتقدون قليلا من حدتهم عند انتقاد مدارس البنات لأن بيوتهم ونظامها أدعى إلى الانتقاد منها ، والأمهات الجاهلات أكبر عثرة فى سبيل نجاح المدارس ولاسيما إذا كانت بناتهن من القسم الخارجى . وليس من الإنصاف أن نكلف المدرسة بملاحظة الفتيات فى مغيبهن عنها إذ أن أعضاءها لم يكن يوماً ما من الشرطة (البوليس) ويكفى ملاحظة التربية والتعليم فى المدارس وليس ذلك بالأمر السهل على القائمات به .

المدرسة تأمر التلميذات بالنظافة وترتيب الهندام ، والبيت لا يعنى بذلك كثيراً . فإذا غسلت الفتاة شعرها يوماً تنتظر بعده أسبوعا بغير تمشيط حتى تجيئها

الماشطة وتمشطه لها فى الأسبوع التالى ، ويظل رأسها بين الأسبوعين معقداً قذراً ، فترجعها المدرسة إلى البيت مرة أخرى ، وتكون النتيجة تأخر الفتاه عن تلقى الدرس ، وربما استشاطت والدتها غضباً من تكرر رجوعها فتخرجها من المدرسة ، وهى لو مشطت ابنتها كل يوم لما استغرق ذلك أكثر من ثلاث دقائق ولكن هو الجهل والكسل .

حادثتنى مرة ناظرة مدرسة للبنات فى شأن التلميذات الخارجيات اللاتى يعدن إلى البيت كل يوم لقذارتهن قالت : (إنى أعجب لأمهاتهن كيف يرضين لأنفسهن أن تشتمهن المدرسة كل يوم ولا يخجلن) ! قلت لها : وكيف تشتمهن المدرسة ؟ قالت : « أليس إرجاع البنت إلى أمها بسبب الوساخة يعادل قولك لها : إنك أيتها السيدة قذرة ولا تصلحين لإدارة بيتك ، وأكبر دليل على ذلك إهمالك ابنتك وهى فلذة كبدك وأعز عليك بالطبع من المنزل وأثاثه ورياشه ! ! ولو رجعت تلميذة فى انكلترا (وهى بلدها) إلى أمها بسبب القذارة لفكرت تلك الأم أن الانتحار أولى لها من أن تسب علناً بأنها قذرة » . هذا حقيقى لأن الأم الانكليزية متعلمة وتعرف حقوق التربية وشتان بينها وبين أختها المصرية .

هذا فى الأخلاق وقُل مثله فى التعلم . فان الفتاة ربما احتاجت إلى مذاكرة دروسها فتشغلها زيارة النساء لأمها ما بين (دلالة وماشطه و « كودية » زار) ويملأن قلبها الصغير النقى أوهاماً وخزعبلات ، فيهد من ركنا من فضيلتها ويبنين مكانه نقصا ورذيلة، فضلا عن أنها يعقبها عن مذاكرت الدرس والاستفادة منه . فلو كانت تلك الأم متعلمة أو جاهلة تقدر العلم قدره لذاكرت لابنتها وأفهمتها ما تعسر عليها فهمه فى الحالة الأولى أو أعدت لها مكاناً بعيداً عن لغط الزائرات فى الثانية .

أعرف أختين كانتا معى فى المدرسة وقد قصتا علينا يوماً الحديث الآتى ، وقد كانت إحداهما فى السنة الأولى الإبتدائية والثانية فى السنة الثانية . ومعلوم أن تلاميذوتلميذات هاتين الفرقتين فى المدارس المصرية لا يمكنهم التكلم بلغة أجنبية ، قالتا : «سألتنا يوما والدتنا هل كان يمكننا التكلم بالانكليزية فأجبنا إيجابا ، ولما لم تكن تعرف هى منها شيئاً لم نجد مانوهمها به سوى بعض أبيات إنكليزية كناحفظناهافى السنة الأولى ، وهى حكاية عن طفلين ضاعا فى غابة الخ فأخذنا نتناوب شطور الأشعار أقول أنا الأولى وأختى تقول الثانية إلى أن فرغنا منها ، ففرحت والدتنا بذلك وشهدت لنا بأننا بارعتان فى لغة الإنكليز ! »

ذلك مثال من كثير يبين أن جهل هؤلاء الأمهات لا يقتصر على تقصير بناتهن فى العلم ولكنه يشجعهن على الكذب والفساد أيضاً وإن كن لا يدرين .

وأدهى من ذلك وأمر أن الفتاة إذا شبت وكعبت فان الأم ما تفتأ تذكر لزوجها — وابنتها تسمع — أن ابنتها كبرت وأنها يجب أن تترك المدرسة لتتزوج ، وأن فلانا أوفلانا أرسل والدته أو أخته تخطبها . فلا تلبث الفتاة أن تلتفت إلى أمر الزواج وتهمل المدرسة لأن والدتها تغريها بذلك وتهتم به كثيراً . فإذا أمطرت السماء يوماً ولو رذاذاً قالت لها لا تذهبى إلى المدرسة ، وإذا اشتد البرد منعتها عنها ، وإذا زادت الحرارة قليلاصدتها ، وإذا ذهبت لعرس إحدى جاراتها أخرتها يومين أو ثلاثة وهلم جرا . والفتاة مظلومة إذا لم تستفد من المدرسة بعد هذا ، ولكن المدرسة مظلومة أكثر منها إذا نسب تأخر الفتاة كله إليها .

ولا تكمل تربية الفتيات بحيث تصير المدرسة مسئولة عنهن بالمعنى الصحيح إلا إذا كن لا يبرحنها (كالداخلية مثلا) أو إذا كانت أمهاتهن متعلمات يساعدن المدرسة على القيام بأعبائها ، وهذا يظهر فى الجيل القادم من بناتنا إن شاء الله .

الزواج

يا للنساء من الرجال ويا للرجال منهن

بينا أنا أفكر فى موضوع أكتبه للجريدة إذ قرأت ما ورد بها بقلم (أحد الناس وحديثه مع فتاة) فتأثرت به أيما تأثر وقلت فى نفسى : إذا كان الرجال يخوضون فى مثل هذه الموضوعات فنحن أحق بها منهم لأنها بنا أمس ، وأجدر منهم بالشكوى لوقوع حيفها علينا . وسأتكلم هذه المرة على طريقة الزواج عندنا ، لأنها مقدمة لموضوع تعدد الزوجات الذى سأكتب عنه فى المرة القادمة إن شاء الله .

طريقة الزواج فى مصر طريقة معوجة عقيمة نتيجتها فى الغالب عدم الوفاق بين الزوجين . يقيم الرجل معالم العرس أياماً وليالى ويتكبد مصاريف جمة لعروس لم يرها عمره ولم يتأكد من حسن أخلاقها أو جمال نفسها ، إنما سمع عن بياضها وسمنها أو مالها من الخاطبة التى تصف حسب نصيبها من مكافأة العروس وأهلها ! فإذا أجزلوا لها العطاء صورت ابنتهم للشبان الخاطبين فى صورة « بالقيس بمالها أو شيرين بجمالها » ، وما هى إلا أحبولة يقع الفتى فيها فلا يلبث أن يصير بعلا للفتاة ، إما على الحب منه أو الكره .

فإذا سعد طالعهما اتفقا قلباً وقالبا ورضى كل بالآخر رفيقاً له وصفت لهما الأيام . هذه حالٌ قل أن يصل إليها زوجان ، ومن تمت لهما كان ذلك أحدوثة فى بنى قرابتهما وعند الجيران !

أما البائس الذى قدر له أن يعاشر حمقاء أو جاهلة أو مسرفة أو ما شابه ذلك مما يعرفه أغلب رجالنا بالتجربة فياويحه .

كذلك الفتاة إن فوجئت ببعل مدمن أو خليع أو فاسد السيرة فياطول

ما تقاسى من العناء . فمسألة الزواج عندنا هى كـكل أمورنا ـ نحن الشرقيين ـ نكلها للقضاء والقدر والحظوظ وما شئت من المترادفات …

ومما جعل مسألة الزواج عندنا (نحن المسلمين) هينة لينة إباحة الدين الحنيف الطلاق وتعدد الزوجات . ولـكن حاشا أن يكون قصد الشارع ما نراه الآن من الفوضى فى أدق الروابط الاجتماعية ومن نقض عهود الأسر وقلب نظامها ، فإن الأديان لم تخلق لجلب البؤس وإنما خلقت لإسعاد البشر ولتقريبهم من الإنسانية أو لإبلاغهم حدها الأقصى إذا تيسر ذلك .

وطريقة العرب ، على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وما بعده ، فى أمور الخطبة والزواج طريقة شريفة معقولة إذ لم يكن الحجاب حينذاك كما هو الآن . وإنى أجاهر بأن حجابنا مقلوب، ونظام اجتماعنا فاسد أشد الفساد لا يصلح ولن يصلح لأن تتبعه أمة متمدينة .

أليس عجباً أن نرى نساءنا وفتياتنا يتهتـكن كل يوم فى عرض الشوارع ويملأن حوانيت الباعة ويذهبن فى الخلاعة كل مذهب ، فيكلمن سائق (الترام) ويقفن مائلات عاريات الصدور متبرجات أمام المصور (فوتوغراف) ، وإذا طلب خاطب مستنير من أبى الفتاة أن يسمح له برؤيتها والتـكلم معها وأبوها يراقبهما ، عد ذلك أمراً إداً ؟ ! هذا رجل وذاك مثله والأول تـكلمه بلا مراقبة وإنما بعلم من أهلها وترخيص ، والآخر يريد أن يكلمها أيضاً ولـكن مع مراقبة أبيها وغرضه شريف وهو معرفة كنه التى سيتزوج بها ويجعلها شريكة حياته ومربية ولده، فما السبب فى منح الأول ومنع الثانى ؟ اللهم إن هو إلا الجهل والعادة وحب القديم حتى ولو كان مضراً .

إذا اعترض أحدهم وقال : إن الفتيان أغلبهم فاسدو الأخلاق ، قلت : إن المصور

والبائع أفسد خلقا من الفتى المتعلم، على أن المراقبة مانعة للفساد على كل حال . ثم إن خوف الفتنة أكثر فى الحالة الأولى منه فى الثانية ، لأن المقام الأول مقام هزل فتضحك فيه الفتاة بلا مبالاة وتكشف عن ذراعيها أو صدرها عند التصوير مثلا وتكون فى الغالب متبرجة ؛ أما المقام الثانى فهو جد لا تتعدى فيه المرأة حد الحشمة فمن أين تأتى الفتنة إذن ؟

وعندى أنه لو اتبع هذا السبيل فى الخطبة لكان خيراً ولقلّت حوادث الشحناء بين الزوجين فيما بعد ، وهى بلا شك نتيجة الزواج (العميانى) الذى نتبعه فى أعز شىء لدينا وهو أبناؤنا و بناتنا . ولا يقتصر الخاطب على رؤية العروس فقط فإن ذلك لا يكفى ، بل يجب أن يستفهم عنها جيداً ممن يعرفون أخلاقها و يبحث عن سيرتها وأهلها ، فيتزوج منها على هدى بعد البحث والاستقصاء ، وهذه الشروط بعينها يجب أن يتبعها والد العروس قبل أن يسمح للرجال برؤية ابنته ، فما كل راء خاطب وما كل خاطب جاد ، ورب فتى هازل يريد اللهو أو فاسد يحب مشاهدة الفتيات بغير قصد الزواج ! فهؤلاء يخرجون من موضوعنا ، لأننا لا نعنيهم و إنما نعنى الشريف النفس الحسنى السيرة . والأب مكلف بالبحث عن حقيقة سائلية كما بينا قبل .

وهنا يعترضنى فكر يجب أن أبسطه و إن آلم بعضهم . فإن شباننا لم يتعودوا احترام النساء ، وذلك نقص فى التربية الاجتماعية يجب أن يتداركوه . لا أريد أن يسجدوا لنا بل أن يفسحوا لنا الطريق إن ازدحمت ، ولينظروا إلينا كما ننظر إليهم أناساً مثلهم ، وليتركوا إشارات التعريض وألفاظه التى أصمت آذاننا ، ولولا خوف مفاجأة العجلات والدواب لسددنا مسامعنا عند كل سير فى الطريق تخلصاً من تلك البذاءة المحرجة . فهؤلاء وأمثالهم لا أصاهرهم لو كنت أباً ، ولكن بين شباننا كثيرون بحمد الله يتبعون الصراط السوى .

وقد سمعت كثيراً عن قوم طلب إليهم أن يروا خاطباً ابنتهم فأروه أخرى جميلة وزوجوه من التى لا يرغب فيها غشاً منهم وترويجاً لبائرة عندهم . ولعل أحدهم يجعل ذلك من جملة اعتراضاته على الموضوع ، ولكنى سبقت فقلت : إن هؤلاء قوم لاشرف عندهم . والشريف وغيره يظهر من معاملاته وطباعه وسيرته ، والبحث يفرق بين الضدين، فلا يعقل أن يستمر الرجل شريفاً فى كل أمر يأتيه مع إخوانه ومعامليه ،ثم تتغير ذمته فجأة عند زواج ابنته ! إن هذا يكاد يكون مستحيلا . ثم إن هناك قوماً يعجبون بالخاطب و بأخلاقه ولكنهم يردونه خائباً ، لأن المهر الذى عرضه عليهم قليل . فياليت شعرى أيشترى العاقل الراحة بالمال أم يشترى المال بالراحة ؟ وماذا عليهم لو كانت ابنتهم سعيدة غير غنية ؟ إن أكثرهم يطلبونها غنية قبل كل شىء ويحسبون السعادة تابعة للغنى . ألا ساء ما يحسبون .

ومن أكبر الأسباب المنتجة لشقاء الزوجين عندنا وعدم ائتلافهما أن يكون أحدهما راغباً فى زواج آخر يعرفه أو يحبه فيجبره أهله على التزوج ممن لا يريد . والمثل الفرنسى يقول Vouloir c'est pouvoir أى : الإرادة هى المقدرة . فإذا تزوج فتى من غير من يحب فإنه بالطبع يريد أن لا يهنأ معها وأن يعذبها من غير ذنب ، وهو قادر على ذلك . والمثل بالمثل مع الفتاة ، وذلك ظلم بين من الأهل لا يغتفر .

وهذه العادة كثيرة الشيوع بين أفراد الأسرة الواحدة أو بين الأصحاب : يكون لأحدهم ابن ، فبمجرد أن تولد ابنة أخيه أو ابنة صاحبه يتفقون على أن المولودة الجديدة هذه من نصيب الصبى فلان عندما يكبر ، و يأخذون العهود والمواثيق على ذلك ؛ وربما ربى الصبى تربية غير التى نشأت عليها الفتاة أو رأى أخرى أعجبته ، وهنا الطامة

الـكبرى . أنت لا تأكل مكرهاً ولا تنام مكرهاً فلم تزوج ابنك أوابنتك بالقسر والإجبار ؟ ربما كان من يختاره الأهل أجمل وأغنى ولـكنه فى حال البغض يكون كأنه أقبح خلق الله وأفقرهم ، على أن الجمال والغنى ليسا من شروط الوفاق بخلاف الرغبة فهى داعية له .

فنتيجة شقاء الزوجين وعدم الوفاق بينهما مقدماتها الأسـباب التى شرحت قبل وهى :

(١) جهل أحد الزوجين بالآخر .

(٢) زواج مختلفى الطباع كعالم وجاهلة و بالعكس، أوغنى وفقيرة، ومختلفى الدين والوطن .

(٣) الطمع فى الغنى بغير نظر إلى الأخلاق .

(٤) الزواج القسرى .

(٥) تأويل الدين الحنيف على غير ما أريد منه فى أحكام الزواج والطلاق .

وهذه الأسباب كلها شعب لأصل واحد هو عدم الحـكمة ، فإذا روعيت شروط الحكمة وصحة التحرى قبل الزواج ، فقلّ أن نرى هذا الشقاء المخيم على البيوت المصرية الهادم لمعنى الزوجية ، وخير للفتاة والفتى أن يعيشا أعزبين من أن يتزوجا بثالث أيضاً هو البؤس والعذاب .

تعدد الزوجات

أو الضرائر

إنه لاسم فظيع تـكاد أناملى تقف بالقلم عند كتابته ، فهو عدو النساء الألد ، وشيطانهن الفرد ، كم قد كسر قلباً وشوش لبا وهدم أسراً وجلب شراً ! ! وكم من برىء ذهب ضحيته وسجين كان هو أصل بليته ، و إخوة لولاه لما تنافروا ولا تناثروا

ففرقهم أيدى سبا وأصبحوا تأكل الحزازات صدورهم و يضمرون السوء بعضهم لبعض ، يثأرون ولا ثأر بنى وائل ، وكانوا قبل ولاه متفقين .

إنه لاسم فظيع ممتلىء وحشية وأنانية . كم أحرج رجلا وعلمه الـكذب فأفسد عليه خلقه ، وكم بذر مالاً كان يعده البعض رزقه . وكم أحفظ قلب والد على ولد ، وكم علم الوشاية والحسد . فإذا ما لهوت أيها الرجل بعرسك الجديد فتذكر وراءك بائسة تصعد الزفرات يتساقط من مآقيها أمثال اللؤلؤ عروسك ولـكنه صهرته نار الحزن فظهر سائلا ؛ واخش الله فى صغار يبكون لبكائها ، علمتهم الحزن فاستعاروا يواقيت عرسك أعينا . أنت تقرع سمعك الطبول والمزامير وهم لا يسمعون إلا دق الحزن فى طبول آذانهم وكانوا من قبل ذلك جذلين .

وهذه البادية التى أقطن الآن لا أبالغ إن قلت إن جميع نسائها جربن الضرائر لشيوع عادة الجمع بين زوجتين فى رجالهن ، ولى من مخالطتهن ما يجعلنى على ثقة من هذا الموضوع .

كثيراً ما سألت امرأة من الحى هذا السؤال : « ترين هل تحبين زوجك الآن كما كنت تحبينه قبل زواجه من غيرك »؟ فـكان جواب كل من سألت سلبا .

وقد حقق لى ذلك بعضهن ، وسمعت عن أخريات أنهن فى الحقيقة كن يفضلن أن يرين نعش أزواجهن محمولاً على الأعناق على أن يرينهم متزوجين بأخريات فيالله أإلى هذا الحد يبلغ بغض المرأة للضرة ؟ فليتأمل الرجال . أرى « القديمة » حزينة و « الجديدة » كذلك . فإذا قلت للأولى : ماذا يحزنك ؟ أجابت يحزننى ذلى وانكسار قلبى وأنا على ما ترين لست أنقص عن الجديدة جمالاً ولا أدبا ، وكنت أبذل جهدى فى مرضاة زوجى ، أما الآن فلا ، على أنه لا يزال يسترضينى فيقول لى : أنت أحب إلى من الأخرى ، وأنت أول من ملك قلبى ، وأنت

جميلة ، وأنت وأنت الخ وأنا لم أتزوج عليك لنقص فيك وإنما كان ذلك مقدوراً .
وإذا ما سألت الجديدة عن سبب انقباضها قالت : يحزننى أن أرى لى شريكة ومنافسة ، على أن زوجى يحلف لى أنه لا يعبأ بها وأنه لو كان مقتنعاً بها لما تزوج عليها ، وأنه يريد طلاقها ولكنه يبقيها رحمة منه لتربى أولاده . فما أقدر زوج الضرتين على التفنن ! ! ولو أنصفوا لعينوا زوج كل اثنتين سياسياً أو ناظراً للمستعمرات ! (وإن لم تكن لنا مستعمرات !) .

المرأة إذا بليت بالضرة انطفأ سراج بهجتها والتهبت مكانه نار حقدها ، وذوى غصن قدها وزرعت محله بذور شرورها ، فإن لم تك تقية وسوس لها الشيطان وعلمها أساليب الانتقام والكيد . وكثيراً ما دست امرأة السم لزوجها أو لضرتها أو لابن ضرتها فكان القضاء عليهم جميعاً ، وكثيراً ما عمدت للوشاية بها عند زوجها أو ثلم صيتها عند الناس ، وأغلبهن يبذلن مالهن ويبعن مصوغاتهن للسحرة ليكيدوا للزوج ولامرأته على زعمهن .

فزوج الثنتين غير سعيد كما قد يخيل له : إذا تغيب لبعض شغله اتهمته إحدى المرأتين بأنه كان عند الأخرى ! وياليت التهمه تقتصر على هذا ، فإن هناك التغير والتدلل والكراهية والبذاءة أحياناً . وإذا نسى واشترى لواحدة منديلا ولم يشتر للأخرى صب عليه سوط العذاب وألزم بأضعاف أضعافه . فما كان أحوجه للراحة وما أشد اشتغال باله . الإكثار من الزواج داء إذا تأصل صعب استئصاله

ولا أعذر الرجل يتزوج مرتين إلا إذا تعذر عيشه هنيئاً مع زوجته الأولى لسبب ما شرعياً كان أو غير شرعى . فيضطر للزواج اضطراراً ، ولكن الحازم لا تنسيه أفراحه أولاده ولا امرأته الأولى إن كانت لاذنب لها . أما إذا كان يمد

بقاءها معه منغصاً لحياته أو كان كارهاً لها فليطلقها بتاتاً ، وقد يجد مع غيرها راحة وتجد هي كذلك مع غيره « وفي الأرض عن دار القِلى متحول » .

والطلاق على مذهبي أسهل وقعاً وأخف ألماً من الضر ، فالأول شقاء وحرية والثاني شقاء وتقييد . فإذا كان الشقاء واقعاً على كل حال فلماذا تلتزم المرأة الصبر على الشدة وترى بعينيها ما يلهب قلبها ويدمي محجريها ؟ ألا إن حزيناً حراً خير من حزين أسير . وبعضهم يخادع المرأة الأولى بأن يجعلها حاكمة على البيت معها مفاتيح خزائنه ، ولكن ماذا تفيد مفاتيح الخزائن والحكم على السمن والعسل وأين هذه من مفاتيح القلوب وحب الزوج ؟

إنّ تعدد الزوجات مفسدة للرجل ، مفسدة للصحة ، مفسدة للمال ، مفسدة للأخلاق ، مفسدة للأولاد ، مفسدة لقلوب النساء . والعاقل من تمكن من اكتساب قلوب الغير فكيف بقلوب الأهل والعشراء .

مفسدة للمال ، لأن الرجل فضلا عن تحمله أعباء أسرتين وقيامه بلوازمهما يرى كل زوجة من الثنتين تجتهد في التبذير لتعجزه عن الإنفاق على الأخرى أو لتمنعه من الزواج بأخرى . ولا تلام إحدى الزوجتين على تبذيرها فذلك طبيعي إذ تقول : ما الفائدة من اقتصادي ؟ أنا أحرم نفسي مما ربما أشتهيه وزوجي ينفق ذلك المتوفر على امرأته الثانية ؟ فخير لي أن أمتع نفسي بمطالبها كما تفعل ضرتي . أما الأولاد فإنهم بدلاً عن أن يكونوا من امرأة واحدة ، يولدون من امرأتين فيتضاعف عددهم . فإذا أخرجنا الأغنياء من حكمنا كانت معيشة الأب المتوسط أو الفقير ضنكا وعوزاً ، لأن زماننا هذا غير الزمان الأول . فغلاء المعيشة ونفقة أسرتين وتعليم أولادهما ليس بالأمر السهل .

تعدد الزوجات مفسدة للأخلاق ، لأن زوج الضرائر دائماً يحتال ليطمع كل واحدة في حبه وهذا تكفي فيه المداهنة والتطبع . على أن زواج الضرائر في ذاته طمع وشره .

مفسدة للأولاد ، لأنى رأيت بنفسى أن كل ضرة تطبع كراهتها لضرتها فى نفوس أولادها ، فيشب الطفل وقد أشرب كره إخوته لأبيه وأمهم بلا مسوغ سوى ما زرعته أمه فى عقله من مبادئها . فمهما فعلت امرأة الأب لترضى ابن زوجها ومهما أحسنت معاملته فإنه لا يفتأ يتهمها بكراهتها له ، وبأن ما تعمله معه من خير ومعروف إنما هو لخوفها من أبيه أو مداراة لما فى قلبها منه ! وإنك لترى أبناء الرجل الواحد يغارون ويحسد بعضهم البعض كما علمتهم أمهاتهم ، وفى كلام العامة وأمثالهم الجارية ما يؤيد صحة هذا المبدأ

إن زواج الرجل باثنتين مفسدة لقلوب النساء ، لأن الأولى تكرهه بلا شك لإغضابه أياها وجرحه لعواطفها ، والثانية لا تصافيه مطلقاً ما دام متعلقا بغيرها ، فهو « المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » .

ويسرنى أن عادة الجمع بين زوجتين كادت تتقلص الآن من بين الطبقات المتنورة والعالية ؛ لأن التمدين والاستنارة يحرمانها ، وإن ادّعوا أن الشرع يحللها . ولأن العيش أصبح سهياً وتناحرا فإذا كان أجدادنا يكفى أحدهم أن يمتلك عشرة أفدنة لينام مستريحاً فى بيته ويتزوج اثنتين أو ثلاثا ، فإن رجل اليوم لا يكفيه مائتا فدان مع تعبه واجتهاده للإنفاق على بيت واحد عرف التمدين الحديث وأحب الظهور .

سن الزواج

بينت فى مقالى الأسبق ما تجب مراعاته فى الخطبة والزواج من حيث اتحاد مشارب الزوجين فى الدين والأخلاق والمعارف على قدر الإمكان ومعادلة البيئات. واليوم أفرد موضوعى هذا لشرط آخر لا يقل عن هذه أهمية وهو السن الملائمة للزواج .

« الشرق » كما قال لورد كرومر فى أحد تقاريره عن مصر « يتم فيه بلوغ كل شىء متقدماً » وهذه حقيقة جغرافية لا ريب فيها ؛ إذ بنسبة حرارة البلاد يكون نضج النبات والثمار ونمو الإنسان والحيوان . هذا ناموس الطبيعة الثابت بغير نظر إلى تفاوت درجة العلم والعناية ، وما يتخذ من التدابير لإنماء ذلك الشىء أو لتحسين الآخر مما يكون له أثر فى البطء والإسراع . فبلوغ الفتيات فى مصر يكون عادة فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة عند جيدات الصحة ، بعكس فتيات أوربا والبلاد الباردة الأخرى فإنهن ربما جزن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة ولم يبلغن ؛ وعليه فلا نقيس سن الزواج عندنا به عندهن لأننا كما نسبقهن فى البلوغ يجب أن نسبقهن أيضاً فى الزواج ، فضلا عن أن فتياتنا أقرب إلى السكينة وأبعد عن الطيش من أخواتهن الغربيات . وإنى لا أوافق بعض الأطباء الذى كتب فى الجرائد مرة ينص على أن سن البلوغ يجب أن يكون هو بعينه سن الزواج ؛ إذ بالله ماذا تفهم فتاة فى الثانية عشرة من معنى الزواج ، وماذا تعلم من أمور البيت وماذا تعمل لو رزقت بأولاد ؟ إنى أكاد أتصورها تموت هى وإياهم إن لم يكن فى النفاس فعند التربية . وقد ثبت بالتجربة أن أكثر اللائى يتزوجن صغيرات جداً يصبن بأمراض الأعصاب (الهستيريا) وهذا هو السر فى وجود (الزار) كثيراً عندنا .

إن الزواج ليس بالشىء الهين ولا هو بالهزل . تظن الفتيات الصغيرات والراشدات أيضاً أن الزواج معناه عزف الموسيقى ونصب السرادق ليلة العرس

ولبس الحرير والألماس والمباهاة بالأثاث و الأوانى الفضية ، وغير ذلك من دواعى الفخر الكاذب والطنطنة الفارغة . ليس هذا هو الزواج ياسيدتى الصغيرة ، بل هو إرضاء الزوج وحسن القيام على ماله وتدبير بيته ومؤاساة أهله وتربية أولاده ورئاسة خدمه ، فهل تستطيعين كل ذلك ؟ لا إخالك تستطيعين .

تقص علينا جداتنا وأمهاتنا فى بعض سمرهن أنهن تزوجن ولم تزل عليهن التمائم ، فكن يهربن فى (الحارة) و يبكين عند الجيران و يأتين من المضحكات ما يبكى ، فهل نريد أن نرجع القهقرى إلى زمن جدّاتنا ؟ حرام عليكم أيها الآباء ظلم بناتكم وتكليفهن مالا يطقن ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها . حرام عليكم أيها الآباء الإصغاء إلى أمانى النساء الجاهلات وزج بناتكم الصغيرات فى سجون الزوجية الضيقة . حرام والله أن تتزوج الصغيرةُ اليوم وترجع لبيت أبيها غدا . حرام على الأم أن تقول : «أريد أن أفرح بونيتى» فتزوجها طفلةً ولا تنتقى لها كفئا بل تعطيها لأول طالب لها . ولعمرى إن الزواج ليتطلب الروية والتأنى ، والأم ملومة أكثر من الأب لأنها جربت الزوجية بنفسها وسبرت غور مصاعبها ومتاعبها ، إلا أن حب الظهور متأصل فينا لدرجة أننا نرمى ببناتنا فى المأزق الحرج كى يقال عنا عرس فلانة كان فخما وما أبهى العروس وغير ذلك من الترهات .

والزوج قد يفرح أولا من بعروسه الطفلة لكنه لا يلبث أن يحزن ، وهى مظلومة لاجريرة عليها لأنها بالطبع لاتفهم ولا تستطيع القيام بحاجات منزلها من نظافة وحسن ذوق فى وضع الأشياء فى مواضعها ، وهى لاتفهم معنى المسئولية لكنها مع الأسف مسئولة عن جميع لوازم البيت من طعام ولباس وغيرهما ؛ وهى تنام مستغرقة من الغروب إلى الضحى فإذا بكى وليدها لم تسمعه فيقتله البكاء إن لم تقتله هى بالتقلب عليه فى النوم ! والطفل يحتاج لسهر الليل والرضاعة، أفتقدر الصغيرة

على حمله طول الليل وإرضاعه ومعرفة أمراضه وأوجاعه وحسن العناية به ؟! ياقوم هذه إحصائيات الصحة ترينا كل يوم بأجلى ما يرى كثرة موت الأطفال فى مصر أو إصابتهم بما يعسر شفاؤه نتيجة جهل الأمهات بلا شك ، والجهل فى الصغر أكثر منه فى الكبر ، فإذا قرن بما يستلزم الصغر من الضعف وعدم القدرة على تحمل مصاعب التربية كان أدهى .

ومن نكد الدنيا على الفتاة ، قاصرة كانت أو رشيدة ، أن تتزوج من فتى صغير تابع لأبيه ، وأن تكتفى من الزوج بأنه ابن فلان الغنى ، فكثيراً ما سمعنا بأن اختلاف السكنات أو سوء سير الفتى أدى إلى طرده هو وزوجه من بيت أبيه ، فماذا يفعل إن لم يكن تعلم علماً أو صنعة تساعده على المعيشة ؟ لاجرم أن يذوقا وبالا أو ينتجعا بيت أهلها وتبقى هى وهو وأولادهما عالة عليهم إلى أن يشاء الله .

ومما يشقى الزوجين أيضاً من حيث السن أن يتزوج هرم شابت مفارقه بشابة فى مقتبل العمر أو بالعكس فتى بعجوز ، فإن مشرب الشباب يختلف عن مشرب الهرم ، فضلا عن أن النسل الناتج من أبوين بعيدى فرجة السن الواحد عن الآخر يأتى فى الغالب ضعيفا أو هو لا يأتى بتاتا ، وإنك إذا نظرت هرماً وشابة أو شاباً وعجوزاً ممسكا أحدهما بذراع الآخر ، كما قد ترى الفرنجة فى طريقك أحيانا ، فإنك أول وهلة تستنكر هذا المنظر وتحكم — إن حقا وإن كذبا — بأنها ابنته فى الأول أو أمه فى الثانى ، وما يمجه النظر فهو ليس طبيعيا . وإذا كان الله سبحانه أحكم أمر الملاءمة فى الطبيعة فلم يخلق الجبل الوعر فى السماء الرقيقة الصافية ، ولم يبرأ النجوم الجميلة المتألقة ، فى الأرض الخشنة القاتمة فلِمَ . نجمع نحن بين الأضداد ونخالف ذوق الطبيعة الصادق ؟ !

الشابة تفكر فى زينتها وحسن هندامها والتأنس بجمال الاجتماع بصديقاتها .
والهرم يفكر فى علبة السعوط والثريد ودواء السعال ، فيا :

« أيها المنكح الثريا سهيلا   عمرك الله كيف يلتقيان » !

كذلك الشاب لا يلذ سمعه الشينات الكثيرة والياءات فى موضع السين والراء ، ولا يحب زيادة مصروفاته فى تركيب الأسنان المستعارة وصبغ الشعر وطلاء الوجه وغيره من لوازم سيدتنا أو (أمنا العجوز) كما كنا نقول فى قصص الطفولة . أحب فتى مرة امرأة أعجبه شكلها فخطبها إلى نفسها ، فقالت له أنت فتى وأنا عجوز لا أصلح لك ، فلم يقبل قولها وظنها مازحة وألح عليها فى قبوله بعلا ، فلم تر بداً من إجابته إلى طلبه ، فلما دخل عليها ليلة العرس جلس يكلمها و إذا بها خلعت أسنانها ووضعتها على منضدة أمامها فهلع قلبه إلا أنه بقى صامتا ينظر إليها ريثما تتم عملها ، ثم خلعت إحدى عينيها وكانت صناعية من الزجاج ، ثم جردت رأسها من شعرها المستعار ، فظهر أصلع مخيفاً ، و بينما هى تنزع القطن من صدرها هرول الشاب نحو الباب مسرعا ، فنادته : لماذا تهرب وقد كنت تدعى أنى فتنتك بجمالى؟! فأجابها ياسيدتى : « نعم أهرب و يحق لى ذلك لأنى رأيت أغلب أعضائك من الحانوت ، وأخاف أن تكون حواسك كذلك أيضا » . فهل يغبط الرجل على زوجة مثل هذه ؟ و إذا لم يغبط فلماذا تُكره الشابة على تزوج الهرم ؟! اللهم أنت خالق الخلق ومحدد الأعمار . تزعم الجاهلات أن زواج الهرم دلال فى حياته وغنى بعد موته ، فهل ضمنت المرأة الطامعة أن المنية ستعدو عليه أولا ؟ وهل تطيب الحياة الزوجية إذا كان الواحد يترقب الموت لرفيقه ؟ وهل تصح معاشرة تلك التى تعد موت القرين ربحاً ؟ ! إن هذا إلا ضلال كبير .

فعلى ملاءمة سن الزوجين يتوقف شىء كثير من الوفاق والمحبة ، والواجب أن لا تتزوج الفتاة إلا متى صارت أهلا للزواج ، كفئا لتحمل متاعبه ، ولا يكون ذلك قبل السادسة عشرة . وتزويج الصغار لعب فيه شقاء للأمة من عدة وجوه : عناء فى الزوجية ونتيجته دائماً الشقاق أو الانفصال . كثرة وفيات الأطفال . ضعف النسل . إصابة النساء بالأمراض العصبية والأمراض النسائية الأخرى .

وزواج مختلفى السن إضعاف للنسل وشقاء للزوجين وقلب لنظام الطبيعة الدقيق .

فمتى يتنبه لهذا الآباء والأمهات ؟ ومتى تنقشع سحابة هذا الشقاء عن سماء بيوتنا؟ ومتى ننظر للزواج بعين الجد والاهتمام ؟ اللهم أرنى ذلك اليوم فهو أمنية النفس وسبيل سعادة الأمة ورقيها .

طلاء الوجوه

أول ما يلفت نظر باحثة مثلى عند زيارتها القاهرة كثرة وجود الخرد البيض فى شوارعها وطرقاتها ومنازلها ، فياليت لى علم الغيب ، كلنا من جنس واحد إما من سلالة العرب الفاتحين أو من الفراعنة ، والأولون والآخرون لم تؤثر عنهم الشقرة ولم يأت فى أوصافهم الصحيحة وتواريخهم ذكر لاشتداد حمرة الخدود وزيادة بياض الوجوه ، إلا ما كان مبالغة خيالاً فى حبيبة أو حقيقة نادرة ! فلماذا نجد نساء القاهرة كلهن شقراً ونساء المدن الأخرى أقل بياضاً ؟ أو لماذا نجد الدم ضارباً فى وجوه الحضريات قليلا عند الفلاحات والبدويات مع أنهن دائما معرضات للشمس فى غدوهن ورواحهن ، والشمس تنقى الدم وتجدد الصحة ؟ إن فى الأمر لسراً . نعم إن المسحوقات والمراهم وضروب الأصبغة تفعل بالوجوه فعالها ، «وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر » ؟

تزعم عاشقة الطلاء أن البياض حلية ، ولـكن هل تعتقد أن هذا الأبيض الذى خيل لها أنه أبيض يبقى إذا فرض أن خيالها صحيح ؟ كلا إن هذا الأبيض الذى تتعمده وتجتهد فى تنميقه لايلبث أن يزرق فيصير وجهها بنفسجياً، فهل سمعت فى أشعار المتغزلين والمشببين أن الوجه البنفسجى من أمهات الجمال ؟ ! وهل إذا

لفح الحر الوجه المدهون فسال عليه العرق يخطط جداول وغدرانا وينقل من كحل المحاجر إلى صفحات الخدود فيختلط الأسود والأحمر ، هل يرى ذلك الوجه شائقاً جذابا ! ولماذا تعد الشقرة خيراً من السمرة ، ألا تتساوى فى ذاتها الألوان ؟ إن مسألة اللون مسألة اعتيادية صرفة لا أثر لها من الصحة ، فأنا أحب اللون الأخضر ، وجارنى تحب الأحمر ، فهل تفضل إحدانا الأخرى من هذه الوجهة ؟

إن أولئك السيدات يتمادن ولكن تنقصهن ملكة الذوق فى كثير مما يعملن ، فإن الوجوه الشديدة البياض والحمرة يكون فيها دائما عينان زرقاوان وحاجبان أخطبان ، ويكسو رأسها شعر أشقر فتلائم بعضها بعضاً . أما نساؤنا فإنهن بينما يصبغن حواجبهن بالسواد الفاحم إلى نصف الأنف ، وأعينهن يكاد كحلها يخلق لها حاجبين آخرين تراهن بعد ذلك يصبغن وجوههن بالشقرة ، فأين الذوق الحسن من هذا الترقيع الشائن ؟ !

الوجه المدهون يضيع كثيراً من معانى الجمال ؛ فإن تأثرات النفس وطبائعها تنعكس على مرآة الوجه فتكسبه أثرها فيما لا يمكن وصفه : فى العينين وفى الفم وفى الابتسام وفى أسارير الوجه الصغيرة وفى الجلد نفسه أيضاً ، ولكن الطلاء يظهر الوجه كأنه ليس فيه حياة ، ويغطى جلده المملوء معنى ، وينزع بصاحبته إلى تصنع الحركات والسكنات ، والتصنع يذهب ببهجة الجمال ، ولست مبالغة إن قلت إنى أعد كل طالية وجهها تمثالاً من الرخام ، فإذا كان حافظ إبراهيم يعجب لصمت تماثيل الطليان فأنا أعجب لتكلم تماثيل المصريات .

لتقف سيدة من هؤلاء اللاتى يستعملن الطلاء بجانب تمثال من عرائس (ستين وكموان) ولتنظر فى المرآة فتتحقق من حكمى عليها

ضمنى مجلس بصديقتين من المتعلمات المهذبات ، وكنا ننتظر سيدة فرنسية أتت مصر أول مرة لتسيح فى الشرق وتخبر عادات أهله ، فحضرت السيدة السائحة وأخذت تسألنا عن عاداتنا وأخلاقنا ، وأظنها سُرّت بحديثنا ، وعندئذ دخلت علينا زائرتان مصريتان (من قسم التماثيل) فبهتت السائحة وخجلنا نحن الثلاث لهذا المنظر غير الجميل . وبينما كانتا تتحدثان مع صاحبات المنزل بالعربية والسائحة لا تفهمها ، كنت أسارقها النظر فأراها تكاد تجهر بضحكة عالية احتقاراً واستهزاء من هاتين المرأتين . فياويحنا ! أما يكفينا أن يحكم علينا الغربيون بالجهل والتأخر حتى يروا مايسجل علينا العار ؟ ! و بعد أن خرجتا قامت السائحة وطفقت تقلد لنا حركاتهما وتشمئز لذكر وجهيهما ولم يسعنا إلا موافقتها .

هذا الطلاء مضيع للجمال الحقيقى المعنوى والحسى أيضاً ؛ فإنه يسمم الجلد ويسد مسامه ويجهد عضلات الوجه ، فإذا استعملته سيدة وانقطعت عنه يوماً ظهر وجهها شاحباً أصفر متغضنا وتغور عيناها وتسودّ ولا حَوَر . وعملية الطلاء هذه ربما تعذرت حيناً ، فقد تمرض المرأة أو تتأخر فتفاجئها الزائرات فماذا تعمل ؟ أتقابلهن طبيعية أم تجبرهن ساعةً على الانتظار ريثما تتم عملها الشاق ؟ !

والسيدة التى تغش زوجها يجب أن تحتقر : لأنها تزدرى بصنع الخالق سبحانه وتعمد إلى تغييره ، ومن يزدرى بصنع الله كافر ، لأنها تخدع الرائين والرائيات والخادع يجب أن يمتهن ؛ لأنها تجنى على صحتها وتعجل الهرم لنفسها ، فهى إذن لا تدرى النافع من الضار ، ومن لا تعرف نفع نفسها من ضررها فهى بلهاء تستحق الاحترام ؛ لأنها تجنى على الآداب فتجعل من نفسها قدوة فاسدة لبناتها .

وإذا كان الوجه الذى هو أظهر أعضاء البدن يعمد لغش الناس فيه فكيف

بالضمير الحى ! ! إن الطالية وجهها ساقطة فى رأيى . فلتغضب من هذا القول من كانت غاضبة ، فإنى لا يهمنى رضاء التماثيل .

ولولا تشجيع الرجال النساء فى غرورهن ما تمادين فيه ، فإن بعض الرجال يشترون بأنفسهم علب المسحوقات وأنواع المحسنات لنسائهم ، وبعضهم يتكدر عندما يرى امرأته فى وجهها الأصلى وهيئتها البسيطة .

ألا يانساءنا ، اتركن هذه العادة الذميمة . وإن كان لا يسلكن غير صناعة النقش بالألوان فأمامكن الورق ليس أكثر منه ، انقشن فيه صوراً ورسوما تحلى جدران المنازل ، واشكرن الله على نعمه الجزيلة ، واعلمن أننا مصريات ، فإن لم يكن فى أجدادنا أصل العجمة ، فمن أين لنا هذا البياض الناصع والاحمرار الشديد ؟ وما أحلى السمرة الجاذبة لو تفهمين معناها ! إنها جميلة لأنها جميلة ولأنها مصرية ، ولو لم يكن فيها غير المصرية والطبيعة لكفى ، وكل طبيعى جميل .

مبادىء النساء

المبدأ الأول : عدم الثقة بالزوج أو الغيرة العمياء .

أول مبدأ تحفظه المرأة الجاهلة عند زواجها هو عدم الثقة بزوجها مهما أكدت لها براءته من تهمة الخيانة ، ومهما كان الباعث له على تغيبه عن منزله ، فتراها إذا ذهب زوجها لديوانه ودعاه صاحب له إلى الغداء معه فلم يؤب لمنزله من فوره تراها تتكدر وتثور زوابع غضبها ، وتتهمه إما بزواج جديد أو بمصاحبة غير شرعية . تراها إذا دعى للسهر مع إخوانه فتأخر قليلا بالليل تسأله : أين كنت ؟ ولا تصدقه إذا قال الحقيقة . تراها إذا كان ممن ينتدب فى تحقيق قضية أو البحث عن جناية وتغيب يومين أو ثلاثة تتهمه بالتغيب عند زوجته الثانية .

فمبدأ عدم الثقة هذا يسبب ما تخافه المرأة ويصير الخيال حقيقة فيلتفت الزوج إلى ما تقول امرأته، ولا يلبث أن يتزوج أو يخالل؛ لأنها علمته أن هذا الأمر مستطاع عنده، وسهلته على أذنيه وروحه بكثرة ذكره له، وشدة الضغط تحدث الانفجار.

إذا ركز هذا الأساس فى رأس الزوجة نغصت عيشها وعيش قرينها، لأن السعادة والشقاء وهميان، فإذا تخيلت أنى سعيدة انبسط أمامى الكون ووجدت مخرجا من المضايق التى تعترضنى، ووجدت من ثقتى بنفسى واعتقادى بسعادتى سعادة حقيقية، وصرفت الأمور على قاعدة أن أكون دائماً جذلة، وإذا انقلب الأمر رأيت كل حادث هين جالباً للشقاء؛ وهذا شائع عند النساء لاسيما الجاهلات لأن اعتقادهن فى أى شىء لا يتزعزع حتى ولو سطع أمامهن برهان يكذب ما يعتقدن، ولأن أعصابهن أسرع تأثراً وأنفسهن أكثر انفعالاً منها عند الرجال.

وقد يتفق أن يرى الإنسان سيدة دائمة الحزن مقطبة الجبين بلا مسوغ، وأخرى دائماً جذلة وكل ما حولها مثبط للهمة مزعج، فأى الأسباب يعكس كل قضية إلى ضدها؟ إنه هو الاعتقاد والنفس.

وإذا فقدت المرأة الثقة من قرينها فقد يفقدها هو أيضاً منها، فياهول تلك المعيشة المنكرة! مرتبطان اسماً منفصلان معنى! والنساء الملتفات حول الزوجة يزدنها كرهاً له بأن يزعمن أنهن رأين خليلته أو زوجته الأخرى، وينهبن الزوجة الساذجة ويطمعنها فى أن ما يأخذنه منها هو انكاية عدوتها، وسلاحهن الوحيد هو السحر، فياضعف السلاح والمقاتل! لماذا تعتقد المرأة دائماً أن الرجل ليس مخلصا لها الود كما هى مخلصة له؟ إنها ولاشك مخطئة فى ذلك التقدير إلا إذا رأت بعينها ما يثبته. ومما يجسم لها خيالها لسانها الذى لا يفتأ يقلب للزوج أموراً لم تكن لتخطر له، فهى تعيدها صباح مساء، وتقوم معها وتنام تحلم بها وتأكل وهى

من جوارشها (أى مشهياتها للطعام) فيتضايق الزوج ؛ لأن الموضوع فى ذاته ثقيل ثم هو مكرر ومعاد مراراً ، والشيء حتى الجميل إذا كرر مراراً ضاعت طلاوته وذهب رونقه ، فما بالك بهذه التهمة الشنيعة وفقدان الثقة ! إذا تضايق الزوج من هذا الحديث و بلغت روحه التراقى ولم يفلح فى إثبات براءته و إخلاصه لزوجته ، لم يجد أمامه إلا أحدى طريقين : إما أن يكثر من مجالستها و يستغنى عن رأسه وأذنيه ، وإما أن يهيم حيث لا مضايق وحيث يبجل مع إخوانه و يتبادل و إياهم أطايب الحديث ، ولكى يستعد لسماع قوارص الكلام كلها ليلا عند أو بته لمنزله. فبحق الألفة والسعادة هل يعد ذلك عيشاً !

هل علمت سبب تلك الوساوس ؟ نعم ! إنها الغيرة العمياء .

الغيرة القليلة مقبولة لأنها تدل على حب الشخص للآخر وعلى اهتمامه به ، فإذا رأت سيدة بعلها غير مستقيم السيرة وتأكدت ذلك من طريق الصدق لا من شياطينها وأعوانها ولم تغر عليه فإنها لا إحساس لها والحجر أقرب إلى التأثر منها . وأما إذا وضعت الغيرة فى غير موضعها فإنها تشقى نفسها وتشقى زوجها وتشقى أهله وأهلها .

هل يجسر بعل يوماً أن يكلم عجوزاً أو يضاحك طفلة أمام زوجته الجاهلة ؟ وهل إذا قصدته أرملة فى إنجاز عمل لها لم تجد أكفأ منه فى القيام به ، هل تغفر له زوجته هذا الخطأ العظيم فى التحدّث إلى الأجنبية عنه ؟

يجب أن لا يجعل محل للريب إلا إذا رؤيت البيّنة رأى العين . قد تحمل الرجل سلامة نيته على أن يبوح لامرأته ببعض ما رآه فى صباه ، أو أن يصف لها ملاهى باريس وغيرها من البلاد التى ربما كان ساح فيها قبل زواجه ، فيلاحظ وهو يقص الحديث أنها تتغير أو تسأله عدم تكملته ، ولكن هل تغارين أيضا

من الماضى أيتها السيدة وقد ابتدأ وانتهى قبل تعرفك بهذا الزوج الشقى ؟

والسيدات يملن دائما لفتح مثل هذا الحديث وليس عندهن أرقى منه طبعا ، فتجتهد كل واحدة فى إظهار المساوىء التى تسمع بها أو تخترعها عن زوج صديقتها وتظن ذلك خدمة لها لأنها توقفها على مبلغ إخلاص زوجها لها ، فإذا فرض أن وكانت هذه المساوىء حقيقية فإن تلك الصديقة الجاهلة تضر صديقتها من حيث تريد لها النفع وتسبب شقاء أسرة بأكملها ، وإذا كانت اختراعاً وافتراء على رجل برىء فما كان أجدر هذه الصديقة بضبط لسانها ، وهو لا يكلفها أكثر من إطباق فكيها !

وقد شوهد كثيراً أن اختلافات وخصومات جناها أرباب الأسر المتفاهمة المتحابة من أمثال أولئكن الواشيات ، فإذا علم الزوج أن امرأة صاحبه أو أمه أو قريبته هى التى غيرت عليه زوجته وا كفهر من غيم حديثها جو سعادته ووفاقه ، لا يسعه ــ وهو مصيب ــ إلا أن يأمر ذلك الصاحب بحجز تلك المقتحمة إليه عن الإيقاع به وعن الدخول إلى منزله، فتؤلم هذه الإهانة صاحبه وتوجعه ، وربما بتّت بينهما حبل الوداد .

الثقة ما أحلاها بين الزوجين حتى وإن كانت على غير أساس ، لأن الزوجة إذا تحققت انحراف زوجها عن الصراط السوى فلتنبهه أولا باللطف والمحاسنة ، فإذا لم تفلح ملاينتها فماذا تعمل ؟ إما أن تبقى معه إن كانت ترجو عيشه وتؤمل تحسنه وإما أن تنفصل عنه وهذه إحدى الكُبر . فإذا فضلت معاشرته بسبب حبها له أو لارتباطهما بأولاد أو لانقطاعها من الأهل والإخوة فأولى لها ــ وقد تحتم عيشها معه ــ أن تفرض أنه مخلص لها ، وأنه لا يتغيب إلا لأشغال نافعة لمستقبلها ومستقبل أولادها ، وأنا على يقين أن هذا الفرض ميسور وسهل جداً أن تبغيه ، وجالب لطمأنينة وهدوء بال لا يفرقان كثيراً عن مثلهما الصحيحين .

مبادئ النساء

المبدأ الثانى : بغض أقارب الزوج أو الأثرة

مما يطرب له النساء أن يكون أزواجهن لا أهل لهم . فترى الخاطبة أول ماتذكر من حسنات الشاب الراغب فى الزواج — سيان صدقت أو كذبت — أنه لاأهل له ، وتبالغ بقولها : « إنه مقطوع من شجرة » . معاذ الله ! أيجب أن تفنى أسرة بأ كملها ليتزوج منها فرد ؟ ! والإنسان مدنى بالطبع ، فالاجتماع بالغير لا مندوحة عنه والاحتياج للمخالطة ضربة لازب . والمرأة تميل للاستئناس كما يميل الرجل، وتعتز بالأهل كمايعتز هو ، وتدرك معنى القرابة والصلة إذن فماذا يجعل المرأة تحترم هذا المبدأ فتاة وتتجاهله زوجة ! أو لماذا هى تحب أقاربها وتبغض أقارب الزوج وتحمله أيضاً على مجاراتها ! إن هى إلا الأثرة أوالتنازع على السطان . الزوجة تريد أن تكون حاكمة بأمرها مطلقة التصرف فى شيئين عزيزين عليها : قلب الرجل ، والبيت . فإذا كانت وحدها لا يعيش معها من أهل زوجها أحد ظنت أنها نالتهما ، أما إذا عاشرتها حماة أو أخت لزوجها أو ابنة له من غيرها فهناك تنازع البقاء والبغض الذى لا نهاية له ، كلٌّ تريد أن تستأثر بالسلطة على المملكتين وتجتهد فى الفوز بقلب الرجل أوّلا ، فإذا ما وفقت له نالت الأخرى بغير كبير عناء . ولا تخلو إحدى المتنازعتين من خطأ وصواب ؛ إذ لا يمكن أن تكون الواحدة على خطأ محض والأخرى على صواب صراح ، ولوعلمتا لرضيت كل منهما بقسمها من حب الرجل، فالحب البنوى غيرالحب الزوجى ، وإذا ابتغت امرأة أن تغير على الاثنين كانت مخطئة وتعدت ما وراء حدها .

وإذا أرادت الزوجة أن لا يحب زوجها أمه ولا يحترمها ولا يتكفل بمايلزمها

وهى محتاجة إليه فقد أثمت . وكذلك أمه إذا حسدت زوجة ابنها على ابتسامة ألقاها عليها زوجها أو تغشمرت وأرادت أن تجعلها كالصنم لا رأى لها بينهما فهى أيضا قد تناهت فى الظلم والقسوة .

إنّ نساء اليوم غير نساء الأمس وأذواقهن تختلف باختلاف الزمن ، ولكن إذا تحتم أن تعيش فتاة الجيل الجديد مع حماتها ذات الفكر القديم فما العمل ؟ المخاصمة والمعاندة لا تجديان نفعا ، فضلا عن أنهما من صفات الطبقة الدنيا . أما النساء المهذبات فلا يبعد أن يختلفن فى الرأى ولكنهن يصرفن الخلاف حالا ، ولم تسمع واحدة من الأخرى ما يغيرها عليها .

والتساهل أول ما تجب مراعاته فى الأسرة ، واللطف أجمل صفات المرأة ، ترى الزوجة وضع هذا الشىء على اليمين وترى حماتها وضعه على الشمال ، فلتتساهل الزوجة فإنها أصغر سنا ، ولتبين آراءها فيما تختار بلطف وتواضع ، واللين كفيل بتسوية الخلاف . أما إذا تشبثت وأظهرت كبرياء المتمدينات وأصغرت حنكة حماتها وتجاربها بجانب تمدينها الحديث فربما وصل الأمر إلى أوخم العواقب . وأصعب قضية يحكم فيها الرجل هى تلك التى بين أمه وزوجته ؛ لأنه إذا أرضى أحد الخصمين أغضب الآخر ، وأمامه أمٌ واحدة أما النساء فغير زوجته كثيرات فتدور الدائرة فى الغالب على الزوجة ولو كان رأيها صوابا .

الزوجة التى أول ما تدخل البيت ، تفرق بين أعضائه المتحابين المربوطين بصلة الأمومة والأخوة ، شيطان رجيم . يجب عليها أن تتذكر أنها لم تأت إلا من زمن قريب نسبياً . أما هؤلاء الذين معه فمنهم من ربته وتعبت فيه إلى أن صيرته رجلا ، ومنهم من يفضله على نفسه ويفديه بجوارحه ، وأحدث واحد فيهم أقدم منها حباً له وارتباطاً

به . والغريب أن كل امرأة من هؤلاء العجائز كانت تكره حماتها وتريد أن تحبها امرأة ابنها ، ولكن الجزاء الحق من جنس العمل .

وإذا سألت الأولاد وجدت أغلبهم يحبون أبناء أخوالهم أشد مما يحبون أولاد عمهم، وهذا ناشئ ولاشك عن حب أمهم لأقاربها وبغضها الأقارب زوجها ، على أنهم بعيدون عنها ولا ينازعونها السلطة التي تخاف عليها ، ولكن كره واحدة سرى في جميع من ينتمون إليها ، فالزوجة تكرههم بحق أو بغير حق ؛ فضلا عن أن أهل الزوج يحبون الرقابة على امرأة قريبهم ، وقد ذكرنا أنها عدوة الرقابة والتقييد ومبادئها استقلالية مطلقة . على أني لا أفهم كيف تزعم المرأة أنها تحب زوجها ثم هي تبغض أقاربه ! إن هذا تناقض غريب . فإذا كان ادعاؤها هذا حقيقة وجب أن تحبهم وتحتمل من أجله كل صعب مهما كلفها ذلك الاحتمال .

تنازع الرئاسة على البيت أحد سببي البغض ، والسبب الآخر تنازع الرئاسة أيضا ولكن على قلب الرجل . ألا فلتطب نفساً كل امرأة غيور ، فإن حب الزوجة المكتسب الظاهر غير حب الأهل الغريزي الدفين ، كل له صفة خاصة به تجعله لا يقل أهمية عن الآخر ، وهما مختلفان لا تدل كثرة أحدهما على قلة الآخر فهما منفصلان تمام الانفصال .

فالزوجات المتمدينات يجب أن يخفضن قليلا من غلوائهن ، ولا يبخلن على الحاكمة القديمة في البيت بشيء من السلطان ، لأن من تعوّد الحكم يصعب عليه أن ينزع منه ؛ وأمهات الأزواج أولى لهن أن لا يتشبثن كثيراً بآرائهن العتيقة ، فكل زمن يقتضي إصلاحاً مغايراً لما قبله ، والصلاة والصيام خير لهن من إلقاء مسئولية البيت وتربية الأولاد على عواتقهن ، لأنهما مربحان في الدنيا مكسبان أجراً في الآخرة . والسلام .

مبادئ النساء

المبدأ الثالث : المباراة والإسراف

يمتاز الجيل السابق على أخيه الحالى بقلة اللزوميات ورخص أسباب المعيشة . كذلك له ميزة أخرى لا أعرف هل لاحظها الجمهور أم لم يلاحظها؟ وهى لزوم كل طبقة من الناس حدّها من حيث الغنى والفقر ، فلم يكن الفقير ليستنكف من خصاصته ، ولم يكن المتوسط يقلد الأوسع رزقاً والأعظم جاهاً كما نفعل نحن الآن ؛ ولعل السبب الأصيل فى ذلك هو نقص الحرية من أخلاقهم وتأثير شدة الضغط عليهم .

إن نفقات الأسرة اليوم كثيرة فى ذاتها لتعدد الحاجات وغلائها ، كثيرة جداً لأننا نتأنق فى الكماليات الزائدة ونحكى الغير فيها ممن هم أوسع ثروة وأفخم مظهراً ، ولا مبرر لنا فى ذلك إلا الحرية الشخصية وحب التقليد . أما الحرية فنعمة من الله ورحمة ، وأما التقليد إلى هذه الدرجة درجة التلف فليس من العقل فى شىء . اللهم إلا إذا ابتغينا به تأييد مذهب دارون فى النشوء والارتقاء ، ولا إخالنا نبغى التسجيل على أنفسنا بأننا وحدنا من سلالة القرود .

وإذا استثنينا الطبقة السفلى من النساء ، فإننا نكاد نرى الباقى من الوسط والثريات شبيهات فى الملبس والزينة ، تضارع ، الواحدة الأخرى فى عدد الخدم وكمية الأثاث ونوعه ؛ فهل يمكن أن نكون كلنا فى درجة متساوية من الغنى ؟ هذا يستحيل . وإذا لم نكن متساويات فى ماليتنا فمن أين نسد هذا العجز فى النفقة عن الإيراد ؟ جواب صغير مفهوم ، من الرجل أباً وزوجا .

إذا تزوجت الواحدة منا كلفت أباها مالا طاقة له به كى لا ينقص جهازها عن جهاز فلانة جارتها أو قريبتها ، فإذا قدر فنعم القادر لا انتقاد عليه ، ولكن إذا عجز فمن خرق الرأى أن يستدين ليكسب فخراً كاذباً أطول مدته يومان . و إذا تزوجت لم تشأ أن ترى صاحبتها تشترى عشرة أثواب وهى لا تشترى إلا أربعة مثلا ، وكيف تجد عند جارتها خمس خادمات فيهن الأوروبيات وليس فى بيتها إلا واحدة مصرية ؟ وهى تكفيه . فهى دائما تزن نفسها بميزان الغير ، لا تفتأ تقلده مهما فعل ، فإذا لم يكن لها ميراث كبير خاص بها يصرف فى مآربها فإن هذا يحمله الزوج المسكين ولا راحم له ، يصرف دخله كله — وفى الغالب لا يكون له إلا جعالته الشهرية دخلا — و يحمد الله إذا لم يستدن على حساب الشهر التالى ، فإذا فصل من الوظيفة أو لحقه ما يستلزم النفقة كالهرم أو المرض أو المفاجآت لم يجد شيئا يعتمد عليه إلا رحمة رب العالمين .

علة المباراة الحقيقية هى الحسد يأكل القلب و يكثر الهم ، فلا تطيق صاحبته أن ترى أجمل منها هيئه أو أغنى مظهراً ، وتهتم فى أن تكون هى المشار إليها بالبنان فى المجالس ، و يسكرها الطرب إذا ذكر غناها واقتدارها على اقتناء العربات الجميلة والخدم الكثير ، و بعضهن تبيع حليها أو شيئا من أملاكها لتشترى سيارة (أوتوموبيلا) أو لتسافر إلى أوربا لا لأنها تحب السياحة أو تستفيد من الأسفار ولكن لأن غيرها فعلت ذلك . ولو تأملنا لرأينا أن الإنسان مهما حاول أن يجعل نفسه المبرّز فى صفة ما ، فإنه لا يلبث أن يرى أعلى منه وأمكن فى تلك الصفة بعينها ؛ تبذل سيدة كثيرا من مالها ووقتها للتفتيش عن أجمل عقد فى القاهرة فتجده ولكن لا تدوم أوليتها به أكثر من أن ترى أخرى عليها عقد أنفس أتت به من الإستانة أو باريس مثلا ، و إذا تطلع المرء لغيره لم يقتنع قط بما عنده .

أرى أنه لايجمل بالسيدة العاقلة أن يستحكم منها داء التقليد ، لأنه يدل على صغر النفس والإحساس بضآلتها (وإذا ذممت المحاكاة هنا فإنى لا أقصد المعتدلة منها فقد تكون لازمة أحيانا ، وإنما أذم المتطرفة ولذلك وصفتها بلفظة داء) . وإذا كنت بارعة رشيدة فلماذا لا أبتكر فى ملبسى ومنزلى ما يجعل غيرى من النساء يقلدننى فيه بدل أن أجرى دائما وراء ما يفعلن .

يقول الحديث الشريف: « الناس بخير ما تباينوا » وهى حكمة بالغة أوهى كل نواميس العمران ولباب أنظمة الاجتماع ، وإذا كد الاقتصاديون أذهانهم وألهب الاجتماعيون أدمغتهم يستنبطون القوانين ويسنون الأنظمة لصالح بنى البشر فلن يأتوا بأجمع للحكمة ولاأدعى لسير هذا العالم سيراً آليا منتظما (ميكانيكيا) أحسن من هذا الحديث على إيجازه ؛ وعليه فلا يمكن أن يتساوى البشر ، ولا يمكن مع الأسف أن نكون كلنا غنيات !! نحن نريد أن نظهر كلنا بمظهر الموسرات « وهل بالفقر من عاب » ! ؟

الفقر وحده لاينزل الإنسان من رفعته ، فالاعتبار بالنفس والفضائل لا باليسر أو المظهر . ماذا يضر المجتمع الإنسانى إذا كنت أفقر من صاحبتى أو كانت هى أفقر منى ؟ ! بل ماذا تفيد محاكاتى لها إذا كنت لا أستطيعها بمعناها الصحيح ؟! هى تقدر أن تتجمل بالثياب الحريرية والألماس الكثير من مالها وفضل الغنى عليها ولكنى قصيرة اليد عن الإتيان بمثل ما عندها ، أفليست القناعة إذن خير ذخيرة للمتقاصرات ؟ !

وقد تكون امرأة مثرية جميلة الملبس يعجبك منزلها ويبهرك أثاثها وتكون مع ذلك شحيحة لا ينال العاجزون نفعها أو تكون فظة سيئة العشرة ؛ وتكون أخرى غير جمة المال ولكنها جمة الفضائل محسنة على المعوزين . فأى الثنتين

أنفع للإنسانية وأولى بالدعاء ؟ عجب لنا لماذا نتبارى فيما لا يفيد ونترك النافع من الأمور !

المباراة تستدعى الإسراف ، والإسراف يعجز مالية الزوج ويثقل كاهله بالديون ، والمرأة التى تضطر زوجها ليصرف عليها أكثر مما يستطيع لا تخلو من أحد باعثين : إما أن تكون غير عالمة بعواقب التبذير ، فهى إذن كثيرة الشطط جاهلة لا تصلح أن تكون مدبرة للبيت وللأسرة ؛ وإما أن تكون عالمة بمصير مالية الزوج وتفعل ذلك مختارة كما يفعل كثيرات كى لا يوفرن للرجل ما يمكن أن يتخذه فى يوم من الأيام مهراً لحليلة جديدة أو خليلة عتيدة ، فهى مزعزعة اليقين كثيرة الشك ، تقدر البلاء قبل نزوله ولا بلاء أكبر من التزوج بمثلها .

وأكثر ماتنزع المرأة للإسراف فى مال الزوج ، إذا كان لها ضرة تقتسم معها فؤاد الزوج وماله ، فإنها تصرف بحساب وبغير حساب كى لا يجد مايقوم بمصروفات ضرتها أو كى تنتقم منه لنفسها ليعجز عن الجمع بين اثنتين ويندم ، وتحسب أن عجزه وندمه يجعلانه يكتفى بها وحدها ، ولكن ما أدراها أنه إذا أراد حذف إحدى الثنتين من جدول نسائه لعلها هى تكون المحذوفة الخاسرة .

وعلى ذلك التصرف بمال الزوج ، أصرح باستهجان عادة ذكر التوفير السرى الذى يأتيه كثير من النساء ويحسبن ذلك محمدة ، فيشترين بما يوفرن حلياً ولباساً ويزعمن أن أهلهن أتوا به لهن أو يصرفنه فى السحر والخرافة ، وفى ذلك نقيصتان : نقيصة الكذب ونقيصة السرقة ، وأسميها سرقة لأنها لا تفترق عن سرقة اللصوص تباتاً وربما كانت الأخيرة أخف من الأولى ، لأن اللصوص فضلا عن كونهم غرباء عن المسروق منه فإنه قد يعثر بهم فيجازيهم ، أو على الأقل لا يهتدى إليهم ولكن يدرى

شاغل يزعجه . ولشد مايقاسى أحد الزوجين من تنغيص الآخر له .

ومن أكبر دواعى الكدر والتنغيص أن تنفعل الزوجة لأقل كلمة وترجع إلى قومها غضبى أسيفة .

عادة التهديد بالفراق شائعة عندنا شيوعاً هائلاً مستهان بها كثيرا . فكما ترى الرجل يحلف بالطلاق لغير داع كذلك ترى المرأة تنهزم من بيت زوجها لأوهى الأسباب ! يهدد بعضهما البعض بالانفصال في عرض كلامهما ، يريد أحدهما بذلك بث خوف الفراق فى نفس الآخر ليخشاه . وما من زوجين مرتبطين برابطة ما إلا يخشيانه ، ولكن فاتهما أن ذكره ساعة الغضب مما يثير العواطف ويعلو بالنفس إلى سماء عزتها ، وكيف يرضى إباء المهدد، وغيظه محتدم ، أن لا يطلب ما يهدد به ويستخف بالعقاب وإن عظم، فينسى الحقيقة والصالح ويدوس العقبى تفادياً من ضيم نفسه المثارة الهائجة ؟! ولا يشجع النفس الجائشة أكثر من تذكيرها بالخوف ، كالجند إذا صح عزمها على القتال وكانت على حق منه تراها أكثر ماترمى بنفسها فى حلق الموت حينما ترى نار الحرب مستعرة متأججة ، فشدة الموقف تذهب الخوف وتبعث على الإقدام . والغضب كذلك إذا أرخى له العنان ملك صاحبه ورمى به إلى حيث لم يقدر وهو حليم . والمرأة التى تتغنى دائما بذكر الفراق لأقل خلاف يحدث بينها و بين حليلها أو بينها و بين أهله قد لا تأمن أن يصدر عليها حكم الفراق المؤبد من زوجها ساعة الغضب ، وهى لم تكن لتعاضده بالجد و إنما كان هزلاً وعادة مستقبحة . سمعت أن إحدى النساء كانت تطلب الفراق من قرينها كلما شجر بينهما خلاف بسيط أو كلما كدرتها حماتها ، وقد تشبثت بذلك الطلب مرة وألحت فيه وألحفت فيه ، فسألها الزوج هل تبغى الطلاق حقيقة فأجابت بالإيجاب ، فلم يسعه إلا أن أخذها إلى القاضى ليترافعا إليه ويتخاصما ، و بعد أسئلة وأجوبة

أنه فقد شيئاً ، أما السرقة الأخرى فإنها من أقرب الناس إليه وألصقهم به ، ثم هو جاهل بالمرة قد لا يهجس بها . فإذا وفرت المرأة شيئاً فإن ذلك يعد مهارة لها واقتداراً ، ولكن لتره لزوجها فيعطيها إياه عن طيب خاطر وسماح فذلك أهنأ لها وأشرف .

والخلاصة أن الغنى ليس متيسراً لكل فرد ، فأولى أن يلزم كل حده ؛ لئلا يكون مثلنا كمثل الضفدع التي أحبت أن تبلغ كبر الثور فاستعانت بالماء فانفجر جوفها فماتت . ولتعلم المرأة أنها وكيلة الزوج فى ماله و بيته ، والوكيل يجب أن يكون أميناً تقيا ، وأن التكالب على المباراة صفة مصغرة للنفس . و إنى لأزعم أن رجالنا وأبناءنا يقل فيهم الباحث و يندر المخترع أولا يكاد يوجد لأننا متشبعات بحب التقليد ، لاتتجدد همتنا بالبحث والاستنباط فيكون لهم من زوجيتنا وأمومتنا محك لأفكارهم أو أسوة ومثال حسن .

مبادىء النساء

سرعة الغضب والتهديد بالفراق

المبدأ الرابع

اتحاد الزوجين وارتباطهما بالحب الصادق هما السعادة الكبرى التى نفتقدها ، والتى لاغنى لأحد المتزوجين عنها ولو رأى سعادة أخرى فى غير ذلك . فالممول الذى يحسب نفسه سعيداً إذا أحرز الملايين ، والعالم الذى يغبط نفسه إذا اشتهرت تعاليمه ، والسيدة التى ترى هناءها فى اقتناء النفائس ، كل هؤلاء مع فرحهم بما وفقوا إليه لا يستغنون عن تلك المحبة الزوجية ولا يستكملون سعادتهم وهى ناقصة ، لأن الإنسان مهما قويت إرادته لايستطيع أن يتفرغ لأعماله ويفكر وعنده

رأى القاضى أنهامصرة على تنفيذ رغبتهافأصدر حكمه بالطلاق ؟ ولم يكد يتم كلمته حتى صرخت وأعولت وندمت على ماجنت ، ثم طلبت أن ترد إلى زوجها ثانية . فماهذا التناقض وذاك اللعب ؟ ! إن هذه المرأة مثلها كثيرات يجنين على أنفسهن وأولادهن ويهدمن أسراً كانت ملتئمة لولا الحمق واللين !! إذا تعسر عيش المرأة مع زوجها صافياً تعذر إذا طلبت الفراق ، وأما إذا كان ذلك تجنياً ومزاحاً فالزوجة أحكم من أن تفصم عراها فى التجنى والمزاح .

الوالدان أو الأهل لايزوجون ابنتهم إلاوهم راسمون لها خطة سعادتها المستقبلة ومقتنعون بها ومقررون هدوء بالهم من جهتها ، فما أحراها أن تحقق ما يرجون ! وهى بزواجها قد انتقلت بالطبع إلى دار غير دارهم وعشٍ لم تدرج فيه من قبل ، فكان الواجب بطبيعة الحال أن تخفف مسئوليتها كثيراً عن عاتقهم ، أما وهى تشكو لهم مما لا يوجب الشكوى فإنها تبدل صفاءهم كدرا وتأتى بعكس ما كانوا ينتظرون .

يجب أن نقرن رقةشعورنا وسرعة تأثرنا بفضيلتى الصبر والحلم ، لأننا فى منازلنا بين استقبال الزائرات وزيارتهن وترتيب الأوانى وجلائها ، ولعب الأطفال والذهاب من اليمين إلى الشمال ، والاضطجاع على الفرش الوثير من استبرق وحرير ، لاندرى مايكابده الرجل من الآلام من تعنت الرؤساء وما يقاسيه من العذاب فى غلاء الطعام والشراب ، ربما كد فكره وأنهك قواه ولم يصادفه التوفيق وأخطأه الرزق وهو لو لم يكن له إلا نفسه فقط لرضى باليسير ، ولكن ماذا يفعل ووراءه أم وأولاد ، أو قلب وأكباد ، أيتركهم يتضورون جوعا وهم لم يألفوا إلا الرخاء ؟ أفمن كانت هذه حاله يشتغل ليحفظنا و يتعب ليريحنا يصح أن نقابله بالعبوس والغضب إذا مابدا متأففاً يوماً من طول أعمال الفكرة أو من شدة النصب ؟ !

كل شريكين قد يختلفان اختلافات بسيطة ولـكنهما لا يذيعانها ، ومن أحق بكتمان السر من شريكى الحياة ، أعنى الزوجين ؟ ! والحازم من لا يجعل للاختلاف الصغير محلاً من اهتمامه بل يزيله بمجرد الفراغ من التـكلم فيه ، فإذا ما اختلف زوجان أديبان فى تقدير حسنات الشاعر فلان أو تفضيل هذا المذهب على ذاك واحتدم بينهما الجـدال وبدرت من أحدهما كلمـة شديدة للآخر أفيغضبان ويسببان الفراق لأجل ذاك الشاعر أو ذلك الحـكيم صاحب المذهب وهما لا يدريان كما قال أبو الطيب المتنبى .

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

بقيت لى كلمة عن هؤلاء اللاتى يغضبن ليقبضن ما يبقى لهن من الصداق عند أزواجهن ، وهى مسألة شائعة كثيراً عند بعض الطبقات . أما قبحها فجلى لأن المرأة بذلك تبرهن على أنها تقدر النقود أكثر من الحياة والسعادة ، وهذا جشع لا يليق إلا بالمرابين عابدى المال ، والمرأة يجب أن تـكون ملك اللطف ومثال الرقة والنزاهة . وبعضهن يتذرعن بالغضب والاحتماء بالأهل ليصالحهن الرجل ، والعادة أن يصالح الرجل زوجته بقطعة حلى وثياب كثيرة ، فمـا أسخف هذه العقول ! تفدى المرأة راحتها وهناءها وسعادة أولادها بذلك المتاع الفانى !

وقد تغضب المرأة أيضاً لتجرب محبة زوجها لهـا وترى من آيات الود شيئاً جديداً ، ولـكنها فى غنى عن هذه المخاطرة والتجربة الصعبة ؛ لأنها قد تعلم مبلغ حبه لها من أحواله معها .

المنزل لا بهاء له إلا بالمرأة كما أن قوامه الرجل ، فترك المرأة بيتها يمسخ ذلك الهناء المرفرف عليه ويسبب حزن الأولاد وانقباضهم ، كما أنه يتلف وتعبث به أيدى الخدم فيخسر الرجل خسارة مضاعفة .

طريق الكذب والتمويه هذه وعرة المسالك غير مأمونة دائماً ، فإما أن تقرر المرأة أنها ستعيش مع زوجها وتشاركه السراء والضراء فتحتمله ولاتحنق عليه لصغير الهفوات ، فلايلبث أن يندم إذا كان أساء إليها ويعتذر لها ويغفر أحدهما غلط الآخر ، ويزيلان أثر كل خلاف بينهما فيعيشان سعيدين ، ويتحتم على الزوجة إذن أن لاتسرع الخطا نحو منزل أهلها بل تظل فى منزلها تديره . وإما أن تغضب وترجع لأهلها حين ترى أن لا خير فى البقاء مع رجل فظ سيء الأخلاق فتفارقه إلى الأبد ولا تعود ترى وجهه بتةً . أما الذهاب والإياب فأعده طيشاً لا يليق بعاقلة مهذبة تدرك عواقب الأمور .

مساوىء الرجال

الطمع

أريد مما كتبت وما أكتب فى (الجريدة) بعنوان «النسائيات» تخفيف ويلات الزواج على قدر الإمكان وقد بينت فى مقالاتى السابقة مايرجع منها إلى المرأة. واليوم أرانى مضطرة لأن أكتب عن الرجل لأنه أحد طرفى الزواج ولأنه كثيراً ما يظلم ويطغى . ولست أقصد كل رجل على الإطلاق كما أنى لم أكن أقصد كل امرأة ، وإنما الكلام على من فسدت أخلاقهم (وهم مع الأسف كثيرون) فسببوا شقاء النساء وهدموا بناء الزوجية .

انقلبت الحال وصارت الفتاة بائرة فى سوق الزواج إلا إذا شفع لها غناها . عكست آية الإسلام واستبدلت بها عادة لم تأت فى شرائع النصارى ولا اليهود وإنما اتبعوها بدعة وضلالا .

ازداد طمع الرجل فملك عليه حواسه ، فصار ينام يحلم بالمال ويقوم يشتغل له

ولا عيب عليه فى ذلك ، وإنما الذى يعيبه أنه زادت خميرة جشعه فحمض ذوقه واستحكم منه الطمع فى كل شىء حتى فى عروسه !

«ماذا عندها» كلمتان ألفناهما وهما أول ما يفتتح به للخاطب ، وقدلا يسأل غير هذا السؤال . فأبو العروس الذهب وأمها الفضة ، وأخلاقها النحاس وسمعتها الطين ومعارفها العقار ! ! متى وجد المال صحت المصاهرة ولزم الزواج ، وإلا فلْتبقَ الفتاة إلى أن تهرم وتدفن معها طيبة قلبها وحسن عشرتها وقدرتها على تربية أولاد بررة ربما كانوا لو ظهروا فى العالم نافعين .

يلبث إعجاب الرجل بزوجة وغناها قليلا ثم يتحول إلى استبداد واغتصاب فيجبرها على أن توكله على مالها توكيلاشرعياً ليتصرف فيه على هواه : فيبدده على ملاهيه وخليلاته ، أو يتذرع به للظهور فى مظاهر الموسرين . ورب معترض يقول : لماذا تستحل المرأة مال الرجل وتحرم مالها عليه ؟ فهل فاته أن الرجل مكلف شرعاً بالإنفاق على زوجته وعياله ، أما المرأة فلا ؟ اللهم إن كان محتاجاً وعند المرأة فضل فليس من المروءة ولا اللياقة أن تتركه يقترض من غيره ولا تعطيه هى مما عندها وتعتبره شريكا لها فى كل شىء ، على أن ذلك تكرم منها لا تجبر عليه فإذا سمحت أعطت وإن شاءت منعت . كذلك إذا تزوجت المرأة من رجل كان يكفى بيته ثم عضه الدهر فأعسر فلا يصح أدبياً ولا اجتماعياً أن تتخلى عنه وقت عسره أو تبخل عليه بمالها إذ هما شريكان فى السراء والضراء ، فضلا عن أنها لو لم تكن ذات مال لوجب عليها أن تساعده بما تستطيع فيما لا يتعدى الشرف . فمساعدة المرأة للرجل بالمال واجبة إذا أعسر بعد يسر شاركته إياه ، بشرط أن تكون تلك المساعدة فى غير ضرر عليها أو فساد له . أما إذا كان ممن يلعبون الميسر أو ممن يقضون حياتهم بين القنانى والقيان فأحرِ بزوجته أن لا تقرضه درهماً واحداً .

وهناك آخرون تجيز لهم أخلاقهم أن يجازوا الإحسان بالإساءة ، فبعد أن يبددوا ثروة نسائهم ويلحق أصفرها أبيضها يكافئونها بضرة جديدة وبئس الجزاء !

مال المرأة يجب أن يبقى لها ولكمالياتها وترفها ، وهو على أية حال يوفر على الرجل بعض النفقة . وإذا اتحدا ولم يتفارقا فالمال باق لأولادهما ، فأى ضرر عليه فى ذلك ؟ وهل الأنفع له أن يبدده ويحتاج لغيره أو أن يوفره فيجده كنزاً لم يتعب فى الحصول عليه ؟ وهى إذا وفى لها وأيقنت بحسن نيته لاتضن عليه بروحها فضلا عن بعض مال سيفنى وتأتى عليه الغير .

لاحسب الرجل ذا مروءة ونخوة وهو يبيع حلى امرأته ويجردها حتى فى حال عسره : لأنه لامعنى لرجولته ووصفه نفسه بالقوة والنشاط مع عكوفه على الكسل ، ولماذا لاينقب له عن عمل يرتزق منه وهو لايمنعه عن الارتزاق مانع إلا أنه وكل . لايعذر الرجل لمدّ يده لمال زوجه إلا إذا كان له من ضعفه وعدم اقتداره على العمل مبرر .

على أن هذه المسألة من التعقيد بحيث يسهل عندها ذنب الضب . فإن بعض النساء يهددن بالفراق إذ لم يعطين أزواجهن مايطلبون ويذكرلهن الزواج إرهابا ، فأى الأمرين تختار المرأة البائسة ؟ ! لاشك أن إعطاءها المال أهون الشرين ، ولكن أتأمن غدره بعد أن أظهر لها أنه قادر على إتيانه فى أية لحظة وهى لاتعلم ؟ اللهم إن رجلا هذه أخلاقه مع زوجه وهذا مبلغ جشعه لخليق بأن يفارق . ولكن المداراة مما أوصى به النبى صلى الله عليه وسلم ، فلتداره ما أمكن فذلك خير لها من الخلاف . وأولى للمرأة التى تشك فى أمانة زوجها الطماع أن توكله توكيلا مدنياً فقط لاشرعياً كما يريد ، فتكون وسطاً بين الطرفين تحفظ العين من الضياع وتتساهل قليلا فى الريع . المرأة مظلومة دائماً . إذا كانت فقيرة لايرغب فيها

وإن كانت وارثة يطمع فى مالها . والوارثة مظلومة أيضا ، فإما أن لا تتزوج لتأمن الطمع والطامعين ، وإما أن تتزوج على غير بصيرة كعادتنا . ولو كان للخطبة والزواج عندنا نظام آخر لأمكن التحقق من أخلاق الخاطب وتمييز الرجل ذى المروءة من الشره الزنيم .

مساوىء الرجال

الظلم

من الأنباء ما يترك فى أعماق النفس أثراً لا يزول ، ومن تلك الأنباء ما أثر فىّ تأثيراً خاصاً وسأقصه فيما يلى :

كنت يوماً عند صاحبة لى فسألتها عن سيدة كان لى بها معرفة قديمة ولم أرها منذ زمن بعيد ، فتنهدت وأجابت بلهجة المحزون : إن تلك السيدة فى أشد ما يكون من الأسى وأنها لفرط حزنها وكثرة بكائها قد حل بها السقم ، وذلك لأن زوجها عقد على امرأة أخرى وستزف إليه قريبا . فأخذ منى العجب مأخذه ، ورأت صاحبتى دهشتى فقالت : لم تعجبين من ذلك الخبر ؟ أليس كثير الحدوث عندنا مألوفا ؟ قلت : نعم ولست أعجب من حدوثه فى ذاته ، وإنما العجب فى أنه حدث لتلك السيدة وهى ، على ما تعلمين ، على أحسن ما يكون عليه النساء من الخلق وعلى جانب غير قليل من الجمال والعلم ، وقد كنت أسمع منها أنها فى راحة مع قرينها ، وقد رأيتها بعينى تشتغل فى بيتها ولم يكن ينقصه شىء من النظافة والترتيب ، ولها منه أطفال صغار فماذا يريد الرجل فوق ذلك ؟ ! تربية وعقل وملاحة وإنجاب ؟ فقالت محدثتى : إن ولدى تلك السيدة توفيا فى شهر واحد ، وهذا ما حدا الزوج إلى البحث عن أخرى ، وقد خطب فى الشهر نفسه الذى فقد فيه ولديه وامرأته الأولى أم جنينين لم تكمل مدته بعد . فيا لقساوة الرجل ! أكل ذنبها أن ولديها توفيا

وهل لم يكفها حزنها على فقدهما فيسدد إلى فؤادها المكلوم سهما آخر مسموما ؟! وهل ضبط منها رسالة لعزريل تستزيره بها وتحثه على خطف فلذتى كبدها ؟ وهل كان هذان الفقيدان ولديها أولم يكونا كذلك له ؟ نعم إن الرجل أقوى عزيمة من المرأة وأشد احتمالا للمصائب ، ولكن هب أنه جلد أفينسيه الجلد الشفقة ويخطئ به الصبر مواضع الرحمة ؟ اللهم إن هذا منكر لا يرضيك .

إذا احتاجت المرأة للمواساة والعطف فى زمن ما فأشد ما يكون ذلك فى أيامها السود ، وهل أحلك من يوم تفقد فيه ولدين معاً ؟ فإذا ما اشتد حزنها وشاركها فيه القريب والغريب أيصح أن ينفصل عنها زوجها ويتركها هدفاً لسهام الأرزاء والأشجان ، والحزينة زوجُه والذاهبان ولداه ؟ إنها إذا حزنت على أخ لها أوقريب كان من الواجب عليه أن يشاطرها الحزن حتى ولو ظاهراً ، أما وهى محتسبة ابنها وابنه فمن أحق بتخفيف آلامها إذا خلا هو من مثلها ؟ إنه إذا لم يحزن ولم يواسها فلا أقل من أن يتركها ونفسها كما قال الشاعر :

تخذتكم حصناً منيعاً لتمنعوا سهام العدا عنى فكنتم نصالها
إذا كنتمُ لا تدفعون ملمة عن النفس كونوا لا عليها ولا لها

ولكنه هو يتزوج عليها ، يكلم قلبها الكسير فضلا عن أنه أقدم على أمر لا يضمنه . أفلا يجوز أن تكون امرأته الجديدة عاقراً فلا تلد ، أو ولوداً ويموت أبناؤها كالأولى ؟ إن القدر لا يماكس ولا يستطاع تحويله عند أمر كهذا . فالولادة والحياة والموت بيد الله لا ندرى متى يمنحها ومتى يقبضها . إن جوف تلك السيدة لا يسع شيئين فى آن واحد : الجنين والشجن ، ألا يكون زوجها جانياً عليها وعلى ولده الجديد إذا ما زاحمه البث فلفظه ميتاً ؟ ! ألا إن ذلك الزوج

القاسي لجانٍ في عرف القانون ، جان في عرف المروءة ، جان في عرف الإنسانية والحنان .

تذكرني تلك الحادثة المؤلمة بحادثة أخرى تشبهها : ذلك أن رجلا من ذوى الرتب عاف زوجته لأن أولادها منه كلهم بنات فطلقها واقترن بأخرى على أمل إنجاب الذكور فأتت له بأنثى ثم بأنثى ثم بأخرى ، وهكذا أبى الله إلا أن يتم ما أراد . فكأنه استبدل بنات بغيرهن ، ولكنه خسر ود امرأة صالحة كانت تحبه ، وغيّر عليه قلوب بناته الشابات ، وظن أنه كسب ود أخرى وما هو إلا واهم فيما زعم .

ليت شعرى إذا فرضنا أن ولادة البنات عيب ، كما يرى بعضنا ، فهل للمرأة يد في ذلك ؟ ولماذا لا يعيب الرجل كما يعيبها ؟ لماذا لا تعافه المرأة وتطلب إليه أن ينفصل عنها وتتزوج غيرة لتلد ، من غيره ، ذكوراً ؟ ! إذا صح أن يتشبث أحد الزوجين بهذه الخرافة صح للثاني أيضاً ، إذ هما في أحقيتهما وبطلانها سيان .

إن لنا من شئوننا البيتية الأخرى ما يكفي لشغلنا ، ولنا من عاداتنا القديمة المستهجنة ما يبحّ في طلب إصلاحه صوتنا ، فجدير بالرجال أن لا يشغلوا وقتنا وفكرنا بالشكوى من أعمالهم وأظنهم يقع عليهم ظلم الحكومة مرة وضيق العيش أخرى فلا يجدون من ينتقمون منه لأنفسهم سوانا ، وما إخال محروبا أضعف منا سلاحاً وأقل طلبا للثأر . فيارب ألهم رجال حكومتنا السداد فإن ظلمهم الأمة له أثر مضاعف فينا ، ولعلنا لم نزد عن الرجل في شيء بتّةً إلا فيما يؤلم . إذن لقد عكسوا آية القرآن القائلة : « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

مساوئ الرجال

الازدراء بالمرأة

لعل عدوى التشاؤم من النساء سرت إلينا وانتقلت إلى بعضنا بالوراثة من أعراب الجاهلية الأولى ، أولئك الذين كانوا يئدون بناتهم خشية الإملاق أو العار كما كانوا يزعمون ، وقد نسخ النبي صلى الله عليه وسلم تلك العادة المنكرة ، إلا أن أثرها لم يزل باقياً فينا إلى اليوم ، إذ نحفل لولادة الصبي ونستاء لظهور البنت فى هذا الوجود . وقد يعذر المتقدمون على اعتقادهم هذا لحاجتهم إلى الرجال ، لكثرة حروبهم وغاراتهم ، أما نحن فلا عذر لنا إلا هوناً ما ، وفى ماعدا حفظ لقب الأسرة وما لها من الضياع يتساوى الصبي والصبية فى نظرى ، لأن عدد جنودنا محدود ونحن قوم مسالمون نجتنب الحرب ما أمكن . وترانا نقلد العرب ولا نحكيهم فهم يهبون الصبي من يوم ظهوره للحرب ويفاخرون بدخوله غمارها ، أما نحن فإذا دخل أحد أبنائنا الجندية يكاد يقتلنا الحزن ، وأعرف أمهات فقدن أبصارهن من شدة البكاء على أبنائهن المجندين .

ذلك كان زمن الكثرة والشجاعة ، أما اليوم فزمن السياسة والصناعة . ها هى دولة الإنكليز يربو عدد نسائها على رجالها وقد سادت أمماً كثيرة ، رجالها ضعف الإناث فيها ، وها نحن بحمد الله يزيد رجالنا عنا عدداً فأى خير جلبنا وأى شر دفعنا عن بلدنا المفدى ؟! وحنكة حاكم واحد أطيب أثراً من مائة ألف مقاتل ، ويقظة من قليل خير من نوم الكثيرين .

هذا بيان لابد منه لتنفيذ رأى القائلين بعدم الاعتداد كثيرا بالبنات . المرأة المسلوبة الحق مظلومة فى كل أدوار حياتها : نراها يتشاءم منها

حتى وهى جنين ، فإذا ظهرت مولودة تستقبلها الجباه مقطبة والصدور منقبضة والثغور صامتة ، ترى القابلة وهى تحملها منكمشة لا تبدى ولا تعيد كأنما كان لها بعض الذنب فى ولادتها أنثى ! ! نرى أقارب النفساء وصديقاتها يكثرون لها الهدايا إذا كان مولودها ذكراً ويقللون منها عدداً وقيمة إذا أتت بأنثى ؛ نرى كل من نقل الخبر يطفح اليأس من عينيه ولسان حاله يقول : ناقل الكفر ليس بكافر . فإذا انقضت ستة أيام كان سابع أيام الصبى عيداً توقد فيه الشموع نهاراً وتجلب أنواع الحلوى وتعزف الطبول وآلات الطرب ، أما الصبية فيكتفى لها ببعض (المكسرات) ويحسب تفضلا .

كذلك حالها فى التربية والتعليم ، فإن نصيب البنت قليل عندنا حتى أن من كعبت وهى فى المدرسة تعد شاذة . ولست أعجب من جهل الأمهات أكثر مما أعجب لقوم متنورين تربوا تربية عالية ينادون بقصر البنت على تعليم القراءة والكتابة والطبخ والغسل ، كأنما العلم خلق لهم وحدهم فى حين أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف به طائفة دون أخرى ، فكأنهم يجرحون عواطفنا علناً بقولهم لنا نريدكم خادمات منازل فقط لا سيدات مهذبات ! ! وكيف يأبون علينا حقنا الطبيعى فى مشاركتهم الحياة ويطلبون الدستور ؟ !

وليس حالنا فى سن الشباب بأدعى للطمأنينة منه فى الطفولية ، فإننا لا نزيد عن المساجين شيئاً إلا بالاسم فقط ، فبينما تجد الفتى حرًّا ، فى كل شىء ترانا يحجر علينا حتى فى استنشاق الهواء النقى ! حتى فى اختيار لون الثوب الذى نلبسه ، وإذا سمح لنا ببعض المشى أو التنزه رمانا المارة بكل معيبة وأخجلونا ببذاءتهم وهم أحق بالخجل من وقاحتهم وفحشهم وظلمهم وجهالتهم .

وإذا تزوجنا لم تزدد إلا ضغطاً فيقوى الرجل ويستبد . تحكم حرية

الزوجة إلى درجة تميت نفسها وتعدمها الإحساس والحياة . أرأيت أطغى من ذلك الرجل الذى يمنع زوجه من رؤية أمها وأهلها لغير جناية حدثت منهم ؟ أرأيت أطغى من ذلك الذى يمنع الزائرات من دخول بيته ويحجب امرأته عنهن خوفاً من أن يفسدنها عليه أو يعلمنها شيئاً جديداً يأباه جموده واعتسافه ؟ يتحكم فيها وفى صحتها وفى مالها وفى وقتها وفى حريتها وفى كل شىء ، ويأبى عليها أن تسأله سؤالاً بسيطاً عن شغله بحجة أنها لا تفهمه ! أو عن نفقاته معتذراً بأنه لا مدخل لها فى شؤونه ! وهل يحتقر الرجل المرأة أكثر من أن يجلس لطعامه وحده ولا يدعوها لمشاركته فيه ، فإذا فرغ منه تأخذ لقمة من هنا وأخرى من هناك كما يفعل الخدم أو الشحاذون . تظل واقفة ، وإذا غاب ليلا يتحتم عليها السهر إلى أن يحضر ، ثم إذا مرضت يأنف أن يناولها جرعة من الدواء ويستنكف من البقاء معها قليلا فيترك لها المنزل بما فيه !! وليس أصعب على المريض من أن يرى نفسه مهملا متروكا .

يظهر احتقار الرجل للمرأة جلياً فى أفعاله وتصرفاته إذا حزن يوماً لا يكاشفها بما يؤلمه ، وإذا نوى الشروع فى عمل يعدها غريبة عنه فلا يخبرها . يخرج من البيت ولا يعود إليه إلا لأمر ضرورى ، فمؤانسته وأسراره نهب للخلان. أما زوجه فلا يعدها إلا طاهية أو خادمة . وأظن أن الرجل لولا بقية حياء فيه لما هبط منزله ، ولولا أن أكله فى الفنادق يكلفه كثيراً لما ذاق طعام بيته .

أى ازدراء للمرأة وعبث بحقوقها أشد من أن تخرج كلمة من فم الزوج ساعة غضبه فتفرق بينهما وتشتت ملتأمهما ! ! وأى أمل لها فى مستقبل مظلم لا تدرى متى ينهار بنيانه ؟ ! إن الدين لم يسمح بتعدد الزوجات وبالطلاق هكذا من غير شرط كما يفعل الآن رجالنا ، وإنما جعل لهما شروطاً وقيوداً لو اتبعت لما أنَّ منها النساء البائسات .

زار أغلب رجالنا أوربا والبلاد المتمدينة ورأوا بأعينهم كيف يحترم الرجل

الأوربى امرأته حتى أنها مقدمة عليه فى كل مجتمع ، فمادوا ينادون بوجوب تعليم المرأة ويصرحون فى كلامهم بأنهم من أنصارها وأنها واجبة الاحترام ، ولكن كلامهم لا يلبث أن يذهب مع الهواء . إلا أنهم إذا اجتمعوا بسائحة افرنجية أو امرأة غربية تلطفوا لها كثيراً فساعدوها فى النزول من عربتها ، وأمسكوا لها حقيبتها ، ورفعوا الطرابيش إجلالاً لها ، فى حين أن أحدهم يستنكف أن يركب مع امرأته فى مركبة واحدة ، وإذا سافرت أو انتقلت إلى محل آخر تركها ونفسها كأنه هو لم يكن هو صاحب الأفكار الحديثة القائل بمساعدة المرأة ؛ وإذا ازدحمت الطرقات فى مولد أو موكب مثلا رأيت الرجال يدوسون النساء ويضربونهن بالمناكب كأنه زحام الحشر ، فهل هذا مبلغ احترام النساء عندنا ؟ .

أى سبة للمرأة العفيفة أنكى أو أشد أيلاماً من أن يحوطها زوجها بالرقباء والحشم كلما انتقلت خطوة ، كأنها غير أمينة على نفسها أو كأن العفة ملاكها الرهبة لا الرغبة ! !

وهل يزدرى الرجل عواطف المرأة بأكثر من أن يجالس خليلته أمامها كأن شعورها ميت ويريدها أن لا تغضب ، فهل قُدَّ فؤادها من حجر صلد ؟

لا أنكر أن لنا عيوباً يجب إصلاحها ، وأن بعضنا لا يستحق كثير احترام . ولكن أيؤخذ البرىء بذنب المجرم ؟ وهل يصح تطبيق القانون إلا على من ثبتت إدانته ؟ وفى اعتقادى أن الرجل لو خفف قليلا من كبريائه وعلم أن امرأته مساوية له فى جميع الحقوق المشتركة وعاملها معاملة الند للند ، أو على الأقل معاملة الوصى لليتيم لا معاملة السيد للعبد ، ما رأى منها هذا العناد الذى يشكوه ولأطاعته حباً فيه لا خوفاً منه ، ولا يجهل أن الاستبداد يأتى بعكس المراد .

(ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) فكيف ورجالنا على هذا الاستبداد

يأملون صلاح الأمة وتربية أبنائها على حب الاستقلال والدستور ! أما والله لو أرانا رجالنا عناية واحتراماً لكنا لهم كما يحبون ، فما نحن إلا مرآة تنعكس علينا صورهم ، ولنا قلوب تشعر كما يشعرون . فإن أرادوا إصلاحنا فليصلحوا من أنفسهم ، وإلا فلينظروا ماذا هم فاعلون .

احترام الآراء وآداب الانتقاد

اللسان والقلم رسولا القلب إلى الناس ، أوهما جدولان صافيان تنعكس عليهما صورة النفس وما حواليها من الصفات ؛ وإن شئت فقل هما سلك الكهرباء بين ذهن المرء ومن يخاطبهم أو يكتب لهم ؛ تنقل عنه رسالة أخلاقه حرفاً حرفاً بغير زيادة ولا نقصان . والفضائل والرذائل كامنة فى الأشخاص لا يورى زنادها إلا الأقوال والأفعال ، فالمتكلم والكاتب تظهر أخلاقهما جلياً فيما يقولانه أو يخطانه وإن حاولا اخفاءها ؛ لأن الطبع غالب والتطبع سمل بال قليل الستر ، إن دارى شيئاً تظهر منه أشياء . والفكرة وأن جانبتها لا تزال تحوم حولك وترفرف إلى أن تجد لها مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب .

فإذا قرأت كتابة شخص لم تلحظه عيناك أمكنك بالتفرس فيها أن تحكم على أخلاقه بالإجمال : فالمتكلف تعرف من كتابته بأنه لا يزال ينتقى الألفاظ الوحشية ويتقعر فى أسلوب إنشائه ليدل على علمه وبراعته ؛ والرجل البسيط يتجنب متنافر الألفاظ ومعقد التراكيب من غير تبذل ولا ركاكة فى عبارته . كذلك من كرمت نفسه ترى أثر ذلك الكرم فائضاً على كلماته وفى ثنايا سطوره ، واللئيم بالمثل تكاد تلمس لؤمه وضعة نفسه وأنت تقرأ أماليه على القرطاس . وأظهر صفات الكاتب على الورق الحكمة والحلم والحسد والجهل ؛ لأن الغرائز

كلها حسنة أو قبيحة هادئة ، لا يستفزها الشيء القليل ، ولا يهيج لاعجها إلا إذا هيجت كالرائحة لا يبعثها إلا الهواء ، أو كتراب الأرض لا يثور إلا مع الرياح . أما الحسد والجهل فهما أبداً جائشان يغلى صدر حاملهما ويكاد ينبثق من تلقاء نفسه من شدة الفوران كالبركان المضطرم يقذف الحمم لحر ما احتواه جوفه من النيران .

والكاتب أو المفكر يخطىء إذا لام معارضيه على وقاحتهم فى الرد عليه أو النظر إلى فكرته بغير العين التى تستحقها ؛ لأنهم معذورون فيما أرى ، معذورون لأنهم لا يمكنهم التجرد عن غرائزهم ولا يستطيعون نزع نفوسهم أو تنزع أرواحهم من جسومهم . وما قلمهم إلا أنبوب تصب فيه تلك النفوس سائلها فيجرى على القرطاس ، فأقلامهم لا ذنب عليها ، وأيديهم لم تأثم ، وأذهانهم خفيفٌ جرمها . إنما العيب كل العيب فى نفوسهم فإنها مصدر الوحى للذهن واليد والقلم .

على عدد اختلاف أشكال البشر وألوانهم ومناهجهم تجد اختلافاً فى آرائهم ومعتقداتهم . يخطىء الأبيض إذا لام الأسود على حلكة لونه ، كذلك يخطىء ذو الفكرة إذا عاب غيره لعدم رضائه عنها . ورحم الله البارودى إذ قال :

أسير على نهج يرى الناس غيره ... لكل امرىء فيما يحاول مذهب

من العدل أن تترك الحركة لكل إنسان يعتقد فى خلده ما يعتقد لأن المصادرة لا تجوز فى الأفكار ، والاضطهاد إذا ضيق دائرة العمل والكلام فلن يبلغ التضييق على الهاجس والوجدان .

فالفكرة ما دامت فى الخلد خفى أمرها ، ومن التحامل أن يتكهن قوم بمعرفة أسرارها والوقوف على حقيقتها . وإن العمل الذى يقصد به النفع هو بذاته مما يصح أن تقصد به الشهرة وحب الذكر ، ألا ترى إلى المحسن كيف يتهمه

أعداؤه وحساده بأنه لم يحسن ابتغاء وجه الله ولكن سعياً وراء المحمدة ، ويقول أنصاره ومُعاضدوه : إنما أتاه لحب الخير المحض . كذلك السياسى وصاحب الصحيفة فقد يناضل عن مبدأ يعتقده صواباً أو يرد على رأى مخالف ، فيقول قوم : ما أصدق وطنيته . ويقول آخرون : إنه مأجور ، ولم يخل عمل من الأعمال من المعاضدين والمعترضين . ومذهبى أن العمل ما دام نافعاً فسيان أن يعتبره قوم للمنفعة وحدها أو للشهرة ، فإن فائدته حاصلة على أية حال . وقد تكون الشهرة وحسن الصيت جزاء وفاقاً لصالح الأعمال تأتى عفواً بغير قصد صاحبها فما حيلته ؟ أيردها وقد لا تدفع ، أم يترك عمله كى يبرهن لأعدائه أنه صادق وأنه لم يقصد إلا الفائدة خالصة لوجه الله ؟ أما الأفكار والكتابات أو الأعمال التى تظهر للملأ فيجب على من لا توافقه أن ينتقدها ، وليس أحب إلى المنصف من أن ينتقده الناس بالحق فيصلح من خطئه ويقوّم من معوجه . وإذ قد بينت أن الآراء تختلف تبعاً للأشخاص والعقول فما على المنتقد إلا تخطئة ما يرى فساده ، على أن يقرع الدليل بالدليل والحجة بالحجة حتى يقتنع صاحبه ويفحم ، فلا يجد مناصاً من الرجوع إلى الصواب ويرى الناس صدق الأدلة أو كذبها فيكونون حجة له أو عليه . أما من ينتقد بغير الدليل أو يشوب كلامه بالتهكم والسب القبيح فيخرج من عداوته لشخص عفريتا يخيف به كل من يلوذ بذلك الشخص أو ينتمى إليه أو يذكر اسمه ، فأحر بكلامه أن يضرب به عرض الأفق فهو هراء . وإذا كان الله — وهو يعلم صدق دينه وفى قدرته أن يجبر البشر على أن يدينوا بما ينزله لهم — لم يرض أن يذكر مسألة فى القرآن إلا وهو مبين أدلة نفعتها وأوجه ضررها ، وضارب لها الأمثال كى يقتنع من له عقل بصلاحها أو فسادها ، إذا كان الله وهو القادر المتعالى يفعل ذلك فهلا نفعله نحن عبيده الضعفاء ! !

ومن أدب الكتابة أن لا يخلط الكاتب الشخصيات بالعموميات ؛ إذ ما علاقة

انتقاد مبدإ مثلا بأم المنتقد أو زوجه أو فقره وغناه ! وأين الشجاعة والشهامة فى تصويب الخصم من هذا الهذيان ؟ لعلهم جعلوا مكان الأسنة الطوال ألسنة طوالاً ، وبدل خضاب الدماء صبغة من قلة الحياء .

كل ذى رأى يجب تقدير رأيه واحترامه وتمحيصه حتى إذا ظهر فساده يحاجّ بالدليل إلى أن يقتنع . ومن البلاهة أن يتشبث كل بفكرته وحدها ويزعم أنه عَلَمُها ومفردها فيأبى قبول البرهان ويغمض عينيه على القذى .

الصياح والتحامل لا يجديان بل قد يزيدان المتشبث عناداً ، واختلاف المبادئ والآراء لا يحمل على العداوة إلا من لا يفقهون ، ثم إن العداوة لا تستلزم الهجر وفحش القول إلا من القوم السافلين ؛ ومن لى بصلاح الدين الأيوبى يلقى على كل عدوين درساً مما أتاه مع خصمه ريتشارد قلب الأسد ملك الانكليز؟ ومن لى بمن يعلم الجهلة ما ورد فى القرآن والإنجيل والتواريخ من مقابلة الأنبياء أعداءهم بالصبر والصدر الرحيب ؟

ومما يجمل ذكره من آداب الانتقاد أن لا ينتقد الكاتب أمراً كان قد أتاه هو أو أتى شراً منه ؛ لأنهم يقولون : من كان بيته زجاجاً فلا يقذف الناس بالحصى .

هذا رأيى فى احترام الآراء وآداب الانتقاد أوجهه للفتيات والسيدات ، فقد ابتدأنا نعترض ويعترض علينا ، وإذا كنا نقدم ارجال فى كثير من الأمور لأنهم سبقونا فى التعلم والبحث ، وهؤلاء قد بلغ بعض كتابهم من الهوس وسقط المتاع إلى الخبط والخلط ، وحشو عام المواضيع بالشخصيات ، ومزج الانتقاد بالعدوات والمشاحنات ، فأنبه إخوتى من النساء أن يجتنبن الهوة التى وقع فيها بعض إخوانهن . فالباطل أولى أن يجتنب والحق أحق أن يتبع والسلام .

لماذا يضيع الرجل تأثيره الحسن فى أسرته ؟

يأخذ منى العجب مأخذه كلما دخلت بيت أحد العلماء ورأيت نساءه على جهل مطبق ، وتنال منى الدهشة كلما سمعت أن ابنة فلان الغيور غاية فى الخلاعة ، وأن أخت ذاك المستنير تدعو أترابها لحفلة زار ، وأن أطفال ذلك الأستاذ مثقلون بالتمائم . وأكاد أحزن إذا سألت امرأة الصحافى المشهور — وهى تعرف القراءة وتدعى العلم — عن مبدإ زوجها السياسى ، فتخبرنى ببرود أنها لا تقرأ الجرائد ولا تشتغل بمعرفة المبادئ ! ! يحزننى جهل هؤلاء أكثر مما آسف لجهل عامة النساء .

يعذر الفلاح على عدم تعليم ابنته العلوم ، لأنه هو ذاته لا يفقهها ؛ وربما لم يسمع إلا بقليل من أسمائها فضلا عن احتياجه لفتاته فى مساعدته فى الحقل ومساعدة أمها فى البيت . ويعذر العامل الصغير إذا لم يدخل ابنته المدرسة ، لأن مايشتغل به قد لا يكفيه لسد الرمق فضلا عن تحمله أجرة تعليم أبنائه ، يعذر هذان وأمثالها جد العذر ، ويعذر أيضاً صغار الناس ممن لم يتعلموا إلا القليل ليمكنهم من نيل (وظيفة) . تكفيهم العيش ، لأن نفوسهم لم تتشرب روح العلم ولم يأخذوا به إلا وهم لا يجدون غيره وسيلة للارتزاق ؛ ولكن ماعذر رجالنا المستنيرين المتفقهين فى ترك بناتهم تنشئهن الطبيعة كيف اتفق ، وتربيهن الأمهات وسط الترهات ، وهم إذا كلمك أحدهم أظهر لك واسع خبرته فى العلم الذى يتقنه ، وفهمت من مجمل حديثه أنه فيلسوف وأنه ذو أفكار ومبادئ قويمة وأنه يلتهب غيره على أمته ؛ مثل هؤلاء يصدق فيهم المثل العامى (باب النجار مخلع) أو هم كالرجل الذى إذا دهمه هو أمر ظل كالحديد يتجاذبه مغناطيس الحيرة من كل الجهات ، فلا يكاد يرى له مخرجاً من الضيق .

إذا رأيت ابنة شيخ الإسلام لا تقيم الصلاة ، وإذا حادثت امرأة الطبيب فوجدتها لا تفرق بين فعل الأدوية الأكيد وبين تأثير الرقى والتعاويذ فى شفاء الأمراض فهمت من حالها أحد أمرين : إما أن يكون رب الأسرة لم تمتزج روحه بالعلم الذى يشتغل به تمام الامتزاج ، فهو لا يشعر به حقيقة وإنما يظهر به ليتذرع إلى كسب معاش أو احترام ، وإما أنه صادق فى ادعائه ، ولكنه لا يختلط كثيراً بأفراد أسرته ولا يوضح لهم آراءه ومذاهبه ، وهذا هو الغالب فى رجالنا .

يقضى الواحد منهم نهاره فى الديوان أو محل شغله ، ويتسلل من العصر إلى (المقاهى والبارات) فيقتل الوقت فيما لا ينفع ولا يعود لمنزله إلا وجفنه مثقل بالكرى ، وقد يمضى الأسبوع ولا يرى أولاده إلا يوم بطالة المدرسة فيشبون لا يدرون شيئاً من أخلاق والدهم ويقصر هو فى مخالطتهم والتحدث معهم كأنه يأنف أن يضيع وقاره فى محادثة الصغار . وبعضهم يظل أمام زوجه صامتاً حتى إذا مل وملت أخذ صحيفة من صحف الأخبار يطالعها ، ولكنه لا يُفهمها ما بها إن كانت جاهلة ، ولا يقرأ ليُسمعها إن كانت تفهم القراءة ، فكيف تعلم مبادئه وميوله وهو لا يتكلم ! إنها ليست نبية فينزل عليها الوحى ، ولا قدرة لها على كشف حجب الغيب ! وكيف يلقّن أولاده التربية الكاملة التى بلغها هو ومن يرشدهم فى الحوادث اليومية إلى مكارم الأخلاق ويخلص لهم النصيحة ؟ إن المدرسة وحدها لا تنى لأن تكيف ملكة الشخص ، والأم لا تجد من وقتها فراغاً لتجالس أولادها وتثبت فيهم أخلاقها ، هذا إذا كانت مهذبة عاقلة لها أخلاق فاضلة ، أما غيرها فعليها العفاء .

وإن الصبى ، لاعتناء والده به ولكثرة اختلاطه بأخدانه خارج المنزل ، تفيده التجارب ويعرك الحوادث فيعرفها . أما الفتاة فحظها قليل من التربية النفسية وهى

ملاك الأخلاق . ولاعبرة بما يعلمه الإنسان من العلوم إذا لم يكن ذا إرادة قوية معتمداً على نفسه فى كل أموره ، ثابتاً حازماً لا يابساً ولا طرياً ، وفى اعتقادى أن الأب الرحيم العالم باجتماعه مع أولاده وبناته يعوض عليهم كثيراً مما لم يدركوه بالتجربة .

لا أحب الأب يتكبر على أهله وأولاده فيظهر لهم بمظهر الجبار العنيف ، ويظن أن ذلك استجلاب للهيبة ، وهو لايعلم بما يشعرون . إن الهيبة واجبة فى حد الاعتدال ولكنها إذا زادت تعدت إلى الخوف فيفقد الولد الرحمة على أولاده ويفقدون هم كثيراً من المحبة والثقة . بوالدهم وتجد أغلب الأطفال يحبون والدتهم أكثر من حبهم لآبائهم لهذا السبب عينه. وهذا التجبر من جانب الأب يضعف الأخلاق فى الطفل ويفسدها ، إذ يربى فيه الجبن والذل ثم الاستبداد متى كبر . وأولاد البخلاء أكثر الناس تبذيراً متى كبروا . زرت مرة سيدة ممن ابتلين بمثل هذا الزوج القاسى ، وكنا نتكلم وأولادها الصغار يلعبون قريباً منا ، وبناتها الشابات يضحكن ، وإذا بهن يسكتن فجأة ، وارتبكت أمهن وغارت أعينهن وعلاهن الاصفرار وقامت إحداهن تهرول إلى الصغار لتسكتهم ! والثانية تتسمع على السلم والأخرى ترى ماذا يمكنها ترتيبه فى حجرة والدها . فعجبت من هذه الحركة الفجائية وسألت عن الباعث لها ، فأخبرتنى السيدة والحزن باد عليها وتكاد لاتنطق إلا همساً : « إن البك ربما يكون قد حضر » ، فقلت فى نفسى : إذا كان كل هذا الاضطراب وفى حضوره شك فماذا يفعل هؤلاء النسوة إذا قيل لهن « إنه قد والله حضر » ؟ ! وأخذ البنات يشرحن لى أنهن لايتكلمن أمام والدهن ، وأنهن يجتهدن دائما فى البعد عن طريقه ، لأنه غضوب وأنه لا يسمح لهن بزيارة قريبة ولاصديقة ، وأنه إذا أخطأت إحداهن فى خدمته أو تأخرت قليلا (وشدة الوجل تبعث على الخطأ والتأخير) كدرها وأهانها . وإذا تناول الطعام تظل أمهن

وثلاثتهن واقفات كالإماء إلى أن يفرغ منه . فعجبت لذلك وأسفت على تأصل روح الاستبداد فى بعض رجالنا إلى هذا الحد المعيب ، حتى وهم فى منازلهم بين أهلهم وفلذات أكبادهم .

هـذا مثل الأب القاسى الذى إذا اختلط بأسرته ليعلمها لم يستفد أفرادها من تعليمه لأن شدة الخوف تذهب بالفـكر . سألت عن هذا الرجل ومعاملته فى الخارج فأكد لى أخى أنه غاية فى اللطف والتواضع ، وأنه يحب المزاح أحياناً ، فاستغفرت الله له . أيتفضل على الغرباء بالمؤانسة والمزاح أيضاً ويضن بابتسامة على أولاده وأهله ؟ ولـكن لله فى خلقه شئون .

ألا فليعلم الآباء والأزواج أن السـلطة التى يفوضونها فى منازلهم يكفى منها أن يقلدهم أبناؤهم وتتشبه بهم فيها زوجاتهم وبناتهم ويخشينهم على البعد والقرب . وإن الأسرة الواحدة يجب أن تـكون تامة الامتزاج مرتبطة بالحب الصحيح ، فلماذا يضيعون ذلك الحب الطبيعى بقسوتهم وجفائهم ؟ ولمـاذا لا يبثون روحهم فيمن حواليهم من بنات وأخوات ؟ ولماذا لا يجعلون لهم تأثيراً حسناً فى أسرهم ؟ وكما يتوارث الأولاد اللون والخلقة عن والديهم يجب أن يتوارثوا عنهم أيضاً أخلاقهم الحسنة ومميزاتهم . وبودى لو يجتهد كل شاعر فى أن يجعل أبناءه ذكوراً وأناثاً شعراء ، وكل رياضى أن يعلم أسرته الرياضة ، إذا كان لديهم الاستعداد ، وكل سياسى أن يجعل زوجته وذويه يتباهون بمبدئه حتى يتم الامتزاج المطلوب وتظهر فينا روح الحياة الطبيعية والسلام .

الكلفة بين الزوجين

بين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلف لا يتفق ومع مايريده الله لهما من سكون الواحد إلى صاحبه ، ويشذ عن شواهد الطبيعة وآثارها المرسلة إرسالاً من غير تعقيد ولا إبهام فالسماء معقودة على الأفق فى مصر ، وهى كذلك معقودة على الأفق فى اليابان وفى جرينلاند ، لم يضع الله لها عمد المرمر فى إيطاليا ولا قوائم العاج فى السودان ، ولم يقرها على حوائط البلور فى النمسا ، تنيرها الشمس نهاراً (إلا فى القطبين) والقمر ليلاً وقد نثرت فيها النجوم نثراً إلا قليلها فهو منظوم . ولم يشأ الله وهو على قادر أن يجعلها فى شكل عقود وتيجان ، أو يرسمها دوائر ومثلثات مرصوصة رص الرخام الملون ، وهى مع ذلك يأخذ جمالها بلب المتأمل المتفكر . والأرض بسيطة أيضاً لا تحول لنظامها ؛ فالصخر يفتته توالى الريح والمطر فيصير رملا ، والرمل تسفيه الريح ويعجنه المطر فيكون صخراً ، والبذر ينبت إذا لقى رياً وأرضاً صالحة وما أبسط سوق (جمع ساق) النبات تظل قائمة ولكنها تميل مع الريح ويثقل عليها ثمرها فيتدلى أو يسقط إلى الأرض .

زعموا أن ملكاً من ملوك الصين أمر أن يعرض أصحاب الحرف والملكات مخترعاتهم وثمرة مجهوداتهم على باب قصره ليكافئ المجيد منهم . وبينا هو ذات يوم يتفحص تلك المعروضات استوقف نظره جمال لوحة مصورة ، فأمر أن يمثل صاحبها بين يديه ليكافئه على مهارته فى النقش ، فلما أن حضر الرجل عرض الملك اللوحة على جمع من أهل النظر ليحكموا فيها فاستحسنوها كلهم وأشاروا بأجازة المصور ، إلا رجلا حاذقاً قال : إن بالصورة عيباً وتكلفاً لا ينطبق على الطبيعة ، فسئل عنه فقال : صور الرجل عصفوراً على إحدى سنابل القمح المرسومة فى اللوحة ، ولكنه رسم السنبلة قائمة مع أنها ضئيلة ولو اعتلاها عصفور

لمالت كل الميل ، فرأى الملك صدق رأيه ، وأخرج المصور بخفى حنين . هذا مثل ضربته لقبح التكلف وحلاوة البساطة . ولكننا مع الأسف نسمع الزوجة عندنا تقول لزوجها : ياسيدى أو ياأفندى وهو يناديها بقوله : «ياهانم» كأنهما غريبان بعضهما عن بعض . وما اثنان أحق بزوال الكلفة بينهما من الزوجين المطلع أحدهما على سر الآخر المشرف على نفس صاحبه . ولو اقتصر الأمر على النداء لقلنا : بعض الشر أهون من بعض ، ولكنك ترى الرجل يرائى فى حديثه مع امرأته ويطريها بمحاسن ليست بها ، فما أكذبه وما أكذبها !! إذ تغش نفسها وإذ تتكلف له فى كل شىء ، حتى لون وجهها فتصبغه وتغيره ، وعذرها أنها لو وثقت من رضاه عنها وهى فى صورتها الفطرية لما ظهرت له متكلفة .

أعرف نساء وأسمع عن أخريات تظل أحداهن واجمة أمام بعلها ، تخطئها الكلمة إذا نطقت ، وتتعثر إذا مشت ، وتكسو وجهها الصفرة إذا سمعت صوته ، « وتعروها لذكراه رعدة » . فياسبحان الله ! أى سعادة فى تلك العيشة النكدة : عيشة الخوف والوجل ؟ إن الزوجة — مهما كان الرجل مهيباً شجاعاً — ليست موضعاً لإظهار بسالته وقدرته على سحق البشر ! ويقول العامة فى أمثالهم : « السبع لايأكل أنثاه » وهو مثل من الحكمة بمكان . وحبذا لو اقتدى به سادتنا المتجبرون ؛ وحسبهم شرفاً أن يقال إنهم كالليوث وألا يصدق فيهم قول الشاعر : « أسد علىّ وفى الحروب نعامة » فعندهم مواطن عدة لإظهار شجاعتهم فليتشجعوا تلقاءها وليتركونا .

تعجبنى طريقة العرب والفلاحين والفرنجة فى معاملة أزواجهم : ينادى الرجل زوجته باسمها وتناديه باسمه ، تشاركه فى الراحة والتعب ، وتقاسمه الطعام والشراب ، إذا غضب عليها ظهرت له فى مظهر الشمم والإباء ، فان حاسنها حاسنته وإن التوى

لم تقصر هى فى كيل الصاع صاعين .

أما طبقتنا ـ نحن نساء الحضر فى مصر ـ فلا يماثلها فى العالم طبقة جمعت بين الأضداد ؛ فبينما نتحكم فى الرجل فى شأن حلينا وحللنا حتى نجعل نهاره ليلا أو يذعن لمطالبنا ، ترانا نكسر شرة النفس ونحملها من الكلفة وضيمها فوق ماتحتمل ، فكم من إمرأة تقبل إهانة زوجها لها صاغرة ، وكم من أخرى تلدغها أصابعه لدغ الأفعى فتجعل من دمعها المدرار ترياقاً لها ، ثم لاتلبث أن تستغفره كأنها هى المذنبة على حد قول الشاعر :

إذا مرضنا أتيناكم نعودكمُ   وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ

إنها لو أظهرت له أنها مساوية له لما استرضته مخطئا ، ولكن هل ظواهر الإنسان دائما بواطنه ؟ إنك تحترم الأمير ، ولكن لاتعتقد أنه أشرف منك مجداً ولا أعرق منك فى الإنسانية ، وتظهر هذه النزعة فى كلامك عنه خصوصاً إذا استفزتك إهانة منه فأثارت نفسك عليه .

فالزوجة بتحملها أذى زوجها لاتعتقد أنها أذل منه ، ولكنها تخضع صاغرة لاحتياجها إلى إنفاقه عليها ، أو تفادياً من أن يقال طلقت و بانت ، أوحباً لأولادها وخوفا عليهم من أن يذلهم بعدها . وهذا الخضوع ، و إن كان يعلمها مزية الصبر الجميل ، تكلف منها وتصنع ، فالحاجة والحياء يغطيان جراحها ظاهرا فتظهر كأنها اندملت ولكنها تفور نفرا ممتلئة صديدا وصدودا .

الكلفة رياء ، والرياء سرطان يسطو على النفوس فيصدعها و يصرعها . والزوج القاسى أو المتكبر يفسد أخلاق زوجته بتكبره و يعلمها الصغار والكذب ، ومن كانت هذه حالها كيف ينتظر أن تربى أولادها على الفضائل ؟ كيف تقول لابنها لا تكذب وهى تكذب .

أظن أن أصل تأليه البعول امتد إلينا من ذلك الزمن الذى كانت فيه الجوارى حظيات ! ولكن إذا جاز أن تقول الجارية لسيدها المالك لها البانى بها : ياسيدى ، فكيف يجوز لحرة أن تدخل نفسها فى الرق مختارة ؟ ! والرق أسر فضلا عن أنه غير مباح الآن !

وهناك أخرى تقول لزوجها حضرتك وسعادتك ! فما هذا التكلف البارد ؟ إننا بتسميتنا فلاناً بصاحب العزة وتلقيبنا أحد الملوك بصاحب الجلالة لنكفر ونلحد ، فما صاحب العزة كلا الجلالة إلا الله الواحد القهار . ولو أنصف كتابنا لحذفوا تلك الألفاظ الدالة على الشرك من كتاباتهم وأقوالهم .

يكلم الفرنسيون الغريب بلفظه الجمع Vous ولكنهم يضحكون إذا قال الطفل لأمه أو الرجل لزوجته Vous لفظة التعظيم ولم يقل Tu أى أنت ، وكذلك الحال بين الأهل والأصدقاء والزملاء .

الزوجان بعقدهما عقد الزواج تعاهدا أمام الله أن يرتبطا كلٌّ منها بالأخر ، فكيف يقف الإنسان حياته على من لا يوافق مشربه أو يتعالى عليه ؟

سمعت أن المرأة اليابانية تسجد لزوجها وعجبت من ذلك وهى قد أخذت من التمدن الغربى حظاً وافراً ، ولكنها مشركة بالله ، فلا غرو إذن أن صدق ماسمعته عنها فى هذا الشأن . فعلى رجالنا المستكبرين الذين ستغضبهم مقالتى هذه أن يخطبوا منهن فإننا مسلمات مؤمنات لا نشرك مع الله أحداً ، أو أولى لهم إذا قبلوا أن يتحملوا مسئولية المحاكمة أن يختطفوا الجوارى من جبال القوقاز أو من مجاهل أفريقية ويدربوهن على عبادتهم من الصغر ولكن بأية لغة ! !

لعل مصلحة منع الرق لا تعتبرنى محرضة على العبث بقوانينها فتحا كمنى قبلهم ، بحجة أن الدال على الشر كفاعله ! !

زواج الأختين

وصلني في بريد الخيال كتاب ذو بال، أثار من النفس أشجانها، واعترض سرورها بأحزانها، وجعلها بين اليأس من الإصلاح والرجاء فيه، فتارة أنا متسنمة ذروة الأمل، وطوراً أراني في حضيض القنوط، ومعاذ الله أن استسلم لليأس وهو سم القلوب ومعول الحياة ومعاذ الله أن تسترجعني الصعوبات عن عهد أخذته على نفسي بيني وبين الله أن أصلح ما أستطيعه من فساد، وما كان لمثلي أن تنكث المواثيق أو تخلف الوعد، كيفما كانت وعورة الطريق. وهذا هو الكتاب.

مصر في ٣ شوال سنة ١٣٢٧ هجرية

عزيزتي ملك.

شوق وسلام وبعد، فإني أهنئك بالعيد السعيد، كما يقولون، وإن كنت لم أشعر به ولا حفلت له.

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أما ماضيّ فقد كان غير سعيد، اكتنفته الأحزان وأخذت عليه طريقه تقلبات الزمان، ومستقبلي لا أراه إلا أشد حلكة وأبعث على اليأس منه على الرجاء، فقد تولتني مصيبة دهماء ليس لها من سلوان، واحدة لكنها متعددة، إذا تعزيت بأولادي ألح عليّ فراقهم لي على الرغم مني ومنهم وإذا أنساني عزاء الصديقات بعض الأسى على بعدهم ذكرني غدرُ شقيقتي خيانة بعلي، ولولا الإيمان والثقة من رحمة الله لفضلت الانتحار على حياة سئمت تكاليفها، ولكني لم أعش ثمانين حولاً كزهير عند ما سئم؛ بل إن عمري لم يتجاوز الخامسة والعشرين.

عزيزتي: لقد أفرغ الدهر جعبة سهامه فيّ، فأصاب مني مقاتل شتى كثيرُ ما

سمعتك ونحن نلعب تقولين لشقيقتى : إنها غليظة القلب جافية الشعور ، ولا أكتمك أن قولك هذا كان يؤلمنى ، وقد عاتبتك عليه مراراً إلى حد التعنيف ، ولكن ستأخذ منك الدهشة الآن إذا جاريتك فى رأيك فيها ، بل زدت عليه أن فؤادها قُدّ من الجلمود .

أتدرين ماذا فعلت ؟ إنها كانت تكثر من زيارتى فأنشرح لها إذ كان يلذلى شعورى بحبها الأخوى ؛ لأننا كما تعلمين فقدنا الأبوين منذ نعومة الأظفار ، فكنت أستعيض بها عنهما ؛ وكانت تجالس بعلى وتخاطبه وليس عندى شك فى إخلاصها لى وأمانتها نحوه ، ثم تحولت المحادثة البسيطة إلى مضاحكة ومغازلة فحملتها على أنهما كالأخوين مرفوع بينهما التكلف ، ثم ازداد بهما الشغف فكان يأخذها للنزهة معه خارج البيت ويتركنى به ، وهكذا تدرجا فى الحب كما قيل :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

ولم يداخلنى أىّ ريب البتة فى حسن نيتهما نحوى ، وأخيراً لم أدر إلا وقد فاتحنى يوماً بأنه يريد التزوج من أختى لأنه كلف بها وهى كلفت به ، وإذ كان الدين الإسلامى لا يسوغ الجمع بين الأختين فقد تحتم طلاقى منه وحم القضاء . وقد تركت له منزله ، فأقام فيه عرساً بهجاً ، واقترن بشقيقتى بنت أمى وأبى ، وأخذ منى أفلاذ كبدى ، وتركنى أندب حظى وأندب اجتماعى بأولادى بل أندب الوفاء وأندب الإنسانية ! !
أما والله لو كان قد تزوج غير أختى لهان الخطب ولما أسفت على عيشة نكدة قضيتها معه . تحملت سوء معاملته بالصبر الجميل ، وعذرته فى سكره وعربدته ، فكنت أصفح ويسىء كما قال معن بن أوس :

وإن سؤتنى يوماً صفحت إلى غدٍ ليعقب يوماً منك آخر مقبلُ
كأنك تشفى منك داء مساءتى وسخطى وما فى ريثتى ما تعجل

إنى لأشك الآن فى أنى وأختى رضعنا ثدياً واحداً أو حملتنا أم واحدة ! !

لم يكف أختى ـ سامحها الله ـ ما فعلت ، بل إنى ذهبت بعد شهرين من زواجها لأرى أطفالى الذين حرمنى الدهر منهم على غير جريرة ارتكبت فامتنعت عن أن تسلم علىّ وتركت الطبقة (الدور) التى كنت بها إلى الطبقة العليا . وأرسلت لى خادمتها تأمرنى بالانصراف حالاً عن منزلها خيفة أن أكون جلبت معى سحراً يقال من محبة زوجها لهـا . خرافة والله وما كان ليهمنى زوجها وحبهما بعد أن حدث منهما ما قد حدث . على أنى لا أعتقد فى السحر إلا كاعتقادى فى وجود العنقاء .

وأنا الآن فى بيت ، خالى وقد طالما نصح لأختى هو وجدتى ، نصحا لها أن ترجع عن غيها وتنسى زوجى والرجال غيره كثير ، وهدداها بأن يبرآن نسبتها إليهما فلم تحفل بما بذلاه لديها من النصح والتهديد ، وصمّت ، إلا أذنيها عن هواها وأنانيتها .

إن هذه الحادثة ياعزيزتى جعلتنى أمقت ذكر الزواج والرجال ، وأعتقد أنه لا يزال بهم قدر وافر من البهيمية وإن كانوا يدّعون أنهم أرقى منا عقلا وأصفى جوهرا . نعم إن أختى عليها بعض الجرم ولكن من أغواها وأضلّها ؟ أليس هو الرجل ؟

هذه حكايتى قصصتها عليك ، ولى فى إخلاصك مايخفف بعض لوعتى والسلام

صديقتك الوالهة

سعاد

كلمتى . تقع أمثال هذه الحادثة كثيراً فيتفطر لها قلب الإنسانية ، ولا أدرى هل عند حضرات العلماء والمجتهدين فتوى تحرم الزواج فى مثل هذه الحادثة ؟ !

نعم أن الشرع نص على أنه لا يجوز الجمع بين أختين فى آن واحد ، ولكن ألم يضع الدين كل ما يكفل راحة البشر وسعادتهم ؟ وإن فى طلاق أخت لأجل زواج أختها من بعل الأولى نفسه لشقاء لا يعادله شقاء ، وقطيعة بين ذوى القربى ، أو عصياناً لأمر الله تعالى ، فإنه نص على البر بهم نصاً صريحاً لا يحتاج التأويل .

من الملوم فى مثل هذه الواقعة ؟ لا ريب فى أن اللوم لا يتخطى كلا الزوجين الجديدين . ولكنى أعتقد أن المرأة أضبط للنفس من الرجل متى أرادت : وليس ذلك بالفطرة ولكن بفضل المبادىء والتقاليد ، فلو كانت أخت سعاد أرجعت بعل أختها عنها لارتجع ، أولو ابتعدت عن طريقه لامتنع عن التمادى فى الغواية ، ولكنها كانت ميالة للغدر بأختها ، فلا رعاها الله ولا رعى كل امرأة لا تقوى على ضبط نفسها وامتلاكها .

المدن والقرى

قل : ما أنقى الهواء وأعذب الماء وأصفى السماء فى القرى ، وما أكذب الحياة وأقرب الوفاة فى المدن ! ! القرى جميلة لأنها على الفطرة ، أما المدن فلا تعدم أثر التكلف والرياء .

أين دوىّ الكهرباء من خرير الماء ، والدخان المتعاقد فوق المداخن من جو لا ترى فيه إلا تحليق الصقور وإلا رءوس النخل الباسقات ؟ ؟ وأين وحل الشوارع وعثيرَها من أرض كسيت ببساط النبات ؟ ؟ وأين الرائحة المنبعثة من مقاذير المنازل وروث الدواب من شذا أزهار الحقول ؟ ؟ بل ما أوصل البصر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور من نظر تسرحه حيث شئت فلا تجد إلا اللانهاية للفضاء ؟ ؟ وأين كثرة التلفت والحذر من رسل عزريل « السيارات والمركبات » من اطمئنانك وسيرك على صراط سوى لا يقتفى أثرك إلا ظلك

وهو على ما تعلم من التبعية والولاء ؟ ؟ و بالاختصار قل : إن جملة المدن فيها إجهاد للحواس وتشويش للفكر ، وإن القرى فيها هدوء السكون والجسم والبال .

فى القرى تجود الصحة لنقاوة الهواء وحسن الغذاء واتباع سنن الطبيعة فى النوم والراحة والاستيقاظ ؛ أما فى المدينة فغذاء مغشوش وماء آسن لا يكاد يصل إلى المنازل إلا بعد مروره ببطن الأرض ، فيتلوث بما فيها من المستنقعات والرواكد والأقذار ، وجو مكتظ بأنفاس السكان من أقوياء وأعلاء . ومساكن اشتركت فى عمرها الرطوبة فضلا عما بها من الضيق ، وساكنها من حين لآخر ينتظر زائراً أو يزور صاحباً ، أو يخرج ليرى منظراً أو يلتقط خبراً فيضيع وقته سدى فى أحاديث منمقة كاذبة . تراه يقول لزائره : « أوحشتنا وآنستنا » وقد يؤثر زيارة الحمى على زيارته

المدن باعثة على الفساد لمن كان عنده ميل إليه أو كان ضعيف الإرادة ، يجره أولو السوء إلى مساوئهم كما يجر الجزار الشاة ، ويجذبه زخرف المدنية الباطل فلا يقوى على رد هجمته . لا تصلح المدن لتربية الأطفال على قواعد الصحة والاستقلال ، وكذلك لا توافق المرأة كثيراً . والمتصفح لكتاب « التربية الاستقلالية أو إميل القرن التاسع عشر » لا يسعه إلا التأمين على ما قاله مؤلفه من وجوب تربية الأطفال فى القرى . وقد ضرب لذلك مثلا أن الطفل فى المدينة تجتهد أمه فى تزويقه وتحسين بزته ليفتن كل من رآه ، فإذا مشى يريد التريض حمله هذا وقبّله وأطراه ذاك ، وإذا أراد اللعب أو تتبع حشرة أو جرى تنشيطاً لرجليه منعته مربيته لئلا يلوث ثيابه الجميلة ، فينشأ الطفل ضعيف الجسم لأنه لم تترك له الحرية ليستعمل حواسه وأعضاءه كيف شاء . ولاغرو فإن المشى يقويه ويصلحه ؛ ويشب ضعيف الإرادة مغلوباً على أمره لأنه يجبر على الخضوع لمربيته خضوعا مزريا ، حتى إنه ليستشيرها فيما يقول أو يفعل ؛ ويشب كذلك مغروراً بنفسه

لتعوده سماع الثناء عليه والإطراء . ثم يظل جاهلا لكثير من الأمور لأنه فى القرية يستغنى عن كثير من « دروس الأشياء » والجغرافية الأولية يتعلمها بنفسه ، والعلم المكتسب من النفس والتجارب ثابت بخلاف ما يحشى به الرأس قسراً فإنه سريع الزوال غير مؤثر فبدلاً من تلقينه أن الشمس تبزغ من الشرق وتغيب فى الغرب وترديده تلك الألفاظ كالببغاء وقد لا يرى شروقها وغروبها لعلو المساكن الملتصق بعضها ببعض وحجبها الأفق ، بدلاً عن ذلك يمكنه فى القرية أن يلاحظ الشروق والغروب بنفسه لسعة الفضاء حوله .

يضحكنى فى « دروس الأشياء » وكتبها أن يقال : الجمل من ذوات الأربع وله سنام ، والقط له عينان وشاربان ، والسمكة لها ذيل وحراشيف ؛ فإن ذلك يجب أن يراه الطفل بنفسه ، أما ذكره له فأراه حطاً من كرامته وتضييعاً لوقته وتعويداً له أن يتكل على غيره . وعندى أن تركه يلعب ويمرح خير له من تلك الدروس العقيمة . ولكن قد لا ينتبه أطفال المدن لتلك الحيوانات لقلتها عندهم ولعدم تعودهم البحث وإجالة النظر من تلقاء أنفسهم . وهم لو تربوا فى القرى لعلموا كل مايتعلق بها أو جله ، ولأمكنهم معرفة خصائص النباتات ، ومتى وبأى وسيلة تنمو ، وماذا يصنع بها فى أدوار نموها وبعد نضجها ، وغير ذلك مما يفيدهم ويسليهم فى آن واحد .

ترى الطفل فى القرية يستيقظ مع الشمس وينام معها ، ويأكل متى جاع ، فلا ينتظر وليمة يأخذ منها فطيرة قد تفسد معدته ، ولا يجبر نفسه على السهر ليحضر الملاعب ، وهو فى كل أوقاته بعيد عن السكارى والمهووسين وصرعى عجلات (الترام) فتمتلىء نفسه ثقة وإيما وناطمئنانا ويكون أبعد انفعالاً وحمقا من مثله فى المدينة يؤيد قولى هذا أن أعظم النوابغ فى مصر وأشرف الرجال مبادىء أصلهم كلهم تقريباً من أولاد أولئك القرويين الأصحاء البنية والعقول ، أثرت فيهم

تربيتهم الاستقلالية فنشأوا ذوى عزيمة صادقة وحب غريزى للعمل . أما أولاد (الذوات) وهم العريقون فى سكنى المدن فلا حاجة لوصفهم ، ويكفى القول بأنهم لا يصلحون لشىء ما ولا ينبغ منهم إلا النزر القليل .

والمرأة ليست أقل سعادة من الطفل فى سكنى القرى فإنها فضلا عما تجد من جودة الصحة والراحة تراها تتفرغ لبيتها أكثر وتزاول بعض الأعمال مما يشغل عضلاتها أو على الأقل يستدعى انتباهها وملاحظتها : فبدلاً من أن تنام وتنتظر بائع الخبز يحضره لها تراها فى القرية تشتغل بتحضيره ، أو تلاحظ خدمها عند اشتغالهم بالقمح وتجهيزه ، كذلك تجد نفسها فى المدينة كسولاً لأنها ببذل بعض الدراهم يمكنها استجلاب جميع لوازمها ، فلا تخيط والخياطات كثيرات ، ولا تلاحظ نظافة البيت وترتيبه كما تفعل لو كانت فى القرية ، لأن خادمات المدن أرقى بالطبع من الفلاحات فى مثل هـذه الشؤون ، فتتكل ربة البيت عليهن ولـكنهن لا يقمن بما عهد إليهن تمام القيام . أما سوق التنافس فرائجة جداً فى المدن لـكثرة الاختلاط ، وقد يجر تنافس النساء إلى تحميل الرجال فوق طاقتهم ومضايقتهم إذا لم يكونوا فى سعة من الغنى .

ماذا تعمل نساء المدن عندنا ؟ ؟ لا شىء الاهم إلا كنس الشوارع بذيول حبراتهن وإثارة ترابها وجراثيم الأمراض المنتشرة ، ووقتهن ضائع بين استقبال الزائرات وزيارتهن ؛ وبعضهن يحضرن التمثيل ولـكنهن مع الأسف لا يخرجن منه بفائدة ما ، ولا يتعلمن من مزاياه والتاريخ المنطوى تحته والمعانى السامية التى يحتويها ، إلا ألفاظ العشق والتهتك ووسائل الهرب والفجور . مثل هؤلاء تفسدهن المدن وتدعوهن للتبذير والابتذال .

قارن بين المرأتين المدنية والقروية تجد فرقاً هائلا فى الصحة والأخلاق . فبينما تنشأ الأولى خمولاً عليلة تجد الثانية مفتولة الذراعين طاهرة السيرة والسريرة

تمشى الأولى فى الطريق محتجبة ، ولـكنها غير محتجبة عن أعين السفلة وألسنتهم فيغازلونها على قارعة الطريق ،وهى تمشى الهوينا متبخترة أما القروية فانها تلوح عليها دائما ملامح الجد والنشاط ، فإذا مشت خارج بيتها تجدها تسرع الخطَى لا تلوى على شىء ، وهى لا تغطى وجهها ولـكن هل يجسر أحد على « معا كستها » ؟ ؟

رأيت سيدات كثيرات لا يستطعن العيش فى القرى أسبوعا واحداً فعجبت من ذلك . هؤلاء من يسميهن الانـكليز (Society Women) أى نساء المجتمعات وهن اللاتى لا يهمهن إلا أن يظهرن فى كل حفلة ويذكرن بالحسن والتأنق فى الملبس ونفاسة المصوغات ، ويطربهن أن يكُن موضع الإعجاب وأن يشار إليهن بالبنان ولو فيما لا يستحق الذكر . مثاله أن إحداهن رهنت أملا كها واشترت سيارة وأوصت بأن تدهن تلك السيارة بلون ليس له مثيل فى البلد وأن يجعل لصفارتها صوت خاصّ تعرف به ، فإذا مرت وسمعت قولهم هذه سيارة فلانة هزها الفرح ، ونسيت أن أملا كها مرهونة وأنها خير من السيارة وأبقى . فهذه السيدة ومثيلاتها ممن يرصعن أحذيتهن بحجارة الماس الـكريم ويتركن الفقراء يتضورون جوعاً ، لو نشأن فى القرى أو لو سكنها لوجدن أنفسهن بعيدات عن مثل هذا الترف الباذخ ولواسين الملتفات حولهن من الفلاحات البائسات .

السيدة الفاضلة هى التى ينال غيرها نفعها لا التى ترفل فى الدمقس وفى الحرير . وفى القرى يمكن بث التعاليم المناسبة لأهلها فتستفيد منها كثيرا النساء الجاهلات ، كتشويقهن للنظافة وإلقاء بعض النصائح الصحية عليهن وحثهن على إرسال بعض أولادهن للـكتّاب وتعويدهن الاطمئنان لتحوطات الأطباء أيام الأوبئة ، وتشجيعهن عند أخذ أولادهن للجندية وغيره كثير . وقد جربت ذلك بنفسى ويسرنى أنه ناجح والحمد لله . إلا أن هذه القلوب الطيبة والنفوس المطمئنة

لتجعل الملتفات حولها تشعر كأنها ملكة فى مملكة صغيرة ، ويلذها أن تنفعها وترقيها . فليتدبر ذلك نساؤنا اللاتى يكرهن زيارة القرى لا لذنب إلا لأنها بلد الفلاحين .

جمال السيدات

البشاشة مفتاح ما أغلق من السعادة ومعوان على قضاء الأشغال ، يصل نورها إلى قلب صاحبها فيفعمه غبطة . وكذلك يلقى شعاعه الكهربائى على من حوله فتنتعش به أرواحهم ، وهى جميلة فى الكهل كما تجمل فى الطفل ، إلا أنها أبهى وأشد تأثيرا فى المرأة ، تلك التى تسيطر على القلوب ولا تدرى .

خلقت المرأة لطيفة بالفطرة ، والبشاشة من لوازم اللطف كما هى من المؤثرات فى الجمال . وإن لين صوتها ونعومة أديمها وتناسب أعضائها لتستدعى مراعاة النظير فى رشاقة حركاتها وانفراط أسرة وجهها . كذلك صوت المرأة يدل على تربيتها ؛ فالمرأة المهذبة لا ترفع الصوت ولا تكاد تسمعها عن بعد إلا كالهمس . هذا إذا لم يبعثها باعث شاذ على إعلائه ، كأن تقف خطيبة على جمع حافل أو تلقى درساً فى حجرة واسعة ، ولكنك إذا اجتزت أحد شوارع البلد الهادئة يذعرك كثرة ما تسمع من صياح النساء فى غير طائل ، إلا شتم الخدم والدعاء على الأطفال أو محض قص القصص أحيانا . فإذا دخلت المنزل وجدت صاحبته مقطبة الجبين يكاد يطردك عبوسها عن أن تقابلها ، ولا توشك أن تجلس حتى تبدى لك سبب صراخها فتشكو من هذا وتتألم من تلك إلى أن تجعل الدنيا فى عينيك كسم الخياط .

يلاحظ نساء الفرنجة ذلك وكذلك السيدات التركيات ، ويستدللن من صوت

المرأة على مكانتها فى الاجتماع . فالمهذبة تخفضه ، أما عاليته فيصمنها بفساد التربية أو ضعة المنبت ، ولكننا ـ نحن المصريات ـ قلما نراعى ذلك ، فقد تجد أعرقنا أصلاً أقوانا نبرة ، وأكثرنا حشمة أشدنا صراخا .

ثم إذا أرادت إحدانا التنقل من حجرة لأخرى تراها تتعثر بأذيالها أو يصدمها حائط أو تكسر آنية قريبة منها . وهذا كله نتيجة تربيتها الأولى

يجب أن تتعلم الفتاة كيف تمشى وكيف تتعلم . لا أريد بذلك أن تتدرب على التبختر أو غنة الصوت . كلا ، وإنما المراد تربيتها على ملاحظة ما حولها والانتباه له ؛ فكثيرات عندنا وكثيرون أيضاً من يمشون غير حذرين فيقعون فيما لا تحمد عقباه وإن كثرة صرعى (الترام) فى مصر وتعدد السقوط من النوافذ لبرهان جلى على فساد التربية سواء كانت فى الأطفال أو الكبار . وإن من العُمْى لمن هم أشد حذراً فى التلمس وأكثر تؤدة فى المشى من هؤلاء المبصرين الذين (لا يستعملون أعينهم) كما يقول الإنجليز فى اصطلاح لغتهم ! !

إذا كان الإنسان عاجزاً عن أن يحسن خلقته أو يغيرها تغيراً ثابتاً ، فإنه يستطيع على الأقل أن يحفظها كما هى زمناً طويلا وأن يحسّن أخلاقه . وهذه الثلاث الخصال أى البشاشة والخفة وانخفاض الصوت من مجملات المرأة خَلقاً وخُلقاً ومن محسنات الصحة أيضا ، فقد ثبت أن تقطيب الوجه يدنى إلى الشيخوخة بما يخلفه من الآثار والغضون فيثنى الجلد ثنيات لا انفراط لها فيما بعد ، وأظن هذا هو السبب الوحيد فيما يظهر على نسائنا من الكبر قبل الأوان .

أما خفة الحركة فكفى بها ما نستدعيه من نشاط الجسم وتوفير الوقت . تسافر المرأة الأفرنجية الآن أو البدوية وحدها فتركب القطار أو الجمل وتنزل وسرعان ما تحمل متاعها أو تحضر من يحمله لها بلا ضوضاء ، أما المصرية فلا

تسافر إلى محطة قريبة إلا ومعها من الخدم والأقارب من تعطلت أعمالهم من أجلها ، ثم تجدها لا تكاد تحرك رجْلا لتنزل حتى يتحرك القطار ، و إذا ساعدها الله (والأولياء) !! ونزلت فما أكثر ما تفتقده ولا تجده : ضاعت حقيبة المصوغات ، وانكسرت القلة فبللت حبرتها ، واشتبك برقعها بمفتاح العربة فانقطع خيطه ، و إذا لم يسرع حشمها فى التقاط طفلها فقد يقع أحدهم تحت العجلات صريعاً .

أما انخفاض الصوت ففضلا عن رقته ولطفه فى ذاته فإنه يريح الرئتين والحلْق من الإجهاد ، وكذلك يقع لينا على آذان السامعين .

المرأة صاحبة البيت فى الحقيقة ، لا الرجل ؛ فإنها بما لها من القيام على ترتيبه وحفظ من فيه وما فيه تسرى سلطتها على من يسكنونه معها من زوج وأولاد وخدم. والرئيس له تأثير غريب فى مرؤوسيه ، يأتى طبيعياً إن لم يكن بالتقليد لنيل الزلفى . فإذا دخل معلم على تلاميذه بحالة ما من الحالات النفسية تجد أن تلك الصورة بعينها قد انطبعت فى التلاميذ إن فرحاً وإن غضباً . والمرأة لها نفس ذلك التأثير الغريب فى بيتها ، فحرام أن تحزن معها رجلا يتعب ويكد يومه ولا يغشى بيته إلا ليستريح ، وأولاداً صغاراً لا يعرفون للهم معنى ، وخدماً تبعث فيهم كلمة طيبة منها روح النشاط وحب العمل . حرام أن تكدر صفو هؤلاء على غير جريرة لأنها تشعر بملل من طول الكسل ، أو بضيق صدر بسبب كان ذلك أو بلا سبب .

على أن بعضهن قد يفرطن فى التبسم وانخاض الصوت إلى درجة تخرجهن عن اللائق . فالمرأة الضاحكة بلا سبب ، والخفيفة إلى حد الطيش ، والواطئة الصوت إلى حد الهمس ، كلهن مفرطات فيما يجب ، إنما أعنى أن تصحب البشاشة الوقار ، والخفة الحزم ، وهدوء الصوت البيان . هذا هو الجمال الممكن نيله ، الممدوح أثره ، لا الطلاء والتطرية الكاذبان .

جمال السيدات يضيعه التبغ والخمر

الله أكبر . ما جمال المرأة المعنوى إلا فى عفتها ووداعتها ، والتبغ مذهب لتلك الوداعة مخل بصفائها . صور قدماء الرومان واليونان آلهتهم برموز وتماثيل تدل عليها ، وكذلك يصور المعاصرون من الفرنجة كثيراً من المعانى فى أشكال مجسمة تعينها : مثلوا الحنو الوالدى والشفقة والصبر والحب وغيرها فى حجارة نحتوها وصور نقشوها ، ولعلهم لم يفتهم تصوير الكسل ولو أنصفوا لصوروه مرأة تقضى وقتها بين السيجارة والقهوة وأظننا لا نجهل مُثلا حية كثيرة له .

وكما يذهب تعاطى التبغ بالجمال المعنوى كذلك يسلب الجمال الحسى : يرمى الأسنان بالصفرة ، ويغير اللثة والشفتين ، وأظنه يغير طعم الفم أيضاً . ولو عاش الشعراء الأقدمون إلى هذا الوقت لما رأينا فى أشعارهم ذكر اللؤلؤ والبرد ووميض البرق وغيرها مما كانوا يشبهون به أسنان النساء لشدة بريقها . فإذا كانت المعاصرات وخصوصاً المتمدينات منهن يزعمن أنهن أرقى من مثيلاتهن الغابرات فى كل شىء فقد أخطأن . وإذا كان (دارون) وأنصاره يدعون اطراد التحسن والارتقاء فى التسلسل الذى قالوا به فقد كان يتحتم عليهم أن يستثنوا جمال النساء لأنه راجع القهقرى . ولو اقتصرن على تعاطى التبغ لهان الأمر . إنهن والأسف ملء فؤادى يتعاطين الخمر سراً وجهراً . أعوذ بالله من شر المدنية الحديثة ومن شر التقليد الأعمى .

الرجل أبشع ما يكون حين يسكر والمرأة أبشع ما تكون حين تشرب الخمر . وقد سرى هذا الداء العياء بين الطبقات العالية من النساء بدعوى أنه من كماليات التفرنج ، ويقلدهن فيه الباقيات تشبها ، ويتبجح بعض النساء الآن فى الأعراس بطلب الكؤوس والأقداح وزجاجات الخمر ؛ إذ يشربن بلا احتشام ولا يلبثن أن يتمايلن

ويهذين كسكان (السراى الصفراء) .

حدثتني سيدة ثقة من المتألمات لهذه الحال أنها دعيت إلى عرس أحد (الذوات) ولما جن الليل قام من بين المخمورات اثنتان ، فهذتا ما شاء لهما الجنون ، وبعدها تشاجرتا وأمسكت كل واحدة منهما بتلابيب الأخرى فمزقتا أثوابهما المزركشة ، وكانت النتيجة سخرية وفضيحة وقد أكدت لى محدثتى أن ثوب إحداهما كلفها أربعين جنيها فياللعار ! إنها لبدعة وضلال كبير . . ذهب الوقار وانتشر الفجور فبئس التمدين وبئس التقليد . ألمثل هاتين المرأتين توكل تربية الأولاد ومن مثلهما يطلب تدبير الدور ؟ إن السكرى لا تعى ما تقول ولا ماتفعل ، وقد يجرها الخمر إلى شر أنكى من الهذيان وإن المتتبع لسير نسائنا ليدهش من كثرة الفساد بين الطبقة العليا منهن وهى تعدى كالجرب غيرها من الطبقات . أين وازع الدين ؟ أين زاجر العقل والآداب ؟ يا قوم لا تغرنكم زخارف المدنية وربوا بناتكم تربية إسلامية . ولا بأس من اقتباس الحميد من المدنية الأخرى ، وإن تدهوركم هذا لآخذ بكم وبالوطن إلى مهاوى الاضمحلال . وأى فساد أكبر من اندماج أمة فى أخرى ، وتلاشى عاداتها وآدابها فى اتباع سنن لا تتفق مع دينها ولا مع مدنيتها ؟ ؟

إن فساد كثير من النساء راجع إلى بعولتهن ، فكثيرات تعلمن منهم السكر ، وكثيرات يسكرن معهم فى البيت حرصا عليهم أن يسكروا فى الخارج فيزنوا إلى غيرهن أو تسلب نقودهم ، ويجعلن لأنفسهن عذراً أن بعض الشر أهون من بعض . إلا أن المرأة الحكيمة هى التى إن رأت فى بعلها خصلة ذميمة أخذته بالحيلة وحسن السياسة والتأثير إلى أن يتركها لا التى تحاكيه فيها فيتضاعف الفساد وأجدنى مضطرة إلى توجيه بعض اللوم إلى أطبائنا فى هذه الحال ؛ فأغلبهم يصفون أدوية فيها مزيج من النبيذ وغيره للسيدات بدعوى أنها تقوى الدم أو

تجلب الدفء أو تمنع المغص وغير ذلك نعم إنهم يصفونها بقصد حسن لأنهم يعرفون من خصائصها ما قد يشفي ما وصفت لأجله . ولكن في إمكانهم أن يستبدلوا بها عقاقير أخرى لها تلك الصفات نفسها ولا يبعد عليهم معرفتها أو التنقيب عنها في كتب الطب القديمة ، لأن بعض النساء يتوكأن على أن الخمر دواء فيتعاطينه لذاته ويزعمن أنه للشفاء . وقد تترك فيهن الكأس الأولى وهي دواء ما يجعلهن يعدن الكرة في غير ألم .

أما الضرر الصحي من التبغ والخمر فلا يقل عن مثله الاجتماعي . فقد أوضح الأطباء مفعوله وبينوا مقدار (النيكوتين) السام في كل لفافة (سيجارة) وكيف أنه يضر الصدر والعيون ويفسد الشهية للطعام . أما الخمر فكفى أنها تقطع الكبد وتفسد العقل . وفي تقرير كتبه مدير مستشفى المجاذيب أن أكثر من نصف ضيوفه الظرفاء أذهبت عقولهن المغيبات !

إن أثقل وقت تقضيه السيدة التي لا تدخن هو الذي تجتمع فيه بأخريات يدخن ، فيرسلن سحب دخانهن فتستعبر ويسد عليها الدخان منافسها . ولعل الله بفضله وكرمه يسمعنا عن حريق آخر في مخازن الخمور كما أحرق مخازن التبغ ، فتجد المتوسطات والفقيرات من غلاء أسعارهما ما يمنعهن من تعاطيهما ، ويكون عزاؤنا الوحيد لأصحاب الخسائر بيت المتنبي .

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد !

جمال السيدات والرياضة البدنية

كثيراً ما يكون ضعف البنية من مشوهات الجمال . وإن لجودة الصحة لدخلا لا يستهان به فى تحسين تقاسيم الوجه وتناسب الأعضاء . ولا تقوم تلك الجودة على حسن الغذاء فقط كما يتوهم أغلب النساء ، بل لها أساسات أخرى أهمها الرياضة وخلو الفكر من الهم . والناظر لحالة نسائنا يدرك لأول وهلة احتياجهن الشديد إلى الرياضة البدنية ؛ فإن فقر الدم المستحوذ على كثيرات منهن والسمنة المفرطة المسببين عن طول مدة الجلوس ليشهدان أن تلك الوجوه المصفرة لم ترها الشمس ، وأن تلك الأجسام الضخمة لم تهذبها الحركة . ولو اقتصر الأمر على تشويه الجمال وما ذلك بالهين على النساء ، لما كان الخطب كما هو الآن جللا . إن طول المكث فى مكان واحد وعدم تنوع المعيشة عندنا يذهبان بطلاوة الجديد ويجلبان الأمراض المختلفة ، والسأم كالماء الراكد إن لم يتغير أسن .

للرياضة أنواع شتى تستعملها النساء الغربيات ، ولست أشير على نسائنا باقتباسها بأنواعها فقد لا تلائم مجتمعنا ؛ فمنها الألعاب المختلفة والركض والسباحة وركوب الخيل ، وأقلها كلفة وأكثرها ملاءمة للشرقيات المشى . فهل ترانا نقوم به وهو لا يكلفنا درهماً ، وليس هو مما قد نعده من علائم الطيش الافرنجى أو مما يذهب برزانة الشرقيين ووقارهم الطبيعيين ؟ ؟

إن عيشتنا كلها جلوس فى جلوس ؛ نظل أسرى البيوت الضيقة ويمنعنا زهونا عن أن نشتغل بشىء فيها فتجمد عضلاتنا عن الحركة ، وإذا طلبنا فكاكاً من هذا الأمر الممل فلا نجد سوى بيوت الجارات نزورها ماشيات خطوات

معدودت إن كانت قريبة ، و إن بعدت فما أرخص العجلات وأكثرها مما تجره الخيل أو الكهرباء أو البنزين .

يشكو أغلب نسائنا الصداع وضيق الصدر وعسر الهضم وغيرها مما تكفى الرياضة واجتلاء جميل المناظر لإزالته . وما الآلام العصبية و (الزار) إلا نتيجة ذلك الملل وبلادة الأعضاء ، فإن المرأة المصرية لاتدرى بماذا تروّح عن نفسها وتذهب سأمها ولا كيف تنوع معيشتها ، فتنزع إلى تلك الترهات لجهلها ، ولكنها معذورة فيما أرى لأنها مضطرة وقد يركب المضطر حد السيف .

إن آباءنا وأجدادنا كانوا أكثر منا مراعاة لترويض النساء من حيث لا يدرون ، فإن المنازل القديمة كانت كلها مبنية على الطراز التركى ، تحجبها أسوار عالية وداخلها الرحبات المتسعة والحدائق الغناء مما تمرح فيه نساء البيت ولا رقيب عليهن ، ويذممن أنفسهن ببهيج منظر الحدائق وفوارات الماء ، فمن لاذٍّ للسمع ، وجميل للنظر ، وحلو للذوق ولطيف للمس وزكى للشم . طيور صادحة ، وغزلان سارحة وفاكهة جَنية ، وزهور شهية وروائح عطرية ، خضرة الزمرد وشفافية البلور فى النبات والماء وبهاء الياقوت وأريج المسك فى الزهر والهواء ، وسواقٍ ناعرة تجلب النوم وتجعله هنيأ ، وبالجملة كان عيش تلك البيوت مريئا ، ونساؤها كما قال شوقى بك :

يمرحن فى مأمن مثل حمام الحرمْ

أما اليوم فقد قضى الاقتصاد أو بالأخرى البخل والتناهى فى تقليد الغربيين على أصحاب البيوت أن يضيقوها ، وما ضاقت إلا على النساء المظلومات ، فليس بها إلا الحجر ، وتجد السلم مبتدئة من عتبة الدار ، ووجهة البيت مكشوفة فلا تستطيع صاحبات البيت التحرك ولا فتح النوافذ أحيانا . وهذا لعمرى أخذ بالخناق . ولعله سبب انتشار كثيرات منا فى الطرقات . ماذا يفعل الطير المحبوس فى قفص من حديد ؟ إنه لا يتأخر لحظة عن الفرار إذا وجد وسيلة له

إلا أن الشوارع والطرقات بها ما يوقر الآذان من بذاءة المماحكين وانتشارهم كالجراد ، وقد يراهم رجال شرطتنا ويسمعونهم يتعدون على الآداب ويضحكون . ولو جاز أن تجعل طرق للنساء خاصة وأخرى للرجال خاصة لما تأخرنا عن المشى فى طريقنا ، أما والطريق عامة فليس أمامنا إلا أن نتوسل إلى أولئك الطغام أن يكفوا عن مماحكتهم وتعرضهم لنا ، فيكفينا ضيق المساكن عن أن يضيقوا علينا السبيل .

إن المشى والنزهة ليكسبان علماً وتجربة فضلا عما يؤثران به فى الصحة وتنقية الدم ، وما يخلفانه من النشاط فى الأعضاء لمساعدتهما الجسم على إخراج فضلاته المحترقة . فكم فى الطريق من مثير للرحمة ومن نافع لتعليم الأطفال . وليست الفضيلة دروساً تلقى على الآذان وتحفظ باللسان ، وإنما هى فواعل تؤثر فى النفس فتكسبها صدق العزيمة على رد هجمات السوء ، وتحبب إليها الحسن من الخصال ؛ وكم فى المتنزهات من دروس صامتة لجمال الكون وتسبيح الخالق والإيمان بما أنزله ، وكم فيها من شياطين للشعر والموسيقى النفسية توحى للنفس ما توحى من جمال وحكمة ؟

إننا فى مصر ولكننا لا نعرفها . أرأيت أغرب من مبصر أعمى ؟ إن الأهرام على قيد فلتة العيار من القاهرة ، ولكن كثيرات منا لم يزرنها ، والآثار تخبرنا عنها السائحات الأجنبيات فتبدى جهلا مزرياً ونعجب مما يقص علينا ، وتاريخنا مبعثر فى الأرض من قديم وحديث ولا من تلم به حيا من غير الكتب الجامدة الخالية من الروح . ألم يأن لنا أن نطلب الحرية قليلا فقد طلبتها أرجلنا التى كاد يصيبها الكساح من طول الجلوس ، وأعيننا لم تر من بدائع الكون شيئاً . خصصوا لنا متنزهات إن شئتم لا يدخلها غير النساء ، وخليق بالمحافظين والمديرين أن يجيبوا هذا الطلب كل فى مديريته . ووفروا قليلا مما تصرفونه على الزخارف الكاذبة لبناء أو استئجار بيوت فسيحة الأفنية ليترويّض فيها نساؤكم وأطفالكم بالمشى ليس إلا . أما نصيحتى للسيدات فهى أن يتركن الزيارات جانبا ، ويتنزهن أنفسهن فى الخلوات القريبة مع آبائهن أو بعولتهن ليستفدن صحة وعلماً وجمالا .

رأيي ومذهبي في السفور والحجاب

اطلعت بعد خطبتي الأخيرة على ما كتب الكاتبون والكاتبات بشأن المرأة فأسديهم الشكر جميعاً ، سواء فيهم من مدح ومن ذم بحق أو بغير حق ؛ لأنهم على اختلاف نزعاتهم وتباين لهجاتهم قد أظهروا أنهم يهتمون بموضوع المرأة ويريدون لها الرقي . ولقد صبرت لأستوعب كل ما يقال ، وكنت أحسب أن سيتصدى للدفاع عن رأيي أحد الناس ممن فهموا خطبتي على النحو الذى تؤديه عبارتها (والذى أقصده منها) فلم أجد منصفاً ، وأراني مضطرة للدفاع عن رأيي وإن كنت أبغض الناس لتزكية النفس ، وإنما كان هذا بياناً أو رداً لا تزكية .

أكثر من كتب عني إنما كان يظن أني من رأيه وشيعته ، فأصرح بأني مستقلة تماماً عن رأيهم ، فلا أنا قاسمية متطرفة كما يريدني حضرة الكاتب (هيكل) ويحرضني في رده (بالجريدة) أن أجهر برفع الحجاب ، فإني لا أوافق على ذلك الآن ، وربما أيده المستقبل في رأيه ، ولكني حكمت على حسب الأحوال الحاضرة ؛ ولا أنا ممن يرمين إلى تقليد الفرنجة كما يخاف حضرة (الغزالي أباظه) إنه لم يذكر صريح العبارة ولكنه لا يفتأ يذكر لي مساوئ نساء الغرب الناجمة عن اختلاطهن بالرجال ؛ ولو ألقى نظرة ثانية على خطبتي لرأى أني ذممت الاختلاط والتقليد معاً ، ولم أشذ عن رأيه إلا في مسألة الخطبة فقط ، ولكني اشترطت ألاّ يكون السفور اختلاطاً ونصصت على وجود محرم مع الفتاة ، وأظنه لا يجهل البون البعيد بين قولي « سفور مع وجود محرم » وبين قوله (اختلاط بالرجال) أما حضرة الفاضلة « سيدة صبري » فلا إخالها تدافع عن مجموع النساء المصريات ، لأن اللاتي تدخل

بيوتهن بحكم مهنتها كما تقول هن من طبقة الموسرات وبعضهن راقيات ، وإنى لم أقصد هؤلاء بكلامى ونصيحتى ، وإنما قصدت من يحتجن لسماعها ، فلا يغضب على السيدات الراقيات فإنهن قليلات جداً بالنسبة لمجموع النساء الأخر . والتعميم فى الكلام لا يقصد به البتة أن يشمل كل سيدة على حدتها وإنما القليل لا حكم له .

انتقدتنى السيدة (ج . ع) ولم أر أصدق منها نقداً لخطبتى وأبعد عن التحامل ، فإنها استصعبت الكتب التى ذكرتها فى الكلام على (دور المراهقة) ، استصعبتها على الناشئات وهو انتقاد حق ، ولكنى لم أذكر تلك الكتب إلا أمثلة من تلك الكتب النافعة ، وقصدى أن تقرأها الفتيات متى وجدن استعداداً منهن لفهمها ؛ وقد أشرت فى ذلك الموضع من الخطبة على الآباء أن يختاروا ما يروق لهم من الكتب الأدبية لتقرأها بناتهم ولم أقل بالاقتصار على ماذكرت منها ، وكلامى عليها فى دور المراهقة لا يؤخذ منه أن يمتنع عن قراءتها من كانت فى غير هذه السن ؛ كذلك ذكرت الأزياء فى تلك القطعة من الخطبة ، ولا يفهم منه أن الشابات وغيرهن يخرجن من حكمها ، وإنما كان هذا التقسيم ، لأن الاهتمام بالقراءة والزى يبتدىء عادة فى دور المراهقة ثم يستمر إلى ما بعد . أما مذهبها فى الروايات فصحيح متى كانت أدبية تاريخية ، ولكن هل ترى السيدة (ج . ع) أن كثيراً من الروايات لم توضع لحكمة ولا لتاريخ حادثة وإنما يقصد بها أصحابها الكسب فقط ، فنجدها حشواً ولفظاً ؟ وإذا كنت انتقد قراءة الفتيات الروايات فلست أعتقد فيها إلا ما كانت من الشكل الأخير ، ولو راجعت السيدة خطبتى لوجدت أنى أنتقد الروايات الغرامية فقط لا مجموع الروايات .

من منصفى من (بنت الحضارة) التى كتبت فى (اللواء) وهى شديدة التحامل على ولا أدرى لماذا . فإنها — سامحها الله — لم تجد لى ممسكا إلا قلب الحقائق وتشويه

ماقلت ومسخه فزعمت أنى أريد الفتيات على أن يكن خادمات ، وأنى نصحت الرجال بضرب النساء ، ولن أدافع عن نفسى معها وإنما أنصحها أن تسأل من تفقهن أن تفسرن لها الخطبة فقد فاتها معناها ، هذا إذ لم يكن لها من التغابى مأرب ·

إذالم تخنى الذاكرة فلم يبق من منتقدىَّ إلا حضرة (الحقوقى الحر) ، وقد استغرب سكوتى عن مسألة النقاب وخصوصاً الجديد منه ، وأنا شخصياً ممن يعجب بذلك المئزر التركى ، ولكن يتساوى عندى الجديد والقديم متى روعيت فيهما شروط الحشمة والوقار ، والعبرة باللابسة لا بما تلبسه ، فماذا يضر المبرقعة بالبرقع الأبيض والحبرة القديمة إذا راعت الجد فى مشيتها وفى تفصيل مئزرها . وهل إذا تزيت كل النساء بالنقاب الجديد الذى يدعو إليه حضرة (الحقوقى الحر) طهر المئزر الجديد قلوبهن من الرجس وأجسامهن من التثنى والتبختر ؟ وهل يكم المنديل الأسود أفواههن عن الضحك والحديث ؟ كلا — إنما العبرة بتربية المرأة و إرادتها ، فلتلبس ماشاءت من اللباس اللائق ولتحتشم فى مشيتها فان يمسها سوء وعندى أن المرأة السافرة الجادة فى أخلاقها وسيرها خير من المؤتزرة بأثقل الحرير وأمنع النقاب وهى خليعة لعوب . ومن يتصفح الخطبة أو غيرها مما أقول وأكتب ، يجدنى لا ألح على النساء بأكثر من اتباع الحشمة ، ولا على القائمين بأمرهن إلا بأن يحسنوا تربيتهن من الصغر حتى ينشأن على الفضيلة .

لكل فئة مذهب ، ويستحيل على صاحب الرأى الواحد أن يرضى شتى الآراء ، وأرى أن الخلاف لم يشتد كثيراً على خطبتى إلا فى مسألة سفور الفتيات للخاطبين ، وإنما يعذرنى على اقتراحى هذا من يفيض قلبه أسى كقلبى ويئن مثلى من شقاء مجتمعنا البيتى (العائلى) . أما والله لا يستسهل تلك الحالة إلا المستهين بالحياة غير

المقدر للسعادة البيتية قدراً ، و إنى لا أطلب ترائى الخاطبين إلا وأنا واجدة نسبة الهناء فى البيوت المصرية ضئيلة جداً ، لا تكاد تذكر بجانب الشقاء المستحوذ عليها ؛ على أنى اشترطت أن يكون الترائى مع وجود محرم منعاً لاقيل والقال ، وقد أنكرت طريقة الفرنجة فى الخطبة وتماديهم فى الحرية بلا رقيب .

اللهم إنى اتبعت طريقاً وسطاً بين الظلام الدامس الملقى إلى التهلكة و بين الضوء الشديد الخاطف للأبصار ، ولكن قومى لا يرضون . لم يكن رأيى القول الفصل فى هذا الموضوع ، ولست بمسيطرة على الورى ، إنما أنا رأيت الداء فوضعت الدواء ، فما على حضرات الناقدين والمخطّئين لرأيى إلا أن يصفوا ذلك الدواء كما يتراءى لهم أنه المفيد الناجح ، فكلنا طالب السعادة للأمة بإسعاد بيوتها ، وكل طريق تؤدى لتلك السعادة المنشودة هى منتهى آمالى كائناً من كان راسمها . فأدعو حضرات الكتاب والناقدين رجالاً ونساء أن يفكروا فيما يصلح الحياة الزوجية و يسعدها لأن الرضا بحالتنا الحاضرة لا يخرجنا من شقائها المستحكم. وقد أبديت ما عنّ لى، وعليهم أن يحلوا هذه المسألة العويصة لا أن يقتصروا على النقد فقط فإنه لا ينقع صدىً بل يزيد الناس حيرة وارتباكاً ، و إنى أول المتبعات لما يظهر بعد البحث أنه الصواب .

هذا رد على ما عثرت عليه انتقاداً لخطبتى ، فأرجو المعذرة عن سكوتى على ما لم أعثر عليه . والسلام .

المرأة والحجاب

سكتت عاصفة الحجاب فترة من الزمن ولكنها عادت فثارت ، ولا أراها تهدأ إلا وقد جادها غيث من الرأى ترضاه هذه الأحلام التى ظلت مجدبة ، تدرى أنها ظمأى ولكنها لا تدرى من أى ورد تستقى . ولا أى طريق تنتجع ! ولعمرى لقد أصبحنا بمنعرج جم الشعب فضللنا .

يعجبنى اهتمام الرجال بأمرنا وأمر أمتهم ، ولكنى أعلم أننا لا نكاد نشعر بحاجاتهم ولا نتنبأ بما بين أضلعهم ، فكيف بهم يبتون فى مسائلنا الخاصة بت من شعر بالداء وعرف الدواء ؟ !

أنا أحترم رأى مخالفىّ وإن كنت لا أعضده ، وعلى هذا المبدأ جئت أناقش حضرات الكاتبين فى موضوع الحجاب . فأما فريقهم الذين فتنتهم المدنية الأوربية حتى خروا لها سجداً فتعليلهم فى هذه المسألة من الغرابة بمكان ، يقولون : إن الأمة المصرية متأخرة فى الفنون الجميلة ، متأخرة فى الآداب القومية ، متأخرة فى كل شىء ، نعم نحن نعترف معهم بذلك ونسعى ونجدّ فى إزالته . ولكن أليس من المدهش حقاً أن نعزو ذلك التأخر للنقاب ؟ يستشهد أحدهم بشعر امرىء القيس على أن شيطان الشعر أصله المرأة فقط ؛ وبصور روفائيل وبوتشيلى ، على أن عبقرية التصوير لم يبلغها كالها إلا أن ينقش المصور « العذارى يرفرف عليهن ملائك الحب وهن تائهات فى أحلامهن » إلخ إلخ كما يقول ؟ ؟ إن الشعر العربى لم يكن لينهدم بنيانه لو لم تدخله قصائد امرىء القيس . وليس فيها من حسن الوصف ومعجز البلاغة ما يضارع وقاحته وجنايته على الآداب : على أنه وإن كان شعر عنترة وجميل وبعض من ذكر حضرة الكاتب مؤثراً فليس معنى ذلك

أن كل شاعر غيرهم ممن لم يشبب ويتغزل كان شعره غير مؤثر . وهل أفاد اللغة العربية أو الحكمة شعر جماعة المحبين كما سمع أساليبها وأبدع تشبيهاتها شعر البحترى وأبى تمام والمعرى وابن الرومى وأمثالهم ؟ وإذا كان متفرنجو هذا العصر والمصر لا تستفز شيطانه إلا المرأة فماذا عليهم أن يغربوا و يبدعوا فى وصفها وهى متنقبة ، و يأتوا بالجديد فى وصف الحبرة والبراقع بما لم يسمع به فى شعر المتقدمين . أظنهم لا يعفون بالحجاب إنهم لم يروا امرأة قط ، و إخالهم لا يجهلون أن بعض الشعراء الذى شببوا بالمرأة رووا فى شعرهم أن تلك الحورية التى وصفوها وافتتنوا بها لم تقع أعينهم عليها ، أو أن نقابها سقط فتناولته واتقتهم به ، وعليه فقد سقط برهانهم فى أن الحجاب سبب تأخرنا فى الشعر . وليس بأمكن منه برهانهم على أن عبقرية التصوير لا تكون إلا بسبب المرأة ، فإن روفائيل وغيره من المصورين إذا كانوا برعوا فى تصوير المرأة فليس ذلك بدليل على أنهم أحبوها أو أنهم لا يتقنون تصوير غيرها من الأشياء والمناظر ؛ وكذلك الموسيقى فإن لها استعداداً خاصاً فى نفس المرء ، وقد كان (فردى) أشهر موسيقى عصره ، ولا أدرى أ كان يرضى به الغوانى فإنه كان أشمط ، ومن بلغ سنه لا أظن أن فى نفسه أثراً من نزق الشباب ! !

لم تكن براهين هذا الفريق المتفرنج ، وهى مدفوعة من نفسها ، بأغرب من قول أحدهم : « إنه يحمر حياء و يرتعد خجلا إذا تذكر بائسة مصرية ، وأنه تأخذه الرأفة ويحس فى قلبه بالعطف على بائسات أوربا لأنه لم يدفعهن للسقوط إلا الجوع » الخ . بالله أيمكن أن تبلغ عبادة المصرى للأوربيين إلى أكثر من هذا الحد ؟! وكيف للغريب أن يعلم سرائر المرأتين البائستين الأوربية والمصرية ؟ ألا إن الأولى وجدت من قلم فكتور هيجو خير مدافع عنها فى حين أن الثانية لم تجد مدافعاً ؟ لبئست الثنتان ، ولبئس دفاع هيجو فقد جعل قومه يستهينون بالشرف و ينتحلون من

فسات أنفسهم أعـذاراً على الجوع والظمأ .

من يقرأ مقالات هؤلاء المسبحين بحمد الأوربيين يرى أنهم يعذرونهم فى كل شر أتوه حتى إنهم ليعذرون بأساتهم على إراقة ماء الوجوه ، ولـكنهم بالضد من ذلك ينظرون إلى كل شىء فى وطنهم بعين المقت ، ويعزون تأخر مصر المادى والأدبى إلى النقاب . أترى لو كنا سافرات يوم ضرب الإسكندرية بالقنابل أكان يرتد على أعقابهم المحتلون ؟ وهل كان ينفع إشراق وجوهنا فى تبرئة مظلومى دنشواى ؟

قد يكون حجابنا مؤخراً لنا بعض الشىء ، ولـكن لا يصح نسبة كل تأخر له ، وإلا فإن الأمم الغربية كلها نساؤها سافرات فلماذا تجد إحداهن راقية جداً والأخرى منحطة إلى الدرك الأسفل ؟

إن تربية المرأة وحدها عليها مقدار فلاحها وهى من أهم الأسباب لإعلاء شأن أمتها ، ولا دخل لزيها بتةً فى ذلك الإعلاء . ألم تكن نساء الأتراك المتنقبات أمهات لأولئك الأحرار الذين هزوا قلب المعمور ، وقلبوا السلطنة العثمانية رأساً على عقب ؟ ! نعم كن متنقبات ولـكن تربيتهن القومية غير تربيتنا .

رأيتهن تبعث الواحدة منهن وحيدها للجندية فرحة تشجعه ، ورأيت الشباب الذاهبين للحرب يضحكون و يغنون كأنما هم ذاهبون لعرس لا إلى حيث تتطاير الرءوس وتتطاحن الأبدان ؛ رأيت هذه الحال فى بلد فيه الحجاب بالغ أشده ، أى أنه حجاب بالمعنى الصحيح .

فالمرأة لها أكبر يد فى ترقية الأمم أو تأخرها ، ولـكن المدار على تربيتها : تربية نفسها ، وتربية عقلها ، وتربية جسمها ؛ والأولى أهم فى نظرى لأنها عماد الأخلاق . أما التنقب والسفور فلا يعدمان أثراً فى تـكوين أخلاق الأمة ولـكنهما ليسا

كل شيء كما يتوهم بجماعة المتفرنجين . وإنا ــ معشر النساء ــ فى أشد الحاجة للتربية الحقة والتعليم الصحيح .

نطالبكم بتهذيب أرواحنا وبتثقيف عقولنا ولسنا نطالبكم برفع نقابنا ، فمن المروءة أن تلبوا طلبنا وتتركوا ماعداه لنا ، فسيأتى الوقت الذى نشعر فيه بحاجتنا إلى السفور . إذا قمتم بواجبكم نحونا، وهو تعليمنا وتهذيبنا ، كنا بعد ذلك أبصر منكم بما ينفعنا وما يضرنا . قوّموا أخلاقكم وأصلحوا من أنفسكم فإن فسادكم أدعى الأسباب إلى تحجبنا ، ولاترمونا بالجمود وأنتم المقصرون آباء وأزواجاً ! تالله إنكم لأحوج لنصحكم هذا منا ، وما نحن إلا تابعات لكم إن خيراً وإن شراً .

على أن السفور والحجاب ليسا من المسائل التى يمكن إبرامها فى يوم أو مقالة فلو فرضنا أننا اتبعنا رأى القائلين بالسفور وسفرنا ثم ظهر أننا لا نزال متأخرات أو ترتبت على ذلك الطامة الكبرى فماذا يكون العمل ؟ . أنرجع إلى ما كنا عليه بعد أن تكون قد فسدت الطبائع ونخر العطب عظام الأمة ، أم نستمر على غينا وضلالنا ؟ لقد أثرت فيكم طبائع الاستبداد حتى صرتم تستهينون بالتجارب . إنكم تجوبون كل آونة على شاكلة من الحكم ثم يعاد بكم إلى ضدها ، ولعمرى إن ضرر التغيير الفجائى لأشد وطأة من الاستمرار على الظلم إذا كان مألوفاً . إن مسألة الحجاب يستحيل أن تحل إلا من نفسها لأنها كالثمر لها إبّان للنضج ، ولا أزال أكرر أنها لم تنضج للآن ولن تنضج إلا متى تربى جمهور النساء وصار على درجة من العلم مرضية . إن السياسى الحكيم يقرر فى خطته رسماً ولكنه لايمشى عليه بمجرد تفكيره له ، ولايزال يتحين الفرص حتى تسنح له واحدة موافقة يبرز فيها خطته لا غبار عليها ، كذلك نحن نعلم أن هذا الحجاب لن يدوم ولكن ليس هذا أوان السفور لأننا غير مستعدات له ، ونفوسنا ركب

فيها أن تتنقب ونفوسكم لا تصلح الآن لاستقبال هذا السفور بالرضاء . فخذوا بأيدينا للعلم والتربية ، ولا تأمروا بالبر وتنسوا أنفسكم ، فقربوا ذلك الوقت إن كنتم تريدونه ، وتذكروا أنكم عاجزون ، والله عزوجل هو وحده الذى يقول للشىء كن فيكون ، وإلا فصيحوا فإننا عن ندائكم فى صمم ثقيل ، ولن نفعل إلا ماتوحى به إلينا أنفسنا ، ولمّا توح إلينا بالسفور .

إما السفور وإما الحجاب

وجّهت الآنسة نبوية موسى إلى الباحثة مقالاً بهذا العنوان بدأته بقولها :

« رأيت اليوم مقالاً لك أيتها الفاضلة بعد مضى زمن طويل لم أحظ فيه بقراءة نسائياتك الشائقة ، فكنت كمريض نال البرء أو معدم صادف كنزاً ، فقرأته بسرور الظافر بما أراد ، وتلهف الطالب وقد عاين المطلوب ، قرأته فإذا هو كما أعهده فى مقالاتك العديدة رقيق العبارة شديد التأثير . ولست فى حاجة الآن إلى مدح مقالاتك بعد أن اشتهرت ، ولئن فعلت فما أنا إلا كمن أخذ يبرهن لذوى الأبصار على بهجة الشمس أثناء النهار واحتياج الإنسان إليها ، ولذا أترك تقريظ تلك المقالات لا إنكاراً لفضلها ولكن عجزاً عن مدحها ، لا سيما وقد تناولت هذا الموضوع أقلام ولا ذكر لقلمى بجانبها .

« وإنى أعجب بإنشائك ، أعجب بأفكارك ، أعجب بكل شىء فى مقالاتك ، إلا أن لى فكراً يخالف ما قرأته فى مقالتك الأخيرة وهذا بالطبع لا يدل على خطأ فيها ولكنه يدل على اختلاف مشارب الناس وتباين آرائهم وقد يكون الخطأ كل الخطأ فيما أراه أنا ، إلا أن هذا لا يمنعنى من عرض ما عن لى عليك لعلك تهدينى سواء السبيل » . ثم أبدت رأياً يبدو جلياً من الرد وقد ختمت الآنسة نبوية مقالها بقولها : « أقول إما السفور و إما الحجاب حتى عن الخاطب » فردت الباحثة بما يلى :

رأيى فى الحجاب[1]

أطلعت على ما وجهته إلىّ صديقتى السيدة (نبوية موسى) بشأن الحجاب والسفور فأثنيت على أدبها الجم وحسن ظنها بى .

مذهبى فى الحجاب والسفور قد أشكل على كثيرين قبل السيدة (نبوية) لأنه لا يلائم أنصار الحجاب القديم ، ولا يعجب مقررى السفور على علاته ومقررى الاختلاط بين الجنسين . وإنى وإن كنت رددت على المنادين بالسفور وخالفتهم فى كثير مما يذهبون إليه فإنى لم أقل قط بوجوب اتباع العادة القديمة فى الحجاب بحذافيرها ، إنما أريد أن نوجد مذهباً وسطاً بين السفور الغربى والحجاب المصرى القديم ، بحيث لا يكون اختلاطاً يبعث على الشطط و يفنينا فى الإفرنج ولا حبساً يضايق الجسم والعقل و يضيع المصلحة . أريد أن نمشى على سنة العرب أيام النبى صلى الله عليه وسلم والفترة التى تلته أيام كان الإسلام صحيحاً لم تعبث به أيدى الفقهاء وذوى الأغراض من الملوك والسلاطين ، أريد أن نطبق عاداتنا على الشرع والسنة الشريفين بغير جمود ولا تعصب ، فلا نحرج أنفسنا بالاختباء إذا لزم السفور ، ولا نرخى لأهوائنا العنان بالسفور لمجرد تقليد الغربيين ، و إنما نختار أنفعهما لنا وأدفعهما للضرر . فإذا أنا لمت المنادين بالسفور فلأنهم متسرعون ، يريدون أن يقلبوا السكون دفعة واحدة ولا يتريثون لنيل بغيتهم بالتدريج ، وأكثر هؤلاء من الشبان المتفرنجين الذين يرون كل شىء غربى حسناً لمحض كونه غربيا ، ولم تحنكهم التجارب فيعلموا أن الانتقال الفجائى من

---

[1] هذا هو رد الباحثة على الآنسة نبوية موسى الذى سبقت الإشارة إليه .

حال لضدها شديد الضرر وخيم العاقبة . ولو اتبعوا الحكمة وسلكوا مسلك الحذر بأن ارتقوا لمذهبهم درجةً فدرجة ماصعب الانتقال إليه ، وما لقوا معارضة كالتى لقوها . وإنى لمن الذين يقدرون صعوبة التغيير ولا يميلون لتعميم مذهب السفور الآن لاستحالة قبوله عند من كبرن وتعودن الحجاب ، ولكنى أحب أن نغرس الغرس الجديد فى النشء . ولولا كثرة حوادث الخلاف فى بيوتنا المصرية وشعور أغلبنا بشقاء العيش من جراء زواجنا الغبنى أو القصرى لما ناديت بتغيير البتة فى اتباع نظامنا العتيق . وقد كررت القول فى كتاباتى وكلامى بأنه يتساوى عندى السفور والحجاب مادامت العفة والحشمة لاغبار عليهما .

أما طريقة زواجنا الحاضرة ففيها غبن علينا وشقاء لنا ، ولا إخال أحداً ينكر ذلك ، وأما أننا نرى الشر محيقاً بنا ولا نتجنبه فما لا يحكم به عاقل . ولو رأت صديقتى السيدة (نبوية) أو غيرها ممن لا يريدون أن يتبعوا وصية النبى فى الخطبة والزواج ، ولو رأوا رأياً آخر غير رأيى ينيلنا ما نبتغيه من السعادة بزواجنا لكنت أول المعضدين له . إذا كان أحدنا يصلى وأبصر ثعباناً يوشك أن يلدغه فهل يستمر على صلاته ويعرض نفسه للخطر صلاحاً منه وتقوى ، أم يقتضب صلاته ويقتل الثعبان ثم يصلى آمناً مرتاحا ؟ ولا أدرى لِمَ يشغل الكتاب أنفسهم بالبحث فى مسألة الحجاب الآن ولا فائدة تحتها إلا إثارة الأقلام والخواطر بغير جدوى . ولا تزال النساء جاهلات أمسّ الأمور بهن وأهمّ واجباتهن !! وقد نصحت مراراً بأن نأخذ الأهم قبل المهم . والأهم الآن هو تربية الفتيات وتعليمهن حتى يصلحن يوماً لأن يكن قيمات على أنفسهن فيخترن السفور أو الحجاب . وأجدنى ميالة للاختصار فى هذا الموضوع لأنى كتبت فيه مراراً ومذهبى فيه معروف ، ألا وهو تربية الفتيات على آداب الدين والفضيلة وتخفيف وطأة الحجاب عنهن مادمن لم يتزوجن حتى يتسنى للشباب رؤيتهن ، ولكنى أشترط دائما وفى كل

حال أن يكون مع الفتاة محرم تسترشده وتخشاه . و بالجملة أريد تعويد الناشئات السفور إلى الحد الذى يبيحه الدين الإسلامى الشريف بغير شطط فى تأويل معناه . أما الاختلاط الغربى بلاحد ولا قيد والجرى وراء الخلاعة والتهتك فما لا أوافق جماعة المتفرنجين عليه أصلاً ، وكفى أنه مذموم عند أهله فما بالك به عندنا ! !

هذا ما أعتقده فى مسألة الحجاب والسفور ، ولكل امرئ ما يرى .

خذوا حذركم أيها الرجال

تريثت ولم أكتب فى نسائياتى ولست بالناسية عهدها، وإنما أسكتتنى الحوادث فسكت . مرّت على تباعاً مر الطيف فلم تترك بنفسى أثراً لتجانسها وتكرارها وكأنى من عالم غير هذا العالم ، فأنا أطل على مايجرى فيه اطّلال الرائين على صور الممثلين . أستغفر الله فقد ينفعل الشاخصون لمشهد المشخصين ولكنى لما يسأل المتنبى صاحبيه :

أصخرة أنا ، مالى لاتحركنى   هذى المُدام ولا تلك الأغاريدُ

لا أكاد أهتم لحادثة عادية من زواج وطلاق وبيع وشراء وموت وإنجاب وخصب وإمحال، فإنى أراها من لوازم هذا الكون لاتبطل حركتها مادام ، وهى (كالحلقة المفرغة لايدرى أحدٌ أين طرفاها) ولا يخلو منها يوم من الأيام إن لم يكن فيما نعلم ففيما لانعلم ، لا أشعر بهذه الحوادث وإنما يهزنى هزاً ما كان مرتبطاً منها بالعواطف . فإذا رأيت جنازة تسير ولا أعلم صاحبها فقد يبكينى صراخ طفل وراءها « ياأبت » وأحس بنفسى تفيض أسى عند سماع ذلك الإعوال ، فأنا فى هذه الحال لا أبكى الميت لذاته لأنى لا أعرفه وقد لايستحق أن يبكى عليه ، ولكنى يكاد يخرج قلبى من بين جنبىّ إذا تصورت أن أولاده الضعفاء سيُذل نفوسهم اليتم أو تعوزهم حاجتهم بعده للسؤال .

ومما يثير العواطف ويؤلم النفس خطاب مفتوح عثرت عليه اتفاقاً فى الطريق ، وأظننى فى حل من قراءته لأنه لم يكن معنوناً باسم ما ، وكان فوق ذلك ملقى كأن صاحبه قرأه ورماه أوسها عنه فوقع منه. وليتنى أدرى من صاحبة هذا الكتاب لأواسيها فى بأسائها ولو على غير سابق معرفة ، وأنَّى لى ذلك وهى لم تكتب اسمها.

ولكن سلام عليها يوم فكرت فى ذلك الكتاب ، وسلام عليها يوم كتبته وسلام عليها إلى يوم الدين .

وهذا هو الكتاب :

« أخى العزيز

أفتح قلبى إليك بالشكوى بعد أن لم يبق فى قوس التصبر منزع ، وقد كتمتها حيناً من الدهر لئلا أزعجك ، وكنت آمل تحسين الحال فلم يصح تكهنى . صبرت حيناً على ماامتحنت به من معاملة زوجى السيئة ولكنى لم أجد للصبر ولاللبؤس مدى يقفان عنده . إنكم تعجلتم كثيراً فى تزويجى بهذا الشاب ، وماذا كان عليكم لو لم تتعجلوا ؟ ! أطمعكم ماهو فيه من الثراء ولم تنظروا لأخلاقه ، وماذا تفيد الثروة ياعزيزى ولا راحة معها ؟ إن المرء لا يأكل أكلتين معاً ولا يلبس ثوبين معا ، ولا تقاسم المرأة الرجل ماله فى شىء ! إن امرأة الفقير لاتنقص عن امرأة الغنى إلا فى نوع الملبس أو المأكل ، وكلا النوعين ساد طلبه عندها . وكان بودى لو أطعمت بدل القمح أُذرة وبدل الأطعمة المختلفة عدساً ، ووجدت راحتى . إن المرأة الفقيرة لايقل فرحها بعقد (البرّوق) عن فرح الغنية بعقد اللؤلؤ أو الألماس ، ولكن الناس يخطئون كثيراً فى تقدير الأطماع .

أى أخى ، إنك تعلم أنى لم أَهْوَ قط ، ولم يكن ذلك عن جمود فى قلبى أو عن زهد فى الدنيا ، وإنما كان لى من قراءة الروايات ومن أخبار الفتيات خير موعظة وأكبر مخيف أن أضع ثقتى فى غير موضعها ؛ فإنى مما قرأته وسمعته علمت أن لا حب صادقاً فى هذه الدنيا ، وأن الرجال دائما يغرون الفتيات فيغتررن ثم يندمن على تسليم قلوبهن للرجال حين لايجدى الندم ! وكنت أربأ بقلبى أن ينصدع وبنفسى أن تقع فى حبائل البهتان ، متمثلة دائما بقول المتنبى :

وصرت أشكّ فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنامِ

فخزنت تلك القوة الكبيرة (أى الحب) فى صدرى ولم أنفق منها مثقال ذرة ، مملاة النفس بأن أهبها يوماً ما لبعل كفء فآمن شر ما يقع فيه المحبون . ولا يدهشك قولى إنى حكمت على قوة الحب فىّ بأن تختفى ولم أحكم عليها بأن تموت ، فأنت تعلم أنى آدمية ولا يخلو ابن آدم فى زمن من الأزمان من حب شىء ما . واعتقادى أنه لا يمكن لقلب أن يعيش بلا أمل ، حتى إن الزاهدين والرهبان يصرفون حبهم فى الله أو فى العبادات ! وكذلك الباحثون والمحسنون كل يتعشق ماخلق لأجله ، فهم على أية حال ليسوا خلواً من الحب وإن كان مختلف الأشكال والأوضاع .

خزنت حبى ذلك التقى الطاهر ، إلى أن زوجتمونى ، فوهبته لزوجى محسنة الظن به ، فلم يكن نصيبى من الخيبة بأقل من نصيب أولئك الفتيات اللاتى كنت أسخر منهن وأرثى لحالهن . وماذا أقول فى نظام زواجنا المختل ؟ ! غير أنى مصرية متحضرة ويجب أن أتلقى سوء حظى بالصبر الجميل . إنى كنت من أنصار المذهب القديم فى الخطبة والزواج ولم أكن أؤمن على دعاء (باحثة البادية) فى طلب تغييره ، ولكننى الآن من أنصارها وزيادة . ذلك أنها تراعى الاعتدال دائماً فى مذهبها هذا ، ولكننى أطلب التطرف فيه لأنى نقمت من حالتى وقاسيت منها مالم تقاسه هى ، وشتان بين من جرب ومن لم يجرب . إنى أعجب لفئتنا ، أى المصريين المتحضرين ، كيف نرى الشر بأعيننا ونقاسيه بأنفسنا ثم لا نقلع عن عادة سيئة تكون مصدره ؟ وسترى عندما تكبر بنيتى أنه سيكون لى فضل المؤسسين بأن أتتبع فى تزويجها نظام العقل والشرع لا نظامنا الفاسد المختل . ويكفى أنى ذهبت ضحية من ضحاياه .

أما زوجى فكنت كلما نصحته ازداد إعراضاً وجفاء ، وكلما كلمته عن سوء سيره يقول لى : « ماذا تريدين ؟ أجوعانة أنت أم عريانة ؟ » ويالله ، أكنت جوعانة أم عريانة عند مجيئى إليك ؟ وما هى قيمة الحياة التى حدها الثوب واللقمة ! ؟ إن الأشرار والقتلة والمحكوم عليهم بالسجن المؤبد لهم مالى منها فهل نتساوى ؟ ؟ .

أى أخى ! لقد حاسنته فلم يزدد إلا عتواً ونفوراً ولم أجد فيه نخوة الكرام ، وكنت أعجب له كيف لا يعطف قلبه علىّ وعلى ولديه منى ، ولكن زال العجب إذ علمت أن حاكمته مستبدة أنانية ؛ وقد تسأل من هى هذه الحاكمة الظالمة ؟ إنها امرأة غير زوجته ! !

وإنى ، يا شقيقى ، أحمد الله على أن مات ابنى الصغير ، فإنه رضع من لبن الحزن فقتله . وهل رأيت امرأة قبلى تحمد الله على موت فلذة كبدها ؟ نعم أحمده لقطع الصلة بينى وبين زوجى ، فإن بنيتى ان ترهقنى تربيتها ، وكنت أستحى أن آتيكم ومعى طفلان فخفف الله عنى ذلك العبء بأن أخذ نصفه . فإذا وصلك كتابى هذا فأت لتأخذنى عندك فإنى على آخر رمق من الحياة . والسلام ؟

أختك الحزينة .... »

لم أكد آتى على آخر هذا الكتاب حتى بللته دموعى وحتى صرت أشهق بالبكاء شهيقا . من تكون يا ترى هذه البائسة المصدوع فؤادها ؟ وقد أتيت على خطابها هنا لا لحسن إنشائها وقوة تأثير كلامها بل ليعتبر الرجال ويتنبهوا .

خذوا حذركم أيها الرجال واعلموا أن شطط كثيرة من النساء كان بباعث من جفائكم وإعراضكم . ليست المرأة لعبة تتخذونها للهو ، ولا هى كرسى ترمونه فى إحدى زوايا البيت ، وإنما هى ذلك المخلوق الحى الذى يقاسمكم السراء والضراء

هى ذلك الملك العظيم الذى لا يحسن أكثركم سياسته ، فهلا خفتم يوماً أن تخلعوه كما قال ابن زريق البغدادى :

أُعطيت ملـكاً فلم أحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يُخلعهُ

إن تلك السيدة التى قرأتم كتابها ليست وحيدة فى شكواها ، وإنى لأعرف مثلها كثيرات وأسمع عن كثيرين مثل زوجها الذى وصفته فى كتابها .

إن المرأة لا يهمها إلا حب زوجها ، فإذا فقدت هذا الحب فمحال أن ترضيها الزخارف والحلى وما تكون فيه من عز ونعمة . وهى حريصة دائما على أن يكون قلب بعلها لها ، وما دون ذلك فهو باطل لديها .

وبعد هذا، فهل آن لنا أن نقلع عن نظام زواجنا المعتل الفاسد ، وأن نفكر فى نظام آخر ينيلنا السعادة أو يدنينا منها ؟ وهل للباحثة أنصار غير تلك السيدة البائسة يلبون نداءها ويسمعون دعاءها ؟ اللهم حقق ذلك الأمل فأنت سميع مجيب الدعاء .

المرأة العربية أمس واليوم

كان طبيعيًا أن تكرس باحثة البادية قلمها للإصلاح وللأدب ، ولكن وطنيتها وحماستها كانتا تثوران لدى الشدائد كما رأيت فى خطبة البر والإحسان التى وردت فى باب المحاضرات . وإليك شيئا من هذا القبيل :

حدث فى إحدى الوقائع الحربية فى طرابلس الغرب ، أن أسرت امرأة عربية تدعى مريم فاستنجدت بمحاربى قبيلتها (البراعصة) فخفّوا لنجدتها وأنقذوها ، وقد استفزت هذه الحادثة (باحثة البادية) فكتبت إلى جرائد الحزب الوطنى هذا المقال الذى ينم على روح العروبة الباكرة ، قالت :

ما راعنى إلا ذلك النداء ، تشق نبراته الفضاء ، والدم يتلاطم عبابه ، تتدافع فيه الأشلاء ، كأنها أكر اللاعبين ، وعزريل يجول جولاته ، فيرمى عن الشمال وعن اليمين ، ما ينثنى إلا حاصدا ولم يك قط من الزارعين ، كان الموت فى الحرب يمثل إثم الحرب لذاتها وكأن حظ عزريل فيها حظ الغاصب المقتدر .

إيه يا مريم لقد استنجدت فأنجدك كل غشمشم مغوار ، واحتميت فحماك كل سريع إلى الجلّى بطىء عن الخنا .

أمريم ناديت فأوعيت ، خصصت أسرة طامية بالنجدة والذب عن الحريم فهبوا إليك طائرين مستبسلين مستميتين فى فك أسرك حتى فكوه وأعادوا لك الحرية والحياة ، ولم يك بينك وبينهم لحمة ولا رحم .

عندما اعتدى الطليان على طرابلس الغرب سنة ١٩١١ هبت مصر لنصرتها مع ما لاقته من ضغط الإنجليز والحكومة ، وشكلت الباحثة جمعية تشبه الهلال الأحمر لإرسال الملابس والأغطية والأدوية والأعانات المالية .

اقتحموا لأجلك نقع البارود المتكاثف يمطرهم طله ووابله ، تهوى على رءوسهم القذائف كقطع الجندل المستعر ، ولم تك جهنم لتثنيهم عنك ياسيدة النساء يا باعثة الهمة من مرقدها ، ياموقظة الشعور الحى ، يا ليلى الزمان الحاضر . أشبهت أختك بالأمس بنت لكيز فى الأسر والاستنجاد . وحاشا لمن تحمل قلباً كقلبيكما أن يذلها الأعداء أو تمسها يد الاعتداء .

حاشا لمن تجشم نفسها عذاب الحرب الطاحنة تحت الشمس الصاهرة و بين الرءوس المائلة أن يخدش طهرها إنس أو جانّ .

ما أشبه المرأة العربية اليوم بأختها بالأمس، إذ قالت ليلى بنت لكيز تستنجد قومها لفكها من الأسر :

غللونى قيدونى ضربوا ملمس العفة منّى بالعصا

وقالت اليوم مريم الطرابلسية فى حرب الطليان ، وقد وقعت فى أسرهم تستنجد بأسرة طامية من قبيله البراعصة الشهيرة : « أخذونا ضنا الطليان بلا صداق ياعيت (أى عائلة) طامية » .

أىّ مثير للشهامة البدوية والغيرة العربية أبلغ من هذا القول، وقد خرج من أسيرة شريفة تستكبر أن يستحلها الأعداء وهى حرام، أو يستسيغوها وهى مريرة المذاق، أو يستمرئوها وهى شجى فى حلوقهم .

تالله ما أبلغ قولها وقد عبرت عن رجال الطليان « بالضنا » أى الأولاد ، وما كان لهم أن ينالوا منها مأرباً وهم رجال ، فكيف بهم وهم فى نظرها صبية ، تصدهم عنها العفة التى تجرى فى عروقها سريان الدم ، والاشمئزاز الذى يجرح أنفتها لمجرد تصورها سبية لهؤلاء الصغار الذين تزدريهم وتهزأ بهم ، وإنهم لأعداء قومها وأعداء وطنها .

إنها استثارت فأثارت ، وهذه كهرباء النساء الخفية التيار ، إنهن يبكين فيسلن الدماء أنهارا ، و يضحكن فيملأن الأرض نضارا .

إنهن روح الكون ، والرجال الأجسام ، الجسم ظاهر القوة ، ولكن الروح سر الإلهام .

النساء الإرادة ، والرجال العمل ، فهل بعد هذا يكابرون و يقولون: الرجل أهم من المرأة ، والمرأة أوضع من الرجل ؟!

قالت مريم : أخذنا صبيان الطليان بلا صداق أى سبياً ، وذكرت أسرة طامية البرعصية بالنجدة فهب إليها فتيانها وكهولها ؛ ولم يكن من هجومهم بد بعد أن غلى دم النخوة العربية حاراً فى شرايينهم ، وجاش مرجل الشرف منفجراً فى فى صدورهم .

طاروا إليها يحسد البرق سرعة انبراء خيلهم ، وكأن وقع حوافرها لمع البرد متساقطاً أو نثردراهم العروس ، ولم يكن من التدبير الحربى هجومهم إذ ذاك ولكنها النجدة والشرف ؛ الشرف حار والتدبير شبم ، النجدة متهورة والحزم بطىء ، أو هى المرأة عزيزة و الروح لها فداء .

أجل لقد استشهد فى هذه الوقعة خمسون بطلا من فرسان البراعصة الصناديد ، ولم يقفل الباقون إلا والأسيرة فى طليعتهم طليقة بينهم : تمزج دمع الحزن بدمع الدلال ، إن كفكفت عبرة الأسر ، فقد أراقت أختها ترحماً على من استشهد لخلاصها . فيارحم الله تلك الأنفس الكبيرة ؛ إنها استقبلت الموت باسمة لتخليص امرأة ، واستقلت الحياة عزيزة فى ذلة الجار ! فلا تقولوا إنّ الإنجليز والأمريكان فدوا نساء الباخرة المنكوبة بأرواحهم ، فقد كان الحرس واقفا لهم بالمسدسات مشهرة ، أما شجعان العرب فقد أشار عليهم القائد العام بالتريث إلى أن تتكافأ قوتهم

وقوة العدو ، وشرح لهم خطورة الوقعة ، فصموا إلا عن نداء النجدة والعزة ، ولم يسمعوا إلا مريم تستفزعهم ، ولم يبصروا إلا مريم تحاول فك الأسار .

سلام الله يا مريم يا باعثة الشجاعة ويا مثيرة الهمة .

وسلام الله يا أبطال البراعصة ، لقد خلدتم لكم ذكراً لا يموت ، وإن استشهد في سبيله الفوارس الكماة .

وسلام الله ياطرابلس ، إنك بمن أنجبت لعزيزة الحماة قوية الجناب .

إلى آباء الفتيات و إلى علماء الدين[1]

خير للأمهات أن يكن عقيمات من أن يلدن أولاداً يخطمونهن بوصم شنان، وخير للأمة أن يكون نسلها قليلا من أن يزيده عدد من أبنائها العاقين المنسلخين عنها ، وأى وصم شنان لا يشابهه وصم أعظم وأنكى من العار القاصم الظهور ، وأى عقوق للأمة وانسلاخ عنها أقبح من أن تتزوج فتياتنا المصريات المسلمات برجال من الإنجليز (مسيحيين لا أدرى أم يهوداً) ؟ !

إن المصيبة العظيمة فى بناتنا اللاتى يدعونهن متعلمات . و إن خطب الإسلام لفادح فى أنه بينما يدخله الأجانب عنه إذ بأبنائه ينسلُّون منه جهلا به وحمقا . لا عن ضيق من أنه لا يسعهم وقد وسع قبلهم الملايين من المنجذبين إليه لسهولته وملاءمته الفطرة ، ولا عن إقناع بأفضلية دين آخر عليه، فللاعتقاد والاقتناع مهما كان أصلهما فاسداً، وجدان على النفس . وإنما المصيبة أن يكون مصدر هذا البلاء « التمدين والحرية » التى يزعمونهما ، فلعن الله الحرية وقبح وجه التمدين إن كانا لا يدلان إلا على ما يفهمه وما يعمله أولئك الغواة المضلون !! إن كانت هذه أول درجة لنا على سلم التمدين والحرية فماذا يكون منا إذا بلغنا أقصاها ؟ ! .

فتحت لنا هذا الباب (...) أصلحها الله ، فقلنا مع الدهشة والأسف إن بعض اللوم فى فعلتها تلك واقع على غيرها ؛ لأنها ظلت شطراً من شبابها فى أوروبا وتربت تربية الفرنجة ونشأت نشأتهم وفى بلادهم ، و إن الحرية المطلقة المعطاة لمثيلاتها ، والتربية غير الدينية التى يتشربنها من المربيات الخادمات الأجنبيات تؤثر فى نزعاتهن ، وحسبنا أن تلك الحادثة شذوذ لن يتكرر وقوعه . ولكننا لم نلبث

---

(١) حدث ان تزوجت فتاة مصرية مسلمة من إنجليزى فثارت الباحثة لقوميتها وعروبتها ودينها وكتبت هذا المقال .

أن وقر آذاننا حادثة أخرى مثلها تماماً ولـكن فى طبقة أخرى تمد أيضاً عالية ، ثم إننا على وشك أن نشهد الثالثة فى طبقة الوسط . وإذا ظلت هذه القدوة السيئة سارية بيننا ، وظللنا نجرى وراء هـذه المدنية المقلوبة الـكاذبة مأخوذين بزخارفها ورذائلها التى تظهر براقة لامعة — وماهى إلا ظلمات فوق ظلمات — ساءت العقبى وخيف على بناتنا وعلى ديننا ، ولم يبق لنـا مطمع فى الوجود والاستقلال . نعم إن الحرية لعزيزة علينا ويجب أن تفدى بالأرواح ، ولـكن يجب أيضاً أن يكون لهـا حدود وإلا فهى والهمجية سيان ، كلما شاء المرء شيئاً أو خطر له خاطر نفذه بغير مراعاة القيود الصارمة التى قيدنا بهـا الاجتماع والتمدين نفسه .

عجيب أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم متمدينون وأنهم أحرار لا يأخذون من ذلك التمدين إلا شقه الذى يروقهم ويتركون سائره ، ألا إنما التمدين هو أكثر أحوال الإنسان اصطلاحات وقيوداً .

يلبس الرجل الوحشى ما يلبس أو يظل عارياً ما شاء الله ، ويأكل ما يريد وقتما يريد ، وكان يقتنى من النساء من تعجبه حين تعجبه ، وهكذا فى كل حاجاته وحالاته ، أى أنه يستعمل الحرية الحقيقية بحذافيرها ، لا يراعى إلا ميوله النفسية بغير شرط ولا قيد .

فهل الحرية التى قررتها الأديان وجاهد لأجلها الفلاسفة والعلماء وثلت عروش الملوك ودكت لنيلها الأرض دكاً ، كما هى هذه ؟ أو هل هذه المدنية الجديدة التى تتحكم فى أحوالنا وأموالنا وأذواقنا وأوقاتنا حتى فى أصناف مآكلنا وألوان ملابسنا وهيئات أزيائنا من قمة الرأس إلى موضع القدم — هل هذه

تنطبق حقيقةً على الحرية التي يتغنون بها كلما صدمهم صادم في أهوائهم ومنازعهم ؟ أو فرغت مصر من الرجال وانعدم المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها حتى تخطب بناتنا لأنفسهن رجالاً من الإنجليز ؟ وهل بلغ بنا الخور وضعف الرأي إلى تمثيل السياسة الجارية علينا حتى داخل بيوتنا وفي معيشتنا الشخصية وفي ديننا أيضاً ؟ « رب إن الناس ضلوا وغووا » .

حتّام هذا التواكل وهذه الذلة أيها المصريون ؟ أين رجولتكم أيها الآباء ؟ هل ضربت عليكم الذلة والمسكنة إلى الأبد ؟ انشئوا لبناتكم مدارس إسلامية محضة وربوهن التربية الإسلامية في مدارس البنات التابعة للحكومة واجبروا مدارس المبشرين على أن تخصص معلمين مسلمين يدرسون الدين للمسلمات بينما تكون أخواتهم المسيحيات في حصص الدين المسيحي . ألم تسمعوا بحادثة الفتاة « نعيمة » وما العهد عليها ببعيد ؟ ! إنكم ولا شك سمعتم بها ولكنها مرت عليكم كما تمر الحوادث العادية المألوفة . تالله لوجرت هذه الحادثة في أوربا وأمريكا اللتين تفرحون بتقليد أبنائهما لمزق الناس جمعية المضلين إربا . الخنوع عيب يارجال . أتريدون أن تصبح مصر أندلساً أخرى ؟

انشروا التعاليم الإسلامية ومكارم الأخلاق في بيوتكم ، بأن تكونوا أنتم قدوة نسائكم وبناتكم . راقبوا فتياتكم ولا تلقوا لهن الحبل على الغارب فإن سنهم ماتزال طائشة والغاوون والغاويات كثيرون في الطرق . اشغلوا أوقاتهن بالعمل النافع ، فإن لم يكن العمل البيتي الذي يأنفنه ويتكبرن عليه ، فالعمل الخيري الدقيق النظيف الذي تزاوله مثيلاتهن في أوربا وأمريكا : كتجهيز ثياب جديدة أو إصلاح أخرى قديمة وتقديمها للفقراء والمعوزين ، أو تنظيم الحفلات

و بيع السلع فيها مساعدة للمحتاجين وأبناء السبيل ، أو اشلغن وقتهن بتعليمهن فيه شيئاً جديداً .

أما هذا الفراغ الذى لا يعرفن كيف يملأنه ، وهذا الجرى فى الشوارع الذى لا يدرين له مدى ولا غاية غير « الفسحة وشم الهواء » من أول النهار إلى آخره ، وفى ساعات الليل المتأخرة أحيانا و بغير رقيب ، كل هذا من شأنه أن يضلهن و يفسد عليهن نقاءهن الأبيض الشفاف . أنا لا أنصح بحبس الفتيات وإنما أطلب منكم الحزم والمراقبة ، وألا تدعوا بناتكم يستهدفن للأخطار فإن عارها حائق بهن و بكم معا . والشفقة التى تؤذى خير منها القسوة .

أين علماء الدين عندنا وماذا عملوا ليمنعوا أمثال تلك الحوادث المؤلمة المخزية ؟ هل هم الذين خاطبهم المتنبى بقوله :

أغاية الدين أن تُحفوا شواربكم   يا أمة ضحكت من جهلها الأممُ ؟

بماذا تفتون أيها العلماء المطمئنون الساكتون ؟ هل تحسب تلك الفتيات مسلمات أو مرتدات ؟ وهل يحسب أولادهن مسلمين أو نصارى ؟ وهل يجازى أهل الفتاة لموافقتهم ابنتهم أو لسكوتهم عنها أو لا يجازون ؟ ؟

أغيثونا أيها العلماء وانفضوا عنكم غبار النوم فقد بلغت الروح التراقى ، وما لهذا البلاء من دافع إلا بإذن الله و إذنكم إن شئتم أيها السادة العلماء . وعليكم وحدكم سوف تقع تبعة هذه البدعة السيئة ، وأنتم أمام الله وأمام الإسلام وأمام الأمة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

باحثة البادية

شعر ملك حفني ناصف

بحكم الوراثة والحس المرهف واستدامة تلاوة النظم وحفظه كان من اليسير على ملك أن تقول شعراً نوه برصانته الشعراء والعلماء والكتاب أمثال إسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وخليل مطران وأحمد السكندرى .

وكان من عادتها أن تدون هذا الشعر فى كراسات مرقمة مرتبة ترتيبا تاريخياً ، ولكن هذه الكراسات ضاعت بعد وفاتها . وما زلنا نفتقد كثيراً مما قالت .

قصيدة نسائية (١)

لباحثة البادية

وسبب إنشائها أن شاعر النيل أحمد شوقى أدرج فى الجريدة قصيدة بعنوان : « إلى الدرة الغالية باحثة البادية » مطلعها .

صداح ياملك الكنا ... ر ويا أمير البلبل

ومنهـا :

بالرغم منى ما تُعا ... اج فى النحاس المقفل

والقيد لو كان الجما ... ن منظما لم يحمل

صبراً لمـا تشقى به ... أو ما بدا لك فافعل

أبداً مروع بالإسا ... ر مهدد بالمقتل

إن طرت عن كنفى وقعـ ... ـت على النسور الجهل

(١) هذه آخر قصائدها ويبدو فيها النضوج ومحاولة السمو بالشعر ومراميه . والذى يعرفه الخاصة أن (شوقى) استتر خلف الباحثة والمرأة ليناجى وطنيا مصريا مجاهدا كان على وشك أن يعدم ، ولم تفطن الحكومة إذ ذاك إلى ذلك لا فى قصيدة شوقى ولا فى رد باحثة البادية .

وقد أهدى شوقى قصيدته هذه للباحثة ، فظن بعضهم أنه ينعى حالة المرأة و يتأسف لإقامتها فى البيت ، و يعتذر عن الرجال بالخوف عليها من تطاول السفهاء فلم يقبل هذا العذر ، وكتب فى الجريدة إلى شوقى على لسان الباحثة قصيدة منها :

سميتنى ملك الكنار وأنت رب المنزلِ
وجعلتنى رهناً لأقـ ـفاص الحديد المقفل
غللتنى وسجنتنى خوف اصطياد الأجدل
إن لم تكن لى حارساً من كل عاد مقبل
فالحصن والبيداء يسـ ـتويان عند الأعزل
لو كان حبك صادقاً لفككتنى من معقلى

وذهب بعض آخر لتأويل غير هذا ، فرأت الباحثة أن هذه التأويلات كلها بعيدة عن الصواب ، وأن قصيدة شوقى يجب أن تفسر بتفسير آخر هو ما ذكرته فى قصيدتها وهى :

ياهذه لاتعذلى وإذا أبيت فقلّلى
أفرطت فى لومى ولو انصفتنى لم تفعلى
لاخير فى نجوى بغيـ ـر روية وتعقل
ماذا فهمت من الكنا ر ومن حديث البلبل
حتى سخطت على المعيـ ـشة فى ظلال المنزل
وودت أن تجدى قـا ماً بالعراء فتنزلى
أو دمنةٍ عند اللوى بين الدّخول فحومل
ربُّ الكنار أظنه عما زعمت بمعزل
خال الكنانة طائراً والشعر حسن تخيل

خفنا على مثواه فى قفص النحاس المقفل
ونعى زمان مراحه بين الربا والجدول
والقيد ذل لو يكو ن خلاخلاً فى الأرجل
وغدا يعزيه ويأ مره بحسن تجمّل
ويقول إن الحبس حر ز من تقصّى الأجدل
أهدى القصيدة فى الجريدة لى هدية مفضل
كمؤلف يهدى الكتا ب إلى سرِى أمثل
يرمى إلى تشريفه ويخصه بتطول
هى عادة مألوفة فى الناس منذ الأول
فشكرت مهديها وقد قابلتها بتقبُّل
هذى الحقيقة يافتا ةُ تلوح للمتأمل
لكن جهلت الأمر والمعهـ ـود أن لاتجهلى
مجدُ الفتاة مُقامها فى البيت لافى المعمل
والمرء يعمل فى الحقو ل وعرسه فى المنزل
كم خدمة يقضَى نظا م البيت إن لم تعمل
مَن للوليد يعينه فى لبسه والمأكل
ويميط عنه أذى الهوى بتلطف وتحيّل
من للرضاعة والحضا نة والفطام وما يلى
من للمريض يحوطه أبداً بدون تملل
يجرى على وصف الطبيـ ـب على الطريق الأفضل
من للأثاث يصونه من للذخائر والحلى
من يطعم الغرثان من متزود ومحوصل

إن الدواجن والطيو ر تموت إن لم تأكل
من يُقسم المذخور بيـن الحال والمستقبل
من ذا يعلم خادما ت البيت فعل الأكمل
لكن إذا دعت الضرو رة للخروج فحيهلى
سيرى كسير السحب لا تأنى ولا تتعجلى
وتنكبى نهج الزحا م وفضلى النهج الخلى
لا تخضعى بالقول أو تتبرجى أو ترفلى
لا تكنسى أرض الشوا رع بالإزار المسبل
أما السفور فحكمه فى الشرع ليس بمعضل
ذهب الأئمة فيه بين محرم ومحلل
ويجوز بالإجماع منهم عند قصد تأهل
ليس النقاب هو الحجا ب فقصّرى أو طوّلى
فإذا جهلت الفرق بيـنهما فدونك فاسألى
من بعد أقوال الأئمة لا مجال لمقولى
فملام أكثرت الملامة وانضممت لعذلى
وسقيتنى من مرّقو لك مثل نقع الحنظل
ونسبتنى حينا لمذ هب قاسم وأبى على
تعنين ويلك أننى أمّارة بتبدل
أدعو النساء للعب با ريز ولهو بروكسل
ونسبتنى حينا إلى تجميل ما لم يجمل
جعل الحرائر كالإما ء خوادما للمنزل

ليس الكلام بمبهم فتفسرى وتؤولى
لا ينفع التشكيك والتأويل فى الأمر الجلى
قلت: النقاب، سكت عنه نعم، بدأت فكملى
ولأى شئ يا ترين بغيره لم تحفلى
كم مبحث ما جلت فيه وجل من لم يغفل
من ذا الذى جاءت مقالته بكل مؤمل
لا أبتغى غير الفضيلة للنساء فأجملى
إن لم ترى رأيى فـ «يا ويل الشجى من الخلى»

لمناسبة إحياء قانون المطبوعات[1]

في ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩

يا أمة نثرت منظومها الغِيَرُ حتام صبرٌ ونار الشر تستعرُ
ماذا تقولون فى ضيم يراد بكم حتى كأنكمو الأوتاد والحمر[2]
ستسلبون غداً أغلى نفائسكم حرية ضاع فى تحصيلها العمر
حرية طالما منّوا بها كذباً على بنى النيل فى الآفاق وافتخروا
أتصبرون وهذا بدء بطشهم (وأول الغيث قطر ثم ينهمر)
كيف اصطبارٌ وسيل الظلم مكتسح عرائس الخير لا يبقى ولا يذر
أبوا على مصر ما هنوا العراق به ونالت الصرب والبلغار والتتر

---

(١) همت الحكومة إذ ذاك بمحاكمة باحثة البادية لدعوتها السافرة إلى الثورة ، ثم عدلت خوف إلهاب الشعور العام.

(٢) إشارة إلى البيت المشهور :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد

وكم يقولون فى ذا المنع مصلحة ... تالله ما صدقوا لكنهم قدروا
كمّوا الصحافة حتى لا تشير بما ... تملى على طرسها الآلامُ والضجر
إن الشكاة بخار جائش فإذا ... سددت مرجله لا شك ينفجر

رثاء (الشيخ محمد عبده)[1]

ليبكك العلم والإسلام ما سلما ... وليذرفا الدمع أو فليمزجاه دما
وليبعث الفضل فى منعاك روح أسى ... كما بعثت إلى تحصيله الأممَ
غالتك غائلة الموت التى صدعت ... من الهدى عَلماً تمشو له العُلما
مددت للعلم فى مصر جداوله ... فلم تدع فى نفوس الواردين ظما
والدين طهرته من بدعة عرضت ... عليه فى سالف العصر الذى انصرمَ
والعلم والدين للجنسين مطلب ... فليس يختص جنس منهما بهما[2]
فنحن فى الحزن شاطرنا الرجال كما ... فى الاستفادة شاطرناهم قِدما
لهفى على طرق الإصلاح قد تركت ... بلا مناد وأمسى نورها ظلما
يا حجة الدين من يبنى دعائمه ... للمسلمين إذا بنيانه انهدمَ
عدت عليك عوادى الدهر فاقتلعت ... من بيننا برداك العلم والكرمَ
واحسرتاه على العافين من لهم ... يسد إعوازهم إن حادث دهمَ
إذا شكا معدم يوماً خصاصته ... بسطت كفًّا له بالمكرمات همى
نشرت فى الأزهر الإصلاح منتصراً ... للحق معتضداً بالله معتصما
رددت (هانوتو) والقوم الذين نحوا ... منحاه فى فرية فى ديننا زعمَ
حملت من خطط الأعمال أصعبها ... إن العظائم فى الدنيا لمن عظمَ

---

(١) نثبت منها هنا ماوعته الذاكرة .

(٢) فى البيت السادس تنبيه إلى وجوب مساواة الجنسين فى تعلم الدين والعلم دون تمييز بين الجنسين .

عاجلت يا موت مولانا وسيدنا ... تبّت يداك لقد أورثتنا العدمَ
كلامه الدر إلا أنه حِكم ... فهل سمعت بدرٍ ينتج الحكم
لو لم يدبّج سوى التفسير منطقه ... لجلّ قدراً كما تهوى العلا وسما
إذا على منبرٍ فاضت بلاغته ... بالموعظات نسيت العرب والعجمَ
لا غرو إن كان بالإصلاح مضطلعاً ... فإنه عاشق الإصلاح مذ فُطم
من للمحاكم والفتيا ينظمها ... ومن لمجلس شورانا إذا التأم
ومن لجمعية العافين يسعفهم ... إذا الزمان بهم لم يبق غير ذما
محمد : ضاعت الآمال وارتجعت ... إلى الوراء أمانىٌّ سرت أَمَما
غاض الوفاء كما فاض الشقاق وقد ... زاد النفاق فأما الحق فاهتضم
والدهر آلى فلا حول ولا حيل ... أن لا يراعى لنا إلاًّ ولا ذمما
وقد قضى الله أن نبقى بمنخفض ... نرى على هامنا مِن غيرنا قدما
يا أيها الحاسدوه ضل سعيكم ... أما نهاكم ضمير عن أذاه أما
كفاكمو ما رميتم قبل مصرعه ... شلت يمين فتىً بعد الممات رمى
إن المنايا لِأقوام الورى شرعٌ ... من رام فى دهره خلداً فقد وهما
رقت شعوب من العليا ذؤابتها ... فاستأصلتها فبات المجد منفصما
إن السحاب يصيب الأرض ماطرُه ... ويسلم الكل فيها ما خلا القمم
وفى الكواكب لا يعرو الكسوف سوى ... شمس وأحسن ما فى الروض ما رجم
كفاك من هذه الدنيا متاعبها ... لا يدرك النور مَن فى مقلتيه عمى
ولا يلذ بأنغام توقعها ... ذو عاهة يشتكى فى أذنه صمما
أحلك الله دار الخلد دانية ... قطوفها وسقاك الدائم الديما

رثاء (ملك) لعائشة التيمورية

ألا يا موت ويحك لم تراع
حقوقاً للطروس ولا اليراعِ
تركت الكتْب باكية بكاء
يشيب الطفل فى مهد الرضاع
ولم تهب الفضائل والمعالى
وطول السعى فى خير المساعى
ولم يمنعك مما رمت نثر
ولا شعر ولا حسنُ ابتداع
نراك تجود بالأرزاء حتى
عددنا البخل من كرم الطباع
فذب يا قلب لا تكُ فى جمود
وزد يا دمع لا تك فى امتناع
ولا تبخل علىّ ، وكن جموحاً
فكنز العلم أمسى فى ضياع
سنبقى بعد « عائشة » حيارى
كسرب فى الفلاة بغير راع
هى الدر المصون ببطن أرض
وقد كانت كذلك فى قناع
هى البحر الخضم وما سمعنا
بأن البحر يدفن فى القلاع

وكانت للمكارم خير عَوْن
وللخيرات كانت خير داعِ
لها القِدْح المعلى فى العوالى
وفى نشر المعارف طول باع
فيا شمس المحامد غبتِ عنّا
وخلَّفت البكاء لكل ناع
ويا خير النساء بلا خلاف
وقُدوتنا بلا أدنى نزاع
لقد أحييت ذكر نساء مصر
وجدَّدتِ العلا بعد انقطاع
وشدت صروح طُهر باذخات
محصَّنة كتحصين القلاع
بنى « تيمور » خطبكمو جليل
له وجه الفضيلة فى امتقاع
وصبركمو أجل ، ومَن سواكم
من الأقوام أولى باتباع

قالت الباحثة فى رثاء صديقتها

المرحومة فاطمة ابنة أحمد حشمت باشا (وزير المعارف الأسبق)
قرينة الأستاذ عبد العزيز فهمى باشا وزير العدل الأسبق

تعدو العوادى والخطوب تنوب ويلاه عيش المرء كيف يطيبُ
حمى النفاس شببت مهجة والد هيهات أن يطفى لظاه نحيب

حمى النفاس فجعت بملاً لم يكد ... يرتاح حتى كدّرته شعوب
حمى النفاس قصفت غصناً قد بدا ... إثماره ، وجناه كاد يطيب
حمى النفاس أما رحمت محمداً ... وبكاؤه يصمى الحشا ويذيب
أمحمد يوم الولادة سرّنا ... لكنه ، من حيث سر ، عصيب
كم نقبت فى الطب تبغى حمامها ... ولرب شرٍّ جرّه التنقيب
وعى الذى فيه الحياة مبغض ... رعى الذى فيه البلاء حبيب
لهفى عليك ، اليتم أول حاضن ... لك بعدها ، والقابلات خطوب
واستقبلتك نوادب ، ما كان ذا ... يرجى ، ولكن البلاء نصيب
لم يجدِ ما زعم الطبيب ببرئها ... هيهات أن يقصى القضاء طبيب
فبطبه سالت عليك مدامع ... وبطبه انشقت عليك قلوب

* * *

ياقبر لاتعبث بغصن قوامها ... واحرص عليه إنه لرطيب
جاءت بأكفان ، وثوب زفافها ... لم يبله ، والله ذاك عجيب
إنى أفاطم مذ نعوك عليلة ... قلبى وطرفى ذائب وسكوب
ما كنت أدرى قبل خطبك بالأسى ... حتى دهتنى اليوم منه ضروب
أرضيت سكنى القبر؟ كيف؟ وأنت لم ... يعجبك بيت كنت فيه رحيب
وحثوا ثراه على جمالك عاطلاً ... أين الغلائل والحلى والطيب
واهاً لعينى جؤذر قد أغمضت ... لك كان يحلو فيهما التشبيب
ما كنت أحسب أن تغمض فى الثرى ... رغماً ألا إن الحياة كذوب
أصديقتى جلت عليك مصيبتى ... والصبر ندٌّ وما أراه يؤوب
عبد العزيز ، يقال إنك صابر ... فإذا جزعت فذاك منك غريب
ولأنت أعرف بالشجاعة والقضا ... ولأنت تبرأ أن يقال هيوب
عش يامحمد بعد أمك سلوةً ... لأبيك إن غابت فليس تغيب

رأى فى الحجاب

أعملت أقلامى وحينًا منطقى ... فى النصح والمأمول لم يتحققِ
وظننت إخلاصى يفيد وهمتى ... تفضى بمن أشقى لهن إلى الرقى
أ كبرت نفسى أن يقال تملقت ... لا كان عيش يرتجى بتملق
وإذا تسلق بالخديعة كاتب ... يبغى بها العلياء لم أتملق
تخذوا مناطيد الدهان ذرائعاً ... للمجد لكننى بجدى أرتقى
سيّان بعد رضى ضميرى من غدا ... لى مادحاً أو قادحاً لم أفرق
إن الحقيقة كيف يخفى ضوءها ... مدح المحب وترهات المحنق
والرأى يجلوه التباين مثلما ... يجلو المحكُ العسجد الحر النقى
أيردنى عما رأيت معاند ... ومقال حاسدة وكذب ملفق
لعدمتُ آدابى وحسن تجلدى ... إن صدنى قول البغيض الأحمق
أيسوؤكم منا قيام نذيرة ... تحمى حماكم من بلاء محدق
أيسركم أن تستمر بناتكم ... رهن الإسار ، ورهن جهل مطبق
هل تطلبون من الفتاة سفورها ؟ ... حسن . ولكن أين بينكم التقى؟
تخشى الفتاة حبائلاً منصوبة ... غشيتموها فى الكلام برونق
لا تتقى الفتيات كشف وجوهها ... لكن فساد الطبع منكم تتقى
لا تطفروا بل أصلحوا فتياتكم ... وبناتكم وتسابقوا للأليق
أرضيتمو عن كل شيء عندنا ... وخشيتمو أمر القناع إذا بقى
هل قمتمو بفروض نسوتكم وهل ... هذبتمو من طبعهن الأخرق ؟
أسبقتمونا للفضيلة والتقى ... وخشيتمو الهلكات إن لم نلحق ؟
تتنقلون لمنتدى من قهوة ... ونساؤكم فى ألف باب مغلق
إن الزواج على خطورة شأنه ... آلت روابطه لشرٍ ممزق

اليوم عرس باهظٌ نفقاته وغـداً تقام قضية لمطلق
أتعاقدون على الحياة شريكة غيباً ، أيمقت عاقل من ينتقى ؟
من سار أعزل للقتال فإنه لايشتـكى طعن العدو الأزرق
من يطلب العلياء دون تدبر لاتعجبن لسعيه أن يخفق
هلا صرفتم بعض وقتـكمو على رأب الصدوع ورتق مالم يرتق ؟
لاتدخلون الدور إلا برهـة تردونها لضرورة كالفندق
لاتصدر الآراء ينقض بعضها بعضاً فتمسى فى مجال ضيق
ياليت شعرى ، والمشارب أمرها متعاكس ، من أى ورد نستقى
فدعوا النساء وشأنهن فإنما يدرى الخلاص من الشقاوة من شقى
وأمامكم غـير القناع مآزق أولى بها التفـكير من ذا المأزق
ليس السفور مع العفاف بضائر وبدونه فرط التحجب لايقى

بين الشاعرة ووالدها

جراحة وسعال

كانت تعمل لحفنى ناصف عملية فى عينيه بدون تخدير فـكتب لابنته ملك (باحثة البادية) :

ولقد ذكرتك والطبيب بجانبى والجسم فوق فراشه مطروحُ
وجفون عينى بالملاقط فتّحت وبها المباضع تغتدى وتروح
والخيط يجذب فى الجفون بإبرة جذباً تـكاد تفيض منه الروح
فطربت من وخز الحديد كأنه قول برفض العذل فيك صريح

فـكتبت له (وكانت فى السادسة عشرة من عمرها) وكانت مريضة بالسعال :

من مبْلغ عنى طبيبك أنه يفرى بمبضعه حشاى وأضلعى
يخبرك صدرى بالحقيقة إذ بدا من إثْر طعنته السعال مشايعى
فلئن سكتُّ فمن ضرورات الأسى ولئن سعلتُ فزفرة المتفجع
ولئن بكيت فإنما لتَذكرى عينيك تفتح بالسنان المشرع
محجباً ! جفونك دائماً مغموضة وأبيت محصية النجوع الظلع
ما زلت أرقبها تروح وتغتدى بالليل حتى قد جفانى مضجعى
فاسلم أبى وانظر إلىّ برأفة عينى فداؤك كى أقرّ ومسمعى

فى الحياء

إن الفتاة حديقة وحياؤها كالماء موقوفا عليه بقاؤها
بفروعها تجرى الحياة فتكتسى حللاً يروق الناظرات رواؤها
إيمانها بالله أحسن حلية فيها فإما ضاع ضاع بهاؤها
لا خير فى حسن الفتاة وعلمها إن كان فى غير الصلاح رضاؤها
فجمالها وقف عليها إنما للناس منها دينها ووفاؤها

فى تفريج الهم

اصرف ما استطعت عنك الهموما واحذرى الحزن والأسى أن يقيما
قدّرى إن أصابك الشر يوماً أن ما زال عنك كان عظيما
وإذا ما أصبت فى الدهر مالاً فاذكرى فاقداً لهُ محروما
فتعيشى بغبطة وهناء ويكون الشقا لديك نعيما

فى الاقتصاد

فى كل شىء ، الاقتصاد عنوانُ خير يستزادْ
يبنى على أساسه إن تم إسعاد البلاد

وإضافة المليم لمليم جمّعت التلاد
والبيت مملكة صغيرة، الفتاة لها عماد
ما الأمة الكبرى سوى الأفراد جمّعها اقتصاد

من نصيحة حماسية

نظمتها فى الخامسة عشرة من عمرها

قَوْمِى عليكم بتقوى الله إنكمو رزئتمو بصروف الدهر والغيَرِ
ماتت جدود لكم لكنّ ذكرهمو باق لنا فى جبين الدهر كالغُرر
قد خلّفوا الفضل والأزمان شاهدة بمجدهم ودليل القول فى الأثر
وأنتمو فى الشباب الغض ليس لكم سوى المساوئ فى ألف من الصور
تركتمو الدين والشرع الشريف فوا خوفى عليكم من التفريق واحذرى
تفرق الشمل منكم دون نيل منًى ولو جمعتم لصرتم زيفة البشر

بارين الرجال

هذه أول قصيدة عرفناها ﻟ (ملك) قالتها بمناسبة أنها كانت أول فتاة نالت الشهادة الابتدائية فى الامتحان العام . وفيها استنهاض للفتاة على ورود الفضيلة والعلم والتطلع إلى المساواة بين الجنسين . والشعر على بساطته ينم على نبوغ باكر لأن سنها إذ ذاك لم تتجاوز الثالثة عشرة .

بشرَى لمصر فقد نالت أمانيها وأنجح الله بالحسنى مساعيها
فنالت الفخر والمجد اللذين هما مشكاة نور به ابيضت لياليها
وصارت الآن فى الأقطار مفردة فليس فى الكون من قطر يساويها
فكيف لا وبنات القطر قد وردت ورد المعارف فهو اليوم راويها

حزنَ الفضائل بارين الرجال وقد　　صرن المفاخر للدنيا وما فيها
نلن الشهادة فى عصر به طلعت　　شمس المعارف فى أبهى مجاليها
فقمن جمعاً بنات القطر قلن معى :　　بشرى لمصر فقد نالت أمانيها

وصف البحر (١)

فى حالتى صفوه وكدره

تعالى الله ما هذا الجلال ! أيها البحر إنك كأطماع الإنسان لا تنتهى إلا إذا عبر جسر الحياة : كذلك أنت لا يعرف لك حد إلا عند الخروج منك . أو إنك كقلب الرجل، مرة تصفو ومرة تغضب ، لا أمان لك فى الأولى ولا أمان فى الثانية . إذا رضيت كنت جمالا، وإن غضبت انقلبت نكالا .

أيها البحر إنك ، رهواً ، نعم المركب الذلول كأن صفحتك من الغمام ، يصطخب الموج بين أحشائك ويتلاشى كألفاظ الحساد تمر بسمع الحليم ، وتشق البواخر جوف عبابك فتصبر عليها صبر الكليم . تحمل من الأثقال والأكدار ما لو حملته الجبال لخرّت هدّا ، كأن صوتك الهادئ نموجات لحن شجى ، وكأن أمواجك المزبدة متتابعة متقابلة سرايا جيش منظم يحمل رايات السلام . إذا صحت السماء استعارت صفاء زرقتك ، وإن تجللت بالغيم حكت لون كدرتك ، تضيق عليك الأرض مسالكها فتنكمش، وتوسع لك فتنفرج، تجرى متواضعا تحت قدميها وأنت أعظم منها قوة وأعز شأنا ؛ تنفجر جبال النار (البراكين) بين ضلوعك فلا تلتاع ولا ترتاع، كأنك أجمد من قلب الخلى ، أو كأنها بثور بأديمك أو أثر لذع البعوض فى وجه الحسناء ! كم سقطت فيك جزر وبلدان تحتمى بك من مآثمها ومعاصيها فمسحتها بدموعك ونفيت روعتها بمائك الطهور !! ظلموك أيها

---

(١) ننشر هذه الجريدة الفريدة فى هذا الباب على أنها شعر منثور

البحر إذ لم يهتموا بك اهتمامهم بأختك الغبراء ! زينوها وتركوك عاطلا فغنيت بجلالك عن جمالها المصطنع، وبحدائق مرجانك وأودية دُرك عن حدائقها الخضراء وأوديتها الجرداء ، وصلتهم فقطعوك ، وشايعتهم فناوؤوك . بذلت لهم ما تملكه زينة وطعاما، وتسامحت لهم بمائك فحلوه شرابا، وأنخت لهم متنك فاتخذوه ركابا ، وصقلت لهم جبينك فجعلت منه عند بزوغ القمرين مرآة ومشكاة ! تفيض عليهم بهجة ونورا ، كأن العسجد أذيب فيك نهارا ، وتكسرت فى ثنائك جداول اللجين ليلا . وأنت أيها البحر الخضم أصل حياتهم ، منك الغيث ومن الغيث الحياة . أظللت سماءهم ، وأنبت غذاءهم ، وألطفت هواءهم ، وفوق ذلك فأنت مستودع أسرارهم وقارورة أقذارهم ، فهل تراهم على ذلك يشكرون ؟ تالله ما رأيت مثلك اتضاعا فى عظمة واحتسابا فى قدرة .

وإذا عبثت أيها البحر وكشرت عن نابك، ويا سرعان ما تعبث ، فإن الموت فى تقطيب حاجبيك، يصرح الشر باسمه عند زمجرة منك كأن جوفك كان مملوءا أسوداً فلفظتها فاغرة أفواهها تبلع من تصادف فى طريقها . يدوى صوتك كالرعد القاصف فيمطر وابل المنايا بغير ولى !! ما أظلمك أيها البحر من مستبد غاشم تأخذ البرىء بدم المجرم أو تأخذه بلا جريرة . إن الله لم يظلمك إذ جعلك ملحاً أجاجا . وإن البشر لم يبخسوك حقك إذ امتطوا ظهرك كالدابة ، ومزقوا أديمك سفرا . وإن أقل خفقة فى قلب الأرض تذكر تضطرب على اتساعك ، وأدنى هزة من الريح تهز أعصابك! لا أمان عندك فتصحب، ولا ميعاد لغضبك فتتقى . كأنك فى تقلبك رأى الضعيف أو يمين الحانث، وفى تلونك كالحرباء . كم مجرم استعان بك على كتمان جريمته . وكم ملك أفنى رعيته ودفن العدل فى جوفك ! كان آذيك متلاطما قمم الجبال تتساقط كسفا ، أو رؤوس الجند البرىء تتناثر إرضاء لأهواء الملوك الظالمين . كأن جوفك المظلم ضمير الحسود يغلى كالمرجل ويخفى ما يخفى

تحت ثوب الرياء ، تنطح الصخر الأصم كمستجدى البخيل ثم ترجع أدراجك كالسائل المحروم أو كالجيش المقهور ؛ تشمخ بأنفك فترغمها اختراعات الإنسان ، وتتطاول إلى السماء فتـقط إعياء ، و يرجع البصر خاسئا وهو حسيراً لا أثر للرحمة عندك كأنك قلب الـكافر الجحود . لا يسوغ لك شراب ، تمج مرارة كمرارة المظلوم أرهقة العذاب . كأن بريق مائك التماع أسنة الخرصان أو امتداد ألسنة النيران . شاهر سيفك بادئ العدوان ، ولـكنك لا تتمثل فى هجومك بما يفعله الشجعان ، لأنك تطلع على الغافلين بالردى بغير نذير .

لاحبذا أنت أيها البحر من طريق ولا رفيق !! لولا اضطرارنا إليك ما سلـكناك ، ومن يسلم منك فما ينجو من الحمام إلاّ إلى الحمام كما قال المتنبي :

وإن أسلم فمـا أبقى ولـكن نجوت من الحمام إلى الحمام

ما أكفر الإنسان وما أضعف إيمانه ! أين قوته واختراعه من قدرة الله سبحانه ! إن فى البحر وحده فى حالتى صفوه وهياجه لعبرة لقوم يعقلون . فسلام عليك أيها البحر ضاحكا وعبوسا ، وسلام عليك إنك أبو الـكون ومحيطه ، وسلام عليك ! لو لم يكن لك فضل إلا وصل مصر بأجزاء العالم لـكفاك بذلك فضلا ، ولو لم يكف ماؤك أن يصل لمصر لأ كملته بما فى شراييني .

بين كاتبتين[1]

(١) نشرت فى «الجريدة» و«المحروسة» .

بين باحثة البادية والآنسة ميّ

إلى باحثة البادية

ترنمت باسمك قبل أن أعرفك ، واتخذت ذكرك عنواناً لنهضة المرأة المصرية قبل أن أطالع مقالاتك، لأن أصوات الجمهور قد اتفقت في الثناء على فضلك . غير أني عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك النفيسة فانحنيت عليها ساعات طويلات، فيها خيل لي أني أقلب صفحات نفسك المفكرة المتوجعة

ثلاث سنوات مضين ، وتلك المجموعة محفوظة بين دفات المكاتب أو مبعثرة بين الأوراق والأسفار المتراكمة يوماً بعد يوم . لكن سرها مازال مترقباً يداً تلمسه ، مستعداً لمناجاة نفس تتلمسه .

سنوات ثلاث فيها مشت البشرية خطواتها المعدودات متعثرة بالعظام والجماجم ، منشدة أهازيج النصر الكاذب وتهاليل الفخر الباطل ، وقواها الغالية تسيل على شفار السيوف ، ودماء حياتها تجرى أنهاراً في سهول قد أخفت نجمها الجميل وثمراتها الممتعة خوفاً من وحشية الإنسان .

سنوات ثلاث فيها شعرنا بارتداد صدمات السياسة والاقتصاد والأطماع المتزايدة . فيها ارتمت دويلات جادة مجتهدة ، وتهشمت أعضاء تركيا العظيمة بتاريخها، الضعيفة بإهمالها وتهاونها . وقد جاش لذلك كل مافي صدر الإسلام من النخوة القديمة ، وبكت له قلوب الغيورين على مصالح بني عثمان

كل ذلك ومصر مصر بكآبتها وانعطافها واندفاعها . كل ذلك ونحن هائمون على وجهنا في صحراء الفوضى . صخور التقاليد القديمة تدمى أقدامنا الجديدة ، وأشواك الاصطلاحات تجرح أيدينا الممتدة للمس أشياء نظنها موصلة إلى حياة

نريدها عظيمة . والسراب الجميل اللامع فى حدود المستقبل غير المحدود يستدعينا آمراً كأنه نظرة عين فتانة ، فنجرى فى الصحراء ولا ندرى إلى أين المصير !

سنوات ثلاث مررن على يوم فيه ارتفع صوتك مرشداً، عائلتنا لاتزال على ما كانت عليه ، وأفكارنا لم تتغير إلا قليلا ، وعواطفنا مابرحت حائرة بين تيارات متعاكسة ، دائمة الاضطراب بين ماندعى أننا نعلم وما نجهل أننا لا نعلم ! غير أن الأصداء الخفية مازالت ترجع همس ذلك الصوت الرخيم

بالأمس لمست نفسك وقرأت أفكارك فعثرت على جراح بليغة وددت تقبيلها بشفتى روحى ، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا ألثم بنانى على غير هدى ، ولم يكن ذلك إلا إجلالاً لصفحات قلبتها ، وحباً لنفس استجوبتها فعرفتها

فيامن « ارتفع قلبها إلى فكرها ، وانحنى فكرها على قلبها » أيتها الباحثة الحكيمة ، لماذا تصمتين ؟

تتوالى الأيام ونحن فى ضلال مبين . الرجل يجاهد فى حرب الاقتصاد الدائمة . الرجل تائه فى مهامه أشغاله ، فإذا كتب بحث فى العموميات ، و إذا أجال قلمه فى الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النسائى ، لأنه يكتب بفكره ، بأنانيته ، بقساوته ، والمرأة تحيا بقلبها ، بعواطفها بحبها .

علاّتنا مستعصية لا يشفيها إلا طبيب يعرفها . والمرأة بعلة جنسها أدرى فهى تستطيع معالجته . ولا تطلب هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن من الحياة إلا مايصوره لهن الخيال المخيم بطلانه على منابت العواطف المخصبة . هذا اعتراف ساذج صادق : الفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات !! وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية و إن لم يرفيها من الاستفهام شيئاً

لكن الزوجة والأم التى أعطيت ذكاء وفطنة وعلماً وشعوراً قوياً تدرك

بواسطته كل مافى الحياة من حلاوة ومرارة — تلك تستطيع وضع المرأة فى مركزها السامى ، وتلك تقدر أن تعمل فى مزج نصفى الشخصية المتألمة ، شخصية المرأة وشخصية الرجل .

فياسيدتى :

لدينا قلوب تحترق ولا ندرى أى نار تحرقها ، وتلتهب شغفاً بما لا نعرف ماهيته ، فعلمينا أنت التى كنت فتاة قبل أن تكونى أماً كيف نرشدها ، وإلى أين نوجهها !

لدينا نفوس عزيزة تنمو فيها ميول مبهمة ورغبات حارة ، فأرشدينا أى الأعشاب فاسد فنقتلعه ، وأيها الصالح فنسقيه ماء الرعاية والحنان !

قولى ياسيدتى تكلمى !

ضمى يدك البارة إلى الأيدى التى تحاول رفع هذا الجيل من هوة الحيرة والتردد ، ساعدى فى تحرير المرأة بتعليمها واجباتها . إن صوتاً خارجاً من أعماق القلب ، بل من أعماق الجراح كصوتك ، قد يفعل فى النفوس مالا تفعله أصوات الأفكار .

لا يهمنا أن تخفى تلك اليد النحيفة وراء جدران خدرك ، وأن تحجبى هيئتك الشرقية وراء نقابك الشعرى ، مادمنا نسمع صوتك فى صرير قلمك ونعرف منك روحك العالية .

فهنيئاً لوطن يضم بين بناته مثيلاتك ، وهنيئاً لصغار يستقون وعود الهناء من ابتساماتك ويسكبون حياتهم فى قالب حياتك !

« مى »

إلى الآنسة مى (١)

تفضلت فكتبت إلىّ كلمتك العذبة فى «الجريدة»، وكنت إذ ذاك بين مخالب الموت، فلم يكن فى وسعى أن أمسك القلم لأرد عليك وإن كانت مخيلتى لم تبخل بالرد. كانت رسالتك عزاء جميلا لى فى مرضى الطويل المؤلم، وبلسما ملطفاً لجراحى البالغة التى قلت إنك عثرت عليها. آلامى أيتها السيدة شديدة ولكنى أنقلها بتؤدة كأنى أجر أحمال الحديد، فهل تدرين ياسيدتى ما هولى؟! ليس لى بحمد الله ميت قريب أبكيه، ولا عزيز غائب أرتجيه، ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا ويستولى عليهم غرورها فأطمع فى أكثر مما أنا فيه، وليس لى حال سيئ أشتكيه، ولكن لى قلباً يكاد يذوب عطفاً وإشفاقاً على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها، وهذا علة شقائى ومبعث آلامى. إن قلبى يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد.

ومالى أحمل نفسى أعباء غيرها وليست بمسيطرة على هذا العالم، ولكنى كنت عاهدت نفسى على الأخذ بيد المرأة المصرية ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد، وإن كان تنفيذه شاقاً ومحفوفاً بالصعوبات ويكاد اليأس يسد طريقى إليه.

كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندى ولا اكتفاء بالقليل الذى كتبت من قبل، ولكنى كنت مللت المناداة بإصلاح المرأة المصرية، وثبط عزمى ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة؛ وما حركتهم التى ملأوا بها القطر صراخا إلا عنوان نهضة كاذبة.

---

(١) نشرت فى «الجريدة» و«المحروسة».

تسألينني ياسيدتي أن أدلك وسط هذه الأحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذي يحسن بالفتاة نهجه، وإنها لحال توجب الحيرة ولا ندري أي الطرق نسلك لنصل سريعا إلى الغاية التي نقصد إليها !! كلنا يرمي إلى تقدم الفتاة وتنورها وإعدادها لأن تكون زوجة صالحة وأماً نافعة أبناءها ووطنها، ولكن لكل مناد بالإصلاح وجهة هو موليها. فبعضهم لا يرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلا كان راجعا للحجاب، وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالاً ونسوا حكمة التأني والتحفظ عند إرادة الانتقال من طور مظلم مألوف إلى طور لم يعهد من قبل، تكتنفه المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التي تكاد تغشى الأبصار.

وفريق لا يرى للسفور فائدة ويقول إن الحجاب لا ينفي العلم، وإن إطلاق الحرية للمرأة أخيرا كان سببا لفسادها، وإن اطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب وخروجها عن حدود وظيفتها في المستقبل كما خرجت أختها الغربية الآن. فأي الطريقين نسلك ومن نتبع ؟ إننا معشر النساء — لا يزال — ظلم الرجل يرهقنا، واستبداده يأمر وينهى فينا حتى أصبحنا ولا رأي لنا في أنفسنا. فإذ قال لنا اختبئن حتى تدفنّ بالحياة صونا لكن وتدليلا كما يقول المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة

على المدفون قبل الترب صونا

وكقوله في أخت ممدوحه الثانية من رثاء أيضا

وما رأيت عيون الإنس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب
وهل سمعت سلاماً لي ألمّ بها فقد أطلت وما سلمت عن كثب

إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا، وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا، فهل هو حسن النية في كل مايطلب منا ولأجلنا أم هو

يريد بنا شراً ؟ لاشك أنه أخطأ وأصاب فى تقرير حقنا من قبل ، ولا شك أنه يخطىء ويصيب فى تقرير حقوقنا الآن .

نحن لانأبى أن نتبع رأى العقلاء والمصلحين من الأمة ، ولكننا لا يمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدى للكتابة فى موضوع المرأة من العقلاء المصلحين . ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها ولا يستبد فى (تحريرنا) كما استبد فى (استعبادنا) . إننا سئمنا استبداده . إننا لانخاف من الهواء ولا من الشمس و إنما نخاف عينيه ولسانه ، فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه وأن يكن لسانه كما يوصيه الأدب نظرنا فى أمرنا وأمره ، و إلا فكل منا حر يفعل مايشاء . والسلام عليك أيتها الفاضلة من المعجبة بك المثنية على أدبك الجم وعلمك الغزير .

باحثة البادية

إلى باحثة البادية[1]

ليس أعز لدينا من لطفك إلا حزمك وصراحتك ، وليس أجمل من صدى صوتك إلا فعل معناك . و إنى لأقبض على شجاعتى بيدى لأعترف بأنى أحب — استغفر الله واستغفرك ياسيدتى ! — آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الإنسانية وضلالها ، وأتمنى من أعماق فؤادى أن تجد دواماً تلك الآلام منفذاً رحباً إلى قلبك ، وأن يبقى ذلك القلب كريماً ليناً ينجرح لجرح الغريب و يبكى لبكاء المظلوم ، و يشفق على المتوجع أياً كان . بالاختصار — عفوك ! عفوك ! — أتمنى لك العذاب المعنوى لأنه النار المقدسة . أجل ، هو النار التى تطهر ، النار التى تحيى ، النار التى تلين ، النار التى ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعانى السامية والميول الرفيعة ، والرغبات الكريمة ، والتحمس لإجراء

---

[1] نشرت فى «المحروسة» و «الجريدة» .

الإصلاحات اللازمة وتنفيذ المبادئ الطيبة ، والنهوض بالاجتماع نهضة تهتز لها القلوب حمية وطربا .

أتمنى لك ذلك ، ولولاه لما وجدنا فى كتاباتك تلك الأنة العميقة التى تنبه الفكر وتلمس العاطفة فى آن واحد .

لا أنكر أن أنانيتى تتكلم الآن . غير أنى قلت ما قلت مسرعة هامسة ، فابتسمى له إن شئت ، وإلا فلا تصغى ياسيدتى ولا تسمعى ، بل اسألينى عما أحمس به لأجيب أنى أحمد الله على إبلالك وأنى أسأله أن يديمك سالمة . وما أغلى سلامتك لدينا .

* * *

جئت أسر إليك أمراً وقفت عليه عندما شهدت صدى مقالتك لدى جمهور القراء . اسمعى ياسيدتى الباحثة ، وصونى سرى !

رأيت جميعهم يتقبل أقوالك بنظرة الفخر وابتسامة الإعجاب ، ولكنى رأيت كذلك أسيادنا الرجال ـ ... أقول «أسيادنا» مراعاة . . بل تحفظا من أن ينقل حديثنا إليهم فيظنوا أن النساء يتآمرن عليهم .. فكلمة «أسيادنا» تخمد نار غضبهم ـ قلت إنى رأيتهم يطربون لتصريحنا بأنهم ظلمة مستبدون . نعم أنست ذلك فى ملامح كل من قرأ مقالك أمامى من أسيادنا الرجال .

فذكرت إذ ذاك ألا سرور فى العالم يضاهى سرور التفاهم ؛ فإذا شعر المرء بأن هناك من يفهمه كان سعيدا ، سواء لديه أن تعرف منه صفاته أو علاته ، لأن معرفة العلات تتبعها حتماً معرفة الصفات ، وإن كان الخير أقل انتشاراً من الشر

وما النقائص إلا فضائل مضخمة مكبرة تتسع وتستفيض دون أن تجد لها من الضمير مهذبا فنتجاوز الحدود المعنوية التى عينتها إصطلاحات الاجتماع — إذا كانت اجتماعية — أو رسمتها علوم النفس والأخلاق ، إذا كانت أخلاقية .

فعملاً برغبة التفاهم ، وطبقاً لنظام المباهاة ، وتوصلاً للاستمتاع بنتيجة هذه المباهاة وذلك التفاهم ، كان وسيكون السارق دائم المفاخرة بوقوف الناس على براعته فى اختيار الطرق الجديدة واستنباط الحيل الغريبة وكان وسيكون القاتل مسروراً بإعلان آثامه للورى آملاً أن يجدوا فيها أعمال بطل — من نوعه! كان وسيكون السياسى جاداً فى إقناع الآخرين أن دهاءه اقتدار ، وسوء ظنه وروغانه فطنة وحكمة . كذلك الرجل يسر ، ويرجو ، ويريد أن تشعر المرأة باستبداده ظناً منه أن الاستبداد هو السيادة ، وأن هذه مقياس ذاتيته التى يريدها كبيرة . رضيت المرأة عن تلك السيادة أم تمردت عليها فى نظره سيان ، بل أظنه — سامحنى الله إن كنت مخطئة — مؤثراً تمردها على إذعانها ، لأنها كلما زاد تمردها زاد شعوره بالسيطرة . وأشد الملوك فرحاً بهز الصولجان ، وأرفعهم للرأس كبراً وتيهاً تحت ثقل التيجان ، هم ذوو العروش المتداعية للهبوط . والرجل ملك متداع عرشه لأن ريح الفوضى تهب عليه من كل جانب ، وخطوات الارتقاء النسائى تتوالى متكاثرة متمكنة مع مرور الأيام .

* * *

لكنه ملك عزيز .

هو الأب والأخ والصديق والخطيب والزوج ، فإذا سقط سقطنا معه ، وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيمات . لذلك نريد له خيراً ، ونجتهد فى تأييد دولته بشرط أن ينصب عرشنا بقرب عرشه ، وأن نقف إلى جنبه وقفة المثيل بجوار المثيل .

نريد أن نكون متساوين فى الحقوق الأدبية والعمرانية ما دمنا متساوين فى الواجبات والمسئولية . بل إن واجباتنا ومسئوليتنا يفوقان ما عليه من مسئولية وواجب !

فياترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة ؟

ما أطيب قولك ، ياسيدتى الباحثة ، إنك تشفقين على من يستحق الشفقة وعلى من لا يستحقها . الرجل هو من الذين يستحقون الشفقة لأنه لا يعرف أنه يستحقها ، إنه باستعبادنا لمنتحر ! ولو صرفنا النظر عن مستقبل الذرية وبحثنا فى حياته الفردية لوجدنا أن ما من أحد يساعده على التخلص من الشوائب الشائنة ويحثه على إنماء شخصيته الغنية المخصبة إلا نحن . كما أنه لا يهدينا إلى واجباتنا ويضع فى ضعفنا قوة إلاه .

الحجاب ؟ وما هو الحجاب ؟

مرحباً به ما دمنا فى وسط لا يعرف كيفية معاملة المرأة ولا يستطيع احترامها . ولكن كيف نلوم الرجل على كلامه ونظراته مادام رجل اليوم صنع امرأة الأمس؟ هكذا علمته أمه ، وإن لم تعلمه ذلك فإنها لم ترشده إلى ما يفضله ، ولا ذنب لها لأن قصورها فى جهلها لم يكن إلا نتيجة اتفاق أبيها وزوجها على جعلها عبدة ! لا لوم على أبناء تلك الأمهات . إلا أن مستقبلنا صالح لأن حاضرنا مملوء بالآمال الطيبات . النشء تتنازعه طبائع الوراثة ومؤثرات العصر وعواصف الفوضى المهاجمة قديم التقاليد من كل ناحية . ولكنه ينشد الصراط السوى ويصغى إلى صوت الإصلاح . فارفعى صوتك ، ياسيدتى ، ولا تيأسى ! قولى بصراحتك ، واكتبى بشجاعتك ! جاهرى ولا تصمتى !

إن البذرة التى تزرعها اليوم يد الزارع تنبت سنبلة فى كيانها حياة الغد

ومايتبعه من الأيام . وعند ماتخضر المروج بنضرة الرجاء فتتماوج فوق غلتها نسمات الحياة إذ ذاك سيسمع المستقبل صدى جميلا يردد أبيات الأمير شوقى :

صداح ياملك الكنا ر ويا أمير البلبل
صبراً لما تشقى به أو ما بدالك فافعل

فتجيب الأصداء الجديدة . لقد فعلت ! لقد فعلت ! مى

الساعة المفقوده[1]

جماها أرباب التجارة حلية نسائية ، وأتقن الجوهرى وضعها فى سوار ذهبى فكانت نصيبى فى الشراء .

صورة مصغرة للكون ، كذلك كانت ساعتى . مساحتها رمز للفضاء ، دورتها مسرح اللانهاية ، حدودها حدود الإمكان ، علاماتها مقاطع الوقت الذى رتبه الإنسان ، ساعاتها مقياس الأعمال ، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقب لوفود الآمال ، ثوانيها دقات القلب . . . من الثوانى يتألف الزمان ومن نبضات القلب تنسج الحياة نسجاً .

فياهول ثوانى الزمان ، وياهول نبضات قلب الإنسان !

بين ثانية وثانية يلتقى العدوان فى أحشاء الثرى : الماء والنار ، فتميد الأرض بمن عليها ، وتتفطر أساساتها فتقذف البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية ، وتزفر الطبيعة زفرتها القتالة فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحبة ببنيها ، تفتح صدرها مرحبة فيتدحرجون إلى الهاوية التى ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبراً .

(١) نشرت فى «الجريدة» و«المحروسة» .

بين ثانية وثانية يتلاقى الجيشان فى ساحات الوغى فتدوى رعود المدافع فى الفضاء وتختطف بروق السيوف غالى الأرواح ، ولأجل كلمة غالب أومغلوب تندك عروش وتنتصب عروش ، تدمر ممالك و يعمر سواها ، تخرب مدائن و يشاد غيرها ، تتجندل أفراد وتفنى مجامع ، فترتدى الأقوام سـواد الألوان وفى نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الأحزان .

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا يأس ، تبتسم شفة وتدمع عين ، يخون صديق ويخاص عدو ، بين الثانية والثانية !

وبين نبضة ونبضة هناك سر الأسرار : دماء داخلة إلى القلب ودماء منبعثة منه ، تتهافت عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية . بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أعماق العمر ، وانفعالات تشخص لمرورها ذرات الـكيان : اشتعال الفكر وخمود العاطفة ، ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ ، لذعات الغرام والحسرات العظام ، قنوط ورجاء ، سعادة وشقاء ، هتاف الروح المسـلِّمة وولهات الروح المودعة !

* * *

يا ابنة أبيك ! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء ، ويخوننا يوم الصفاء ، ويهجرنا حين اللقاء . فأنت غادرة خائنة هاجرة كالزمان ، يا ابنة الزمان !

كم من ساع طيبات وقعت مرورهن على دوران عقربيك وفكرى يناجيك بأحاديث هداه وضلاله ! أبسم لك عند السرور فأتخيلك صامتة تبتسمين ، وأتنهد حيالك يوم الأسى فأتوسمك تتنهدين وتحزنين ، وكأن عقربيك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين

لما أفنت قلبي وحدة القلب ضغطت بك على ساعدى قائلة : «أنت الصديقة التى لاتخون » ! ولما مزقت سمعى أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية خاطبتك قائلة :

« أنت لاتؤذين لأنك لا تتكلمين » ! ولما أذابني الجهل بدعواه والغرور بسخافته نظرت إليك قائلة : « أنت عالمة لذلك تصمتين »

وكنت تعزيتي !

وكنت زماني ، يا ابنة الزمان !

وعلى هذا ما كان أطول إعراضك عني وأقل اهتمامك بي ! في النهار كنت تطوقين ساعدي فيوجعه أثر سلسلتك وأجيب أنا على هذا العنف بلمسة المداعبة . وفي المساء كنت تستريحين بجوار وسادتي فأوقع على موسيقاك الساهية ألحان أحلامي وآمالي ، وفي الصباح كنت أول عين أشاهدها وأول روح أستجوبها .

كل ذلك وأنت لاتنتبهين ولا تعلمين !

وهاقد هجرتني . ففقدتك وفقدتني فسيري بحراسة الله وانسيني !

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقينها !

فإذا وقعت في يد شرير وقصد استعمالك ليؤذي أخا له فانقلبي أفعى لساعة، ولا تبرحي مفرغة فيه سمك حتى تصرعيه قتيلا .

... لكن لا ، لا ! ليس الأشرار إلا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم ، لو كنت تعلمين . وهم خليقون بالرحمة أكثر من الأخيار الصالحين . فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً ، بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أب فقير لتكوني من نصيب فتاة لم تلبس في حياتها حلية . زيني يداً شوهت خشونة الخدمة جمالها ، ونامي على زند الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبب ! نامي هناك وأسعدي ، ولو ساعة ، قلبا بائسا يحسب السعادة في الغنى !

نامي هناك وانسيني ، ولكن !

إن كان لديك ذاكرة تذكر ، ياساعتى الصغيرة المحبوبة ، اذكرى لحظة ماشهدته معى من المسرات واللهفات ، اذكرى واحفظى ماتعرفين !

ولكن . . . ألست ابنة الزمان الذى ننسب إليه فى ضعفنا كل شىء وهو فى قوته لايبالى بشىء ؟ ترين بأى حافظة تذكرين ، وبأى ذهن تتأملين ؟ إنما علاماتك مداد قد تحجر ، وعقربك أصبع يشير إلى علامة يجهل منها المعنى وأنت آلة ليس إلا . وإن كنت آلة الآلات المثلى .

أنت ابنة الزمان الناسى ،

وأنت مثله لاتذكرين ! «مى»

إلى الآنسة مى (١)

عزيزتى مى

لاتستغربى ياسيدتى أنى دعوتك بـ « ياعزيزتى » وسأدعوك باسمك على غير معرفة شخصية سابقة . أقول شخصية وأحدها لأنى عرفتك من كتاباتك الشعرية الجميلة من قبل ، وتعرفت منها بروحك العالية الهائمة فى الفضاء وكأنها تبحث عن مستقر لها فلا يكاد يعجبها مكان تستقر فيه .

وتعرفت بك بالأمس ، بل وارتبطت بك من دعائك علىّ بالعذاب المعنوى كأنى أنا المعنية بقول جميل :

وأول ما قاد المودة بيننا بوادى بغيض يابثينَ سباب

وقلنا لها قولا فجاءت بمثله لكل مقال يابثين جواب

وإنما حاشا أن يكون دعاؤك علىّ سبابا ، وحاشا أن يكون له جواب عندى مثله ، فإنى لم أقابله إلا بالضحك والحلم الذى ركب فى غريزتى .

لماذا يامىّ تدعين على بالعذاب المعنوى ؟ ألا إنما العذاب البدنى أخف منه وطأة وأعفى أثراً . على أنى جربت كليهما وذقت الأمرّين منهما معا ! تقولين : «لأنه

(١) نشرت فى «المحروسة» .

النار المقدسة » . نعم ! لقد أعطانى من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لمثلى حتى جعل البون بعيداً جداً بينى وبين هذا العالم غير القديس .

تقولين : « إنه النار التى تطهر » . حقيقة إنه تلقى وجدانى بالتطهير منذ أن كان لى وجدان حتى صيره شفافا يظهر كل شىء و يتأثر لأقل شىء ! وهذا فيه من الضنى والخطر ما فيه .

تقررين « أنه النار التى تحيي » . نعم يامى ! إنه أحيا روحى حتى أحرقها لأنه كان كمصباح سيال كهر باؤه شديد ولكن فتيلته ضعيفة لا تحتمل .

هو « النار التى تلين » هذا ما أبديت . ولكن ألا تعتقدين أن اللين قد يؤذى ولا يفيد ، خصوصا فى هذه الدنيا التى كلها صدام وعراك ؟ وإنه لا يفل الحديد إلا الحديد . إنه ألانى حتى صيرنى ماء . وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع أنه أصل الحياة !

يصبونه فينصب ، و يريقونه فيختفى فى الأرض ، و يضعونه فى كل آنية معوجة وملونة فيأخذ كل شكل و يصطبغ بما يراد به من الألوان !! تبخره الطبيعة زارية هازئة ، فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقذف به إلى الأرض ، وآونة تعاكسه بصقيعها فيتحول برداً ، وآونة تحمى عليه براكينها فيخرج ملتهبا ، وحينا تخبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو برىء . ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال : يضعون فيه سكراً فيحلو ، ويذيبون به الحنظل فيُمَر ؟! وهم مع ذلك لا يقيمون له وزنا ولا يعترفون له بالجميل . وهو بلا ثمن فى أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء فى أقلها . إنه مثلى يامى يذهب ضياعا .

وختمت حسن تعليلك لعذابى بقولك : « إنه النار التى ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعانى » الخ .

نعم يامى! إننى الآن على أجنحة اللهيب ولكنى لم أصل بعد إلى السماء وإذا وصلتها فلن يعود العالم يرانى، فهل يا ترى ستعجبنى السماء ؟ إنى أشك فى ذلك . إنى أول ما حفظت من الشعر حفظت المراثى وأولها رثاء الأندلس ، وكنت فى حداثتى أقرأ كثيراً ديوان المتنبى وأعجب بروحه العالية و بنفسه الكبيرة ، وأظنه هو الذى أعدانى فى ذلك وسمم آرائى ، رحمه الله إنى ألذ كثيراً بهذه العدوى

وقد قال لى أخى مرة بعد حديث كنت أشتكى له فيه الدنيا وأهلها وأقول : « لعل الله يجزينى على هذا فى آخرتى بالجنة »

قال متهكما : «أنا واثق ياشقيقتى أن الجنة أيضا لن تعجبك لأنه لا يكاد يسرك شىء » . أستغفر الله .

إنك يامىّ خالفت المألوف فى التمنيات والمجاملات الفارغة، وهى كثيرة وشائعة جداً الآن (بمناسبة عيدى الميلاد ورأس السنة المسيحيين) . قلت : «ابتسمى له» أى لدعائك « إن شئت وإلا فلا تصغى ولا تسمعى واسألينى عما أهمس به لأجيبك ، إنى أحمد الله على إبلالك و إنى أسأله أن يديمك سالمة » الخ .

لا ياعزيزتى إنى أكره الكذب والمجاملات الفارغة ، ولذلك أصغيت وسمعت وابتسمت (حسب أمرك) وتسرنى جداً صراحتك فى الدعاء على .

أتدرين يامىّ أن ذلك اليوم الذى تمنيت لى فيه العذاب كان فيه عيد ميلادى أيضا ، وأنى تفاءلت خيراً بدعائك وافتتحت عامى الجديد بالضحك من تمنيك و بصداقتى لك تبعًا لذلك التمنى المعكوس . أشكرلك ياعزيزتى أمانيك لى ورغباتك الصادقة، وأقر لك أنى واقعة فيما رجوت لى والحمد لله ! ولكن يامىّ لا أتمنى المزيد .

إنه عذاب طاهر لا يتعدى الميل إلى السكون والشعور بشيء من الحزن الشعرى الجميل . ولكنه — ولله المنة والشكر — لا تخامره شائبة من الندم ولا من الأسف الأثيم . وأخشى أن يزيد ضرام النار التى طلبتها لى فأحترق ياميّ أو أصل إلى ذلك الذى لا أريده لنفسى ، ولا أظنك تريدينه لى .

الساعة المفقودة

عجيب ياسيدتى أنك تريدين عذابى وأنا أريد هناءك ، أتدرين ما الذى سألقيه عليك فيفرحك ؟

إنى وجدت ساعتك المفقودة والتقطتها . رأيتك ترثينها بحرقة فجئت لأمسح دموعك؛لأنى أحب دائماً أن أمسح دمعة المحزون ! تعالى إلىّ لتأخذيها وتستغفريها من وصفك إياها بالغدر و بعدم الإحساس ، فإنها أحست بشوقى لرؤيتك فأتت تقدمة لمجيئك ولتعارفنا .

إنها بثت إلى ما كنت تشكينه إليها من العواطف والآلام . عثرت علىّ وعثرت عليها لتكفى قلبك شر الفناء من الوحدة، ولتؤكد لك أنك وجدت «الصديقة التى لاتخون »

حكاية الرجل

والآن فلنعد إلى حكاية الرجل

عجيب جداً ياسيدتى أمر هذا المخلوق الغريب الأطوار الذى يسمى بـ« الرجل » . إنى أعتقد أنه كريم شجاع وله قلب حساس ، ولكنى أظنه (و بعض الظن إثم) ثانياً قبل كل شيء . ورأيى أن أنانيته وحدها هى أصل رذائله ، فهو يهضم حق المرأة و يستعبدها لا لأنه يبغضها أو يتمنى لها السوء ، ولكن ليلهو بها وهو

يحبها ؛ ويموت لأجلها لا لأنه يحبها ولكن ليلهو بها ، وهو فى كل ذلك واسع الحيلة قوى الحجة فيقنعها فتصدقه وهو كذوب !!

أما المرأة فهى دائماً تحترمه وتحبه لأنها تحبه صادقة ، وإذا كرهته كرهته علانية ولم يكن لذلك البغض من دواء . عرف ذلك أبو الطيب فقال :

وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضىً   وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد

هى صادقة مخلصة دائماً حتى وهى خاطئة . هى تحب لتفنى فى الحب ، ولكن الرجل يحب ليعيش متمتعا بالحب . هى تحزن وقت المصاب لتتفرغ للحزن ، ولكن الرجل لا يحزن إلا ليبحث عن تعزية وسلوان .

المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت . إنها تعلم أن حريرها الذى تقدمه للملأ زينة وحلية سيقتلها ولكنها لم تحاول قط الخلاص منه .

أما الرجل فهو كالنحلة يتنقل من زهرة إلى زهرة متريضاً ، وقد يطيل المكث على زهرة ناضرة وإنما ليمتص منها نضارتها وماء حياتها . إنها تحب الأزهار حيناً ولكنها تلهو بها أحياناً فتتركها هشيما . وهى تقدم للناس عسلا فيه شفاء لهم وشمعاً نافعاً ، ولكنها تعملها لغذائها وسكنها قبل كل شىء .

ظلمنا الرجل حقوقنا لا لأنه كان ينوى ظلمنا ، وإنما هو أخطأ كثيراً فى حسبانه أن ما يزيد فى قوتنا يضعف من قوته هو . لعله ظن أن مملكتنا واحدة ولذلك نظر إلينا نظار الدعيات الثائرات . وإنما نحن نريد له السعادة والمزيد من القوة فى مملكته ، ونرجو منه أن يفك عنا الخناق فى مملكتنا المستقبلة التى تشد أزره ، ولا تفكر فى إضعافه قط مهما بلغت من العزة والقوة . إننا نتقدم إليه كأننا ساعده الذى يريد أن يخدمه لا كأننا يد غريبة تريد أن تضر به . إننا منه وهو منا ، فليطب نفساً وليقر عيناً وليعطنا ما نشاء .

وإنما نحن يامىّ ضايقناه فى بعض شئون مملكته حتى ظنّنا نريد منازعته فيها . لنترك له السياسة التى يحبها وحمايتنا . وأقول لك همساً : « إننا لا ننفع بدونه ولكنه هو أيضا لا ينفع من غيرنا ! ! »

إن المطالبات بحق الانتخابات وإن كن يطابن حقا هنّ ظالمات الرجل وأنفسهن معا ، لماذا يرمن مشاركته فى الجلوس على كراسى « البرلمان » ولا تقدم واحدة منهن صدرها للقاء كرات المدافع ونصال الفناء فى الحرب ؟! والحق أحق أن يتبع .

ليهنأ الرجل بمملكته . إننا لانهز عرشه ليتداعى إلى السقوط كما تقولين ؛ ولكنا نهزه لنطلب منه « الدستور » .

باحثة البادية

شوق إلى بلسم [1]

منزل عبد الله بك فائق

محطة مظلوم برمل الإسكندرية

٨ سبتمبر سنة ١٩٠٥

عزيزتى السيدة بلسم

أحبيك ولولا برودة البحر لا لتهبت إليك شوقا ، ولولا تصبرى لطرت إليك حبا ، وإنى لم ينسنى صفاء السماء صفاء ودك ، ولا رقة النسيم رقة حديثك ، إنما اشتجانى وذكرى ولم أكن ناسية . عزيزتى ليتك كنت معى ترين الطبيعة بجمالها ، ترين البحر يزخر كالرعد ، والأمواج تتلاطم زرافات ووحدانا ، صفاء فى البحر وصفاء فى السماء كأنهما قلبانا ، وتسمعين تغريد الطيور وحفيف الأشجار إنها لعمرك مناظر تلهى المرء ! ولكن هيهات لمثلى أن تلهو وهى تعلم ما يكنه الدهر وما يخبئه الليل والنهار .

تقبلى منى أحر قبلاتى وأوفر أشواقى ؟

المخلصة

ملك ناصف

---

(١) المرحومة السيدة بلسم عبد الملك زميلة (ملك) فى المدرسة . وقد أنشأت إبان ثورة سنة ١٩١٩ مجلة «المرأة المصرية» وطبعت كتاباً عن (ذكرى باحثة البادية) .

إسماعيل صبرى

جاءنا من صاحب السعادة إسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية سابقا :
بنت أخى العزيز حفنى بك ناصف

نشرت كتابك دواء لعلة من علل الوطن ، ذلك المريض العزيز فى وقت اجتمعت حوله وساده الأطباء والرقاة ، هذا يصيح وهذا يولول، وذاك يكتب وذلك يخطب ، وذياك ينادى بالصمت ويشير بترك العليل للطبيعة تعمل فيه عملها إن خيرا وإن شرا .

وكل يدّعى حبًّا لليلى وليلى لاتقر لهم بذاكا

فنظرت أنت ببصيرتك الوقادة وفكرك الصائب فى جسم المريض ، وفتشت فى مظان العلل فعثرت على أشدها فعلا فيه ، ودوّنت مقالاتك فى كتاب جمع من الآراء النافعة والأفكار الناجعة مالو عولج به ذلك المريض لذهب بأصل أمراضه ، وقرّب للأطباء والرقاة يوم شفائه.

أجل يابنت حفنى ، إن تربية بنات مصر لهو العلاج الأكبر الذى غاب عن أكثر الباحثين فى أسباب انحطاطنا وثقل خطانا فى طريق التقدم .

أجل إن الفتاة إذا أصبحت أمًّا وكانت متعلمة متهذبة آخذة من أسباب التربية بمانشيرين به كانت لولدها فى مهده ملكا حافظا، فإذا حملته رجلاه سددت خطاه ، فإذا انطلق لسانه هذبت كلماته ، فإذا سلم لمعلم كانت رقابتها نافعة فى حث الصغير على الاستفادة وحمل المعلم على الإفادة .

أما إذا دامت ــ والعياذ بالله ــ على مانراه من الجهل كانت الحال على عكس

ما قدمت . ولو لم يكن فى تعليم البنات وتهذيبهن إلا ما ننشده من الوفاق والوئام بين الزوجين وتقليل الطلاق والاكتفاء بزوجة واحدة تقريبا من العدل الذى أمرنا به كتابنا الحكيم لكفى كل ذلك مقرظا لكتابك النفيس وآرائك الصائبة . والخلاصة أن ماجاء فى كتابك متعلقا بتعليم البنات وتأديبهن وتهذيبهن يعدّ من أجل الخدمات للوطن فى زمن تشكلت فيه الوطنية أشكالا شتى ، لايلائم أحدها حالتنا الحاضرة والظروف التى غيرت وجوه الحكمة بيننا .

إن لرقى مصر أبوابا عديدة أراك قد فتحت أوسع باب منها ، فكانت بك ربات الجمال سابقة أرباب السيف والطيلسان إلى أجل خدمة تؤدى لمصر . ولا إخال شباننا وكهولنا إلا فاتحين الأبواب الأخرى : أبواب العلم والعمل والصناعة والتجارة والزراعة وغيرها من أبواب الخير والسعادة، المؤدية إلى استقلال الوطن والتى يعد كل منها مؤديا إلى استقلال نوعى تسعد به البلاد إلى أن يأتى يوم الاستقلال الأكبر

أما من جهة الحجاب وما أدراك ما الحجاب ! شىء يظنه البعض أسراً واسترقاقا ، ويعتقد البعض أنه سعادة وسيادة فالذى أراه فيه هو أننا رأينا المرأة متأخرة فى حجابها فاستنكرنا تأخرها والحجاب معه ، ولو كنا عاقلين لانتظرنا اليوم الذى نراها فيه متعلمة مرباة فربما حكمنا غدا بأن الحجاب أنفس حلى المرأة الراقية . بارك الله فيك وفى كتابك وجعله مرجعا نافعا لطلاب رقى نصيف أهل مصر، أعنى نساءها ، بل كل أهل مصر بفضل تهذيب نسائها ورجالها آمين

إسماعيل صبرى

أحمد زكى

هذا ما كتبه سعادة العالم أحمد بك زكى سكرتير ثانى مجلس النظار

لست بميال لإطراء بنات الأفكار ، إذا تضمنتها بطون الدفاتر والاسفار . ذلك لأن الثمرة التى تتولد عن القرائح والأذهان ، إذا جاء معها لقاح المدارك والأفهام ، هى التى تنادى بنفسها على نفسها ، وتدعو الرأى العام إلى الحكم عليها أو لها . بل هى التى تقتضى الرواج والإقبال بطبيعة الحال ، سواء تبرع بمدحها قطب أقطاب الآداب ، أو تطوع لتقريظها علم من أعلام الكتاب .

كنت ولا أزال أعتقد أن التقريظ جناية على العلم الصحيح ، وعلى ارتقاء الأمة فى معارج العرفان . وها هى كتب المتقدمين خلو بالمرة من هذه البدعة ، حتى إذا تصوحت زهرة الآداب ، ظهر التقريظ ، فاعتمد حملة الأقلام على مجاملة الأصدقاء والخلان . حينئذ تهافت الناس عليه تهافتاً اختلط فيه الحابل بالنابل ، والغث بالسمين ، والتافه بالثمين هذا التهافت هو الذى أفسد الأذواق ، فتبدل النفاق بالنفاق ، وكسدت أسواق الأوراق .

إنما يكون التقدم بهجر التقريظ ومقاطعته ، وبالتعويل على النقد الحقيقى الذى قرره العلماء فى أيام تقدم الإسلاميين ، وهو الذى عول عليه جهابذة أوروبا فى هذا العصر . وذلك أن يتوخى الكاتب إظهار مافى الكتاب المعروض عليه من الحسنات وآيات البراعة ، مع الإشارة إلى مافيه من العيوب بغير تحامل . ومن الواجب فى هذا السبيل التماس المعذرة فى بعض الأحايين ، والدلالة على طرق التوسع وشفاء الغليل .

لو عادقومنا إلى مناهج السلف الصالح والصدر الأول لكان سعيهم محمود المغبة ،

مشكور العاقبة . لا جرم إذن أن تعود المعارف فى ربوعنا إلى بهجتها الأولى ، وتبنى على ما كانت أوائلنا تبنى .

تلك الخواطر ، لو اشترك فيها النساء مع الرجال لكانت مقدماتها صحيحة القياس . وهذه المبانى ، لو تعاون الصنفان على إقامتها ، لكانت وطيدة الآساس

واقد شمت اليوم بارقة الأمل ، فأمسكت اليراع وأجريته على القرطاس ، لأشكر الثلاثة : صاحبين من خيار الرجال ، تعززهما ثالثة يعتز بها كل منهما ، ولا فخر ، لأنها فخر الأناث .

أنعمت النظر فى السلسلة الأولى من « النسائيات » التى صاغت حلقاتها يد لصاحبتها كالأبيها ، ومن كمال بعلها ، أياد على الآداب والفضيلة . فلم أعجب من صلاح ذلك الغرس الطيب ، و إيناع هـذا الثمر الشهى ، وقد تعهد تلك البذرة الصالحة المباركة ، الباسل « حفنى » فى إبان الصبا ، والمنصف « الباسل » فى ريعان الفتوة !

فيارعى الله ذاك القناع ، وذياك اليراع ! فقد برزت بهما تلك الفتاة فى مضمار الحياة ، فأثبتت أن فى السويداء إناثاً يضارعن الرجال ، إذا هن أخذن بالعلم الصحيح والعمل النافع ، وتهيأت لهن الأسباب ، مع التمسك بأذيال الحشمة والكمال .

مرحى مرحى ! بـ « ملكة » ظهرت فى عالم الأنس بين النساء ، فأكبرها الرجال لأنها أعادت لنا ذلك العصر الذهبى الذى كانت فيه ذوات العصائب يناضلن أرباب العمائم : فى ميدانى الكتابة والخطابة !

لو لم يكن للسيدة « ملكة الباسل » سوى أنها أول من برزت فى هذه الأيام بحجابها وآدابها ، لإلقاء الخطب على أترابها ، لكفاها فخراً فى الأواخر أن اسمها سيخلد فى « كتب الأوائل » ، إذ يقال إنها من المجتهدات المجددات

لأنها أول من أعادت الخطابة إلى فريق من النساء ، بعد إن انطمست معالم هذه السنة ، منذست مئين من السنين . سنة أخذهاالغرب عن العرب فارتقى ،وأهملها الشرق فانزوى ، وقعد بهن و بنا .

إحياءهذه السنة على يد هذهالفضلى، هوالذى حدانى إلى كتابةهذين السطرين : لإطراءالنساء ، لا لإطراء «النسائيات» . فهو كتاب ينطق بنفسه لصاحبته ، بل هو غنى عن التقريظ لرقة عبارته ، ولطف أسلوبه ، ولبسالة صاحبته بنوع أخص .

نسأله تعالى أن يكثر بين ظهرانينا من أمثال أولئك الثلاث . فكل منهم فرد فى بابه إن شاء الله !

رمل الإسكندرية فى ٣١ أغسطس سنة ١٩١٠

أحمد زكى

السكرتير الثانى لمجلس النظار

تقديم

للأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد

كان فى الشتاء الأسبق أن نظارة المعارف أحالت ناظرة المدرسة السنية على مجلس التأديب لشذوذها عن حدود قانون النظارة، فكتبت وقتئذ كلمة فى «الجريدة» استعطفت بها مجلس التأديب على تلك السيدة ، وكان بعض ما استشفعت به لها أنها من الجنس اللطيف . شق هذا القول على سيدة فرنساوية سائحة فى مصر وقتئذ ، فأقبلت علىّ تعاتبنى على قلة الحيطة التى اتخذتها فى كلامى ، وانبرت تقرر أن المرأة والرجل سيان فى الحقوق والواجبات فيجب أن يكونا كذلك فى المسئولية أيضاً ، وأن الذى يستشفع للمرأة بجنسها ليسىء إليها من حيث يريد الإحسان .

لم أكن قبل هذا الإلفات متردداً فيما للمرأة من الحقوق ولا جاهلاً بما يستتبع الحقوق من الواجبات . ولم آل ظنيناً فى دفاعى عن هذا الجنس مهضوم الحقوق فى كل زمان وفى كل مكان حيث القوة غالبة على الحق . ولكنى مع ذلك فى تلك الحادثة كانت كلمتى تشف عن رأيى فى أن المساواة بين الرجل وبين المرأة لا يصح أن تقرر على إطلاقها ، بل يجب أن تكون تلك المساواة محدودة فى مصر بالحدود الطبيعية والشرعية معاً . وشتان ما بين هذه الحدود الواسعة المدى وبين الحدود الحاضرة التى وقفت عندها المرأة من زمن طويل بحكم قوة الرجل ، لا بحكم قوة ضعفها الطبيعى، ولا بحكم الشريعة السمحاء .

لم نجرب إلى الآن المساواة المطلقة فى جميع الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة ، ولكن المساواة قد جربت فى التربية المنزلية وفى التربية المدرسية وفى

---

١) هذا ما قدم به مربى الجيل لكتاب «النسائيات» الأول الذى طبع فى دار «الجريدة»

كثير من الحقوق الاجتماعية فأتت بأعظم الفوائد والبركات على العائلة والجمعية الإنسانية معاً . وأما التفريط فى حق المرأة وعدم استخدام ملكاتها على أنماط معلومة لمنفعة النوع الإنسانى فقد أتى بالنتائج المحزنة المحسوسة .

إن المساواة المطلقة التى كانت ترمى إليها عاذلتى و يوافق عليها كثير من النسائيين، إن جاز أن تكون غرض الأغراض ومنتهى الآمال فى ترقية المرأة ، فإنه لا يجوز الابتداء بها وتقريرها عندنا من اليوم ، مع أنها لم توجد ولم تجرب فى أعلى الأمم حضارة . فإذا كنت قد استعطفت مجلس التأديب على ناظرة المدرسة وجعلت جنسها اللطيف شفيعاً لها فى تخفيف المسئولية فلم أخرج بذلك عن أن أكون مستقيم الإنتاج ولم أنحرف عن أصول قوانيننا ولا عن طبائع العمران .

إن قوانيننا الإنسانية ما تزال نصوصها تنم على فروق بين الجنسين ، وإن المرأة طول عمرها الجنسى كانت وما تزال مثال الجمال الإنسانى ، وموضوع تغنى الشعراء ومباراة الرسامين والمصورين . كانت وماتزال مناط سعادة الرجال ، إليها ينتهى الأمل عند بعضهم ، وفيها تودع الثقة وترجى المواساة عند الآخرين . فهى بجمالها محل للعطف ، وهى بضعفها الخلقى أولى بالعطف ، وهى بتواضع مركزها الاجتماعى وقلة مكافأتها على القيام بواجباتها أهل للعطف . فمن أى ناحية نظرت إليها وجدتها تستحق الحنان والعطف . فإذا كنت استشفعت لها مجلس التأديب فإنما جريت فى ذلك على سنن بنى آدم الماضية والحالية ، وأخذت ما قلت من المشاهدة لا من الخيال . وإذا كانت السيدات النسائيات (اللاتى يرين تقرير المساواة بين الرجل والمرأة) لايرضين بالتفريق بينهن و بين الرجال فى درجات المسئولية أمام المحاكم والمجالس فإنى متفق معهن على الأقل فى عدم محاباتهن فى انتقاد ما يكتبن من الرسائل وما يهدين إليه من الآراء .

ومهما يكن من وجوه الخلاف فى المساواة بين الرجل و بين المرأة فى درجات المسئولية وفى الحقوق والواجبات العامة ، فإن من المحقق أن المرأة لم تسترد إلى اليوم شيئاً كبيرا من المساواة المنشودة على أقل أقدارها فى نظر القائلين بها . بل هى عندنا على الخصوص ، تزال مظلومة فى حقوقها فى العائلة وفى حقوقها فى الجمعية المصرية مظلومة فى تقدير واجباتها الخاصة والعامة ، لا من حيث ثقل تلك الواجبات فى ذاتها ، ولكن من حيث كونها أغلبها واجبات تحكمية صرفة يضعها ولى أمرها لا بالتطبيق للشرع ولا لقاعدة عامة معروفة ، ولكن بالتطبيق لدواعى هواه وعوامل غيرته .

فإذا كانت حقوق المرأة الطبيعية وحقوقها الشرعية يغمطها الرجال فلا يراعون فيها تقاليد الأسلاف ولا يرقبون فيها أوامر الدين ، فإن النتيجة اللازمة عن ذلك هى تعطيل نصف الإنسانية عن كثير من الخِدم المطلوبة منه . وهذا مع الأسف هو الذى كان .

لم تكن هذه النتيجة المحزنة كلها من ظلم الرجل ولكن قعود المرأة الشرقية عن الأخذ بأسباب رقيها الثانى ، ورضاها بالحظ الذى قسمته لها القوة فى هذه القرون الأخيرة وعدم محاولتها تلطيف أحكام القوة القاهرة ، كل ذلك يجعل لها شركة ، بوجه ما ، فى الضرر الذى حاق بها و بالمجموع من إهمال تربيتها .

غير أن مهضوم الحق مهما سها عن السعى فى استرداده لا يعدم من نصراء الإنسانية مدافعاً خالى الغرض ، ينصره من حيث لا يحتسب . فإن النساء عندنا لم يكن ليدور فى خلدهن أن المرحوم قاسم بك أمين يقوم بالدفاع عنهن دفاعاً أغضب

منه كثيراً من الناس ، بل أغضب منه بعض النساء اللواتى لا يردن الخروج من الحظيرة الصفاعية التى احتظرها لهن رجال البأس لا رجال العلم .

قام المرحوم قاسم بك بالدعوة إلى تربية المرأة على أصول التربية النافعة بشجاعة عديمة المثال ، واقتفى أثره فى ذلك بعض الكتاب حتى انتبه هذا الجنس اللطيف وتولى بعض أعضائه الدفاع عن ذاته . وأول من سارت منهن فى هذا الطريق هى « باحثة البادية » . نعم أولهن لأنها أخذت تبحث فى نسائياتها بحث الجادّ الذى يعلق على بحثه نتائج كبرى لصلاح المرأة بل لصلاح الجمعية الإنسانية . أخذت تكتب فى الدفاع عن حقوق المرأة وتخطب فيما يجب لإصلاح المرأة ، فكان مجموع رسائلها وخطبها هذه المجموعة التى نضع لها هذه المقدمة .

ولو صح نظرى لكانت قاعدة بحثها فى تحرير المرأة قاعدة الاعتدال ، ورائدها فى ذلك هو الشرع الإسلامى

لقد أجادت « باحثة البادية » فى جعل بحثها مرتباً على هذا النمط المعين . فإن الاعتدال فى تعليم المرأة وتربيتها وتقرير الحد اللازم أن تقف عنده فى المساواة بينها و بين الرجل ، الاعتدال فى ذلك كله أمان من الزلل والوقوع فى نتائج سيئة قد لا تكون أقل فى سوء الأثر من نتائج خمول المرأة وقعودها عن السعى إلى كمالها الخاص وإنا نكرر دائماً أن المساواة المطلقه لم تجرب بعد ، فأبصر بالباحثة إذ رأت تقرير المساواة المعتدلة والبعد عن الإطلاق الذى هو يخالف الدين من ناحية و يخالف الحيطة من ناحية أخرى .

أما الدين فإنه ملاك أخلاق المرأة ومناط آدابها ، وطريق كمالها وموجب الثقة بها .

إن تقوى المرأة أكبر الأدلة على صونها ومعرفتها بالواجب وحسن قيامها به .

إن شهود المرأة صلاة الجماعة فى المسجد الجامع مرة واحدة أصلح لقلبها من سماع واعظ أخلاقى فى الدار أو فى المدرسة سنة كاملة .

وإن تقليد المرأة الشرقية لأختها الغربية نافع ، ولكن هذا التقليد إلى اليوم ليس بحسنة جديدة مادام أنه خلا من النوع الخاص بالدين ؛ فإن الغربية تذهب إلى معبدها مرة فى الأسبوع على الأقل ، والمسلمة الشرقية لا تذهب إليه فى مصر أبداً ، كأن دخول بيت الله أثقل كلفة عليها وأبعد عن رضى وليها من دخولها فى بيوتات التجارة وشهودها مسارح اللهو . ألا إن حضور النساء صلاة الجماعة على صورة لائقة ومن غير إسراف هو أول عمل حسى تأتيه المرأة لتقرب به مسافة الفرق بينها وبين الرجل ولتقرر به المساواة المنشودة .

إن رابطة الزوجية عندنا رابطة دينية محضة ، ولا نعلم امرأة تحترم نفسها تستطيع أن ترتبط برجل إلا بهذه الرابطة الشريفة المقدسة . ومما نعجب له أن المرأة تعمل أعمالاً كثيرة شاقة فى سبيل توثيق هذه الرابطة ، ولكنها لا تعمل الشىء الوحيد الذى يوثقها حقيقة وهو القيام بفرائض الدين الذى عليه عقد الزواج ، والذى هو المنظم الوحيد للعلاقات الزوجية ، فمراعاته أساس لدوامها ومخالفته سبب لفصم عراها ونقض عقدة الزواج . ولو فطنت المرأة لأدركت أن تقوى الله والقيام بطاعته تكفى وحدها لثقة الزوج بها ، وتمنع كل الشقاق الزوجى الذى يتولد عن الظنة والغيرة .

وقصارى القول إن « باحثة البادية » قد أجادت كل الإجادة فى أن جعلت أساس بحثها تقرير المساواة لا على جهة الإطلاق بل فى حدود الاعتدال والدين .

فأما انتقاد رسائلها من جهة صناعة الكتابة فحسبى أن أقرر من غير محاباة : إنها أكتب سيدة قرأنا كتاباتها فى عصرنا الحاضر ، بل هى تعطينا فى كتاباتها صورة الكاتبات الغربيات اللاتى تفوقن على كثير من الكتاب . وليس نبوغ السيدة (ملك حفنى) عملا من أعمال الصدفة بل هو قضية علمية مقررة ، لأن هذه

الكاتبة من بيت علم وأدب ، انتقل إليها من أبيها حفنى بك ناصف بحكم الوراثة الطبيعية ذوق الكتابة وملكة الانتقاد الصحيح ، فنما استعدادها بالتربية المدرسية والاجتهاد بعد المدرسة حتى وصل هذا الحد المتقدم .

ورجاؤنا أن تكون مجموعة الباحثة أول أبحاث السيدات فى هذا العصر لا آخرها ، وأن تكون السيدة « ملك حفنى ناصف » القدوة الحسنة للسيدات المصريات ، آمين ؟

أحمد لطفى السيد

الإسكندرية فى ١٨ يولية سنة ١٩١٠

فاتحة الكتاب[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله (وبعد) فإنى فكرت فى جمع مقالاتى (النسائيات) وطبعها كتاباً أقدمه للأمة المصرية الكريمة راجية أن تغفر لى زلة القلم فيه ، فإنى مبتدئة ولا يعدم المبتدئ أغلاطاً . وعسى أن تقرأه الفتيات والسيدات المصريات ، فهو مذكر اللائى غنين منهن بأصالة رأيهن وحسن تربيتهن عن استجداء النصيحة ، ومرشد اللائى يسترشدنه .

لا أدعى فيه ابتداعاً ولا إبداعاً ، فما هو إلا سلسلة مشاهدات وتجارب أثرت فىّ فدونتها ليتعظ بها غيرى ممن لم تعركه الحوادث ولم تتيسر له التجاريب ، وما قصدت إلا النفع العام والدفاع عن المرأة المصرية المهيضة الجناح . ولعل الله يحقق هذا القصد ، ويشد أزرنا لما فيه إعلاء شأننا وتقوية الفضائل فى أخلاق هذه الأمة بحسن القيام على تربية أبنائها . والله الهادى إلى الطريق القويم .

ملك حفنى ناصف

---

(١) هذه ما كتبته « باحثة البادية » فى مستهل كتاب « النسائيات » الأول

رثاء باحثة البادية[1]

لحافظ إبراهيم

(مَلَكَ) النُّهى لاتبعَدِى ... فالْخَلْقُ فى الدنيا سِيَرْ
إنى أرى لك سيرةً ... كالروض أرَّجه الزهر[2]
ربىَّ أبوك الناشئيـ ... ـن فعاش محمود الأثر
وسلكتِ أنت سبيله ... فى الناشئات من الصغر
ربيتهن على الفضيـ ... ـلة والطهارة والخفر[3]
وعلى اتباع شريعةٍ ... نزلت بها آىُ السور
فلبيتكم فضل على الـ ... أحياء أنثى أو ذكر
لله درك إن نثر ... ت ودرّ (حفنى) إن نثر
قد كنتِ زوجاً طبّةً ... فى البدو عاشت والحضر
سادت على أهل القصو ... ر وسودت أهل الوبر
غربيةٌ فى علمها ... مرموقة بين الأسر
شرقية فى طبعها ... مخدورة بين الحُجَر
بينا تراها فى الطرو ... س تخط آيات العبر
وتريك حكمة نابهٍ ... عرك الحوادث واختبر
فإذا بها فى مطبخ ... تطهو الطعام على قَدَر
وإذا بها قعدت تخيـ ... ـط وترتضى وخز الإبر
فخرت بوالدها ووا ... لدها بحليتها افتخر

---

(١) ختم بها حفل التأبين بالجامعة المصرية .
(٢) أرجه : طيبه .
(٣) الخفر : شدة الحياء .

بالعلم حلّت صدرها لا بالـلآلئ والدُّرَرْ
فانظر شمائل فكرها بالله يوم (المؤتمر)
واقرأ (محاضرة « الجريـدة ») والمقالات الغُرر
وارجع إلى ما أودعت عند المجلات الكُبَرْ
تعلم بأنَّا قد فقدنا خير ربَّات الفكَر
ذنب المنية في اغتيال شبابها لا يغتفر
ياليتهـا عاشت (لمصر) ولم تغيبها الحفر
كانت مثالًا صالحاً يرجى وكنزاً يُدَّخَرْ
إنى رأيت الجاهلات السافرات على خطر
ورأيت فيهن الصيانة والعفاف على سفر
لا وازع — وقد انطوت (ملك) — يقيهنّ الضرر
لا كان يومك يوم لاح الحزن مختلف الصور
علمت هاتفة القصور نواح هاتفة الشجر[1]
وتركت أتراب الصبا حزناً يقطعن الشَعَر[2]
يبكين عهدك في الصباح وفي المساء وفي السحر
وتركت شيخك لا يعى هل غاب زيد أو حضر[3]
ثملا ترنحه الهموم إذا تحامل أو خطر[4]

---

(١) يريد « بهاتفة القصور » : الباكية من النساء ، و « بهاتفة الشجر » : النائحة من الطير .
(٢) أتراب الإنسان : لداته ، الواحد ترب (بكسر التاء وسكون الراء) .
(٣) يريد (بالشيخ) : أباها . ويشير بقوله « هل غاب زيد » ... الخ إلى ما كان أبوها مشتهرا به فى علم النحو واللغة وما إليهما من علوم العربية ، وذلك لأن مدار الأمثلة فى النحو على « زيد » .
(٤) ترنحه : تميله هنا وهناك.

كالفـــرع هزته العـوا صف فالتوى ثم انـكسر
أو كالبنـاء يريد أن ينقضَّ من وقع الخـور[1]
قـد زعزعته يدُ القضا ء وزلزلته يد القـدَر
أنا لم أذق فقـد البني ن ولا البنات عـلى الـكبر
لـكنني لمـا رأيـ ت فؤاده وقـد انفطر[2]
ورأيته قد كاد يحـ ـرق زائريه إذا زفر
وشهـدته أنى خطـا خطواً تخبَّـل أو عـثر
أدركت معنى الحزن ، حز ن الوالدين ، فما أحرّ
وشهدت زوجك مطرقاً مستوحشاً بين السمر
كالمدلج الحيران فى الـ بيداء أخطأه القمر
فعلمت أنك كنت عقـ ـد هنائه وقـد انتثر
صبراً أبـا (مَـلَكٍ) فإنّ البـاقيات لمن صـبر
وبقـدر صـبر المبتـلى طـول المصيبة والقِصَرْ
كن أنت أنت إذا تُسا ء كأنت أنت إذا تُسَرّ
يا بـــــرّة بالوالـدَيْـن أبوك بعـدك لا يقَـرّ
فسـلى إلهـك سـلوة لأبيـك فهو به أبَرّ
وليُهنـك الخـدرُ الجـديـد فـذاك دار المستقَـرّ

---

(١) من وقع الخور ، أى من وقوع الضعف به .
(٢) انفطر : انشق .

دمعة على باحثة البادية[1]

لخليل مطران

أغاديةً بَكَرَتْ بالحيـــا   رعـتك العنـاية من غادية[2]
إذا ما سـكبت طَهور الندى   ألمّي بـ « باحثة البـادية »
أجفَّ الردى غصنها ، والغصو   ن فى الروض زاهرة نادية
فقيـدة مصرٍ فريـدة عصر   لهـا كل غانيـة فادية
وكانت أديبـة أيامهـا   وكانت منـارتهـا الهـادية
إذا ماقرأنا لهـا آيـةً   حسبنا الحروف بهـا شـادية
ألمّ بهـا دهرهـا قاتـلا   فيا قتـلة لا تفيهـا دية
تظل الـكنانة تبـكى أسىً   عليها ومهجتهـا صادية[3]

مرثية أخرى لخليل مطران[4]

ياآية العصر ، حقيق بنا   تجديدُ ذكراك على الدهرِ
جاهدت لـكنّ النجاح الذى   أدركته أغلى من النصر
بدت تباشير الحيـاة التى   جـدت فخي طلعه الفجر

* * *

(١) تلتها مى فى حفل تأبين السيدات بالجامعة المصرية .
(٢) الحيا : المطر . الغادية : السحابة
(٣) صادية : ظامئة .
(٤) ألقاها فى إحدى حفلات التأبين بمسرح حديقة الأزبكية وقد عطف فيها على ذكرى والدها حفنى ناصف .

قد أثبتت يقظتها للعلى بعدكِ ذاتُ الخدر فى مصر
فبرزت معه ولكنها مابرزت عن أدب الخدر
تعفو عن المخطئ فى حقها حلما وتستعفى من الفكر
مكانها أصبح من زوجها مكان تِمٍّ الشطر بالشطر
لها على الواجب صبر وإن شق ومرت شرعة الصبر
مخايل العزم تَرى وَزْنِها مؤتلقاً فى وجهها النضر
وتلمح العين حلى نفسها أزهى وأبهى من حلى التبر
فى أى عصر كان عرفانها أو خيرها ؟ ما هو فى العصر
قد علمت أن المزايا وإن جَلَلْنَ لايغنين عن طهر
لو جمعت فى نسقٍ بارع كريمةُ الأحجار والدر
ولم تصب نوراً فتبدى به زينتها الخلابة الفكر
ألا يكون الفحم والماس فى منجمه سيين فى القَدْر ؟!

* * *

يامن ذوت فى زهرة العمر ، ما أقسى الردى فى زهرة العمر
إن تبعدى ما بعدت نفحة تركتها من خالص العطر
فى كتب مأثورة كلها كالروضة الدائمة الزهر
ولا نأى عن مسمع القوم ما غَنَّيت من أنشودة بكر
خالدة الترديد فى مصر عن نابغة خالدة الذكر
بشدوها المؤلم فى أسرها أطلقت الطير من الأسر
ما الوزر أن تبدوَ ذات الحلى وسيرها خلو من الوزر ؟
أى كمال وجمال يرى كما يرى فى طالع الزهر ؟
فباسم طلّاب رقىّ الحمى وباسم أهل الخُلُق الحر

أهدى إلى روحك فى عدْنها | أنفس مايهدى من الشكر
ذلك دين لك فى عنقنا | قضاؤه ضربٌ من البر
ومثله أو فوقه ذمــــة | حقت لرب النظم والنثر
لوالدٍ رباك حتى إذا | عوجلت قفاك على الإثْر
هل كنت إلا كوكبا آخذاً | فى أفق العلياء من بدر
فضلك من فضل أبيك الذى | كان أبا الآداب فى القطر
أبرع من جدد فى مرسل | وخير من جدد فى الشعر
قصّرتُ فى إيفائه حقه | تقصير مغلوب على أمرى
وكان من عذر لألى أرجأوا | تأبينه ما كان من عذرى
شلّت يد البين الذى ساءنا | بفقد ذاك العـــالم الحْبر
العامل الثبت الذى إن يفض | فى مبحث حدّث عن البحر
رب المعانى والبيان الذى | علمنا مالم نكن ندرى
الباذل العــلمَ لطـلّابه | بذلاً وما كان من التجر
يثقف النشء على أنه | أعلى منارٍ لأولى الذكر
فى صدره الرفق جميعًا وما | من ريبة فى ذلك الصدر
أخلص شىء لأودّائه | نيته فى السر والجهر
فرحمـــة الله ورضوانه | على فقيدينا إلى الحشر
من والد بر ومن بِضْعَة | طهر أنارا ظلمة القــبر

مرثيـة

هذا نص الخطبة التى ألقاها الأستاذ الفاضل الشيخ مصطفى عبد الرازق السـكرتير العام للمعاهد الدينية ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية ثم وزير الأوقاف ثم شيخ الجـامع الأزهر فيما بعد) فى حفلة تأبين السيدة ملك حفنى ناصف

أيها السادة :

لما توفى المرحوم الأستاذ الشيخ عبد الـكريم سلمان حدثت بعض الفضلاء من أصدقائه فى الاحتفال بتأبينه ، لأن المرحوم كان بقية الرعيل الأول من أدبائنا زعماء الحركة الفـكرية الأولى ، ولأن أخلاقه الطيبة جديرة بأن تذاع فى الناشئين مثلا حسناً . أجاب : « ذلك يفكر فيه كبار صحابة الشيخ أيضا وسيقوم منهم من يتولاه » هنالك قلت فى نفسى : « فنبه لها عمراً ثم نم » .

ولقد فات الوقت ولم يحتفل بتذكار الأستاذ أحد . لم يكن ذلك — أيها السادة — ضعفاً فى العناية بأمر صنو الشيخ محمد عبده ، ولا إهمالاً لما يجب من خدمة الأمة بنشر مكارم أهل الفضل من أبنائها . وإن من بين الذين فـكروا بالأمس فى الاحتفال بتأبين الشيخ عبد الـكريم سلمان من هم اليوم فى طليعة المحتفلين بتذكار فقيدة مصر باحثة البادية .

ذلك بأن هذه الاحتفالات يقصد بها قصداً أولياً إلى تعويد الجماعات أن تعرف الفضل لأهله ، وأن تحفظ لذوى الأثر الطيب فيها من الذكرى الطيبة بعد موتهم ما يشجع الأحياء على أن يحتذوا مثالهم .

ومهما يكن فى قومنا من الضعف فى هذه الناحية ، فإن الأمة المصرية أخذت تقدر الرجال أقدارهم ، وتـكبر النافعين منهم ، وتـكرمهم أحياء وأمواتا ، ولم يبق

إلا فى بعض الأوساط السقيمة ذلك النزوع إلى هدم الرجال الصالحين . ويظهر أن الأجيال النابتة اطمأنت إلى الثقة بأن الأمة لا تسوى بين الطيب والخبيث ، وأن الرجل العظيم النفس الكبير الفعال يسجل اسمه بين العظماء مبجلا محموداً .

وإذا كانت مظاهر تكريمنا لأبطالنا الأموات والأحياء ضعيفة لظروف واعتبارات فإن فى تاريخنا الحديث أبطالا لا يزال قلب البلاد يخفق لذكرهم تحية وإجلالا .

لم تعد الحاجة ماسة إلى أن نعلن إلى رجالنا أن الأمة تقدر العمل الصالح قدره ، وتعطى كل امرىء من الكرامة بمقدار ما يعرف من عظم نفسه وحسن أثره . ولكن النساء المصريات — أيها السادة — هن المحتاجات إلى أن يعرفن أن الرجل يريد أن يعترف لمن عملت منهن خيراً بأنها عملت خيرا ، وهذا الاحتفال بتكريم باحثة البادية الذى لم يسبقه فيما نعلم احتفال بتكريم امرأة فى مصر — هو أول مظاهرة يعلن فيها الرجال « أن المرأة تستطيع بعلمها وعملها أن تكون عظيمة وأن تزاحم الرجال بالمناكب فى ميدان الفخار القومى .

ألا أبلغوا النساء — أيها السادة — أنهن مثلنا ، عليهن فى الحياة فروض ، عليهن شطر العبء فى الآمال المنشودة لهذه الأمة الناهضة .

أبلغوهن — أيها السادة — أننا نكبر المرأة العظيمة منهن كما نكبر الرجل العظيم سواء بسواء .

نفر الناس عندنا بادىء الأمر من الدعوة إلى إصلاح حال المرأة بتعليمها ، وقالوا إن العلم يفسد عليها استعدادها لتأدية فروض الزوجية والقيام بشئون الأمومة ويعلمها حرية ربما لا تحفظ عليها دينها . وقد سارت دعوة الإصلاح فى طريق

نجاحها برغم أعدائها وأثمرت ثمرتها الأولى ، وكانت «باحثة البادية» باكورة ثمراتها فأظهرت لأعداء الإصلاح والرقى أن المرأة المتعلمة تكون فتاة طيبة وزوجة طيبة وتكون فوق ذلك عضواً عاملا نافعاً فى بنية الأمم .

وما كانت الحرية التى يهبها العلم للمرأة المتعلمة إلا تمردا على قيود الاستبداد الظالم وخضوعًا لقيود الفضيلة والدين .

كان صوت «باحثة البادية» قوة لأنصار الإصلاح ، فلما خفت أحست بمكانه البلاد خاليا ــ كان صوت «باحثة البادية» فى إصلاح حال المرأة عندنا أقرب الأصوات إلى قلوب النساء وأقواها تأثيراً .

كانت تريد للمرأة المصرية أن يملأ العلم عقلها ويملأ الإيمان قلبها ، لتغلب بقوة العلم والإيمان كل ما يقف فى سبيل حريتها ورقيها .

كانت باحثة البادية متدينة داعية للإصلاح على المبادئ الدينية السمحة السامية التى تسع حرية العقل ، وتسع كل جديد صالح . تلك أسوة حسنة لنسائنا نرجو أن ينتفع بها رجالنا أيضاً .

رحم الله «باحثة البادية» وخلد فى تاريخ الإصلاح ذكرها الحميد .

رثاء (مى) للباحثة

باحثة البادية — بقلم الآنسة مى[1]

فى منتصف الشهر المنصرم انطفأ نور أضاء سماء مصر زمنا ، وانقطع صوت عذب طالما اهتزت له قلوب الراغبين فى إصلاح حال المرأة الشرقية . فقد فقد العالم العربى نابغة من النابغات النادرات ، عرفها القراء باسم « باحثة البادية » صاحبة «النسائيات» ، وهى كريمة حفنى (بك) ناصف رجل العلم والأدب . فلا غرابة أن يبكيها المصريون والمصريات ولا سيما من خبر بنفسه ماطبعت عليه من السجايا والخلال ككاتبة هذه المرثاة الجميلة .

أكتب اسم باحثة البادية فيتمثل لناظرى ذلك الثغر البسام وذلك الوجه ذو السمرة المصرية العذبة ، وأسمع صوتها الرخيم مردداً كلمات حلوة اللفظ لطيفة المعنى . وأضع يدى على مجموعة « النسائيات » فأشعر بالحياة الفائضة على تلك الفصول ، وما هى إلا توقد النفس المتوهجة بين صفحاتها . كل ما لباحثة البادية مملوء حياة مفيدة نافعة ، فكيف أصدق أن تلك الشعلة النادرة قد خمدت ، وأن ذلك الوجه الوضاح قد اختفى وراء وشاح الردى ؟

كانت عينا باحثة البادية مفعمتين ابتساماً كثغرها . ولكن إذا أنعم المرء النظر فى أعماقهما وجد بعد الغور ، والكآبة المقيمة وراء الابتسام ، مما يرى فى أعين المفكرين وفى أعين المزمعين على الرحيل العاجل ، أولئك الذين

---

(١) نشر فى مجلة « الهلال » .

لا تطول حياتهم أكثر من ورود الربيع فيذهبون تاركين الجو حولهم معطراً بعبير مآثرهم .

إن لباحثة البادية مركزاً فريداً فى الحركة الفكرية عندنا بعد أن قام قاسم أمين يقول بتحرير المرأة وبإعطائها مالها من حقوق أدبية واجتماعية ، قامت «باحثة البادية» تؤيد كلامه مظهرة أهلية المرأة وكرامتها ودرجة الارتقاء العليا التى يمكنها تسنمها . قامت هذه المرأة العبقرية ، ابنة الرجل العبقرى ، تدرس أحوال البيئة المصرية فكان لها من ذكائها الفطرى مرشد أمين ، ومن إحساسها العميق منبه مخلص ، ومن قلمها العربى الصميم أبلغ ترجمان وخير رسول . رأت حاجة قومها إلى الإصلاح فصاحت صيحة ما زال يرن صداها ، وظلت تكتب وتخطب ناشدة الإصلاح . وهى المرأة المسلمة الوحيدة التى فعلت ذلك فى وسط ما زال رجعياً فى ميوله بشجاعة وكفاءة وتفوق ، لم ينل منها انتقاد الناقدين وسخافة المتعصبين .

كانت شديدة الحب لقومها ، شديدة الغيرة على وطنها ، شديدة التألم لما تراه من علامات التأخر والانحطاط فى البيئة المصرية . ومجموع هذه العواطف من حب وغيرة وألم كان يخترق كل ما تكتبه كأنين متواصل ينقلب ساعة الوجع الشديد زئيراً أو عويلا . كذلك يتألم صاحب العقل والقلب الكبير كأنما هو يتألم عن أمة بأسرها .

لما زارتنا المرة الأخيرة كانت ترافقها صويحبة لها . فأخذت هذه تنقر على العود ، وأنشدت «باحثة البادية» بصوتها الشجى هذين البيتين من الموشح الأندلسى المشهور :

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمانَ الوصـل بالأندلسِ

لم يكن وصلك إلا حُلماً   فى الكرى أوخلسة المختلس

وكأنها كانت فى تلك الساعة متنبئة عن نفسها بأن وجودها بيننا ليس إلا حلماً فى الكرى أو خلسة المختلس ، وأنها راحلة عما قريب فى مقتبل العمر ونضارة الشباب !

ولكن موتها ليس فناء . إن أمثال «باحثة البادية» محسنون للجمهور ، وهى محسنة للجنس النسائى خصوصاً فى هذا العصر الذى تخطو فيه المرأة خطوتها الأمامية فى سبيل الارتقاء . نحن فى حاجة شديدة إلى نساء تتجلى فيهن عبقرية الرجال دون أن يفقدن صفاتهن النسائية الجميلة من لطف الإحساس وعذوبة الأخلاق ، والرقة والدعة والاستقامة والإخلاص، كذلك كانت «باحثة البادية» التى برزت شخصيتها فأعلت شأن بنات جنسها ؛ إذ ظهرت كاتبة كبيرة ومصلحة غيورة عاقلة ، وامرأة كريمة وفية ، وصديقة أمينة ، فشغلت فى حياتنا الأدبية وفى حياة المرأة الشرقية عموماً مركزاً سامياً جليلا قلما يبلغه غيرها .

فلئن بكيت اليوم الصديقة الصدوقة والثغر الحلو البسام ، فإنى أحيي المرأة الخالدة بمآثرها وأحنى الرأس أمام المحسنة الغيورة . إن باحثة البادية لم تمت ولا يمكن أن تموت ، وستظل حسناتها باقية ما بقيت لغة القرآن . والشعلة التى توارت اليوم فى ظلمة القبر هى هى التى تطل من سماء الخلود منيرة طريق الارتقاء للمعجبين بها الآسفين عليها .

فالوداع ، أيتها الراحلة الكريمة ! لئن نزل البِلى بيدك الرطبة فإن الخلود نصيب ذكرك وفضلك ! سيرى إلى حيث لا حجاب ولا سفور ، حيث النور

شامل والجمال مقيم ! هناك تحتاطين بأمثالك من الأرواح الكبيرة فى دار هى مقر النبوغ والذكاء ، فأنت حقيقة بسكناها وهى حقيقة بأن تسكنيها .

وأنا التى عرفتك وأحببتك ، مع الدموع التى أذرفها على ذكرك ، تريننى جاثية أمام ضريح ضم جسمك الطاهر لأضع عند جوانبه باقة أزهار تعبر عن شكرنا لك لكن الأزهار تموت ، أما شكرنا فخالد كفضلك .

مى

من مراثى السيدة هدى شعراوى

خطبة الافتتاح فى حفل التأبين بالجامعة المصرية

أيتها السيدات المصونات .

إنه ليعز علىّ أن أراكنّ وافدات إلى دار (الجامعة المصرية)[1] وليست (الباحثة) فى مقدمتكن وهى أول مصرية دفعها النبوغ وساقها النبل والفضل والإخلاص إلى هذه الدار لتلقى عليكن نتائج اختباراتها وخلاصة أفكارها ومعلوماتها للنهوض بكن فى معترك الحياة إلى مدارك النجاح والفلاح شارحة لكن تلك العلل التى تهدد حياتنا القومية وآدابنا الشرقية ، ولم تقتصر معكن أيتها الآنسات على وصف الداء وتشخيصه : بل وقفت بكن على الدواء الناجع لكل داء .

إنه ليعز علينا أن أرانا اليوم مجتمعات لرثاء سيدة فاضلة منحها الله من المواهب ماشاء له كرمه ، وفطرها على مكارم شتى فكانت مثالا للوفاء ، ومحرابا للفضيلة وينبوعاً للعرفان ، وجدير بنا وقد تصدينا لرثائها الآن أن نرثى المروءة والأدب والإخلاص فى شخصها الكريم . فقد كانت مثالا حيا لكل أولئك ، علم الله . إذا كان هناك سبيل للتأسى على فقدها فما هو إلا فى انتهاج الطريق التى مهدته ومراجعة نصائحها صباح مساء . فكأنى بتآليفها وهى تناديكن بصوت جهورى قائلة لكن : على رسلكن أيتها السيدات لاتجزعن فإن « باحثة البادية » لم تمت ، بل أودعتنا شخصها الكريم ونبوغها المتين . فمن شاءت منكن أن تحظى بحضرتها فلتجعلنها سيرتها فى السراء ومرشدتها فى الضراء .

---

(١) الجامعة الأهلية التى تطورت وأصبحت الآن : جامعة القاهرة .

تغمدها الله برحمته وأمطرها من سحائب رضوانه مايليق بكرمه .

إذا كان القيام بالواجب يستوجب شكرا لشكرت لكن شكراً جما ؛ لتفضلكن بتلبية دعوتنا ، لكن لاشكر على واجب ، وإذا كان ولا بد فليكن لرجالنا الذين سبقونا كعادتهم إلى تأبين فقيدتنا وإقامة الحفلات فى أوقاتها ، جزاهم الله عن الوفاء خيراً ووفقنا وإياهم إلى القيام بأسمى الفروض وأجل الواجبات وألهمنا جميعا الصبر وحسن العزاء .

فهرس كتاب

تراث ملك حفنى ناصف

« باحثة البادية »

صفحة

(٣) المقالات

(٤) من المقالات الحماسية

(٥) الشـــعر

(٦) الرسائل

صفحة

(٧) تقاريظ

(٨) المراثى

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع النزهة (ميدان الجيش)

Our Heritage

LITERARY WORKS
OF
Malak Hifni Nassef
„BAHITHAT UL - BADIAH"
1886—1918

Procured And Arranged
By
MAGD UL-DIN HIFNI NASSEF

Iutroduced By

Dr. Saheer El Kalamawi

Ministry of Culture & National Guidance
General Egyptian Organization
For Editing, Translating, Printing And Publishing.

دار القومية العربية للطباعة
تليفون ٨٢٦٢٣٤

الثمن ٣٥,٥